ميلان كونديرا

المزحة

رواية

ترجمة: د. أنطون حمصي

المزحـــة

• ميلان كونديرا
• المزحــة
• ترجمة د. أنطون حمصي

• الطبعة الأولى 1998
• الناشــــــر : ورد للطباعــة والنشــر والتوزيــع
سوريــة ـ دمشق ☎ 3321053
• الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر
• الإشــراف الفني : د. مجد حيدر
• لوحــــة الغلاف : د. أحمد معلّا
• الإخـــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
• التـــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ص.ب: 4490
دار الحصاد: هاتف/فاكس 2126326

عنوان الكتاب الأصلي:

La Plaisanterie

القسم الأول

لودفيك

هكذا وجدت نفسي، بعد سنين عديدة، في مدينتي. لم أكن أحس، وأنا واقف في الميدان الكبير الذي اجتزته ألف مرة، صبياً ثم شاباً، بأي انفعال. وعلى العكس من ذلك، كنت أفكر في أن هذه الساحة التي يشرف برجها (الشبيه بفارس مرتزق تحت خوذته) تذكر بميدان التدريب الواسع لثكنة، وفي أن الماضي العسكري لهذه المدينة المورافية التي كانت، في الماضي، سياجاً ضد غارات المجر والأتراك قد طبع على وجهها وَسْمَةَ قبح لارجوع عنه.

خلال سنوات، لم يجذبني شيء إلى المدينة التي ولدت فيها. كنت أقول لنفسي إني غدوت غير مبال بها، وكان ذلك يبدو لي طبيعياً: فمنذ خمس عشرة سنة أعيش في مكان آخر، ولم يبق لي، هنا، سوى بعض المعارف، بل بعض الرفاق (الذين أفضّل، فوق ذلك، أن أتجنبهم). وأمي مدفونة في قبر غريب لا أهتم به. ولكني كنت أخدع نفسي: فما كنت أسميه لامبالاة كان، في الواقع، ضغينة تغيب عني أسبابها لأن أموراً جيدة وسيئة حدثت لي في هذه المدينة، كما في كل المدن الأخرى. ولكن هذه الضغينة كانت هنا. لقد وعيتها بمناسبة سفرتي: فبعد كل شيء، كان في إمكاني أن أنجز المهمة التي قادتني إلى هنا في براغ. ولكني وجدت نفسي مجذوباً، فجأة، بصورة لاتقاوم، إلى الفرصة التي توافرت لإنجازها في مدينتي، وذلك، على وجه الضبط، لأن الأمر كان يدور حول مهمة كلبية ومبتذلة كانت تبرئني، بسخرية، من الاشتباه بكوني أعود إلى هنا بتأثير حنين باهت إلى الزمن المفقود.

ومرة أخرى مسحت، بعين ساخرة، الميدان القبيح قبل أن أدير له ظهري لأسلك الطريق إلى الفندق الذي حجزت فيه غرفتي. مدَّ لي البواب مفتاحاً بإجاصة من خشب قائلاً: «الطابق الثاني». لم تكن الغرفة مغرية جداً: سرير ملتصق بالجدار، وفي الوسط طاولة

صغيرة مع كرسي واحد، وإلى جانب السرير طاولة زينة مدعية من الأكاجو بمرآة، وبقرب الباب مغسلة متشققة صغيرة صغراً مطلقاً. وضعت حافظتي على الطاولة وفتحت النافذة: كانت تطل على باحة وعلى بيوت تدير ظهرها العاري والقذر للفندق. أغلقت النافذة وأسدلت الستائر واقتربت من المغسلة التي كانت تتضمن صنبورين أُشِّر على أحدهما بالأحمر، وعلى الآخر بالأزرق. جربتهما، فسال الماء بارداً من كليهما. فحصت الطاولة التي كانت، في أحسن الأحوال، تتسع لزجاجة وكأسين تجد، عليها، مكاناً جيداً جداً. ولسوء الحظ، فإن شخص واحد يستطيع الجلوس إليها لعدم وجود كرسي ثانٍ في الغرفة. وبعد أن دفعت الطاولة نحو السرير، حاولت أن أجلس على هذا الأخير، ولكنه كان مفرط الانخفاض، في حين أن الطاولة مفرطة الارتفاع. وفوق ذلك، كان يغوص تحتي إلى درجة سرعان ما غدا، معها، بديهياً أن الأمر لايقتصر على كونه لايمكن أن يصلح لاستخدامه مقعداً إلا بصورة غير مريحة، بل إنه سيقوم أيضاً، بصورة مريبة، بأداء وظيفته كسرير. استندت إليه بقبضتيَ، ثم تمددت عليه، بعد ذلك، رافعاً بعناية، قدمي المحتذيتين لأتجنب توسيخ الغطاء والدثار. وبما أن الفراش قد غار تحت ثقلي، فقد تمددت عليه كما لو كنت في أرجوحة أو في قبر ضيق: فلم يكن ممكناً تخيل شخص آخر يشاركني هذا السرير.

جلست على الكرسي تائه النظرة نحو الستائر التي أضاءتها شفافيتها وفكرت. في هذه اللحظة، سمعت خطوات وأصوات من الردهة. كان شخصان، رجل وامرأة، يثرثران، وبدت أقوالهما مفهومة: فقد كانا يتحدثان عن شخص يدعى بيتر هرب من بيته وعن عمة تدعى كلارا كانت بلهاء وتفسد الصغير. ثم سُمع صوت مفتاح يدور في القفل وباب يُفتح والصوتان اللذان كانا مستمرين في الغرفة المجاورة. وسمعت تنهدات المرأة (نعم! التنهدات نفسها كانت تصلني) وقرار الرجل بأن يقول، مرة أخيرة، كلمتين لكلارا.

نهضتُ وقد اتخذتُ قراري. غسلتُ يدي، مرة أخرى، على

المغسلة ونشفتهما بالمنشفة وغادرت الفندق دون أن أعرف، حقاً، في البدء، إلى أين سأمضي بالضبط. كنت أعلم، ببساطة، أني إذا كنت لاأريد أن أعرض للخطر نجاح كل سفرتي (سفرة عظيمة الطول والمشقة) بسبب عدم كمال غرفتي في الفندق، وحده، فيجب أن ألجأ، بتكتم، إلى صديق من هنا على الرغم من أني لا أرغب أدنى رغبة في ذلك. استعرضت، بسرعة، كل وجوه زمن شبابي، ولكن ذلك كان لأستبعدها فوراً لأن الطابع السري للخدمة المطلوبة قد يفرض عليّ الالتزام بإقامة جسر متكلف فوق السنوات العديدة التي لم أكن قد رأيتها خلالها ـ وكان ذلك يسوؤني. ثم تذكرت أنه كان يعيش دون شك هنا رجل كنت، هنا بالذات، قد تدبرت له في الماضي عملاً وسوف يسعده جداً، كما أعرفه، أن يسدي إلي خدمة بدوره. كان كائناً غريباً متصفاً بأخلاقية متعالية، وفي الوقت نفسه قلقاً وعديم الاستقرار بصورة طريفة، طلّقته، على حد علمي، زوجته منذ سنوات لسبب بسيط هو أنه كان يعيش في أي مكان شريطة ألّا يكون ذلك معها هي وابنهما. وكنت أرتعش، الآن، لدى التفكير في أنه قد يكون متزوجاً من جديد، وهو ظرف من شأنه أن يعقد تحقيق طلبي، وحثثت الخطى في اتجاه المستشفى.

كان هذا المستشفى مجموعة أبنية وأجنحة مزروعة هنا وهناك، على مساحة واسعة من الحدائق. دخلت إلى المحرس الذي يجاور البوابة ورجوت البواب الجالس وراء طاولة أن يصلني بقسم الجراثيم. دفع بجهاز الهاتف إلى طرف الطاولة القريب مني وقال: «صفر، اثنان!». شكلت الرقمين لأعلم أن الدكتور كوستكا رحل منذ بضع ثوان وأنه في طريقه إلى باب الخروج. جلست على مقعد قريب من الباب الكبير لأطمئن إلى أنه لن تفوتني رؤيته، ورحت أنظر بشرود إلى الرجال العابرين من هنا بأردية المستشفى المخططة بأقلام زرقاء وبيضاء، ثم رأيته: كان قادماً حالماً، طويلاً، نحيلاً، لطيفاً في بساطة مظهره. نعم! لقد كان هو حقاً. نهضت من على المقعد وسرت، مباشرة، إلى ملاقاته كما لو كنت أريد أن أصدمه.

رمقني بنظرة مستاءة، ولكنه سرعان ما عرفني وفتح ذراعيه. أحسست أن مفاجأته كانت شبه سعيدة، وسحرتني عفوية استقباله.

شرحت له أني وصلت منذ أقل من ساعة لشأن لا أهمية له قد يحتجزني هنا حوالى يومين، فأبدى، على الفور، دهشة فرحة لأن زيارتي الأولى كانت له. بدا لي، فجأة، بغيضاً ألّا أكون قد جئت لألقاه بروح منزّهة عن الغرض، من أجله هو، ولكون السؤال الذي طرحته عليه (سألته، بمرح، ما إذا كان قد تزوج ثانية) بدا يعكس اهتماماً صادقاً، في حين أنه كان ناجماً، في الحقيقة، عن حساب خسيس. قال لي (وهو ما سرني) أنه مازال وحيداً. وأعلنت أن لدينا أشياء كثيرة نرويها لبعضنا. وافق على ذلك وأبدى أسفه لأنه ليس لديه سوى أكثر من ساعة بقليل نظراً لأنه مازال ينبغي عليه أن يعود إلى المستشفى وأن يستقل، مساءً، سيارة لمغادرة المدينة. قلت مذعوراً: «ألم تعد تسكن هنا؟». فطمأنني إلى أنه يسكن ستوديو في بناء حديث ولكن«من الشاق أن يعيش المرء وحيداً». وبدا أن لكوستكا، في مدينة أخرى تبعد عشرين كيلومتراً، خطيبة، معلمة، لديها، هي نفسها، شقة بغرفتين. سألته قائلاً: «هل ستقيم معها فيما بعد؟». قال إنه سيصعب عليه أن يجد، في مكان آخر، عملاً في أهمية ذاك الذي حصلت له عليه وأنه سيصعب، بالمقابل، على خطيبته أن تجد عملاً هنا. أخذت أندد (عن طيب خاطر) بتباطؤات البيروقراطية غير القادرة على تسهيل الأمور من أجل أن يستطيع رجل وامرأة أن يعيشا مجتمعين. ولكنه قال لي بتسامح عذب: «اطمئن يالودفيك، ليس الأمر، مع ذلك، على هذه الدرجة من صعوبة تحمله! السفر يكلفني، بالتأكيد، مالاً ووقتاً، ولكن وحدتي تبقى مصانة، وأنا حر». سألته قائلاً: «لماذا تحتاج إلى حريتك حتى هذا الحد؟». قال: «وأنت». أجبت: «أنا أسعى وراء الفتيات» قال: «ليس من أجل النساء أريد حريتي، بل من أجلي أنا». وأضاف: «اسمع! تعال، لبرهة، إلى بيتي قبل أن أرحل». لم أكن أطلب غير ذلك.

ما إن خرجنا من حرم المستشفى حتى وصلنا إلى مجموعة من

الأبنية الجديدة التي كانت، الواحد منها بعد الآخر، تنبجس دون تناغم، من أرض مغبرة غير مسواة (دون عشب، دون أرصفة، دون طرقات) وتشكل ديكوراً حزيناً على أطراف حقول واسعة ومنبسطة تمتد إلى بعيد. اجتزنا باباً، صعدنا درجاً مفرط الضيق (المصعد لم يكن يعمل) وتوقفنا في الطابق الثالث حيث تعرفت على اسم كوستكا على بطاقة زيارة. وعندما اجتزنا المدخل وصرنا في الغرفة، كنت أكثر من راضٍ: كانت أريكة واسعة ومريحة تحتل زاوية، وفضلاً عن الأريكة، هناك طاولة صغيرة ومقعد ومكتبة كبيرة وحاكٍ ومذياع.

أثنيت لكوستكا على غرفته وسألته عن حال الحمام. قال، وقد سره الاهتمام الذي كنت أبديه: «لاشيء مترف فيه». ومضى بي إلى المدخل حيث ينفتح باب الحمام الذي كان صغيراً، ولكنه لطيف جداً، بمغطس ودوش ومغسلة. قلت: «عندما أرى هذه الشقة الرائعة، تخطر لي فكرة. ما الذي ستفعله غداً، بعد الظهر ومساءً؟» اعتذر بارتباك، قائلاً: «للأسف، سوف يكون أمامي، غداً، يوم عمل طويل، فلن أعود قبل حوالى السابعة. ألن تكون حراً مساءً؟». أجبت: «ربما توافرت لي أمسية حرة، ولكن أتستطيع، قبل ذلك أن تعيرني شقتك لفترة بعد الظهر؟».

أدهشه سؤالي، ولكنه قال لي على الفور (كما لو كان يخشى أن أشتبه بعدم تعجله للمبادرة): «عن طيب خاطر! إنها لك». وتابع، كما لو أنه يجتهد في رفض البحث عن دوافع طلبي: «إذا كانت لديك صعوبات في السكنى فإنك تستطيع أن تنام هنا منذ اليوم لأني لن أعود حتى صباح الغد، بل إني لن أعود ما دمت سأمضي، مباشرة، إلى المستشفى. ـ كلا! لا جدوى من ذلك. أنا في الفندق. والأمر هو أن غرفتي غير مضيافة إلى حد كافٍ، وسوف أحتاج بعد ظهر غد، إلى إطارٍ لطيفٍ. وليس ذلك، بداهة، من أجل أن أكون، فيه وحدي. ـ قال كوستكا خافضاً رأسه قليلاً: نعم! خمنت ذلك». وقال، بعد لحظة: «يسعدني أن أستطيع صنع ماهو خير لك». ثم أضاف قائلاً: «وذلك، بالطبع، على فرض أنه خير حقاً».

جلسنا، بعد ذلك، حول الطاولة الصغيرة (كان كوستكا قد حضّر قهوة) وثرثرنا قليلاً (لمست مسروراً، وأنا جالس على الأريكة، أنها ثابتة، فلم تكن تنسحق ولا تئن). وأعلن كوستكا، بعد قليل، أن عليه العودة إلى المستشفى. ولذلك سارع إلى إطلاعي على بعض الأسرار المنزلية: يجب الضغط بقوة عند إغلاق صنبور المغطس، الماء الحار يسيل، على عكس كل العادات، من الصنبور الذي كتب عليه حرف «ب»، مأخذ التيار الكهربائي من أجل الحاكي مخفي تحت الأريكة وهناك، في الخزانة الصغيرة، زجاجة فودكا فتحت منذ قليل. ثم سلمني رزمة للمفاتيح فيها مفتاحان وأراني مفتاح باب البناية ومفتاح الستوديو. وبما أني نمت، خلال حياتي، في أسرّة لاتحصى، فقد بنيت عبادة خاصة للمفاتيح، فدسست، إذن، هذين المفتاحين في جيبي بابتهاج صامت.

عبّر كوستكا، وهو راحل، عن تمنيه أن توفر لي شقته «شيئاً جميلاً حقاً». قلت له: «نعم! سوف تسمح لي بإجراء تخريب جميل». قال كوستكا: «هل تعتقد أن التخريبات يمكن أن تكون جميلة؟». وابتسمت، أنا، في سريرتي لأني تعرفت عليه، عبر هذا السؤال (المطروح بنعومة، ولكنه مبني قتالياً)، كما كان تماماً (لطيفاً ومضحكاً معاً) عند لقائنا الأول منذ خمس عشرة سنة. ورددت عليه قائلاً: «أعلم أنك عامل مسالم في الورشة الإلهية الخالدة وأن سماعك الحديث عن تخريبات يزعجك، ولكن ماذا في وسعي أن افعل: لست، من جهتي، صبياً معمارياً عند الله. وفضلاً عن ذلك فإن معماريي الله المتمرنين يشيدون، في هذا العالم أبنية بجدران حقيقية، واحتمالات أن توقع تخريباتنا الأذى فيها، قليلة. إلا أنه يبدو لي أني لاأرى، في كل مكان، سوى ديكورات بدلاً من الجدران. وتخريب الديكورات عمل عادل تماماً».

كنا في النقطة التي افترقنا عندها آخر مرة (قبل تسع سنوات على وجه الاحتمال). وكان خلافنا يتخذ، هذه المرة، شكلاً مجازياً لأننا كنا نعرف أساسه جيداً، ولم تكن نحس بضرورة العودة إليه.

كنا، فقط، في حاجة إلى أن يكرر أحدنا للآخر أننا لم نتغير وأننا مازلنا، نحن الاثنين، كما كنا من الاختلاف أحدنا عن الثاني (ومن هذه الناحية، يجب أن أقول بأنني كنت أحب هذا الافتراق عني لدى كوستكا ولعلني، لهذا السبب، أستمتع بالمناقشة معه فقد كنت أستطيع دائماً عبر ذلك، أن أتحقق مما أنا عليه فعلاً، ومما أفكر فيه). فمن أجل أن ينتزع، إذن، مني كل شك في موضوعه، رد عليّ قائلاً: «ما أتيت على قوله يبدو جيداً. ولكن قل لي: من أين تحصل، وأنت الريبي، على الاطمئنان الذي يجعلك تميز بين الديكور والجدار؟ ألم يحدث لك، قط، أن ارتبت في أن الأوهام التي تسخر منها قد لاتكون حقاً أوهاماً؟ وماذا لو كنت مخطئاً؟ وماذا لو كانت قيماً وكنت أنت مخرب قيم؟» ثم قال: «إن للقيمة المشوشة والوهم الذي أزيل القناع عنه الجسدَ نفسه الداعي للرثاء، إنهما متشابهان ولاشيء أسهل من الخلط بينهما».

بينما كنت أرافق كوستكا في عودته إلى المستشفى، في الطرف الآخر من المدينة، كنت ألعب بالمفتاحين في قعر جيبي، وأحس بالارتياح إلى جانب الصديق القديم الذي كان قادراً على محاولة اقناعي بحقيقته في أي وقت وأي مكان، بل الآن ونحن نعبر أرض الأحياء الجديدة الوعرة. كان كوستكا يعرف، بالطبع، أنه ستكون لدينا كل أمسية الغد، ولذلك سرعان ما تخلى عن الفلسفة لينتقل إلى الشؤون العادية مقتنعاً، من جديد، بأني سأنتظره في بيته، عندما سيعود في الساعة السابعة (لم تكن لديه، هو نفسه، رزمة مفاتيح أخرى)، وسائلاً إياي عما إذا لم أعد حقاً في حاجة إلى شيء. مررت بيدي على وجهي وقلت إنه بقي علي أن أمضي إلى الحلّاق نظراً لأن لدي ذقناً غير مرغوب فيها. قال كوستكا: «حسن جداً! سوف أحصل لك على حِلاقة موصى بها».

لم أرفض خدمة كوستكا وتركته يقودني إلى صالون صغير زُرعت، فيه، أمام ثلاث مرايا، ثلاثة مقاعد دوارة احتل اثنين منها رجلان أحنيا رأسيهما وغُطِّي وجهاهما بالرغوة. كانت امرأتان

بقميصين أبيضين منحنيتين عليهما. اقترب كوستكا من إحداهما وهمس في أذنها شيئاً. مسحت المرأة موسى الحلاقة بمنشفة ونادت في مؤخرة الدكان: خرجت منها فتاة بقميص أبيض لتعتني بالسيد المهجور في مقعده، في حين توجهت إليّ المرأة التي تحدث إليها كوستكا بإحناءة قصيرة لرأسها ودعتني، بإشارة من يدها، إلى الجلوس على المقعد الشاغر. تبادلنا، كوستكا وأنا، الوداع متصافحين، وجلست مسنود الرأس إلى الوسادة الصغيرة التي كانت تُستخدم مسنداً. وبما أني لم أكن، منذ سنوات عديدة، أحب النظر إلى وجهي، فقد تهربت من المرآة الموضوعة أمامي ورفعت عينيّ وتركتهما تتيهان بين بقع السقف المبيض بالكلس.

احتفظت بعينيّ على السقف حتى عندما أحسست، على عنقي، بأصابع الحلاّقة التي كانت تدس طرف منشفة بيضاء تحت ياقة قميصي. ثم ابتعدت المرأة خطوة، ولم أعد أسمع سوى روحات الموسى وغدواته على جلد المسن، وتسمرت في نوع من الجمود المطمئن المليء بلامبالاة سعيدة. وبعد قليل، أحسست، على خدي، بالأصابع الندية تضع، بطلاوة، المعجون على بشرتي وتنبهت إلى هذا الأمر الفريد وغير اللائق: مجهولة ليست شيئاً بالنسبة إلي ولست، كذلك، شيئاً بالنسبة إليها تلامسني بعذوبة. وبعد ذلك، أخذت الحلاّقة تمدد، بوساطة فرشاة، الصابون وبدا لي أني ربما لم أكن جالساً وأني كنت، ببساطة، أسبح في الفضاء الأبيض المزروع بالبقع. وعند ذلك تخيلت نفسي (لأن الأفكار لاتوقف ألعابها حتى في برهات الراحة) ضحية دون دفاع، مستسلماً، كلياً، للمرأة التي كانت قد شحذت الموسى. وبما أن جسدي كان ينحل في الفضاء، وأني لم أكن أدرك سوى وجهي الذي تلمسه الأصابع، فقد تخيلت، دون مشقة، أن يديها العذبتين تمسكان برأسي (تجعلانه يدور، تلامسانه) كما لو لم تكونا تربطانه أبداً بجسم، بل تعاملانه في ذاته فقط، بحيث لم يعد على الشفرة القاطعة التي كانت تنتظر على الطاولة الصغيرة المجاورة سوى أن تنجز هذا الاستقلال الجميل لرأسي.

ثم توقفت الملامسات، وسمعت الحلاّقة تبتعد من أجل أن تمسك حقاً، هذه المرة، الموسى. قلت لنفسي، في هذه اللحظات (لأن الأفكار كانت تتابع ألعابها) بأن عليّ رؤية ماكان عليه، بالضبط، مظهر سيدة رأسي (رافعته)، مظهر قاتلتي الحنون. نزعت عينيّ من على السقف ونظرت في المرآة. ذُهلت: فاللعبة التي كنت أتسلى بها اتخذت، فجأة، حدوداً غريبة الواقعية، بدا لي أني كنت أعرف هذه المرأة المنحنية عليّ في المرآة.

كانت تمسك بشحمة أذني بيد، وتكشط بعناية رغوة الصابون من على وجهي باليد الأخرى. راقبتها، وكانت هويتها التي أدركتها منذ لحظة بدهشة، تتفتت ببطء وتزول. ثم انحنت فوق المغسلة، وبإصبعين أسقطت من الموسى رزمة من الرغوة، وعادت إلى الانتصاب وأدارت المقعد دورة خفيفة. وعند ذلك تلاقت نظراتنا خلال ثانية، ومن جديد بدا لي أنها هي. كان هذا الوجه، بالتأكيد، مختلفاً قليلاً، كما لو أنه وجه شقيقتها الكبرى، وأصبح رمادياً، ذاوياً، هزيلاً بعض الشيء. ولكن خمس عشرة سنة مرت على رؤيتي إياها للمرة الأخيرة! وخلال هذا الفترة كان الزمن قد طبع على سماتها الحقيقية قناعاً خدّاعاً، ولكن كان لهذا القناع، لحسن الحظ، فتحتان كانت عيناها تستطيعان، من خلالهما، أن تنظرا إليّ واقعيتين وحقيقيتين كما كنت قد عرفتهما.

ولكن ضياعاً جديداً للأثر حدث بعد ذلك: فقد دخل زبون جديد إلى الصالون وجلس وراء ظهري، على كرسي، ينتظر دوره. وسرعان ما توجه بالحديث إلى حلاّقتي محاضِراً حول الصيف الرائع والمسبح الذي يُبنى على حدود المدينة. وكانت الحلاّقة تجيب (كنت أسجل صوتها أكثر من أقوالها، وهي، فوق ذلك، عديمة المعنى) وتبينت أني لم أكن أتعرف على صوتها. فقد كانت نغمته خفيفة، مجردة من القلق، مبتذلة تقريباً. كان صوتاً غريباً عني كل الغرابة.

كانت، الآن، تغسل وجهي الذي تضغط عليه بين راحتيها،

وعدت (على الرغم من الصوت) إلى ظني بأنها هي حقاً، وأنني مازلت أحس، بعد خمس عشرة سنة، بملامسة يديها على وجهي، وهي تداعبني من جديد، تداعبني مطولاً بحنان (نسيت، تماماً، أنها لم تكن مداعبات بل عملية غسل). إلا أن صوتها الغريب لم يتوقف عن الرد بما لا أدري على ثرثرة الشخص المتزايدة، ولكني كنت أرفض تصديق الصوت، راغباً بالأحرى، أن أصدق يديها. كنت أصر على التعرف عليها من يديها، وباذلاً جهدي لأميز، من عذوبة لمستها، ما إذا كانت هي، وما إذا كانت قد عرفتني.

ثم أخذت منشفة وجففت خدي. وقهقه الثرثار، بصخب، لنكتة أتى على روايتها ولاحظت أن حلّاقتي لم تضحك وأنها، إذن، لم تكن تعير، دون شك، كبير انتباه إلى ماكان يقوله الشخص لها. وبعث ذلك فيّ الاضطراب فقد كنت أرى فيه البرهان على أنها تعرفت عليّ، وأنها كانت تحس باضطراب مسيطر عليه. قررت أن أكلمها عقب مغادرة مقعدي. حررتني من المنشفة التي كانت حول عنقي. نهضتُ وأخذتُ ورقة بخمسة كورونات من الجيب الداخلي لسترتي. كنت أنتظر لقاءً جديداً لنظراتنا لأستطيع أن أوجه إليها الكلام منادياً إياها باسمها (كان الشخص يتابع ثرثرته)، ولكنها أدارت رأسها بلامبالاة وأخذت النقود بحركة مقتضبة، لاشخصية، بحيث أحسست فجأة بشعور مجنون صدَّق سراباته ولم أجد، إطلاقاً، الشجاعة على أن أقول لها كلمة واحدة.

خرجت من الصالون بعدم رضى غريب. كل ماكنت أعلمه هو أني لم أكن أعلم شيئاً وأن التردد حول هوية وجه أحببته إلى هذا الحد، في الماضي، كان حماقة هائلة.

وبالطبع، لم يكن صعباً أن أعرف الحقيقة، مضيت بعجلة إلى فندقي (في الطريق لاحظت على الرصيف المقابل، صديقاً قديماً من أيام شبابي، جاروسلاف، قائد أوركسترا بسنبالوم، ولكني أشحت بنظري بسرعة، كما لو كنت قد هربت من الموسيقى اللاذعة والفائقة القوة)، ومن هناك هتفت إلى كوستكا. كان مايزال في المستشفى:

ـ قل لي! هذه الحلاّقة التي عهدت بي إليها، هل تدعى لوسي سيبتكوفا؟

قال كوستكا:

ـ إنها تحمل اليوم اسماً آخر، ولكنها هي حقاً. كيف اتفق أنك كنت تعرفها؟

أجبت:

ـ هذا يعود إلى زمن مخيف في بعده.

ودون أن أفكر حتى في الغداء، غادرت الفندق وكان الليل قد حل، فعلاً، لأهيم على وجهي أيضاً.

القسـم الثاني

هيلينا

1

هذا المساء سأمضي إلى النوم باكراً، لاأدري إذا كنت سأستطيع النوم، ولكني سأذهب للنوم مبكرة. لقد سافر باڤيل، بعد ظهر هذا اليوم إلى براتيسلافا، وأنا سأسافر في ساعة مبكرة من الغد إلى برنو، بالطائرة، ثم من هناك بالسيارة. ستبقى صغيرتي زدينا وحدها في البيت يومين. إن ذلك لن يزعجها لأنها لاتتمسك، أبداً، بصحبتنا، أو بصحبتي أنا، على الأقل. فهي تعبد باڤيل، وباڤيل معبودها الذكر الأول. يجب أن أعترف بأنه يعرف كيف يتصرف معها، كما عرف دائماً، مع كل النساء بمن فيهن أنا. وسيبقى صحيحاً أنه، في هذا الأسبوع، عاد إلى التصرف معي كما في السابق. ربت على وجهي ووعدني بأنه سيمر لأخذي من مورافيا لدى عودته من براتيسلافا. ويجب، على حد قوله، أن نعود إلى تبادل الحديث. ربما توصل، في ذاته، إلى الاعتراف بأن الأمور لايمكن أن تستمر هكذا، وربما كان يريد أن يعود كل شيء بيننا كما كان قبلاً. ولكن، لماذا يفكر في ذلك متأخراً إلى هذا الحد، الآن وقد التقيت لودفيك؟ أنا قلقة تماماً من جراء ذلك. إلا أنه لاينبغي أن أكون حزينة. يجب «ألّا يكون الحزن أبداً مرتبطاً باسمي». عبارة فوسيك هذه شعاري. ففوسيك لم يكن حزيناً حتى وهم يعذبونه، حتى تحت المشنقة. ولايهمني أن موضة الفرح قد انقضت الآن. أنا بلهاء، هذا ممكن، ولكن الآخرين ليسوا أقل بلاهة برييتهم الاجتماعية. لاأرى لماذا يجب أن أتخلى عن حماقتي لأتبنى حماقتهم. لاأريد أن أقطع حياتي إلى شطرين. أريد أن تكون حياتي، أنا، متصلة من طرف إلى الآخر. ومن أجل ذلك أعجبني لودفيك. لست في حاجة، عندما أكون معه، إلى أن أغير مُثلي وأذواقي. إنه رجل عادي، بسيط، واضح. وهذا ما أحبه، ما أحببته دائماً.

لاأخجل من أن أكون كما أنا. لاأستطيع أن أكون مختلفة ع

تلك التي كنتها دائماً. حتى السنة الثامنة عشرة من عمري لم أعرف سوى الشقة المرتبة جيداً، شقة البورجوازية الريفية الرصينة جداً. أما الدراسة، الحياة الواقعية، فقد كانت تجري ماوراء سبعة جدران. وعندما وصلت بعد ذلك إلى براغ، عام تسعة وأربعين، كانت المعجزة، سعادة من العنف بحيث لن أنساها قط. ومن أجل هذا، على وجه الدقة، مازلت عاجزة عن محو باڤيل من روحي. لاأستطيع ذلك حتى ولو لم أعد أحبه، حتى لو كان قد آلمني. فباڤيل شبابي، براغ، الكلية، المدينة الجامعية، وخاصة فرقة فوسيك الشهيرة للغناء والرقص، وهي فرقة طلابية. لم يعد أحد يعرف، الآن، ماكان ذلك يمثل بالنسبة إلينا. هناك عرفت باڤيل: كان تينور وكنت كونترالتو. لقد اشتركنا في مئات الحفلات والاجتماعات الترفيهية منشدين أغانٍ سوفياتية، أغانٍ سياسية من بلدنا، وبالتأكيد أغنيات شعبية. كانت هذه الأخيرة موضع تفضيلنا، كنت آنذاك مشغوفة بأنغام مورافيا إلى حد كنت معه، أنا ابنة بوهيميا، أحس بنفسي مورافية. جعلت من هذه الأغنيات لازمة حياتي. إنها تمتزج، بالنسبة إلي، مع ذلك العهد، مع سنوات شبابي، مع باڤيل. وأنا أسمعها في كل مرة تشرق فيها الشمس من أجلي، أسمعها في هذه الأيام.

قد لاأستطيع اليوم أن أقول لأحد كيف تعلقت، في البداية، بباڤيل. إن ذلك يشبه الأدب السيء. حدث ذلك في يوم احتفال بالتحرير. كان هناك اجتماع كبير في ميدان المدينة القديمة. وكانت فرقتنا، هي الأخرى، جزءاً من العيد. كنا نمضي إلى كل مكان جماعة، شرذمة صغيرة بين عشرات الألوف من الناس. وكان على المنبر، رجال دولتنا، وكذلك أجانب، وكثير من الخطابات وكثير من الهتافات. ثم اقترب توغلياتي بدوره من الميكروفون من أجل خطبة قصيرة بالإيطالية. وكما هو الأمر دائماً، رد الميدان بالصيحات، بالتصفيق، بترديد شعارات، وبالمصادفة كان باڤيل إلى جانبي في هذا الصخب الهائل. وسمعته يصرخ، وحده، بشيء ما في هذه العاصفة، بشيء خاص. نظرت إلى فمه وفهمت أنه يغني، يصرخ

أكثر مما يغني. كان يريد أن نسمعه وأن تنضم إليه. إنه يشدو بنشيد ثوري إيطالي من بين محفوظاتنا، وكان شعبياً جداً في ذلك العهد: إلى الأمام أيها الشعب، إلى الهجوم، الرايات الحمراء، الرايات الحمراء...

كان ذلك هو تماماً. لم يكن يكتفي أبداً بالتوجه إلى العقل، بل يريد أن يصل إلى المشاعر. وجدت أن من الرائع أن نحيي قائداً عمالياً إيطالياً بإنشاد أغنية ثورية من بلاده من أجله. تمنيت أن يتأثر توغلياتي كما كنت أنا متأثرة مقدماً. وبكل قوتي، انضممت إلى باڤيل، ثم انضم إلينا آخرون وآخرون أيضاً. وفي النهاية، كانت فرقتنا، كاملة، تصرخ بهذا النشيد. ولكن صخب الميدان كان قوياً إلى حد مخيف، ولسنا سوى حفنة، كنا خمسين وهم كانوا خمسين ألفاً على الأقل: أكثرية ساحقة، معركة يائسة. خيل إلينا خلال المقطع الأول كلّه أننا سوف نخسر المعركة بل وأن أحداً لن يدرك أننا كنا نغني. وعند ذلك وقعت المعجزة. وشيئاً فشيئاً كانت أصوات أخرى تنضم إلينا متزايدة العدد. بدأ الناس يفهمون، وببطء كان النشيد يبرز من خلال الجلبة الكبيرة في الساحة كما تخرج فراشة من شرنقة عملاقة ومزمجرة. وأخيراً طارت هذه الفراشة، هذه الأنشودة، في مقاطعها الأخيرة على الأقل حتى المنبر، وكنا نحدق بنهم في سمات الإيطالي الأشيب مغمورين فرحاً حين خيل إلينا أنه كان يستجيب، بحركة من يده، للأغنية. وكنت أنا متأكدة من أني رأيت دموعاً في عينيه.

وعبْرَ هذه الحماسة وذلك الانفعال، لاأدري كيف أمسكت بيد باڤيل، وأمسك باڤيل بدوره بيدي. وعندما عاد الهدوء إلى الميدان ووقف خطيب جديد أمام الميكروفون، خفت أن يترك يدي، ولكنه احتفظ بها، وتابعنا هذا الإمساك باليد حتى نهاية الاجتماع ولم يترك أحدنا يد الآخر حتى بعد التفرق، وتنزهنا عبر براغ المزدانة بالزهور.

وبعد سبع سنوات، كان عمر الصغيرة زدينا خمس سنوات. لن

أنسى ذلك أبداً: لقد قال لي «نحن لم نتزوج عن حب، بل عن انضباط حزبي». أعلم جيداً أننا كنا إذ ذاك نتخاصم، وعبارته كانت أكذوبة، وأن باڤيل تزوجني عن حب، وأنه لم يتغير إلا فيما بعد. ولكن من البشع مع ذلك أن يكون قد استطاع أن يقول لي هذا، وهو الذي لم يتوقف قط عن البرهنة على أن حب اليوم شيء مختلف، وأنه ليس هرباً بعيداً عن الناس، وأنه تشجيع في المعركة. وفوق ذلك، فهكذا كنا نعيش هذا الحب. لم يكن لدينا، ظهراً، الوقت حتى لتناول طعام الغداء، فكنا نكتفي بابتلاع قطعتين من البسكويت في سكرتارية اتحاد الشبيبة. وبعد هذا، كنا نبقى أحياناً حتى نهاية اليوم دون أن يرى أحدنا الآخر. كنت أنتظر باڤيل حوالى منتصف الليل عندما يعود من اجتماعاته التي لاتنتهي والتي كانت تدوم مابين ست وثماني ساعات. وفي أوقات فراغي، كنت أنسخ له التقارير التي يقدمها لكل أنواع الاجتماعات ودورات التدريب. كانت لهذه النصوص، في نظره، أهمية قصوى. وكنت وحدي أعرف الأهمية التي يعلقها على نجاح مداخلاته السياسية. كان يكرر، مئة مرة، في خطاباته بأن الإنسان الجديد يختلف عن القديم من حيث أنه شطب الطلاق بين الخاص والعام، وها هو يأخذ عليّ، اليوم، بعد سنوات، كون الرفاق لم يحترموا آنذاك حياته الخاصة.

كنا نتعاشر منذ مايقرب من سنتين عندما بدأت أشعر بشيء من نفاد الصبر. ولاعجب في ذلك، فما من امرأة تريد الاكتفاء بمجرد غرام طلبة. أما باڤيل فكان يكتفي بذلك لاعتياده على هذا الرخاء دون التزام. كل رجل أناني قليلاً، ويعود إلى المرأة أن تدافع عن رسالتها كامرأة وتصونها. كان باڤيل، لسوء الحظ، لايفهم هذا الأمر بقدر ماكان يفهمه الرفاق في الفرقة الذين استدعوه أمام اللجنة. أجهل ما قيل له هناك. ومن المحتمل أنهم لم يكونوا متحفظين معه لأنهم كانوا صارمين في ذلك الزمان. صحيح أنهم كانوا يمضون إلى أبعد مما ينبغي، ولكن الأخلاقية المغالية أفضل من عدم وجود مايكفي منها، كما هو الأمر الآن. تجنبني باڤيل خلال وقت لابأس

به. كنت أفكر في أنّي أفسدت كل شيء، وكنت في حالة يأس وأردت أن أنهي حياتي. ولكنه جاء بعد ذلك ليلقاني. كانت ركبتاي ترتعشان. طلب مني أن أسامحه وقدم لي، كهدية، حلية تحمل صورة الكرملين، أثمن تذكاراته. لن أخلعها قط. إنها ليست ذكرى من باڤيل فقط، بل هي أكثر من ذلك، ذكرى سعادة. غرقت في الدموع. وبعد خمسة عشر يوماً كان زواجنا الذي حضرته الفرقة كاملة والذي استمر أربعاً وعشرين ساعة. غنينا ورقصنا، وكنت أردد لباڤيل أنه إذا حدث وخنّا بعضنا بعضاً فسوف نخون كل الذين احتفلوا بهذا العرس معنا، سنخون مظاهرة ميدان المدينة القديمة وتوغلياتي. أشتهي أن أضحك اليوم عندما أفكر بكل ما خناه في نهاية الأمر، فيما بعد...

2

أفكر فيما سأرتديه غداً. سوف أرتدي مثلاً، كنزتي الوردية ومعطفي الواقي من المطر. إنه أيضاً أكثر مايلائم قدّي. لم أعد نحيلة جداً، ولكن ماذا في ذلك؟ إذا كان في وجهي تجاعيد، فإني أملك للتعويض عنها مفاتن أخرى لاتملكها صبية، فتنة امرأة عاشت. بالنسبة لجيندرا، لدي بالتأكيد هذه الفتنة. ياللفتى المسكين؟ إني مازلت أرى خيبة أمله عندما علم أني سأركب الطائرة في الصباح الباكر وأنه، من جانبه، سيسافر وحيداً. إنه مفتون عندما يستطيع أن يكون معي. وهو يحب أن يُبرز رجولته أمامي، رجولة ابن التسعة عشر عاماً. سوف يقود السيارة، بالتأكيد، بسرعة مئة وثلاثين كيلومتراً في الساعة وأنا معه، من أجل أن أعجب به، بهذا القبيح الصغير الذي كان، مع هذا، تقنياً وسائقاً لاغبار عليه أبداً. كان الصحافيون يصطحبونه، عن طيب خاطر، لإجراء الريبورتاجات الصغيرة في الخارج. وبعد كل شيء، فما السيء في سروري كي أعلم أن هناك من يسره رؤيتي؟ في هذه الأعوام الأخيرة، لم أكن محبوبة كثيراً في الإذاعة. إذ يبدو أني بقرة قذرة، متعصبة، دوغمائية، كلب حراسة للحزب، وهذا وذاك. إلا أنني لن أحمر خجلاً أبداً من كوني أحبه، أحب الحزب وأضحي في سبيله بكل أوقات فراغي. وقبل كل شيء، ماالذي بقي لي في الحياة؟ إن لياقيل نساء أخريات لم أعد أسعى لمعرفتهن، والصغيرة تعبد أباها، وعملي مازال هو نفسه منذ عشر سنوات: ريبورتاجات، مقابلات، برامج حول إنجاز الخطة، حول الزرائب النموذجية، حول الحلابات. ولا أمل فيما يتعلق ببيتي أيضاً. الحزب وحده لم يذنب في حقي، وأنا قابلته دائماً بالمثل حتى في الساعات التي كان الجميع يرغبون آنذاك في التخلي عنه عام ستة وخمسين، مع تدفق جرائم ستالين. أصبح الناس مجانين يومذاك. كانوا يبصقون على كل شيء، يدّعون أن صحافتنا تكذب عليهم وأن بيوتات التجارة المؤممة لم تكن على

مايرام وأن الثقافة تختنق وأنه لم يكن للتعاونيات الريفية أن ترى النور وأن الاتحاد السوفياتي بلد دون حرية. والأسوأ من ذلك هو أن شيوعيين، بالذات، كانوا يعبرون عن أنفسهم على هذا النحو في اجتماعاتهم الخاصة. كان باقيل، أيضاً يتحدث بهذه الطريقة، والجميع يصفقون له. لقد حاز باقيل دائماً على التصفيق منذ طفولته. فأمه كانت، وهو ابنها الوحيد، تنام مع صورته. كان طفلاً معجزة، ولكنه كان رجلاً متوسطاً بكل بساطة. فهو لايدخن ولايشرب، ولكنه غير قادر على العيش دون هتافات. إنها كحوله ونيكوتينه إلى حد يبتهج معه لقدرته على هصر قلوب المستمعين، الذين كان يخطب فيهم عن هول المحاكمات الستالينية باندفاع كان ينقص معه القليل من أجل أن ينفجروا في البكاء. كنت أحس به كما لو أنه سعيد بغضبه، وكنت أكرهه.

وعرف الحزب، لحسن الحظ، كيف يضرب على أصابع الهستيريين فسكتوا. وهدأ باقيل كالآخرين. كانت وظيفته كأستاذ للماركسية في الجامعة أحفل بالامتيازات من أن يغامر بها. ومع ذلك، بقي شيء في الجو، بذور فتور، ريبة، عدم إيمان، بذور تنمو في صمت، سراً. كنت أتساءل عما يجب عمله ضد هذا ما لم يكن زيادة ارتباطي بالحزب بصورة أشد وثوقاً من ذي قبل، كما لو كان الحزب مخلوقاً حياً أستطيع أن أفضي إليه بما لدي، الآن، حين لم يعد لدي ما أقوله لأحد، وليس لباقيل فقط. والآخرون لايحبونني بدورهم. لوحظ ذلك جيداً عندما اقتضى الأمر تسوية تلك القضية المؤلمة. فقد كان أحد محررينا، وهو رجل متزوج، يقيم علاقة مع تقنية، وهي عزباء فتية وغير مسؤولة. وجاءت الزوجة يائسة تطلب العون من لجنتنا. درسنا الحالة ساعات، واستدعينا بالتعاقب، الزوجة والتقنية والشهود العاملين في الإدارة. وبذلنا جهدنا من أجل فهم كل وجوه المسألة وأن نبدو منصفين. تلقى المحرر لوماً من الحزب، في حين وُبخت التقنية. وكان على الاثنين أن يتعهدا، أمام اللجنة، بقطع الصلات بينهما. للأسف، ليست الأقوال سوى أقوال. لقد قالاها من أجل تهدئتنا، واستمرا في معاشرة بعضهما.

لكن، مهما بدا الكذب بعيداً عن المتناول، فإننا مالبثنا أن اكتشفنا الحقيقة. آنذاك، كنت مع الحل الأقسى واقترحت فصل الزميل من الحزب لأنه كذب عليه وخدعه عامداً ولأنه، أخيراً، ليس بالشيوعي من يكذب على حزبه، فأنا أكره الأكذوبة. إلا أن اقتراحي لم يُتبَنَّ، ونجا المحرر بلوم جديد وكان على التقنية أن تغادر الإذاعة.

لقد انتقما مني جيداً، جعلاني أبدو مسخاً، حيواناً متوحشاً. كانت حملة كاملة. أخذا يتجسسان على حياتي الخاصة. وكانت هذه نقطة ضعفي. فالمرأة لاتستطيع الاستغناء عن العاطفة أو أنها لاتكون، إذ ذاك، امرأة. لماذا أُنكر ذلك؟ لقد كنت أبحث عن الحب في مكان آخر مادمت لاأجده تحت سقفي، وكنت أبحث عنه حقاً. وفي ذات يوم هوجمت على ذلك في اجتماع عام، وقيل بأني منافقة أصلب الناس بذريعة أنهم يدمرون الأُسر وأتنطع لفصلهم، لطردهم، لإبادتهم، في حين أني كنت، أنا نفسي، غير وفية لزوجي بقدر ما كنت أستطيع. كانوا يتحدثون على هذا النحو في الاجتماع أما وراء ظهري، فقد كانوا يمرغونني، تماماً، بالوحل. لقد كنت، في العلن، أختاً جيدة أما في الخفاء فقد كنت عاهرة، كما لو أنهم لم يعرفوا كيف يفهمون أني كنت متطلبة حيال الآخرين لإدراكي ماهو الزواج التعس، لهذا السبب على وجه الدقة، ليس لأني كنت أكرههم، بل عن حب، عن حب للحقيقة، عن حب لأسرهم وأطفالهم، فقد كنت أود أن أطير لنجدتهم. أنا أيضاً لدي ابنة وأسرة، وأنا أرتعد خوفاً عليهما!

ولكن ماذا؟ ربما كانوا على حق، ولعلني كنت حقاً امرأة شرسة، ويجب حقاً أن أدع للناس حريتهم. فليس من حق أحد التدخل في شؤونهم الشخصية. ولعلنا كنا حقاً قد أسأنا تصور كل هذا العالم الذي نحن فيه، وربما كنت واقعاً شرطياً كريهاً يدس أنفه في شؤون لاتعنيه أبداً. ولكن الأمر هو أنني هكذا وأتصرف دائماً كما أشعر والآن فات أوان التغير. لقد فكرت دائماً في أن المخلوق البشري غير قابل للقسمة وأن البورجوازي وحده يقسم نفسه في دَجَله إلى كائن عام وإنسان خاص. ذلك هو دستور إيماني، وقد

تصرفت دائماً بموجب ذلك، وهذه المرة كالمرات الأخرى.

من حيث احتمال كوني بدوت شريرة، أنا أوافق على ذلك دون أن ينبغي، من أجل هذا، طرح السؤال عليّ. كنت أشمئز من هؤلاء المراهقات، أولئك البغايا الصغيرات القاسيات في صباهن، المجردات من أدنى تضامن مع المرأة التي تكبرهن عمراً بقليل، كما لو كنّ لن يبلغن يوماً بدورهن عمر الثلاثين والخامسة والثلاثين والأربعين. لايقولنّ لي أحد بأنها كانت تحبه. ماذا تستطيع هذه أن تعرف حقاً عن الحب؟ إنها تضاجع أول قادم، دون عقدة، دون حياء. وأنا أحس بالإهانة إذا تجرأ أحد على مقارنتي بهؤلاء البغايا لسبب وحيد هو أنه كانت لي، أنا المتزوجة، صلات عديدة. الفرق هو أني سعيت من جانبي دائماً وراء الحب، وإذا أخطأت ولم أجده أينما بحثت عنه، فإني كنت أحيد شاعرة بالقشعريرة، لأمضي إلى مكان آخر. ومع ذلك كنت أعرف كم سيكون بسيطاً أن أنسى حقاً حلم الحب الصبياني وأن أجتاز الحدود لأجد نفسي على أراضي تلك الحرية الغريبة حيث لاخجل، لااعتدال ولا أخلاق، في مجال تلك الحرية الدنيئة الشاذة حيث يُسمح بكل شيء، إذ يكفي المرء أن يسمع داخله نبض الجنس، نبض هذا الحيوان.

وأعلم أيضاً أني إذا اجتزت هذه الحدود فلن أعود أنا، سأصبح شخصاً آخر لا أعلم من هو، وهذه الطفرة المرعبة تخيفني. ومن أجل ذلك أبحث عن الحب باستماتة اليأس، أبحث عن حب أستطيع فيه أن أعيش كما كنت دائماً، كما مازلت بأحلامي ومُثُلي القديمة لأني لا أريد أن تنقطع حياتي من الوسط، بل أريدها أن تبقى متصلة من طرف إلى آخر. ومن أجل ذلك ذهلت إلى هذا الحد عندما عرفتك يالودفيك...

3

حقاً كان الأمر مضحكاً تماماً. المرة الأولى التي دخلت فيها مكتبه لم يأسرني في شيء. ودون أي ارتباك، ذكرت له المعلومات التي كنت أتوقعها منه وماهي الفكرة التي كونتها عن هذا الريبورتاج الإذاعي. ولكنني لاحظت فجأة عندما وجه إلي بعد ذلك الكلام، أنني كنت أرتبك، أتلعثم، كما كنت أعبر عن نفسي ببلاهة وهو من جانبه حوّل الحديث فوراً أمام اضطرابي، حول ما إذا كنت متزوجة، ما إذا كان لي أبناء وأين أذهب عادة في العطل. وقال، أيضاً، بأنني كنت أبدو فتية وجميلة. كان يريد أن يريحني من وجلي. كان ذلك لطفاً منه. فقد عرفت الكثير من هؤلاء المتبجحين الذين يصلحون فقط للإلقاء بالبارود في العيون، حتى ولو لم يكونوا يعرفون عُشر ما يعرفه. باڤيل، من جهته، لم يكن من شأنه أن يتوقف عن الحديث عن نفسه. ولكن أكثر ما يُضحك هو أني لم أكن، بعد ساعة من الحديث، أكثر اطلاعاً من ذي قبل حول مؤسسته. وعكفت في بيتي على ورقتي. لم يكن الأمر يسير على مايرام بالمرة، ولكن ذلك كان أحرى بأن يناسبني. فقد كانت لدي، على الأقل، حجة لأهتف إليه وأسأله عما إذا كان يوافق على قراءة ما كتبت. التقينا في مقهى. قرأ ريبورتاجي التعس المؤلف من أربع صفحات بلباقة وابتسم معلناً أنه ممتاز. ومنذ اللحظة الأولى، أوحى إلي بأنه كان مهتماً بي كامرأة، وليس كصحفية: لم أكن أعلم ما إذا كان ذلك يجب أن يفرحني أو يخجلني. وكان يبدو، على كل حال، فاتناً. لقد كنا نفهم بعضنا. ليس من مثقفي الغرف هؤلاء الذين يضجرونني. فقد كان لديه، وراءه، حياة غنية، بل إنه اشتغل في المناجم. قلت له إني أحب الناس الذين هم من هذا النوع. لكني بقيت مذهولة، خاصة، عندما علمت أنه من موراڤيا وأنه عزف في أوركسترا بسنبالوم. لم أكن أستطيع أن أصدق أذنيَّ، فقد كنت أسمع لازمة حياتي وأرى صباي يأتيني من بعيد. مدركة بأنني وقعت أمامه.

سألني عما كنت أفعل طيلة اليوم المقدس. فرويت له. مازلت أسمع صوته نصف المتهكم ونصف المشفق يقول لي: أنت تسيئين العيش ياهيلينا. ثم أعلن أنه ينبغي تغيير ذلك وأن علي أن أحزم أمري على عيش حياة مختلفة وأن أكرس نفسي، أكثر من الآن بقليل، لأفراح الوجود. أجبته بأنه ليس لدي شيء ضد هذا وأني كنت دائماً متحمسة للفرح وأن ما من شيء يثيرني أكثر من كل هذه الكآبات وأنواع الضجر الأخرى في الهواء. ورد علي بأن تلاوة إيماني لم تكن تعني شيئاً وأن معظم مشايعي الفرح كانوا أكثر الناس حزناً. آهٍ كم أنتَ على حق! هذا ما اشتهيت أن أهتف به ثم أعلن بصورة قاطعة، أنه سيأتي في الساعة الرابعة من الغد ليأخذني من أمام الاذاعة وأننا سنقوم معاً بجولة في مكان ما في الطبيعة، حول براغ. حاولت أن أحتج بأني متزوجة. فلا أستطيع أن أتنزه هكذا في الغابة، مع رجل، مع غريب. رد لودفيك مازحاً بأنه ليس رجلاً، بل إنه عالِم فقط. وفي الوقت نفسه، أصبح حزيناً، حزيناً جداً. لاحظت ذلك وأحسست بنفحة دفء، بالسرور لتبيني أنه كان يشتهيني واشتهاؤه لي يزداد لي من جراء تذكيري له بأني متزوجة، وبذلك أصبح أصعب متناولاً. والمرء يشتهي دائماً فوق كل شيء، المستعصي. وكنت أشرب بنهم هذا الحزن في سماته. وفي هذه اللحظة فهمت أنه يعشقني.

وفي الغد بين الفلاتفا من جهة، ومنحدر الغابة الشديد من جهة أخرى، كان الجو رومنطيقياً. لَكَم أحب ماهو رومنطيقي. لابد أن سلوكي كان مجنوناً قليلاً، وربما في غير مكانه من جانب أمِ صبيةٍ في الثانية عشرة من عمرها. كنت أضحك وأتواثب. أخذتَ بيده وأرغمته على الركض معي. توقفنا وقلبي يخفق بشدة. كنا وجهاً لوجه، نكاد نتلامس. انحنى لودفيك انحناءة خفيفة وقبلني قبلة سريعة. وسرعان ما أفلتُّ منه لأستولي أيضاً على يده، وعدنا إلى الركض قليلاً. لدى أدنى جهد، أعاني من خفقان القلب. يكفي، من أجل ذلك، أن أصعد طابقاً واحداً. لذلك أبطأت الخطو. هدأ تنفسي

شيئاً فشيئاً، وفجأة تنبهت إلى أني كنت أدندن، بصوت منخفض، بأول مقطعين من لحن مورافي، لحني المفضل. وعندما بدا لي أنه كان يفهمني، تابعت بملء صوتي. لم أكن خجلة، وكنت أحس بالسنين والهموم واللوعات وألوف الأخاديد الرمادية تسقط عني. بعد ذلك جلسنا في حانة صغيرة، وأكلنا خبزاً ونقانق. كان كل شيء عادياً وبسيطاً تماماً: النادل المتأفف، غطاء الطاولة المبقع. ومع ذلك، كانت المغامرة رائعة. قلت للودفيك: ولكن هل تعلم أني سأمضي، بعد ثلاثة أيام، إلى مورافيا لأجري ريبورتاجاً حول كوكبة الملوك. سألني أين أذهب بالضبط. وبعد جوابي، قال إنه ولد هناك. مصادفة جديدة تركت لي كل شيء. وقال لودفيك: سأتحرر لأذهب معك إلى هناك.

خفت. تذكرت باڤيل وهذا البريق من الأمل الذي كان قد أشعله فيّ. لست لامبالية بزواجي، وأنا على استعداد لعمل أي شيء لإنقاذه، ولو لم يكن ذلك إلا بسبب الصغيرة زدينا. ولماذا أكذب؟ إن ذلك سيكون من أجلي أنا، خاصة، من أجل كل ماحدث ومن أجل ذكرى شبابي، ولكني لم أجد القوة لأقول لا للودفيك. لم أجد هذه الشجاعة، وها هي اللعبة قد بدأت. الصغيرة زدينا نائمة وأنا خائفة، ولودفيك موجود فعلاً في هذه الساعة في مورافيا، وسينتظرني غداً لدى نزولي من السيارة.

القســم الثالث

لودفيـك

1

نعم! مضيت أهيم على وجهي. توقفت على جسر الموررافا ونظرت إلى التيار. كم هو قبيح هذا الموررافا (نهر من السواد بحيث يخيل للمرء أن سريره يحتوي على غضار سائل لا على ماء)، وكم هي كئيبة ضفته: زقاق من خمسة بيوت بورجوازية ذات طابق واحد، مفصولة عن بعضها، كل واحد منها لشأنه، مزروع هناك، يتيم أخرق. وربما كان عليها أن تشكل جنين رصيف لم يتحقق طموحه المدعي أبداً. كان اثنان منها يحملان ملائكة صغيرة وكتابات متصدعة، فعلاً، من فسيفساء وجص: لم يعد للملاك جناحان وأصبحت الكتابات المتشققة في بعض المواضع حتى القرميد غير مفهومة. وهناك، حيث ينتهي الزقاق اليتيم، لم تبق سوى الأعمدة الحديدية المربعة للخطوط الكهربائية وعشب مع بضع إوزات متخلفة، ثم حقول، حقول دون أفق ولاتمضي إلى أي مكان، حقول يختفي بينها غضار الموررافا السائل.

المدن تعرف كيف تستخدم إحداها الأخرى مرآة. وأنا أرى في هذه البانوراما (كنت أعرفها جيداً وأنا طفل، ولكنها لم تكن آنذاك تعني لي شيئاً بالمرة) دفعة واحدة، أوسترافا، مدينة عمال المناجم هذه الشبيهة بمهجع عملاق مؤقت مليء بأبنية مهجورة وأزقة قذرة تنتهي إلى الفراغ. كنت قد وقعت في الشرك. وجدت نفسي على هذا الجسر كرجل معرض لنيران رشاش. لم أكن أريد أن أتأمل، وقتاً أطول، الزقاق المهجور وبيوته الخمسة الضائعة لأني كنت أمنع نفسي من التفكير في أوسترافا. فاستدرت، إذن، لأتابع الضفة في اتجاه معاكس للتيار.

من هنا كان يمر طريق صغير يحده، من جانب منه، صف كثيف من أشجار الحور: ممشى ضيق، نقطة نظر. وإلى اليمين، كانت التلعة المغطاة بالعشب وبنبتات مجنونة تنحدر حتى مستوى الماء

وفي مكان أبعد، ماوراء النهر، كانت العين تكتشف مستودعات وورشات وباحات مصانع هزيلة. وإلى يسار الدرب، كان هناك في البدء مقلب لاينتهي للنفايات تتبعه حقول غُرست فيها التجمعات المعدنية للأعمدة التي تحمل أسلاكاً ذات توتر عال. وكنت أمضي، مشرفاً على كل ذلك، على طول الممر الضيق كما لو كنت أسير على عبّارة فوق المياه. وإذا كنت أقارن هذا المشهد كاملاً، بسطح ماء شاسع، فذلك لأني كنت أحس ببرده ينفذ إلي، ولأني أجتاز هذا الممر كما لو كنت مهدداً بأن أهوي عنه. كنت أتبين، في الوقت نفسه، أن جو المنظر الغريب لم يكن سوى نسخة عما كنت قد امتنعت عن ذكره بعد التقائي بلوسي، كما لو أن ذكرياتي المكبوتة تطبع بطابعها كل ماكنت أحسه في هذه اللحظة حولي: صحراء الحقول، باحات وحظائر، عتمة النهر وهذا البرود الدائم الوجود الذي كان يعطي جملة الديكور وحدتها. وعيت أنيّ لن أفلت من ذكرياتي: فقد كانت تحاصرني.

2

أي خط سير أوصلني إلى أول غرق في حياتي (وإلى لوسي عن طريقه غير المحبب)؟ لن يصعب وصفه بلهجة مستخفة، بل ومسلية: كل شيء كان خطيئة ميلي المشؤوم إلى النكات الخرقاء، كما أنه خطيئة عدم قابلية ماركيتا المشؤوم لفهم النكتة. كانت ماركيتا من أولئك النساء اللواتي يأخذن كل شيء مأخذ الجد (متماهيات في ذلك تماهياً مدهشاً مع عبقرية العصر نفسها) واللواتي منحتهن الجنيات، منذ المهد، أن تكون القدرة على التصديق مزيتهن العظمى. لاأريد أن ألمح توريةً إلى أنها ربما كانت بلهاء. كلا: لقد كانت موهوبة وحكيمة إلى حد مقبول، وهي فوق ذلك من الصبا (بأعوامها التسعة عشر) ومن الجمال بحيث أن سرعة تصديقها الساذجة كانت تُسجل في حساب مفاتنها أكثر منها في حساب نواقصها. كلنا في الكلية كنا نحبها جداً، وحاولنا بدرجات متفاوتة امتلاكها، وهو مالم يمنعنا (لم يمنع بعضنا على الأقل) من أن نسخر منها، برفق وبكل لطف.

من المؤكد أن الفكاهة وماركيتا لم يكونا قط صنوين، وكان توافق الفكاهة مع روح الزمن أقل أيضاً. كانت تلك السنة الأولى بعد شباط عام ثمانية وأربعين. حياة جديدة قد بدأت، حياة مختلفة حقاً، كان لمحياها، كما ثبتُ في ذكرياتي، جدية صارمة مع هذا الشيء العجيب الموحي بأنه لم يكن في هذه الجدية أي شيء قاتم، بل كانت لها، على العكس من ذلك، ظواهر الابتسامة. نعم! كانت تلك السنوات تعلن عن نفسها أكثر كل السنوات فرحاً، ومن لم يكن يتهلل ابتهاجاً فسرعان ما يشتبه في أنه حزين لانتصار الطبقة العاملة أو (وهو عيب ليس أقل خطورة) يغوص، كفردي، في أعماق شجونه الحميمة.

لم يكن لدي آنذاك كثير من الشجون الحميمة، وعلى العكس من ذلك، كان لدي حس عظيم بالمزاح. ومع ذلك، فلا يمكن أن يقال

بأنني نجحت تماماً في نظر العصر الفرح: فقد كان ينقص نكاتي أكثر مما ينبغي من الجدية، في حين أن الفرح المعاصر لم يكن يتحمل الدعابات والسخرية على اعتبار أنه كان، وأكرر ذلك، فرحاً وقوراً كان عنوانه الذي يباهي به التفاؤل التاريخي للطبقة المظفرة، فرحاً متقشفاً ورسمياً، أي أنه كان، بكلمة واحدة «الفرح».

أذكر أننا كنا، في الكلية، منظمين في «حلقات دراسية» كانت تجتمع بصورة متواترة لتجري النقد والنقد الذاتي العلنيين لكل أعضائها، وهو ماكانت توضع انطلاقاً منه علامة تقويمية لكل واحد. ومثل كل الشيوعيين، كنت أمارس وظائف عديدة، (كنت أحتل منصباً هاماً في اتحاد الطلاب)، وبما أن دراستي لم تكن، من جهة أخرى، تسير سيراً سيئاً، فإن مثل هذه العلامة التقويمية لم تكن تستطيع أن تسبب لي متاعب كبيرة. ومع ذلك فإن صيغ الثناء التي كانت تكافئ نشاطي وهمتي وموقفي الإيجابي حيال الدولة والعمل ومعرفتي للماركسية، كانت مصحوبة عموماً بعبارة تبين أن شخصيتي تشهد على «رواسب فردية». لم يكن مثل هذا التحفظ مقلقاً، بالضرورة، لأن حُسن التصرف هو أن تُدس ملاحظة نقدية في أكثر العلامات الشخصية بريقاً: إذ يؤخذ على هذا «اهتمام ضعيف بالنظرية الثورية»، وعلى ذاك «البرود حيال الغير»، وعلى آخر انعدام «السهر واليقظة» لديه، وعلى آخر، أخيراً، «سلوك سيء حيال النساء». وبالطبع، فمنذ ألّايعود تحفّظ من هذا النوع معزولاً، منذ أن يأتي آخر ليشدده، أو إذا حدث أن وجد المرء نفسه متورطاً في صراع ما، أو إذا كان هدف اشتباه أو اغتياب، فإن «رواسب الفردية»، أو «السلوك السيء حيال النساء»، يمكن أن يصبحا بذرة كارثة. ومثل هذه البذرة، كما لو أنها حتمية غريبة، كانت تسهر على قسيمة استعلامات كل منا، نعم كل منا.

كنت أحياناً (عن روح رياضية أكثر مني عن تخوف حقيقي) أقف ضد الاتهامات بالفردية وألح في طلب أدلة من رفاق دراستي. لم تكن لديهم أدلة ملموسة على نحو خاص. فكانوا يقولون: «لأنك

تتصرف هكذا». وكنت أسأل: «كيف أتصرف؟» ـ «على فمك، دائماً، ابتسامة غريبة» ـ «وماذا في ذلك؟ إني أعبر عن فرحي!» ـ «كلا! أنت تبتسم كما لو كنت تفكر في شيء تحتفظ به لنفسك».

عندما حكم الرفاق على سلوكي وابتساماتي بأن لها رائحة المثقف (وهي صفة تحقيرية كانت شهيرة في ذلك الزمن)، خلصت نهائياً إلى تصديقهم لعجزي عن التخيُّل (كان ذلك فوق جرأتي) أن الآخرين كلهم كانوا مخطئين وأنه أمكن للثورة نفسها، روح الزمان، أن تخطئ، في حين أمكن لي، أنا الفرد، أن أكون على صواب. بدأت أراقب بعض الشيء ابتساماتي، ولم ألبث أن اكتشفت في داخلي صدعاً رقيقاً ينفتح بين ماكنتُه وماكان يجب وماكنت أريد (حسب روح الزمان) أن أكون.

ولكن من كنت إذن إذ ذاك حقاً؟ عن هذا السؤال، أريد أن أجيب بكل صدق: كنت ذاك الذي لديه عدة وجوه.

وكان عددها يمضي متزايداً. قبل شهر من العطلة تقريباً بدأت في التقرب من ماركيتا (كانت في السنة الأولى، وكنت في السنة الثانية) وبذلت جهدي لأبهرها بالطريقة الغبية التي لجأ إليها رجال عمر العشرين في كل الأزمنة: كنت أنتحل قناعاً، أتظاهر بأني أكبر سناً (عقلياً وبتجاربي)، أتظاهر بأني أحتفظ لنفسي بمسافات بالنسبة لكل الأشياء، بتأمل العالم من علٍ، بحمل جلدٍ ثان فوق جلدي، غير مرئي ومجرب ضد الرصاص. لم أكن أشك (عن حق فوق ذلك) في أن المزاح يعبّر، بوضوح، عن المسافة وأني إذا أردت على هذا النحو دائماً أن أمزح مع ماركيتا، فقد كنت أفعل ذلك بصورة متحمسة، مصطنعة ومتصنعة على نحو خاص.

ولكن من كنت حقاً؟ إني مرغم على قول ذلك ثانية: كنت ذاك الذي له عدة وجوه.

كنت جدياً، متحمساً ومقتنعاً في الاجتماعات، منطلقاً ومناكداً في صحبة الرفاق، ساخراً ومعقداً بتصنع مع ماركيتا، وعندما أكون

وحدي (وأنا أفكر في ماركيتا)، كنت متواضعاً، مضطرباً كتلميذ ثانوية.

أكان هذا الوجه الأخير هو الحقيقي؟

كلا. كل الوجوه كانت حقيقية: لم يكن لي، على غرار المنافقين، وجه حقيقي وأخرى زائفة. كانت لدي عدة وجوه لأني كنت فتياً ولم أكن، أنا نفسي، أعرف من أكون ومن أريد أن أكونه (لايمنع ذلك من أن عدم التناسب الموجود بين كل هذه الوجوه كان يخلق لديّ الوجل. لم أكن أطابق أياً منها تماماً، وكنت أتحرك وراءها، ببلادة، بشكل أعمى).

الآلية النفسية والفيزيولوجية للحب هي من التعقيد بحيث أن الشاب يجب أن يركز، في فترة معينة من حياته، على امتلاكها، حصراً، إلى حد يفلت منه موضوع الحب نفسه: المرأة التي يحبها (مثلما لايستطيع عازف كمان شاب أن يتوحّد مع محتوى مقطوعة موسيقية طالما لم يفلح في السيطرة على التقنية اليدوية إلى درجة تجعله يكف عن التفكير فيها أثناء عزفه). تحدثت عن انفعالي كتلميذ ثانوية حين كنت أفكر في ماركيتا، ويجب أن أضيف أن ما كان يتحكم في أحاسيسي وأفكاري لم يكن ناجماً عن حالتي كعاشق بقدر ماهو ناجمٌ عن قلة حيلتي، وعن نقص الثقة بالنفس الذي كنت أحس بثقله.

كي أداري هذا الارتباك، هذه اللكاعة، كنت أتخذ مع ماركيتا مظاهر متعالية: أبذل جهدي في مناقضتها أو في السخرية من آرائها مباشرة وهو ما لم يكن صعباً لأنها كانت على الرغم من موهبتها (وجمالها الذي كان ـ ككل جمال ـ يوحي لمحيطها ببعد المتناول الظاهر)، فتاة بريئة، سليمة النية. وبما أنها كانت دائماً غير قادرة على أن ترى ماوراء شيء واحد، فإنها لم تكن ترى هذا الشيء نفسه. كانت تفهم علم النبات بشكل جيد، ولكنه لم يكن نادراً ألاّ تفهم قصة مضحكة من رفاق دراستها. كانت تخضع لكل أنشطة

العصر المتحمسة، ولكن عقلها يتعطل فوراً عندما تشهد هذه أو تلك من الممارسات السياسية الصادرة عن مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»، كما يتعطل أمام قصة مضحكة. ولهذا قرر الرفاق، فضلاً عن ذلك، أنها بحاجة إلى دعم حماستها بمعرفة استراتيجية الحركة الثورية، وتكتيكها، وقرروا أنه ينبغي لها أن تشارك، خلال العطلة، في دورة تأهيل للحزب لمدة خمسة عشر يوماً.

لم يكن هذا القرار يوافقني بالمرة لأني كنت قد قررت أن أُمضي هذين الأسبوعين بالضبط وحيداً في براغ، مع ماركيتا لأمضي بعلاقتنا (التي قامت، حتى ذلك الحين، على نزهات وأحاديث وبضع قبلات) إلى ماهو أبعد من ذلك قليلاً. وباستثناء هذين الأسبوعين، لم يكن لدي الخيار (على اعتبار أنه كان علي أن أكرس شهراً لفرقة زراعية والأسبوعين الأخيرين من العطلة لأمي، في مورافيا). ولذلك تمزق قلبي غيرةً لكون ماركيتا لاتشاطرني لوعتي ولاتغتاظ أبداً من الدورة، والأسوأ هو أنها تجرأت على القول لي بأنها كانت تستمتع بها مسبقاً.

من الدورة (المنظمة في قصر مهجور في بوهيميا)، بعثت إلي برسالة على صورتها. رسالة تفيض بالقبول الصادق لكل ماكانت تعيشه. كان كل شيء يسحرها، بما في ذلك ربع ساعة الرياضة الصباحية والتقارير وجلسات المناقشة والأغاني. كتبت إليّ بأن «روحاً معافاة» تسود هناك، وأضافت أيضاً عن حماسة بأن حلول الثورة في الغرب لن يطول انتظاره.

وإذا تأملنا كل الأمور جيداً فقد كنت، من الصميم، موافقاً على كل تأكيدات ماركيتا، بل كنت أؤمن مثلها بالثورة في أوروبا الغربية. لم يكن هناك سوى شيء واحد لم أكن أقره: أن تشعر بالسرور والسعادة في حين كنت أحن إليها. وعند ذلك، اشتريت بطاقة بريدية وكتبت (لأجرحها، لأصدمها، لأحيرها): التفاؤل هو أفيون الجنس البشري! الروح المعافاة تفوح بنتن الغباء. عاش تروتسكي! لودفيك.

3

على بطاقتي الاستفزازية، ردت ماركيتا ببطاقة تحمل نصاً قصيراً بقدر ماهو مسطح، ولم ترد أبداً على الرسائل التي بعثت بها إليها خلال العطلة. وكنت في مكان ما في الجبال أجمع الأعلاف مع فرقة طلابية. وكان صمت ماركيتا ينهكني بحزن ثقيل. من هناك كنت أكتب إليها رسائل شبه يومية مشحونة بعاطفة متوسلة ومكتئبة. متوسّلاً إليها أن تتصرف بحيث نستطيع أن نرى بعضنا خلال الأيام الخمسة عشر الأخيرة من العطلة، على الأقل. وكنت مستعداً لأن لا أذهب إلى بيتي في مورافيا، متخلّياً عن الذهاب لرؤية أمي المهجورة، مستعداً لأن أذهب إلى أي مكان لأكون مع ماركيتا. وليس كل هذا لأني أحبها فقط بل بصورة أساسية لأنها كانت المرأة الوحيدة في أفقي ولأن وضعي كشاب دون فتاة كان لايُحتمل بالنسبة إلي. ولكن ماركيتا لم تكن تجيب على رسائلي.

لم أكن أفهم ماذا يجري. ذهبت في آب إلى براغ ونجحت في العثور عليها في بيتها. قمنا معاً بنزهتنا المعتادة على ضفة الفلاتفا وفي الجزيرة المسماة «المرج الإمبراطوري» (هذا المرج الكئيب المزروع بأشجار حور وميادين لعب قاحلة). وأكدت ماركيتا ألاّ شيء قد تغير بيننا. والواقع أنها كانت تتصرف، كما من ذي قبل، لكن هذا الاستمرار المتحجر (القبلة المتحجرة، الحديث المتحجر، الابتسامة المتحجرة) كان، على وجه الضبط، موهناً. وعندما طلبت إلى ماركيتا أن نلتقي في الغد، سألتني أن أهتف لها وقالت بأننا سنتفق فيما بعد.

هتفت لها، وعلى الهاتف، رد عليّ صوت أنثوي لم يكن صوتها بأن ماركيتا غادرت براغ.

كنت شقياً كما لم يكن ذلك ممكناً إلا لفتى في العشرين من عمره عندما لاتكون له امرأة، فتى مازال حيياً بصورة مقبولة ولم يعرف

الحب الجسدي إلا مرات قليلة، خلسة وبشكل غير مكتمل ولم يكن يتوقف، مع ذلك عن تعذيب روحه. كانت الأيام تجرجر طولها وفراغها بصورة لاتحتمل. لم أكن أستطيع أن أقرأ، ولا أن أعمل، وكنت أذهب إلى السينما ثلاث مرات في اليوم، حفلة بعد حفلة، في أول المساء والسهرة وذلك، فقط، لأقتل الوقت، لأخرس نعيب البوم المستمر الذي كان يصدره كائني العميق. لم أكن أجرؤ، وأنا الذي كان الانطباع الذي كونته ماركيتا عني (بفضل كبريائي المرعية بعناية) بأنني كنت، على وجه التقريب، ضجراً من كثرة النساء، لم أكن أجرؤ على أن أوجه كلمة واحدة للفتيات في الطريق، أولئك الفتيات اللواتي كانت سيقانهن الرائعة تؤلمني في روحي.

ولذلك إذن حيَّيت فرحاً شهر أيلول عندما وصل أخيراً، ووصل معه استئناف الدراسة الذي يسبقه، بيومين أو ثلاثة، استئنافي لمهماتي في اتحاد الطلاب حيث كان لي مكتب وحدي وسلسلة كاملة من التزامات متنوعة. منذ الغد تلقيت مخابرة هاتفية تدعوني إلى سكرتارية الحزب. واعتباراً من هذه اللحظة نقش كل شيء، حتى أدنى التفاصيل، في ذاكرتي: كان النهار مغموراً بالشمس. خرجت من بناء اتحاد الطلاب وشعرت بأن الحزن الذي غمرني بالضباب طيلة العطلة يبتعد عني ببطء. كنت أحس بفضول لطيف وأنا ذاهب إلى السكرتارية. قرعت الباب الذي جاء ليفتحه رئيس اللجنة، وهو شاب طويل ضيق الوجه، بشعر فاتح وعينين قطبيتي الزرقة. قلت: «المجد للعمل»، كما كان الشيوعيون يتبادلون في ذلك العهد التحية. لم يرد على تحيتي وقال: «اذهب إلى الداخل، إنهم ينتظرونك هناك». وفي الداخل، في آخر غرفة من السكرتارية، كان ينتظرني ثلاثة من أعضاء لجنة طلاب الحزب. طلبوا إلي أن أجلس. إن الرفاق الثلاثة الذين كنت أعرفهم جيداً واعتدت أن أثرثر معهم بمرح يبدون وجوهاً متجهمة. كانوا، بالتأكيد، يتحدثون إلي بصيغة رفع الكلفة (حسب القاعدة بين الرفاق) ماعدا أنه لم يعد فجأة رفعُ كلفةٍ ودياً بل

كان رسمياً ومُهدِداً (أعترف بأني أشعر، منذ ذلك الحين، بنفور من رفع الكلفة. كان ذلك، في الأصل، يجب أن يعبر عن حميمية مطمئنة، ولكنه يتخذ فجأة إذا لم يكن الناس الذين يتبادلون رفع الكلفة أصدقاء حميمين، الدلالة المعاكسة. إنه التعبير عن الفظاظة بحيث أن العالم الذي يشيع فيه رفع الكلفة ليس عالم صداقة عامة، بل عالم عدم احترام دائم الحضور).

كنت إذن جالساً أمام ثلاثة طلاب رافعي الكلفة طرحوا عليّ أول سؤال: ما إذا كنت أعرف ماركيتا. قلت إني أعرفها. سألوني عما إذا تبادلت المراسلة معها، فرددت إيجاباً. سألوني: عما إذا كنت أتذكر ما كتبت لها. قلت إني لم أعد أتذكر، إلا أن البطاقة الاستفزازية برزت فجأة أمام عيني وبدأت أتشمم الريح. سألوني. «ألا تستطيع أن تتذكر؟». أجبت بالنفي. وماركيتا، ماذا كانت تكتب لك؟ هززت بكتفيّ من أجل أن أوقظ الانطباع بأن رسائلها كانت تعالج أشياء حميمة من المستحيل علي أن أذكرها هنا. ألم تكتب لك شيئاً بشأن الدورة؟ قلت: «نعم، بالفعل». وماذا كتبت إذن؟ أجبت: «إنها كانت مسرورة هناك». وماذا أيضاً؟ قلت: «إن الأحاديث كانت مهمة وإن الإدارة جيدة». هل كتبت لك أن روحاً معافاة كانت تحيي الدورة؟ قلت: «نعم! يجب أن تكون قد كتبت لي شيئاً من هذا القبيل». هل كتبت لك أنها تعلمت معرفة قوة التفاؤل؟ قلت: «نعم». سألوني! «وأنت، ماذا ترى في التفاؤل»؟ تساءلت: «ماذا يجب أن أرى فيه؟». سألوني: «هل تعتبر نفسك، شخصياً، متفائلاً»؟ قلت بوجل «دون شك». وقلت لأحاول أن أعطي الاستجواب اتجاهاً أخف: «إني أمزح عن طيب خاطر، أنا شخص أقرب إلى المرح». لاحظ أحدهم قائلاً: «حتى العدمي يستطيع أن يكون مرحاً. إنه يستطيع أن يسخر من الذين يعانون» وتابع قائلاً: «الكلبي يستطيع، أيضاً، أن يكون مرحاً»! وسأل آخر: «أتعتقد أنه يمكن بناء الاشتراكية دون تفاؤل؟». قلت: «كلا». وصرح الثالث قائلاً: «إذن، فأنت بالتالي لست نصيراً لبناء

الاشتراكية في بلادنا». احتججت قائلاً: «كيف يمكن هذا؟». انفجروا قائلين: «لأن التفاؤل في رأيك هو أفيون الجنس البشري». احتججت، أيضاً، قائلاً: «ماذا؟ أفيون الجنس البشري؟» قال: «مامن مهرب! لقد كتبت هذا! إن ماركس قد وصف الدين بأنه أفيون البشرية، ولكن الأفيون بنظرك هو تفاؤلنا. لقد كتبت ذلك إلى ماركيتا». وسرعان ماتابع الآخر قائلاً: «يثير فضولي أن أعرف ماذا سيقول عمالنا وشغيلتنا الصداميون الذين يتجاوزون الخطط إذا علموا أن تفاؤلهم أفيون». وأضاف الثالث: «بالنسبة لشخص تروتسكي ليس التفاؤل لبنائي شيئاً أكثر من أفيون. وأنت تروتسكي!» احتججت قائلاً: «يارب السموات! من أين جئتم بهذا؟». أنت كتبته حقاً، نعم أم لا؟ قد أكون كتبت شيئاً مشابهاً للضحك. لقد مضى على ذلك، في كل الأحوال، شهران ولم أعد أتذكر. قالوا: «نستطيع أن ننعش ذاكرتك». وقرؤوا لي بطاقتي البريدية: التفاؤل أفيون الجنس البشري! الروح المعافاة تفوح بنتن الغباء! عاش تروتسكي! لودفيك. كانت هذه العبارات تتخذ، في بناء السكرتارية الصغير، رنيناً هائلاً إلى حد أنها أخافتني على الفور. شعرت أن لها قوة مكتسحة لن أستطيع مقاومتها. كان ذلك، أيها الرفاق للنكتة فقط. وأحسست أن أحداً لن يستطيع تصديقي. قال أحد الرفاق متوجهاً إلى الآخرين: «هل تجدان، أنتما، هذا مضحكاً؟». هز الأخيران رأسيهما. قلت: «يجب أن تعرفوا ماركيتا». أجابوا: «نحن نعرفها». قلت: «حسناً! أنتم ترون إذن أن ماركيتا تأخذ كل شيء مأخذ الجد. لقد تلاعبنا قليلاً بها دائماً لنريكها». قال أحد الرفاق: «شيء طريف! لايبدو لنا، من رسائلك التالية، أنك لم تأخذ ماركيتا مأخذ الجد». ماذا؟ هل قرأتم كل رسائلي إلى ماركيتا؟ تدخل آخر قائلاً: «هكذا، إذن، أنت تأخذ ماركيتا في سفينة بذريعة أنها تأخذ كل شيء مأخذ الجد. ولكن قل لنا: ماالذي تأخذه مأخذ الجد؟ الحزب مثلاً، الانضباط، التفاؤل، أليس كذلك وأنت لاتفعل شيئاً سوى

الضحك من كل هذا الذي تأخذه، هي، مأخذ الجد». قلت: «أيها الرفاق، أنا لا أذكر حتى كيف كتبت هذا، لقد جرى ذلك سريعاً جداً، سطران كيفما اتفق، للمزاح، بل لم أفكر فيما كنت أخربشه. لو كانت لدي فكرة سيئة لما أرسلت، بالتأكيد،هذا إلى دورة حزبية!». «لاأهمية لكيفية كتابتك ذلك! فسواء كتبته بسرعة أم ببطء، على ركبتك أم على طاولة، فإنك لم تستطع كتابة سوى ماكان فيك، ولاشيء آخر. من المحتمل أنك لم تكن لتكتب هذا لو فكرت أكثر من ذلك. بهذه الطريقة كتبته دون قناع. بهذه الصورة نعرف، على الأقل، من أنت. نعرف أن لك عدة وجوه، واحداً للحزب وثانياً للآخرين». شعرت بأن إنكاراتي أصبحت، بعد ذلك، مجردة من كل كفاية. عرضت الإنكارات نفسها عدة مرات: الأمر يدور حول مزحة، وهي لم تكن سوى كلمات دون معنى كانت تختفي، وراءها، حالتي النفسية، وهكذا دواليك. لم يريدوا أن يسمعوا شيئاً. قالوا بأني كتبت على بطاقة أمكن لأي كان أن يقرأها، وأن لهذه الكلمات مرمى موضوعياً، وهي لم تكن مصحوبة بأي تفسير يمس حالتي النفسية. وبعد ذلك، سألوني عن كل ماكنت قد قرأته لتروتسكي. قلت: «لاشيء». وسألوني عمن أعارني هذه الكتب، فقلت: «لاأحد». وسألوني عن التروتسكيين الذين كنت ألقاهم، فقلت: «لم أقابل أي واحد منهم». واعلموني أنهم يقيلونني، على الفور، من وظائفي في اتحاد الطلاب ورجوني أن أعيد إليهم مفتاح المكتب. كان في جيبي، فأعطيتهم إياه. قالوا، بعد ذلك، بأن منظمة القاعدة التي أنتمي إليها، في كلية العلوم، ستسوي حالتي على مستوى الحزب. ونهضوا دون أن ينظروا إلي، فقلت: «المجد للعمل» ومضيت.

تذكرت، بعد ذلك بقليل، أن لدي عدداً لابأس به من الحوائج تخصني في اتحاد الطلاب. لم أكن قط شخصاً منظماً جداً، ولذلك كان لدي، في درج من مكتبي، جوارب فضلاً عن أوراق شخصية متنوعة، وفطيرة أرسلتها لي أمي من بلدنا، أُكِلَ جزء منها، في خزانة مليئة

بالملفات. صحيح أني كنت، قبل لحظة، قد رددت المفتاح إلى سكرتارية الحزب، إلا أن هناك مفتاح آخر لدى البواب، في الطابق الأرضي معلق على لوحة إعلان خشبية بين مفاتيح كثيرة أخرى. أخذته. أتذكر كل شيء تفصيلاً: كان المفتاح مربوطاً بحبل صغير من القنب وبصفيحة خشبية تحمل، مكتوباً باللون الأبيض، رقم بابي. دخلت إذن بواسطة هذا المفتاح، وجلست إلى طاولتي. فتحت الدرج وشرعت في استخراج كل مايخصني منه، دون عجلة وبذهول، لأني كنت في برهة الهدوء القصيرة هذه أفكر فيما جرى بالضبط، وما حدث لي، وماذا يجب أن أفعل.

لم يدم ذلك طويلاً، وفُتِحَ الباب، كان رفاق السكرتارية الثلاثة من جديد هنا. وهذه المرة لم تعد وجوههم باردة ولامغلقة. لقد كانوا يتكلمون الآن بصوت غاضب وقوي، ولاسيما القصير، مسؤول ملاكات اللجنة. سألني بجفاء عما فعلته كي أدخل، وبأي حق، وما إذا كنت أريد أن يقتادني أحد رجال الأمن. قلت بأني هنا لآخذ فطيرتي وجواربي فقط. قال لي إنه لم يكن لدي أدنى حق في أن أدخل إلى هنا حتى ولو كانت لي خزانة مليئة بالجوارب. ثم مضى إلى الدرج وتصفح الأوراق والدفاتر واحدة واحدة. ولم يكن هناك حقاً سوى حوائجي الشخصية، بحيث انتهى إلى السماح لي بوضعها، تحت بصره، في حقيبة صغيرة. حشرت الجوارب المدعوكة والقذرة، ووضعت فيها الفطيرة التي كانت في الخزانة على ورقة صقيلة تناثر فيها الفتات. كانوا يراقبون كل حركة من حركاتي. غادرت الغرفة والحقيبة في يدي، وقال لي مسؤول الملاكات، على سبيل الوداع، ألاّ أعود قط إلى الظهور هنا.

وما كدت أبتعد عن مرمى رفاق المقاطعة ومنطق استجوابهم الذي لايقهر، حتى بدا لي أني بريء وأنه لم يكن هناك، على أي حال، في عباراتي أي شيء مخيف، وأنه يجب أن أجد أحداً يعرف ماركيتا ويفهم المضحك في عمل هذه القصة. ذهبت لأرى طالباً

شيوعياً في كليتنا، وبعد أن رويت له كل شيء، صرح بأنهم، في السكرتارية، أكثر نفاقاً مما ينبغي ولايفهمون شيئاً حول المزاح، لكنه هو الذي يعرف ماركيتا، يتصور تماماً حول أي شيء يدور الأمر. يبقى أنه يجب، في نظره، أن أذهب لألقى زيمانيك الذي قد يصبح هذه السنة رئيس الحزب في كليتنا ويعرف، بعد كل شيء، ماركيتا وأنا جيداً.

4

بدا لي كون زيمانيك الرئيس المقبل للمنظمة خبراً ممتازاً لأني كنت أعرفه حقاً، بل كنت متأكداً من تمتعي بكل تعاطفه، حتى ولو لم يكن ذلك إلا بسبب أصولي المورافية. فزيمانيك كان يعبد، بالفعل، غناء ألحان مورافيا. ففي ذلك الوقت، كانت الموضة الكبرى هي غناء أغان شعبية وغناؤها بصوت فيه شيء من الريفية والذراع مرفوعة فوق الرأس، بسمات رجل شعب حقيقي ولدته أمه تحت سنبالوم خلال واحدة من حفلات الرقص.

كنت، في الواقع، الموارفي الحقيقي الوحيد في كلية العلوم، وهو ماكان يعطيني أنواعاً من الامتيازات. وفي كل مناسبة رسمية، في بعض الاجتماعات والأعياد، أو في أول أيار، كان الرفاق يدعونني إلى أن أستل كلارينيت لأقلد، بمساعدة اثنين أو ثلاثة من الهواة المختارين من بين زملاء الدراسة، موسيقى مورافية حقيقية. وهكذا اشتركنا، سنتين متواليتين (مع كلارينيت وكمان وكونترباس)، في عرض أول أيار وانضم إلينا زيمانيك لأنه كان فتى جميلاً يحب أن يظهر في مشهد. كان يرقص أثناء المشي، مرتدياً بذلة إقليمية مستعارة، ويرفع ذراعه في الهواء ويغني. كان هذا البراغي المولد الذي لم يكن قط في مورافيا، يمثل بحماسة دور ديك قرية من بلدنا، وكنت أرمقه بمحبة سعيداً بكون موسيقى وطني الصغير الذي كان منذ أزمنة بعيدة فردوس الفن الشعبي، محبوبة إلى هذا الحد.

ثم أن زيمانيك كان يعرف ماركيتا، وهذه مزية ثانية. ففي مناسبات مختلفة من حياتنا كطلاب، غالباً ما اجتمعنا نحن الثلاثة. وفي ذات يوم (كنا عصابة كاملة)، اخترعت كون قبائل من الأقزام تعيش في الجبال التشيكية، واستشهدت، تأييداً لقولي، بمقتطفات من كتاب علمي مكرس لهذه المسألة الجديرة بالملاحظة. دهشت

ماركيتا لكونها لم تسمع قط عن الأمر. قلت إنه ليس في ذلك مايدهش: فالعلم البورجوازي كان يسكت، دون شك، قصداً، عن وجود هؤلاء الأقزام لأن الرأسماليين كانوا يتاجرون بهم كعبيد.

هتفت ماركيتا قائلة: لكن ينبغي أن يُكتب حول هذا الموضوع. لماذا لايكتبون؟ هذا ماسيوفر، مع ذلك، حجة ضد الرأسماليين!

قلت وأنا أتظاهر بالتفكير: ربما يمتنعون عن ذلك نظراً للطابع الدقيق والوعر، إلى حد ما، الذي تتخذه كل هذه القضية: فقد كان الأقزام قادرين على أداءات غرامية استثنائية تماماً، وهو ماكانوا من أجله مطلوبين جداً، وكانت جمهوريتنا تصدّرهم سراً، مقابل الكثير من القطع الأجنبي، خاصة إلى فرنسا حيث كانت سيدات رأسماليات، ناضجات قليلاً، يأخذنهم كخدم من أجل استغلالهم، في الواقع، بصورة مختلفة تماماً.

كان الرفاق يكتمون رغبتهم في الضحك التي لم تكن ناجمة عن البراعة الخاصة لكلامي الفارغ بقدر ماكانت ناجمة عن هيئة ماركيتا المتنبهة، المستعدة دائماً للتحمس لشيء ما (أو ضده). كانوا يعضون شفاههم خوفاً من إفساد استمتاع ماركيتا بالتعلم، وكان بعضهم (منهم، خاصة، زيمانيك على وجه الدقة) يؤلفون جوقة من أجل أن يتباروا في تأييد معلوماتي عن الأقزام.

وعندما أرادت ماركيتا أن تعرف ماذا يشبه هؤلاء على وجه الدقة، أذكر أن زيمانيك أكد لها برصانة، أن البروفسور سيشورا الذي كان لها، مع كل رفاق دراستها، شرف رؤيته بانتظام على منبره الجامعي هو سليل أقزام، من جهة أحد أبويه إن لم يكن من جهتهما معاً. ويبدو أن هول، المدرّس، قد روى لزيمانيك أنه نزل، لا أدري في أية عطلة، في الفندق نفسه الذي نزل فيه الزوجان سيشورا اللذان لم يكونا، موضوعين فوق بعضهما، يبلغان الثلاثة أمتار طولاً. وكانا ينامان في سرير واحد رأساً لعقب وليس جنباً إلى جنب، وقد انطوى سيشورا على قدميه، في حين انطوت زوجته على رأسها.

أكدتُ ذلك وقلت: في هذه الحالة لايكون سيشورا وحده، بطبيعة الحال، بأصوله، من أقزام الجبال التشيكية، بل إن زوجته هي أيضاً دون أي شك ممكن منهم، نظراً لكون رقاد أحدهما في استطالة الآخر عرفاً وراثياً لدى كل أقزام تلك المنطقة الذين لم يكونوا، فضلاً عن ذلك، يبنون قط في الماضي، أكواخهم وفقاً لمخطط دائري أو مربع، بل دائماً وفق شكل مستطيل ممطوط في طوله لأن عادة النوم رأساً لعقب لم تكن مقصورة على الزوجين، بل تشمل السلالات بكاملها.

تكوّن لدي، وأنا أذكر في هذا اليوم الأسود، لغونا في ذلك الحين، الانطباع بأن شرارة أمل تشع منه. فزيمانيك الذي سيؤول إليه أمر الحسم في حالتي يعرف أسلوبي التهريجي. وبما أنه يعرف كذلك ماركيتا، فسوف يفهم أن البطاقة التي وجهتها إليها ليست سوى مجرد تصرف صبياني يرمي إلى مناكدة هذه الفتاة، التي كنا جميعاً نعجب بها (لهذا، بالذات، دون شك) ونهزل معها. ولذلك أطلعته، لدى أول فرصة، على مصيبتي. استمع زيمانيك بانتباه. قطب جبينه وقال بأنه سوف يرى.

خلال ذلك الوقت، كنت أعيش يوماً بيوم. كنت أحضر الدروس، كالسابق، وأنتظر. استُدعيت، كثيراً، أمام لجان متنوعة من الحزب كانت تبذل جهدها، بشكل خاصّ، لتبين ما إذا كنت أنتمي إلى مجموعة تروتسكية ما. من جهتي كنت أبرهن ماوسعني ذلك، على أني لم أكن عموماً أعرف ماهي التروتسكية. كنت أتشبث بكل نظرة من الرفاق المحققين، متعطشاً أن أكتشف فيها قليلاً من الثقة. وعندما كنت أحظى أحياناً بهذه الفرصة، كنت قادراً على أن أحمل فيما بعد هذه النظرة وعلى أن أحتفظ بها لنفسي طويلاً، وعلى أن أستخرج، بصبر، منها ذرة أمل.

استمرت ماركيتا في تجنبي. ولما كنت قد فهمت أن موقفها على علاقة بالقضية التي أطلقتها بطاقتي البريدية، فقد كنت أرفض، بداعي الكرامة والغيظ، طرح أي سؤال عليها. إلا أنها، هي نفسها،

أوقفتني ذات يوم في ردهة في الكلية قائلة: «أريد أن أتحدث معك عن شيء».

وهكذا خرجنا من جديد بعد عدة شهور معاً. كان الخريف قد أتى، وكنا كلانا غائصين في معطف واق من المطر أطول مما ينبغي، وهو ماكنا نرتديه في ذلك العهد (عهد غير أنيق جذرياً). كان هناك رذاذ خفيف، وأشجار الرصيف عارية وسوداء. روت لي ماركيتا كل ماجرى: عندما كانت في دورة العطلة التدريبية، استدعاها رفاق الإدارة فجأة ليسألوها عما إذا كانت تتلقى بريداً، فردت بالإيجاب. سألوها من أين تأتي هذه المراسلة، فقالت إن أمها كانت تكتب إليها. لاأحد آخر؟ قالت إنها تتلقى رسائل من هنا وهناك، ومن رفيق دراسة. سألوها: «هل تستطيعين أن تقولي لنا من هو؟» فذكرت لهم اسمي. «وماذا يكتب إليك الرفيق جان؟» ردت بحركة من كتفيها لأنها لم تكن تود أن تذكر عبارات بطاقتي. سألوها: «هل كتبت إليه أيضاً؟». قالت: «فعلاً». وألحوا قائلين: «في أي موضوع؟». قالت: «كتبت إليه هكذا، عن الدورة، وهكذا دواليك». قالوا: «وهل أنت مسرورة في الدورة؟». أجابت قائلة: «نعم! كثيراً!» وهل كتبت له ذلك؟ أجابت: «نعم، بالتأكيد». وهو، ماذا قال عن ذلك؟ ردت ماركيتا متهربة: «هو؟ تعلمون أنه غريب، لو كنتم تعرفونه...» قالوا: «إننا نعرفه ونريد أن نعرف ماذا كتب لك. أتستطيعين إطلاعنا على بطاقته البريدية؟».

أضافت ماركيتا قائلة: «يجب ألاّ تلومني على هذا، لقد كنت مرغمة على أن أريهم إياها».

قلت لماركيتا: «لاتعتذري! لقد كانوا، على كل حال، يعرفونها قبل أن يحدثوك عنها، وإلا لما كانوا استدعوك.

ـ لاأفكر أبداً في الاعتذار. لاأخجل من كوني أعطيتهم إياها ليقرؤوها. لاينبغي أن تفهمني بصورة خاطئة. أنت عضو في الحزب، وللحزب الحق في أن يعرف من أنت وكيف تفكر». قالت

ماركيتا هذا ثائرة. وبعد ذلك، قالت لي إنها فجعت بما كتبت إليها لأننا نعرف جميعنا، أخيراً، بأن تروتسكي هو أسوأ عدو لما نقاتل ونعيش من أجله.

ما الذي كنت أستطيع شرحه حقاً لماركيتا؟ رجوتها أن تتابع وتقص علي ماذا جرى فيما بعد.

قالت بأنهم قرؤوا نص البطاقة وأبدوا ذهولهم. وسألوها عن رأيها، فقالت إن ذلك كان بشعاً. وسألوها لماذا لم تأت، من تلقاء ذاتها، لتطلعهم عليها، فهزت كتفيها. سألوها عما إذا كانت تجهل قواعد اليقظة، فخفضت رأسها. سألوها عما إذا كانت لاتعرف أن للحزب أعداء كثيرين. قالت إنها كانت تعرف، ولكنها لم تكن تعتقد أنه يمكن للرفيق جان... سألوها عما إذا كانت تعرفني جيداً وسألوها أي شخص أنا. قالت إني غريب وإنها كانت، دون شك، تنظر إلي كشيوعي صلب ولكنه يتفق لي أحياناً أن أدلي بأقوال غير مقبولة أبداً من جانب شيوعي. سألوها عن نوع هذه الأقوال مثلاً. قالت إنها لم تكن تتذكر تماماً، إلا أني لم أكن أحترم شيئاً. قالوا إن هذه البطاقة البريدية تشهد على ذلك بوضوح. قالت لهم إنها غالباً ماكانت تختصم معي بصدد كثير من الأشياء. وقالت أيضاً إني كنت أعبر عن نفسي بصورتين مختلفتين في الاجتماعات ومعها. ففي الاجتماع كنت متحمساً تماماً، في حين لم أكن، وأنا في صحبتها، أفعل شيئاً خلاف المزاح في أي صدد وخلاف السخرية من كل شيء. سألوها عما إذا كان يمكن لمثل هذا الشخص أن يكون عضواً في الحزب، فردت بهزة من كتفيها. سألوها عما إذا كان الحزب سيتوصل إلى بناء الاشتراكية إذا كان أعضاؤه يُعلِّمون أن التفاؤل أفيون الجنس البشري. قالت إن مثل هذا الحزب لن يستطيع أن يبني الاشتراكية. قالوا لها إن هذا يكفي وعليها ألاّ تقول لي شيئاً في هذه البرهة لأنهم يريدون مراقبة بقية كتاباتي. قالت إنها لم تعد تريد أن تراني أبداً. لم يوافقوا ونصحوها، على العكس من ذلك، بأن تستمر

في الكتابة إلي، مؤقتاً على الأقل، من أجل العمل على إظهار ماكان فيّ أيضاً.

سألت ماركيتا قائلاً: «هل أوصلت إليهم، بعد ذلك، رسائلي؟» وخجلت في أعماق نفسي لدى ذكرى فيض عواطفي.

قالت ماركيتا: «ماذا كان في مقدوري أن أفعل؟ أما بالنسبة لي، فلم أكن حقاً في حالة تسمح لي بالكتابة إليك. فلن أراسل، على كل حال، أحدهم لمجرد الاستمتاع بأن أكون طعماً! لذلك أرسلت إليك ببطاقة بريدية، ثم انتهى الأمر. لم أكن أحرص على لقائك لأني مُنعت من أن أكشف لك شيئاً، وكنت، فضلاً عن ذلك، أخشى من أن تطرح عليّ أسئلة، وهو ماكان سيرغمني علىالكذب، وأنا أكذب دائماً ضد إرادتي».

سألت ماركيتا عما قادها، ضمن هذه الشروط، إلى رؤيتي من جديد اليوم.

قالت لي إن ذلك كان بدفع من الرفيق زيمانيك. لقد صادفها غداة استئناف الدراسة وأدخلها إلى المكتب الصغير الذي كانت فيه سكرتارية منظمة الحزب في كلية العلوم. قال لها إنه قد تلقى تقريراً يعلمه بأني وجهت إليها، خلال الدورة، بطاقة بريدية فيها عبارات معادية للحزب. وسألها عن هذه العبارات فذكرتها له. سألها عن رأيها في الموضوع فردت بأنها تدين ذلك. أقرها على ماقالت وأبدى قلقه لمعرفة ما إذا كانت مستمرة في معاشرتي. ونظراً لاضطرابها، أدلت بجواب تسويفي. قال لها إنه وصل إلى الكلية، من الدورة، تقرير إيجابي جداً حولها وبأن منظمة الكلية كانت تنوي الاستعانة بها. قالت إنها سعيدة بذلك. فقال لها إنه لم يكن ينوي التدخل في الشؤون الشخصية، ولكنه يرى أن الطيور على أشكالها تقع وأن تثبيت اختيارها عليّ لن يشهد، بالضبط، أبداً لصالحها.

كان ذلك، باعتراف ماركيتا، يتواثب في رأسها منذ عدة سابيع. لقد مضت بضعة شهور لم نكن قد رأينا فيها بعضنا بحيث

أن تحريض زيمانيك قد بدا، في الواقع، نافلاً. ومع ذلك، فإن هذا التحريض نفسه حملها على التفكير، على التساؤل عما إذا لم تكن دعوة أحدهم إلى قطع علاقته بصديق لسبب وحيد هو أنه اقترف خطأً قاسياً أمراً غير مقبول أخلاقياً، وعما إذا لم يكن، بالتالي، من الظلم أيضاً أن تكون هجرتني، من تلقاء نفسها، قبل ذلك. ذهبتْ لرؤية الرفيق الذي كان يدير الدورة أثناء العطلة وسَألتْه عما إذا كان منعها من أن تقول لي شيئاً حول ماجرى بصدد البطاقة البريدية مازال سارياً. وعندما علمتْ، إذ ذاك، أنه لم يعد هناك موجب لإخفاء شيء استوقفتني وطلبت مني لقاء.

وها هي الآن تبوح لي بما يضايقها ويثقل عليها: نعم، لقد أساءت التصرف عندما اتخذت قرارها بعدم رؤيتي ثانية. فبعد كل شيء، ما من إنسان يضيع حتى ولو اقترف أخطر الأخطاء. فقد تذكرت الفيلم السوفياتي «محكمة الشرف» (وهو فيلم كان يحظى بتقدير عال جداً آنذاك في أوساط الحزب) حيث أعطى طبيب ـ باحث سوفياتي أولوية اكتشافه للجمهور الأجنبي قبل أن يفيد منه مواطنيه، وهو ماكانت تفوح منه «الكوزموبوليتية» (كلمة تحقيرية أخرى شهيرة في ذلك العهد)، بل الخيانة. وكانت ماركيتا تشير، متأثرة، إلى نهاية الفيلم خاصة: فالباحث السوفياتي وجد نفسه، أخيراً، مداناً من جانب محلّفي شرف من زملائه، ولكن زوجته المحبة اجتهدت، بدلاً من أن تُعرِض عن الزوج المهان، في بث القوة اللازمة فيه لإصلاح خطيئته الثقيلة.

قلت: «وهكذا قررت ألاّ تتخلين عني.

قالت ماركيتا، ممسكة بيدي: نعم!.

ـ ولكن قولي لي ياماركيتا، أتعتقدين أن ما اقترفته إثم؟

قالت ماركيتا: نعم، أعتقد ذلك.

ـ ماذا ترين، هل من حقي أن أبقى في الحزب أم لا؟

ـ كلا يالودفيك؟ لاأعتقد ذلك».

كنت أعلم أني لو دخلت في اللعبة التي ألقت ماركيتا بنفسها فيها، والتي كانت على ماييدو تعيش جانبها المؤثر بكل روحها، لنلت كل ماكنت قد استمتّ، عبثاً، لبلوغه قبل ذلك بشهور: فقد كانت، دون أدنى شك، ستمنحني نفسها الآن مدفوعة كسفينة بخارية بالعاطفة الإنقاذية بشرط واحد مؤكد، هو أن تُشبع هذه العاطفة تماماً. وكي يجري ذلك، من المهم أن يوافق موضوع الانقاذ (أنا، شخصياً، للأسف) على الاعتراف بإثمه العميق، العميق جداً. إلا أن ذلك كان مستحيلاً علي. كنت على أهبةٍ لامتلاك جسد ماركيتا. إلا أني لم أكن أستطيع أخذه بهذا الثمن وأنا غير القادر على التسليم بخطئي والتصديق على حكم لايحتمل. لم أكن أستطيع سماع مخلوق، كان يجب أن يكون قريباً مني، يقبل هذه الخطيئة.

لم أكن متفقاً مع ماركيتا، رفضت مساعدتها وفقدتها. ولكن، هل كان مؤكداً إلى هذا الحد أني أحسست بنفسي بريئاً حقاً؟ من المؤكد أني لم أكن أتوقف عن إقناع نفسي بالطابع التهريجي لكل القضية، ولكني بدأت، في الوقت نفسه، أرى عبارات البطاقة البريدية الثلاث بعيون المحققين معي. هذه العبارات غدت موضوع خوف لي: فربما كانت ستكشف، تحت قناعها المزاحي، شيئاً خطيراً جداً حقاً، أي عن كوني لم أنصهر قط بكاملي، في جسد الحزب وربما لم أكن أبداً ثورياً بروليتارياً حقيقياً، بل إني كنت قد «التحقت بالثوريين» انطلاقاً من مجرد قرار (ذلك إني قد أقول بأننا لم نكن نحس بالانتماء إلى الثورة كمسألة اختيار، بل كمسألة جوهر: فإما أن يكون المرء ثورياً ويشكل مع الحركة كلاً، وإما ألاّ يكون كذلك ويرغب فقط أن يكونه، ولكن المرء، ضمن هذا الطريق البديل، سيرى نفسه، إلى الأبد، مذنباً في غيريته).

عندما أفكر اليوم في وضعي آنذاك، تتبادر إلى ذهني، بالمماثلة، قوة المسيحية الهائلة التي تذكّر المؤمن بحالته الأساسية والدائمة كخاطئ. وهكذا احتفظت (واحتفظنا جميعنا على هذا النحو) برأسي منخفضاً أمام الثورة وحزبها بحيث تعودت، شيئاً

فشيئاً، على فكرة كون بطاقتي التي تصورتها، مع ذلك، كنكتة تشكل جنحة. وأقلع النقد الذاتي تحت جمجمتي: كنت أقول لنفسي بأن هذه الجمل الثلاث لم ترد إلى ذهني مصادفة. فمن قبل فعلاً كان الرفاق يأخذون علي (وعن حق دون شك) «رواسب فردية». وقلت لنفسي بأني كنت قد أصبحت مفرط الادعاء، متلذذاً بمعرفتي، بشرطي كطالب ومستقبلي كمثقف وبأنه لم يكن من شأن أبي، العامل الذي مات في معسكر اعتقال أثناء الحرب، أن يفهم، احتمالاً، كلبيتي. كنت حاقداً على نفسي لأن عقليته العمالية قد نضبت، للأسف، فيّ. وانتهيت متهماً نفسي بعدة دناءات، إلى التسليم بضرورة عقاب. لم تعد جهودي ترمي، بعد الآن، إلا إلى هذا: ألاّ أطرد من الحزب فأُدمغ بذلك عدواً له. فقد كان يبدو لي أمراً داعياً إلى اليأس أن أعيش عدواً معترفاً به لِما كنت قد اخترته منذ مراهقتي ولِما كنت أتمسك به حقاً.

مثل هذا النقد الذاتي الذي كان، في الوقت نفسه، مرافعة متوسلة، وسعته مئة مرة في ذهني، وعشر مرات، على الأقل، أمام لجان متنوعة، وأخيراً في اجتماع عام لكليتنا قدم فيه زيمانيك، حولي وحول خطيئتي، تقريراً تمهيدياً (ناجعاً، متألقاً، لاينسى) قبل أن يقترح، باسم المنظمة، فصلي من الحزب. ودارت المناقشة التي فُتحت بعد مداخلتي النقدية الذاتية لغير مصلحتي. لم يأت أحد لنجدتي بحيث أن جميعهم (حوالى مئة بينهم أساتذتي وأقرب الزملاء إلي)، نعم جميعهم، حتى آخرهم، رفعوا في النهاية أيديهم ليوافقوا، ليس فقط على فصلي من الحزب بل، فضلاً عن ذلك، (وهو مالم أكن أتوقعه أبداً) على منعي من متابعة دراستي.

في الليل التالي للاجتماع استقليت القطار لأعود إلى بيتي، ولكن هذا البيت لم يكن يستطيع أن يقدم لي أي عزاء نظراً لأني لم أجد، خلال عدة أيام، الشجاعة كي أعترف بمصيبتي لأمي التي كانت تستخلص من دراستي افتتاناً حقيقياً. وبالمقابل تلقيت، منذ الغداة، زيارة جاروسلاف، أحد رفاق الصف وأوركسترا السنبالوم التي كنت أعزف معها عندما كنت تلميذاً ثانوياً. كان مبتهجاً لأنه لقيني

في البيت. فبما أنه سيتزوج بعد يومين، فقد كان يريد أن أكون شاهده. كيف يمكن صد صديق قديم؟ لم يبق أمامي إذن سوى أن أحتفل بسقوطي في فرحٍ زواجيّ.

وذروة الأمر هو أن جاروسلاف استفاد، كوطني مورافي وفولكلوري عنيد، من عرسه الخاص ليرضي عواطفه الأثنوغرافية بترتيبه الاحتفالات وفق مخطط الأعراف الشعبية القديمة: ثياب محلية، أوركسترا سنبالوم، «بطريرك» يتلو بعضاً من النصوص المزهرة، عروس محمولة على الذراعين فوق العتبة، أغنيات، أي باختصار طقوسية يوم كامل أعاد جاروسلاف تكوينها انطلاقاً من كتب الفولكلور أكثر منه من الذاكرة الحية. إلا أني لاحظت شيئاً غريباً: فرفيقي جاروسلاف، وكان، منذ عهد قريب، على رأس مجموعة غناء ورقص مزدهرة ازدهاراً ملحوظاً، كان بالتأكيد يراعي كل الطقوس القديمة الممكنة ولكنه (لحرصه الظاهر على مركزه وانصياعاً للشعارات الإلحادية) امتنع عن دخول الكنيسة مع الموكب، مهما بدا زواج شعبي تقليدي غير معقول دون كاهن ولابركات إلهية. وكذلك فقد ترك «البطريرك» يتلو كل الخطب الموصوفة للمناسبة ولكنه طهرها، بعناية، من كل العبارات الإنجيلية على الرغم من أن هذه الأخيرة كانت أساس رمزية خطابات الزواج القديمة. جعلني الحزن الذي كان يمنعني من التماهي مع سكرة هذا الاحتفال الزواجي أن أرى أثراً من الكلوروفورم في المياه الصخرية لهذه الممارسات الجدية بحيث أن جاروسلاف (المتأثر بذكرى إسهامي الفعال في جلساتنا سابقاً) رجاني أن أمسك بكلارينيت وأجلس مع باقي الموسيقيين فرفضت. كنت قد أعتدت بالفعل على رؤية نفسي ثانية أعزف في أول أيار من السنتين الأخيرتين، مرفوع الذراع ومنشداً. لم أكن أستطيع الإمساك بالكلارينيت وأحسست إلى أي حد كان هذا الصخب الفولكلوري يثير اشمئزازي، يثير اشمئزازي، يثير اشمئزازي...

5

خسرت، إذ حُرمت من متابعة دراستي، الإفادة من تأجيل استدعائي للخدمة العسكرية، ولم يعد علي سوى انتظار التجنيد. وسوف تشغلني إقامتان طويلتان في فرق عمل حتى ذلك الحين: عملت، أولاً، في إصلاح طريق في مكان ما من جهة غوتوالدوف آخر الصيف، ثم اشتغلت في أعمال موسمية في مصنع الأطعمة المحفوظة وأخيراً، وذات يوم خريفي، بعد ليلة بيضاء في القطار، وصلت إلى ثكنة ضاحية مجهولة وقبيحة لأوسترافا.

على هذه النحو، رأيت نفسي في باحة مع مجندين آخرين مفروزين إلى القطعة نفسها. لم نكن نعرف بعضنا. وفي ظل هذه المجهولية المتبادلة يبرز، لدى الآخرين، كل ماهو فظ وغريب. الصلة الإنسانية الوحيدة التي كانت تربط بيننا هي سديمية مستقبل كنا نتبادل حوله افتراضات مقتضبة. بعضنا ادعى أننا جزء من «السود»، ونفى آخرون ذلك، وكان بعضهم يجهل حتى معنى هذه الكلمة. أما أنا الذي كنت مطلعاً، فكنت أستمع إلى هذه الفرضيات برعب.

جاء رقيب ليأخذنا وقادنا إلى برّاكة. تكدسنا في ممشى ثم، من هناك، في نوع من قاعة كبيرة كانت تُرى، على كل محيطها، لوحات جدارية تعلوها شعارات وصور فوتوغرافية ورسوم دون مهارة. وكانت هناك عبارة ضخمة مقصوصة من الورق الأحمر، مثبتة على حاجز آخر القاعة تقول:«سوف نبني الاشتراكية»، وكان تحت هذه العبارة كرسي يقف إلى جانبه شخص عليل قصير. وبحركة أشار الرقيب إلى أحدنا، وكان على هذا الأخير أن يجلس. عقد له العجوز القصير منشفة بيضاء حول عنقه، ونقب في كيس موضوع عند قائمة الكرسي وأخرج منها مِجزةٍ غاص بها في شعر الفتى الكث.

من كرسي الحلاق بدأت السلسلة التي كان يجب أن تحولنا إلى

جنود؛ من هذا الكرسي الذي فقدنا عليه شعرنا وُجّهنا إلى بناء مجاور، وهناك أُرغمنا على خلع ملابسنا كاملة وعلى وضعها في كيس من ورق كان يجب ربطه بحبل صغير وتسليمه إلى كوة. واجتزنا، مقصوصي الشعر وعراة، الممشى لنذهب لاستلام قمصان نوم في قاعة أخرى. وبقمصان النوم اجتزنا باباً جديداً وتلقينا أحذية عسكرية نظامية. وبأحذية عسكرية وقمصان نوم سرنا صفاً، عبر الباحة، لنصل إلى براكة أخرى أُعطينا فيها قمصاناً وسراويلاً وجوارب صوفية وأحزمة وبذلات عسكرية (كانت كتافتا السترة سوداوين!). ووصلنا إلى براكة أخيرة قرأ فيها ضابط صف، بصوت مرتفع، أسماءنا ووزعنا إلى مجموعات وعين لنا غرفاً صغيرة وأسرّة.

في ذلك المساء نفسه، وُضعنا تحت الإمرة، في الاجتماع وحساء المساء والنوم. وفي صباح اليوم التالي، أيقظونا وقادونا إلى المنجم. وعندما وصلنا إلى المكان وُزعنا، مجموعات، على فرق عمل. وبعد ذلك أخذنا قفص النزول إلى ماتحت الأرض مزودين بأدوات (مطرقة غرز، مجرفة ومصباح عامل منجم) لم يكن أحد، أي أحد تقريباً منا يعرف استعمالها. وعندما صعدنا ثانية موجوعي الأجساد، نظمنا ضباط الصف الذين كانوا ينتظروننا في صف وأعادونا إلى الثكنة. تناولنا طعام الغداء، وكان هناك، بعد الظهر، تدريب على النظام المنضم وأعمال تنظيف وتربية سياسية وغناء إجباري. وعلى سبيل الخصوصية، كانت هناك الغرفة الصغيرة وأسرّتها العشرون. وتعاقبت الأيام كلها على هذا الطراز.

بدا التجريد من الشخصية الذي يُفرض علينا عاتماً، تماماً، في الأيام الأولى. فالوظائف اللاشخصية والمفروضة التي كنا نمارسها حلت محل كل تجلياتنا الإنسانية. وكان هذا التعتيم، بالطبع، نسبياً تماماً لأنه لم يكن ناجماً عن ظروف واقعية فقط، بل أيضاً عن نقص في مطابقة الرؤية (كما يحدث عندما ينتقل المرء من منطقة مضاءة إلى غرفة مظلمة). وكان على هذا التعتيم أن يتبدد، ببطء، مع الزمن

بحيث أن ماهو إنساني لدى الرجال أصبح مرئياً، تقريباً، حتى في ظلمة التجريد من الشخصية هذه. ويجب أن أعترف بأني كنت من أواخر من عرفوا تكييف نظرهم مع هذا التغيير في الإنارة.

كان ذلك لأن كينونتي كاملة ترفض قبول نصيبها. كان الجنود من أصحاب الكتافيات السوداء الذين وجدت نفسي منهم يمارسون بالفعل، دون سلاح، تدريبات النظام المنضم، وحدها، ويشتغلون في قعر آبار منجم. كان عملهم مأجوراً (وهو ماكان، من هذه الناحية، يعطيهم ميزة بالقياس مع الجنود الآخرين)، ولكن ذلك كان، في نظري، عزاءً بائساً إذا فكرت في أنهم، جميعاً، أناس ترفض الجمهورية الاشتراكية الفتية تسليمهم بندقية لأنها كانت تعدهم أعداء لها. وبالتالي، بالطبع، كانوا يعاملون بقسوة متزايدة ويتعرضون لتهديد التمديد لزمن خدمتهم إلى ما بعد السنتين القانونيتين. ومع ذلك، فقد كان أكثر مايخيفني هو مجرد وجودي بين أولئك الذين كنت أقدّر أنهم أعدائي الألداء، وكوني قد أُرسلت إلى هناك بقرار من رفاقي بأنفسهم. ولذلك، أمضيت أوقات وجودي الأولى بين السود في عزلة عنيدة. لم أكن أريد مخالطة أعدائي. أما بالنسبة للخروج، فقد كان، في ذلك العهد، صعباً جداً (لم يكن للجندي أي حق في ذلك، وكان يُعطى على سبيل المكافأة)، ولكني، من جهتي، كنت أفضل أن أبقى وحيداً في ركني، في حين كان الجنود يتجولون عصابات بين الحانات والبنات. كنت أحاول، متمرغاً على سريري، أن أقرأ، بل أن أدرس (يكفي، فضلاً عن ذلك، قلم وورقة عندما يكون المرء رياضياً) وأعذب نفسي في عدم قابليتي للتكيف. كنت أعتقد آنذاك أن لي مهمة واحدة وفريدة هي أن أتابع النضال من أجل حقي في «أن لاأكون عدواً»، حقي في أن أخرج من هناك.

ذهبت مرات عديدة لرؤية المفوض السياسي للوحدة، وبذلت جهدي في إقناعه بأن وجودي بين السود كان ناجماً عن خطأ، وأني فُصلت من الحزب من أجل النزعة الثقافية والكلبية، ولكن ليس كعدو

للاشتراكية. شرحت، دون كلل (كم من المرات!)، قصة البطاقة البريدية المضحكة التي لم تعد مضحكة أبداً بل أصبحت، مرتبطة بكتافيتيّ السوداوين، تتزايد بعثاً على الريبة وتبدو كما لو أنها تغطي شيئاً كنت أخفيه. إلا أني أدين للحقيقة بالقول أن المفوض أصغى إلي بصبر وأبدى تفهماً غير مأمول فيه، تقريباً، لتعطشي إلى التبرير. وانتهى حقاً إلى طرح السؤال في مكان ما، في الدوائر العليا (يالها من طوبوغرافية غامضة!)، إلا أنه استدعاني، في خاتمة المطاف، ليقول لي بمرارة صادقة: «لماذا حاولت خداعي؟ أعرف الآن أنك تروتسكيّ».

بدأت أفهم أنه لم تكن هناك أية وسيلة لتصحيح صورة شخصي المودعة في محكمة عليا للمصائر البشرية. فهمت أن هذه صورة (مهما قل شبهها بي) كانت أكثر واقعية، إلى درجة لامتناهية، مني أنا نفسي، وأنها لم تكن، بأية صورة، ظلي، بل كنت أنا، ظل صورتي وأنه ما كان ممكناً، بالمرة، أتّهامها بعدم مشابهتي، بل كنت أنا المذنب في هذا التباين، وهذا التباين كان، أخيراً، صليبي الذي لاأستطيع إلقاء تبعته على أحد وأني كنت محكوماً بحمله.

ومع ذلك، فقد قررت ألاّ أستسلم. كنت أريد حقاً أن أحمل تبايني: أن أستمر في كوني الشخص الذي قرروا أني لست هو..

واقتضى الأمر حوالى خمسة عشر يوماً لأعتاد، إلى حد ما، على عمل المنجم المنهك ويداي منكمشتان على مطرقة ثقيلة كنت أحس بارتجاجها يهز هيكلي العظمي حتى استئناف العمل صبيحة اليوم التالي. لا أهمية لذلك، فقد كنت أعمل بشرف وبنوع من العمى. كنت مصمماً على بلوغ مردودات عامل صدامي وسرعان مانجحت في هذا تقريباً.

إلا أن أحداً لم يكن يرى في ذلك تجلياً لقناعتي: فقد كنا جميعنا، فعلاً، نقبض لقاء المهمة المنجزة (صحيح أن ثمن غذائنا وإقامتنا كان يحسم، ولكننا مع ذلك، نقبض مبلغاً لابأس به من

المال)، فآخرون كثيرون، مهما كانت آراؤهم، كانوا يكدحون جداً لينتزعوا من هذه السنوات الضائعة شيئاً مفيداً على الأقل.

وعلى الرغم من أننا كنا نُعد بالإجماع أعداء شرسين للنظام، فكان يُحتفظ في الثكنة بكل أشكال الحياة العامة الجارية في الجماعات الاشتراكية. فقد كنا نحن، أعداء النظام، ننظم اجتماعات مرتجلة لمدة عشر دقائق بإشراف المفوض السياسي، نشارك في أحاديث يومية حول موضوعات سياسية، وكان علينا أن نهتم بجرائد الحائط وأن نلصق عليها صور رجال سياسة اشتراكيين وأن نكتب، أعلاها، بالفرشاة شعارات تتعلق بالمستقبل المشرق. في البداية، كنت أتطوع، بمباهاة تقريباً، لكل هذه الأعمال. ولكن ذلك لم يكن، بدوره، يبرهن على شيء في نظر أحد: ألم يكن آخرون يعرضون أنفسهم ليفعلوا الشيء نفسه عندما يكونون في حاجة إلى أن يلاحظهم الرئيس ويعطيهم إجازة خروج؟ لم يكن أي جندي ينظر إلى هذا النشاط السياسي بوصفه كذلك بل فقط كمحاكاة فارغة من المعنى كان ينبغي تنفيذها أمام الذين كنا تحت سيطرتهم.

انتهيت، إذن، إلى فهم أن ثورتي كانت موهومة، وأن تبايني لم يعد مدرَكاً إلا مني وحدي لأنه لم يكن مرئياً من الآخرين.

بين ضباط الصف الذين وُضعنا تحت رحمتهم، كان هناك سلوفاكي صغير، أسود الشعر، عريف يتميز باعتداله وانعدام السادية المطلق لديه. كان حسن الموقع لدى جماعتنا على الرغم من أن بعض الألسنة الخبيثة تدّعي أن طيبته لم تكن ناجمة إلا عن بلاهته. وعلى العكس منا، طبعاً، كان ضباط الصف مسلحين ويتفق لهم أن يذهبوا، بين وقت وآخر، للرمي. وفي ذات يوم، عاد العريف الصغير من هذا التدريب مكللاً بكل الأمجاد لأنه جمع الحد الأعلى من النقاط. وقد امتدحه عدد لابأس به من الفتيان (نصفهم عن تعاطف، ونصفهم للسخرية). كان العريف الصغير يحمرّ فخراً.

في ذلك اليوم نفسه وُجدت، مصادفةً، وحدي معه. وعلى سبيل

الثرثرة سألته: «كيف، بحق الشيطان، تفعل لترمي بهذه الدقة؟».

تفحصني العريف الصغير قبل أن يجيب قائلاً: «لدي حيلة خاصة. أقول لنفسي: هذا ليس هدفاً من صفيح، هذا إمبريالي. وعند ذلك أرمي، بغضب، في الصميم!».

كنت أحترق شوقاً إلى معرفة من هو المخلوق البشري الذي يستطيع حقاً أن يتمثله تحت مفهوم الإمبريالي المجرد إلى درجة كافية عندما استبق سؤالي وقال لي، بصوت وقور وتأملي: «لاأعلم ماذا دهاكم جميعاً لتهتفوا لي، فإذا ما وقعت الحرب، أخيراً، فأنتم حقاً، على كل حال، من سأطلق عليهم النار!».

عندما سمعت هذا من جانب هذا الكائن الساذج الذي لم يعرف مرة كيف يرفع صوته ليوبخنا ـ وهو ما رأى نفسه ينقل، فيما بعد، من أجله ـ تبينت أن الخيط الذي كان يربطني بالحزب والرفاق أتى على الانزلاق من بين أصابعي دون رجعة. لقد أُلقي بي خارج درب حياتي.

6

نعم، انقطعت كل الخيوط.

تحطمت الدراسة والاشتراك في الحركة والعمل والصداقات. تحطم الحب والسعي وراء الحب، تحطم بكلمة واحدة فيّ كل تيار الحياة المشحون بمعنى. لم يبق لي سوى الزمن. وبالمقابل تعلمت، بالنسبة لهذا الأخير معرفته بصورة حميمة، كما لم أعرفه من قبل. لم يعد ذلك الوقت الذي كان مألوفاً لدي في السابق، المتحول إلى عمل، إلى حب، إلى كل أنواع الجهود الممكنة. وقت كنت أقبله شارد الذهن، لأنه هو نفسه كان شارداً يمّحي بلطف وراء فعالياتي. كان الآن يأتي إلي عارياً كما هو تحت مظهره الأصلي والحقيقي ويجبرني على تسميته باسمه الحقيقي (على اعتبار أني كنت أعيش، في الوقت الحاضر، الزمن صافياً، زمناً فارغاً بصورة خالصة) من أجل ألاّ أنساه لحظة واحدة، من أجل أن أفكر فيه أبداً ولكي أحس، دون انقطاع بوزنه.

عندما نسمع موسيقى، نسجل اللحن ناسين أنه ليس هناك سوى إحدى صيغ الزمن. فإذا سكتت الأوركسترا سمعنا الزمن، الزمن في حد ذاته. كنت أعيش وقفة ليست هي، بالتأكيد، وقفة للأوركسترا (حُددت مدتها، بوضع، بعلامة اصطلاحية)، بل وقفة غير محدودة. لم نكن نستطيع (كما كانت العادة في كل الوحدات الأخرى) أن نشطر، تدريجياً، تقسيمات سنتميتر خياط من أجل أن نلمس يومياً تقاصر سنتي خدمتنا العسكرية. فقد كان يمكن للسود، فعلاً، أن يروا خدمتهم تمدد بقدر مايُرى ذلك مناسباً. إن امبروز، وهو رجل في الأربعين من عمره، وفي السرية الثانية كان على هذا النحو، يُمضي سنته الرابعة هنا.

كان وجود المرء في خدمة العلم، عندما يكون له في البيت زوجة أو خطيبة، أمراً بالغ المرارة. ذلك يعني أن يرقب باستمرار،

في فكره، حياتهما غير القابلة للضبط. كما يعني أيضاً الفرح باستمرار أمام فكرة مجيئهما (النادرة جداً) والارتعاد باستمرار خوف أن يرفض القائد منح إجازة الخروج المأمول فيها في ذلك اليوم، ومن أن تأتي المرأة إلى باب المقر من أجل لاشيء. وكان السود يروون، فيما بينهم (ضمن فكاهتهم السوداء) أن ضباطاً كانوا ينتظرون نساء الجنود غير المرتويات ويتعرضون لهن من أجل أن يجنوا، أخيراً، ثمرة رغبة كان يجب أن تخص الرجال المحجوزين في الثكنة.

ومع ذلك، فبالنسبة للذين كانت لهم امرأة في البيت، فإن خيطاً يجتاز الوقفة. قد يكون رفيعاً، وقد يكون على هشاشة مقلقة ومهدداً بأن ينقطع بسهولة، ولكنه، مع ذلك، خيط. مثل هذا الخيط، لم أكن أملكه أنا. كنت قد قطعت كل علاقاتي بماركيتا وإذا كانت بعض الرسائل تصلني فهي من أمي... ماذا؟ ألم يكن هذا خيطاً؟

كلا! البيت ليس سوى منزل الأبوين، وليس خيطاً. إنه الماضي فقط. الكتب التي تصلك من أهلك رسائل من قارة أنت تبتعد عنها. والأسوأ من ذلك هو أن هذه الرسائل لاتني تكرر لك أنك ضعت بتذكيرك بالمرفأ الذي أبحرت منه ضمن شروط تجمعت بهذا المقدار من الشرف والكد. نعم تقول لك إحدى الرسائل، إن المرفأ مازال هنا، راسخاً، أميناً وجميلاً، في ديكوره القديم، ولكن الاتجاه، الاتجاه قد ضاع!

وهكذا تعودت، شيئاً فشيئاً، على كون حياتي قد فقدت استمرارها. لقد وقعت من يدي ولم يبق أمامي سوى البدء أخيراً في أن أكون حتى في سريرتي الداخلية، حيث أنا موجود، واقعاً ودون مراجعة. وبالتدريج بدأ بصري يتطابق مع ظلمة التجريد من الشخصية وبدأت أميز الناس حولي بشيء من التأخر عن الآخرين على اعتبار أن الفرق لم يكن مع ذلك، لحسن الحظ، من الكبر بحيث أكون قد أصبحت غريباً عنهم تماماً.

أول من انبرى من هذا الظل (كما هو أول من يطفو اليوم من ظلمة ذاكرتي) كان هونزا، وهو فتى من برنو (الذي كان يتكلم عامية ضواحيها غير المفهومة تقريباً) قد نزل بين السود لضربه شرطياً. لقد ضربه لأنه كان رفيقاً سابقاً له في الدراسة العليا ولأنهما تخاصما. إلا أن المحكمة رفضت هذا التفسير، وأمضى هونزا ستة أشهر في السجن قبل أن يصل رأساً إلى هنا. وبدا ظاهراً أنه يتساوى لديه تماماً، وهو الخراط الماهر، أن يستعيد ذات يوم مهنته، أو أن يفعل أي شيء آخر. لم يكن متعلقاً بشيء، وهو بصدد مهنته يبدي لامبالاة مليئة بالحرية.

عبر هذا الشعور النادر بالحرية، كان بيدريش، أغرب شخص في غرفتنا ذات العشرين سريراً، هو وحده الذي يستطيع أن يباري هونزا. لم يلتحق بنا إلا بعد شهرين من تجنيد أيلول الطبيعي على اعتبار أنه تم فرزه، في البدء، إلى وحدة مشاة رَفَضَ فيها بعناد أن يلمس سلاحاً لأن ذلك ضد مبادئه الدينية الصارمة. لم يعرفوا ماذا يفعلون به، لاسيما بعد أن احتجزوا الرسائل التي كان يوجهها إلى ترومان وستالين يناشد فيها بلهجة مؤثرة، رجلي الدولة حل كل الجيوش باسم الأخوة الاشتراكية. ومضى رؤساؤه، في البدء، بارتباكهم إلى درجة السماح له بالمشاركة في تدريبات النظام المنضم بحيث أنّه، وهو الوحيد دون سلاح وسط الجنود الآخرين، ينفذ أمري «تنكب سلاحك» و«أرضاً سلاحك» بكمال لاغبار عليه إنما بيدين فارغتين. وقد اشترك أيضاً في جلسات التثقيف السياسي الأولى حيث فعل العجب عندما سارع إلى طلب الكلام لدى المناقشة ضد مجرمي الحرب الإمبرياليين. ومع ذلك، فعندما اتخذ مبادرة صنع لافتة في الثكنة دعا فيها إلى إلقاء كل الأسلحة، لاحقه المدعي العام العسكري بتهمة العصيان. إلا أن خطبه لصالح السلام أوقعت الاضطراب في قلوب القضاة إلى حد أنهم أمروا بفحص طبي نفسي وترددوا طويلاً قبل أن يبرئوه ويرسلوا به إلينا. كان بيدريش سعيداً. فقد كان، وهو المتطوع الوحيد للكتافيتين السوداوين، مفتوناً لأنه

حصل عليهما. وهذا هو السبب الذي يحس بنفسه، من أجله، حراً هنا، على الرغم من أن هذا الشعور لم يكن يتجلى لديه على صورة وقاحة، كما في حالة هونزا بل على العكس تماماً، تحت مظاهر انضباط هادئ وحماسة صافية للعمل.

كان الآخرون جميعاً أكثر قلقاً بكثير: هناك فارغا، وهو مجري من سلوفاكيا، كان، نتيجة جهله بالأحكام المسبقة المتعلقة بالجنسية، قد حارب ضمن عدة جيوش متعاقبة وعرف معسكرات أسرى متنوعة، من كِلا جانبي الجبهة. وهناك بتران، وهو أصهب هرب أخوه إلى الخارج قاضياً، في طريقه، على أحد حرس الحدود. وهناك جوزيف، الضعيف العقل، وهو ابن فلاح غني في وادي الألب (كان الآن لاعتياده المفرط على المساحات الواسعة، يختنق خوفاً أمام منظور جحيم الآبار والسراديب). وكان هناك ستانا، في العشرين من عمره، غندور من ضاحية عمالية لبراغ أنعمت عليه لجنة حيه الوطنية بتقرير مفحم لأنه، على مايبدو، قد سكر لدى عرض أول أيار وبال، بعد هذا، على حافة الرصيف عمداً أمام عيون المواطنين الذين أفرحهم ذلك. وكان هناك بيتر بيكني، وهو طالب حقوق مضى، خلال أيام شباط، مع حفنة من زملائه للتظاهر ضد الشيوعيين (لم يلزمه وقت ليفهم أني كنت أنتمي إلى المعسكر نفسه الذي ينتمي إليه الذين طردوه من كليته غداة أيام شباط، وهو الوحيد الذي يبدي غبطته المسمومة لرؤيتي حالياً في الخانة ذاتها التي كان فيها هو نفسه).

أستطيع أن أستحضر ذكرى جنود آخرين شاطروني، آنذاك، مصيري، ولكني أود الاقتصار على الأساسي: كان هونزا الذي أحببته أكثر من الآخرين. أتذكر واحدة من أولى محادثاتنا. فلدى وقفة أثناء الحفر، وكنا قد وُجدنا (ونحن نتناول طعام الإفطار) إلى جانب بعضنا، بادرني هونزا بضربة على ركبتي وقال: «وأنت، أيها الأصم الأبكم، ما الذي بك بالضبط؟» كنت حقاً أصمّاً أبكماً آنذاك (منصرفاً إلى مرافعاتي الداخلية الأبدية)، فحاولت جاهداً أن أشرح

له (بعبارات سرعان ما أحسست بصنعيتها وبعنصر البحث فيها) كيف وصلت إلى هناك، ولماذا لم يكن لدي، في الصميم، ما أفعله حيال ذلك. قال: «يالك من غبي! ونحن، ماذا لدينا لنفعله هنا؟». أردت، مرة أخرى، أن أعرض عليه وجهة نظري (باحثاً عن كلمات أقرب إلى الطبيعة)، وقال هونزا، وهو يبتلع لقمته الأخيرة، متمهلاً: «لو كنت طويلاً بقدر ما أنت غبي لشوت الشمس مخك». كانت روح الضواحي الشعبية تقهقه من خلال هذه العبارة في اتجاهي. وخجلت فجأة من ذكري دون انقطاع، كطفل مدلل، امتيازاتي المفقودة، في حين كنت قد بنيت قناعاتي بدقة على رفض الامتيازات.

مع الزمن اقتربت كثيراً من هونزا (كان يقدّرني لأني كنت أعرف بسرعة كيف أحل ذهنياً كل مسائل الحساب المرتبطة بدفع الأجر وأمنع، بذلك، أكثر من مرة، خداعنا). وفي ذات يوم، سخر من عادتي في التعفن داخل المقر كأبله بدلاً من الافادة من الإجازات، واقتادني مع عصابته. أذكر، جيداً جداً، مرة الخروج هذه. كنا حزمة جيدة، ثمانية أشخاص احتمالاً. كان هناك ستانا ثم فارغا وسينيك أيضاً، وهو فتى من كلية الفنون الزخرفية قطع دراسته (سقط بين السود بسبب لوحات تكعيبية كان يتشبث برسمها في المدرسة. أما الآن، بالمقابل، فقد كان يزين، بقلم الفحم، للحصول على بعض المزايا، كل أبنية الثكنة بصور كبيرة لمحاربين هوسيين[1] مع جماهير وويلات الأسلحة). لم تكن لدينا إمكانيات كبيرة من حيث الأمكنة التي نستطيع ارتيادها. فقد كان وسط مدينة أوسترافا ممنوعاً علينا. ولم يكن يُسمح لنا إلا ببعض الأحياء وببعض الحانات المحددة في تلك الأحياء. وعندما وصلنا إلى الضاحية المجاورة، حابانا الحظ، فقد كانت هناك أمسية راقصة في صالة مهجورة لملعب لم تكن واقعة تحت طائلة أي منع. دلفنا إلى المنشأة لقاء رسم دخول تافه. كانت القاعة الكبيرة تحتوي على كمية من الموائد والكراسي، إلا أنه لم

(1) نسبة إلى جان هوس، المصلح الديني التشيكي. (المعرب)

يكن فيها كثير من الناس، فهم في جملتهم، عشر فتيات وحوالى ثلاثين رجلاً نصفهم من العسكريين القادمين من ثكنة المدفعية الواقعة في الجوار. وعندما رأونا، أصبحوا متنبهين وشعرنا نحن بالإحساس في جلودنا، بأنهم يفحصوننا ويعدوننا. جلسنا إلى مائدة طويلة شاغرة وطلبنا زجاجة من الفودكا، ولكن النادلة أعلنت، بجفاء، أن بيع الكحول كان ممنوعاً، لذلك أوصى هونزا على ثمانية كؤوس من عصير الليمون. ثم مد إليه كل منا ورقة بعشرة كورونات، فعاد بعد عشر دقائق، بثلاث زجاجات من الروم سوف تحسن، تحت الطاولة، كؤوسنا من عصير الليمون. وكنا نلتزم الحد الأعلى من التكتم لأن المدفعيين كانوا يراقبوننا عن كثب، وكنا نعرف أنهم لن يترددوا أبداً في الكشف عن أننا نستهلك الكحول سراً. ويجب أن نلاحظ أن التشكيلات المسلحة كانت تكن لنا عداء عميقاً: فمن جهة أولى، كان أعضاؤها يعتبروننا عناصر مشبوهة، قتلة، مجرمين وأعداء مستعدين، في كل لحظة (حسب أدبيات الجاسوسية التي كانت رائجة في ذلك العهد) لذبح أُسرهم المسالمة بكل خيانة، ومن جهة أخرى (وكان هذا دون شك الأهم) يحسدوننا على امتلاكنا مالاً وقدرتنا، في كل مكان، على السماح لأنفسنا بخمسة أضعاف مايسمحون به لأنفسهم.

تلك كانت، بالفعل، فرادة وضعنا: لم نكن نعرف إلا التعب والكدح، وكانوا يحلقون لنا رؤوسنا كل خمسة عشر يوماً، خوف أن تنبت من جديد، مع نمو شعرنا، ثقة بالنفس لامكان لها. كنا المحرومين الذين لم يعودوا يتوقعون شيئاً حسناً من الحياة، ولكننا نملك المال، لم يكن لدينا الكثير منه، ولكن ذلك يمثل، بالنسبة لجندي وإجازتيه الليليتين الاثنتين كل شهر، ثروة كان يستطيع بها بمناسبة بضع ساعات الحرية هذه أن يتصرف كثريّ، ويعوض بذلك عن العجز المزمن في الأيام اللامتناهية الأخرى.

بينما كانت أوركسترا نحاسية هزيلة تعزف، على الدكة، فالس وبولكا لزوجين أو ثلاثة تدور حول نفسها في الحلبة، كنا بهدوء وحسدٍ نرمق الفتيات ونحتسي عصير ليمون مذاقه الكحولي الصغير

يضعنا، حالياً، فوق كل الآخرين. كان مزاجنا ممتازاً. أحسست بروح اجتماعية فرحة وبشعور أخوّة طيبة بين الرفاق يصعدان إلى رأسي لم أكن قد عشتهما منذ جلساتنا الأخيرة مع جاروسلاف وأوركسترا السنبالوم التي كان يقودها. وخلال الفاصل، كان هونزا قد تخيل خطة لسلب أكثر مايمكن من الفتيات من المدفعيين. كانت الخطة ممتازة بقدر ما هي بسيطة فانصرفنا حالاً إلى تنفيذها. بدا سينيك أكثر تصميماً على العمل وأنجز وهو الجِسور والمهرج، مهمته بمباهاة ليسلينا. دعا إلى الرقص سمراء وضعت كثيراً من المساحيق على وجهها. قادها، بعد ذلك، إلى طاولتنا وجعلنا نقدم له ولها عصير الليمون الممزوج بالروم قائلاً لها بنبرة المثقفين: «اتفقنا إذن!». فهزت برأسها وقرعت كأسها. توقف بليد كان يمر، بشريطة العريف المزدوجة على وصلتي كتفي بذلة مدفعي، أمام السمراء وقال لسينيك بأكثر مايستطيع فظاظة في صوته: «هل تسمح؟». فوافق سينيك قائلاً: «تفضل أيها الأخ القديم!». وفي حين كانت السمراء تتخلع مع العريف المشوق، على إيقاع بولكا غبي، سارع هونزا إلى الهاتف ليطلب سيارة أجرة. بعد عشر دقائق، كان التاكسي هناك. ومضى سينيك ليقف عند باب الخروج. أنهت السمراء الرقصة واعتذرت إلى العريف بأنها ذاهبة إلى التواليت، وفي الثانية التالية سمعنا السيارة تقلع.

بعد نجاح سينيك، جاء دور امبروز الذي وجد لنفسه امرأة ناضجة قليلاً وذات مظهر يدعو للرثاء (وهو مالم يمنع المدفعيين من أن يحوموا حولها باستمرار). وبعد عشر دقائق، وصل تاكسي ومضى مع فتاته وفارغا (الذي كان يدعي أن مامن امرأة توافق على أن تتبعه) ليلقوا سينيك في حانة متفق عليها في الطرف الآخر من أوسترافا. ونجح أيضاً اثنان من جماعتنا في سحب فتاة ولم يبق سوى ثلاثة في القاعة: ستانا وهونزا وأنا. كانت نظرات المدفعيين تزداد شراسة لأنهم بدؤوا يرتابون بالعلاقة بين تناقص عددنا واختفاء ثلاث نساء من ميدان صيدهم. وعبثاً اتخذنا هيئات بريئة، فقد كنا نحس أن المشاجرة تحوم في الجو. قلت وأنا أرمق بحنين

شقراء أتيحت لي فرصة مراقصتها في بداية السهرة دون أن أجرؤ على اقتراح اصطحابها معي: «يلزمنا الآن تاكسي أخير لانسحاب مشرف». عوّلت على الرقصة التالية لأقترح عليها ذلك. إلا أن المدفعيين بدوا كأنهم سيحضنونها بدرجة من القوة استحالت عليَّ معها مقاربتها. قال هونزا: «لاجدوى من الإلحاح». ونهض ليذهب إلى الهاتف. إلا أن المدفعيين غادروا موائدهم، بمجرد أن بدأ يجتاز القاعة وأسرعوا إلى الإحاطة به. نعم، كانت المشاجرة هناك، وكانت ستندلع، ولم يبق علينا، ستانا وأنا، سوى أن نغادر الطاولة لننجد الرفيق المهدد. كانت مجموعة من المدفعيين تحاصر هونزا دون أن يتفوهوا بكلمة عندما برز من بينهم واحد أكثرَ من الشراب، نصف سكران (لديه دون شك، هو أيضاً، زجاجة تحت الطاولة) قطع حبل هذا الصمت المقلق. بدأ عظةً تقول بأن أباه كان عاطلاً عن العمل قبل الحرب وأنه لم يعد يتحمل أن يرى هؤلاء البورجوازيين القذرين الذين يتبخترون بكتافياتهم السوداء وأنه أكثر من مفلوق، في النهاية، وأن على الرفاق مراقبتهم جيداً لأنه سوف يسدد ضربة إلى فكٍّ هذا. وأفاد هونزا من صمت صغير في خطاب السكير ليسأل، بأدب، عما كان الرفاق المدفعيون يريدون منه. قالوا: «أن ترحلوا من هنا بسرعة»، وهو ما أجاب عنه هونزا بأن هذا بالضبط ماسوف نفعله، ولكن فليدعوه إذن يستدعي سيارة أجرة! عند هذه اللحظة بدا أن السكير سيقع في غيبوبة وزأر بصوت أكثر من حاد: «تباً! آه... تباً! نحن الآخرون نتقزز، نرهق أنفسنا، وليس لدينا مال، في حين أنهم وهم الرأسماليون، عملاء التخريب، الأنذال، سيتجولون في تاكسي! كلا! هذا لن يكون! اخنقهم بيدي هاتين! لن يذهبوا من هنا بتاكسي!»».

كانوا جميعاً منهمكين في المشادة. وقد التحم بالأفراد ذوي الزي الرسمي مدنيون ومستخدمو المؤسسة الذين كانوا يخشون حادثاً. عند ذلك لمحتها، لمحت شقرائي التي بقيت وحدها على طاولتها (غير مبالية بالمناقشة). انسحبتُ بهدوء من التجمع، وعند المدخل الذي توجد فيه حجرة الثياب ودورة المياه (لم يكن هناك

أحد سوى المستخدمة)، وجهت إليها الكلام. كنت مثل شخص يلقي بنفسه في الماء دون أن يعرف السباحة، وسواء كنت مرتبكاً أم غير مرتبك، فقد كنت مرغماً على التصرف. فتشت في جيوبي وأخرجت منها عدة أوراق مدعوكة من فئة المئة كورون وقلت لها: «هل يعنيك أن تأتي معنا؟ سوف نمرح بصورة أفضل مما نمرح هنا!». ألقت نظرة على الأوراق وهزت كتفيها. أضفتُ أني سأنتظرها خارجاً، فوافقت وغابت في دورة المياه وسرعان ماخرجت وهي ترتدي معطفاً. ابتسمت لي وأكدت أن المرء يتبين فوراً أني لست كالآخرين. سرني هذا الكلام، ودسست ذراعي تحت ذراعها وسحبتها إلى الجانب الآخر من الزقاق، ماوراء زاوية أخذنا منها نرقب خروج هونزا وستانا أمام القاعة المضاءة بمصباح واحد. سألتني الشقراء عما إذا كنت طالباً، وعندما رددت بالإيجاب، أفضت إلي بأنه سُرق منها بالأمس، في حجرة الثياب، مال لم يكن ملكها، بل للمصنع، وأنها كانت يائسة لأنه يمكن جرها أمام العدالة لهذا السبب: سألتني عما إذا كنت أستطيع أن أقرضها ورقة مئة، مثلاً، فبحثت في جيبي وأعطيتها ورقتين مدعوكتين تماماً.

لم يطل انتظارنا، فقد خرج الرفيقان بسيدارة ومعطف. صفّرتُ في اتجاههما، ولكن ثلاثة جنود آخرين (دون معطف ولاسيدارة) ظهروا فجأة وانطلقوا في أعقابهما. سمعت الوتيرة المهددة لأسئلة لم أميز كلماتها ولكني كنت أخمن معناها. فقد كانوا يبحثون عن شقرائي. ثم قفز أحدهما على هونزا، وبدأت المعركة. سارعتُ بدوري إليهم. وإذا كان ستانا يواجه مدفعياً واحداً، فإن اثنان منهما تجاه هونزا. وكانا فعلاً على أهبة طرحه أرضاً حين وصلت، لحسن الحظ، في الوقت المناسب لألكم أحد المهاجمين. لقد راهنوا على تفوقهم العددي، وهبطت اندفاعتهم الأولية منذ أن تعادلت القوى. وبما أن أحدهم قد انهار أثر ضربة من ستانا، فقد أفدنا من ذهولهم لنلوذ بالفرار.

كانت الشقراء الطيعة تنتظرنا عند الزاوية. ولدى رؤيتها، أخذ

الفَتَيان يهذيان قائلين إني نابغة وأرادا، بإصرار، أن يقبلاني. أخرج هونزا من تحت معطفه، زجاجة مليئة من الروم (لاأفهم كيف استطاع انقاذها خلال المشاجرة) وامتشقها عالياً جداً. كنا في أفضل حال، باستثناء أننا لم نكن نعرف إلى أين نذهب: فقد طُردنا من حانة، وكان دخول الحانات الأخرى ممنوعاً علينا، وخصوم جُنوا من الغضب منعونا من أخذ تاكسي، وكنا حتى في الخارج تحت رحمة حملة تأديبية محتملة. وابتعدنا بسرعة في زقاق صغير. كان هناك أولاً، بيوت على الجانبين، ثم فقط جدار من جهة، وحظائر قصب من الجهة الأخرى. وكانت تظهر قرب إحدى الحظائر عجلة، ثم أبعد من ذلك بقليل آلة زراعية بمقعد من الصفيح. قلت: «إنه عرش». اجلس هونزا الشقراء مرتفعة متراً بالضبط من الأرض. انتقلت الزجاجة من يد إلى أخرى، وكنا نحن الأربعة جميعاً نشرب. وأصبحت الشقراء زلقة اللسان وتحدث هونزا قائلة: «أراهن على أنك لن تقرضني مئة كورون!». دس هونزا في يدها ورقة بمئة كورون، وفي أقل من ثانيتين، رفعت الفتاة معطفها القصير وشمرت تنورتها، وبعد لحظة خلعت سروالها الداخلي. أمسكت بيدي وحاولت جذبي إليها. ولكني، أنا الذي كنت وجلاً، انتزعت نفسي منها ودفعت بدلاً مني بستانا الذي أخذ، دون تردد، مكانه بين ساقيها. ولم يكد الوقت الذي بقيا فيه معاً أن يبلغ عشرين ثانية. أردت بعد ذلك أن أتوارى أمام هونزا (كنت أتمسك بلعب دور المضيف من جهة، وكنت وجلاً من جهة أخرى)، إلا أن الشقراء تصرفت، هذه المرة، بسلطة وألصقتني بها، وعندما استيقظت رجولتي، بعد ملامسات مشجعة، همست في أذني بحنان: «من أجلك أنت أنا هنا أيها الحيوان الكبير»، ثم بدأت تتأوه بحيث تكوّن لدي فجأة حقاً شعور بأنها كانت فتاة حنوناً تحبني وأحبها. وراحت تتأوه وتتأوه وأنا ماضٍ في نشاطي حتى اللحظة التي تفوه فيها هونزا بكلمة فاحشة فوعيت إذ ذاك أنها ليست الفتاة التي كنت أحبها، وابتعدت عنها بدرجة من العنف، قبل أن أبلغ النهاية، خافت

الفتاة معها تقريباً وقالت: «ماذا تفعل؟»، ولكن هونزا كان قد أصبح فعلاً قربها، واستؤنفت التأوهات.

تلك الليلة لم نعد إلى المقر إلا حوالى الساعة الثانية. ومنذ الرابعة والنصف كان علينا النهوض من أجل عمل يوم الأحد الطوعي الذي يجلب لرئيسنا مكافأة، ولنا إجازة خروج يوم سبت من اثنين. كان النوم ينقصنا، وأجسادنا مشبعة بالكحول. وعلى الرغم من رخاوة حركاتنا الشبحية في نصف ظلمة السرداب، كنت أتذكر بسرور سهرتنا.

كان الأمر أقل بريقاً بعد خمسة عشر يوماً. فقد حُرم هونزا من الخروج بسبب مسألة ما. فخرجت إذن بصحبة فتيين من فصيلة أخرى لم أكن أعرفهما إلا بصورة مبهمة جداً. ذهبنا (سكارى تماماً أو تقريباً) لرؤية امرأة طيبة لقِّبت لطولها الوحشي بعمود المصباح. كانت شيئاً مقرفاً، إنما لم يكن هناك مايمكن عمله. فالدائرة الأنثوية التي نستطيع التصرف ضمنها ضيقة جداً، لاسيما بسبب وقت الفراغ القصير الذي لدينا. فقد كانت ضرورة الإفادة بأي ثمن من برهات الحرية (القصيرة والممنوحة بصورة نادرة جداً) تقود الجنود إلى تفضيل الممكن على المقبول. ومع الزمن، وبفضل استكشافات كان يتم تبادل نتائجها، تكونت شبكة (مهما كانت ضحلة) من هؤلاء النساء الممكنات بدرجات متفاوتة (ولايكدن بالتأكيد أن يكن مقبولات) للاستعمال المشترك.

كانت «العمود» جزءاً من هذه الشبكة المشتركة. ولم يكن هذا ليزعجني أبداً. وعندما بدأ الرفيقان يلقون بنكات حول قوامها غير الطبيعي مكررين، خمسين مرة، أن علينا العثور على قرميدة نضعها تحت أقدامنا عندما يحين وقت الشيء، أحسست بهذه المزحات لطيفة: فقد كانت تُنشِّط عنفي حيال المرأة، حيال أية امرأة. وكلما كانت أقل فردية، وكلما قل امتلاكها لروح، كان ذلك أفضل، والأفضل أن تكون امرأة دون هوية.

وعلى الرغم من أني قد شربت كثيراً، فإن سعاري المحموم

انطفأ لدى رؤيتي الفتاة التي سميت «عمود المصباح». بدا لي كل شيء باعثاً على الإشمئزاز وعابثاً. وبما أنه لم يكن هناك هونزا ولاستانا، ولم يكن هناك شخص أتعاطف معه، فقد غبت في اليوم التالي، في سكرة سممتْ استرجاعياً، مغامرة ماقبل ذلك بخمسة عشر يوماً، وأقسمتُ على أني لن أريد قط فتاة على مقعد آلة زراعية ولا «عموداً» سكراناً...

هل يمكن أن يكون قد انتعش، فيّ، مبدأ أخلاقي ما؟ كلا! إن الأمر مجرد قرف. ولكن لماذا القرف، طالما أنه كان لدي قبل ذلك ببضع ساعات رغبة عنيفة في امرأة، وطالما أن العنف المجنون لهذه الرغبة كان مرتبطاً بأنني لاأبالي بمعرفة من تكون هذه المرأة؟ هل كنت أرقّ من الآخرين، هل كنت أشمئز من العاهرات؟ كلا: لقد استولى عليّ الحزن.

استولى عليّ الحزن لكوني اكتشفت أنه لم يكن في المغامرات التي عايشتها شيء استثنائي وأني لم أكن قد اخترتها عن ترف، عن نزوةٍ، عن توقٍ قَلِق إلى معرفة كل شيء، إلى عيش كل شيء (حتى الدناءة)، ولكنها كانت قد أصبحت الشرط الأساسي والاعتيادي لوجودي الحالي، وتحدد بصرامة مجال إمكانياتي وترسم، بخط دقيق، أفق الحياة العشقية التي كُرست لي منذ ذلك الحين، كما لم تكن تُعبّر عن حريتي (كما كان من شأني أن أتصورها لو حدثت لي قبل ذلك بسنة مثلاً)، بل عن حتميتي، عن حدودي، عما حُكم علي به. وكنت فريسة للخوف، الخوف من هذا الأفق الباعث على الرجاء. وكنت أحس بروحي تنطوي على ذاتها، أحسها تتقهقر، وكنت مرعوباً من فكرة أنه لم يبق لها أمام هذا الحصار سوى الهرب.

7

الحزن الذي كان يصدر عن أفق حياتنا العشقية البائس كنا نعرفه كلنا، أو كلنا تقريباً. كان بيدريش (مؤلف البيان من أجل السلام) يحاول الإفلات منه في أعماق سريرته الداخلية التأملية حيث كان إلهه الصوفي باقياً في الظاهر. وكانت تقابل هذه الباطنية التقية، في مجال الشبقية، تلك الرذيلة الانفرادية التي يمارسها بانتظام طقسٍ من الطقوس. وأما الآخرون فقد نظموا دفاعاً أكثر مخادعةً: كانوا يكملون مطارداتهم الكلبية للعاهرات بلجوءٍ إلى أكثر الرومنطيقيات عاطفية. كان لدى بعضهم في بيته حب يشحذونه هنا، حتى يصل بريقه إلى أقصى الدرجات تألقاً، من شدة الاجترار المركز. وكان بعضهم يؤمنون بالوفاء الدائم والانتظار الوفي، وبعضهم يروي في السر لذاته أن الفتاة التي اصطادها، وهو سكران، في حانة ما، كانت تحترق من أجله بنار مقدسة. تلقى ستانا مرتين زيارة براغية كان قد عاشرها قليلاً قبل خدمته (ولم يكن آنذاك، بالتأكيد، قد أخذها مأخذ الجد). ولذلك قرر، وقد استولى عليه الحنان، أن يتزوجها حالاً. وعبثاً قال لنا بأنه يفعل ذلك من أجل إجازة اليومين الممنوحة في هذه المناسبة فقط، فقد كنت أعلم من جهتي أن تلك لم تكن سوى أقوال أرادت لنفسها أن تكون صلفة. كان ذلك في الأيام الأولى من آذار، ومنحه القائد، فعلاً، إجازة لمدة ثمان وأربعين ساعة قضاها ستانا في براغ من أجل أن يتزوج. وأذكر ذلك بصورة مضبوطة جداً لأن يوم عرس ستانا كان بالنسبة لي أيضاً، تاريخاً هاماً جداً.

كان لدي إجازة للخروج، وبما أني كنت حزيناً جداً منذ الإجازة السابقة التي بُدِّدت مع «العمود»، فقد مضيت وحدي متجنباً الرفاق. ركبت القطار المتعرج الخط وهو ترامواي قديم ذو سكة ضيقة يربط أحياء أوسترافا البعيدة وتركت المصادفة تقودني. ثم

نزلت، مصادفةً، كي آخذ مصادفةً أيضاً خطأً آخر. كان هذا المحيط الأوسترافي اللامتناهي حيث تختلط اختلاطا غريباً المصانع والطبيعة، الحقول ومقالب النفايات، باقات الأشجار وأكوام الأنقاض، البنايات الكبيرة والبيوت القروية الصغيرة يجتذبني ويوقع فيّ الاضطراب بصورة خارقة للعادة. بدأت، بعد أن غادرت الترام نهائياً، نزهة طويلة على قدميّ: كنت أتأمل بما يشبه الشغف هذا المشهد الغريب وأبذل جهدي لفهم معناه. وكنت أبحث عن الاسم الذي يعطي هذه اللوحة الشديدة التغاير الوحدة والنظام. انتبهت وأنا أمر بمنزلٍ شاعري مغلف باللبلاب، أن المكان الحقيقي لهذا المنزل هو هنا لأنه، على وجه الدقة، كان يتباين تماماً مع الواجهات الجربة العالية التي تنتصب إلى جواره، وكذلك مع أطياف السقائف والمداخن والأفران العليا التي تشكل خلفيته. مررت ببراكات مدينة صفيح ورأيت، أبعد من ذلك بقليل، دارة كانت حقاً قذرة ورمادية، ولكنها محاطة بحديقة وسياج. وعند زاوية الحديقة بدت صفصافة متهدلة وكأنها قد ضاعت في هذا المشهد. ومع ذلك، كما قلت لنفسي، فإن هذا هو، على وجه الدقة، السبب الذي كان من أجله مكانها الحقيقي هنا. كانت هذه الضروب من اللاتوافق توقع فيّ الاضطراب، لا لكونها تبدو لي القاسم المشترك لكل هذا المشهد فقط بل خاصة لأني كنت أرى فيها صورة مصيري الخاص، منفاي هنا. وبطبيعة الحال، كان مثل هذا الإسقاط لتاريخي الشخصي على موضوعية مدينة كاملة يقترح علي نوعاً من التعزية. كنت أفهم أني لا أنتمي إلى هذه الأمكنة كما لم تكن تنتمي إليها الصفصافة المتهدلة ومنزل اللبلاب، كما لم تكن تنتمي إليها تلك الأزقة القصيرة التي لاتؤدي إلى أي مكان، هذه الأزقة المركبة من أبنية متغايرة. لم أكن أنتمي إلى هذه الأمكنة التي كانت، في السابق، ريفية مرحة أكثر من انتمائي إلى هذه الأحياء القبيحة من البراكات المنخفضة، ولأني لم أكن أنتمي إلى هذه الأمكنة، وكنت أعي ذلك، فإن مكاني الحقيقي

هنا، في متروبول اللاتوافقات المحزنة هذه، في هذه المدينة التي كانت، بعناقها القاسي، تربط بين ماكانا غريبين عن بعضهما.

وجدت نفسي في شارع رئيسي من بتركوفيس، وهي قرية قديمة أصبحت اليوم إحدى ضواحي أوسترافا القريبة. توقفت إلى جوار مبنى ثقيل بطابق واحد، برزت عمودياً من زاويته كلمة «سينما». توارد إلى ذهني سؤال فارغ من النوع الذي لايمكن أن يطرحه إلا هائم على وجهه: كيف أمكن لهذه السينما أن تكون دون اسم! نظرت بانتباه، ولكن شيئاً آخر لم يكن مكتوباً على البناء (الذي لم يكن، إلى جانب ذلك، يشبه السينما أبداً). وكان بين هذا الأخير والمنزل المجاور فراغ طوله متران يشكلان زقاقاً صغيراً. سرت فيه وانتقلت إلى باحة. وهناك، فقط، كان يتبين أن للبناء جناحاً في الدور الأرضي. وكانت على جداره واجهات تحتوي على ملصقات إعلانية وصور إعلام. اقتربت من هناك ولكنه لم يكن في هذا المكان أيضاً اسم للسينما. عدت على أعقابي، ومن خلال سياج فاصل، لمحت صبية صغيرة في الباحة الصغيرة المجاورة. سألتها عن اسم السينما. رمقتني الصبية بنظرة مدهوشة وردت بأنها لاتعرف. قبلت، إذن، بالتسليم بأنها كانت مغفلة من الاسم وبأنه ليس في إمكان دور السينما، في هذا المنفى الأوسترافي، حتى أن تعطي نفسها اسماً.

عدت (دون قصد من أي نوع) إلى الواجهات، وعندها فقط انتبهت إلى أن الفيلم الذي يُعلن عنه ملصق وصورتان كان «محكمة الشرف»، وهو فيلم سوفياتي. إنه الفيلم نفسه الذي كانت ماركيتا تستدعي صورة بطلته عندما استولت عليها الرغبة كي تلعب في حياتي دورها الكبير، دور الرحيمة، وهو نفسه الذي رجع إلى قسوته الرفاق لدى إجراءات الحزب ضدي. كل ذلك كان قد أثار اشمئزازي من الفيلم إلى حد لم أعد أريد معه أن أسمع كلاماً عنه. ولكن ها أنا لا أستطيع، حتى هنا في أوسترافا، أن أفلت من سبابته المتهمة... وماذا إذن؟ إذا كان إصبع مرفوع يزعجنا، فيكفي أن

ندير له ظهرنا. وهذا ما فعلته: كنت أريد أن أعود إلى الطريق.

عند ذلك رأيت لوسي للمرة الأولى.

كانت تسير في اتجاهي وهي في طريقها للدخول إلى باحة السينما. لماذا لم أتابع طريقي عندما التقيت بها؟ أكان ذلك بفضل كسل هيماني الغريب على وجهي؟ أكانت هذه الإضاءة الغريبة للباحة في ذلك العصر هو ما أخرني ومنعني من العودة إلى الطريق؟ أم أن ذلك بسبب مظهر لوسي؟ ومع ذلك، فقد كان مظهراً عادياً تماماً. وعلى الرغم من أن هذه العادية نفسها هي التي يجب أن تكون قد مستني واجتذبتني فيما بعد، فكيف أفسر كيفية استيقافها لي أول مرة؟ ألم أكن قد صادفت، غالباً، مثل هؤلاء الفتيات العاديات على أرصفة أوسترافا؟ لا أعلم. على كل حال، بقيت في مكاني أنظر إلى الفتاة: كانت تتجه بخطى بطيئة، آخذة كل وقتها، نحو الواجهة التي تحتوي على صور «محكمة الشرف». ثم ابتعدت عنها، دون عجلة دائماً، واجتازت الباب المفتوح الذي يوصل إلى شباك التذاكر. نعم، كان هذا البطء الفريد من جانب لوسي هو دون شك الذي سحرني إلى هذا الحد، بطء يشع بالشعور القانع بأنه ما من هدف يستحق أن نستعجل من أجله، وأنه من غير المجدي أن تمتد أيدٍ فارغة الصبر نحو شيء ما. نعم! ربما كان هذا البطء المليء بالكآبة هو، في الحقيقة، الذي أرغمني على أن أتابع بنظري الفتاة بينما هي تمضي نحو الصندوق وتخرج نقوداً وتأخذ بطاقة وتلقي نظرة على الصالة ثم تعود إلى الباحة.

لم يفارقها بصري. ظلت واقفة، مديرة لي ظهرها، تتأمل بعيداً ماوراء الباحة الصغيرة، الحدائق والبيوت الفلاحية المحاطة بأسيجة صغيرة حتى جوار مقلع أسمركان في الأعلى الذي يقطع المنظور. (لن أستطيع قط نسيان هذه الباحة، نسيان أحد تفاصيلها. أتذكر السياج الذي كان يفصلها عن الباحة المجاورة حيث بنت صغيرة تحلم على درجات المنزل. أتذكر هذه الدرجات التي كانت تكتفي بجدار صغير تحمل درجاته حوضي ورود فارغين وبركة

صغيرة رمادية. أتذكر الشمس المدخّنة التي كانت تنحني نحو أسفل المقلع).

كانت الساعة تشير إلى السادسة إلا عشر دقائق، وهذا يعني عشر دقائق قبل بداية الفيلم. كانت لوسي قد رجعت، ودون تعجل، غادرت الباحة إلى الطريق. مشيت خلفها. وعادت إلى الانغلاق، خلفي، لوحة ريف أوسترافا الخربة، ومن جديد كنت في شارع مديني. وعلى مسافة خمسين خطوة كان يمتد ميدان صغير معتنى به، فيه عدة مقاعد وحديقة صغيرة وقرميدات حمراء لبناء غوطي مزيف تلمع، بصورة ضعيفة، عرضاً. كنت أراقب لوسي. لقد جلست على مقعد. لم يكن بطؤها قد غادرها لحظة، ولولا قليل لقلت إنها كانت جالسة ببطء. لم تكن تنظر حولها، ولم تكن تتحرك أبداً. جالسة كما لو أنها تنتظر عملية جراحية أو شيئاً ما يأسرنا إلى حد نجهل معه ماحولنا، ونركز انتباهنا على داخل أنفسنا. وربما كنت أدين لهذا الظرف بالقدرة على أن أحوم حولها وأفحصها دون أن ترتاب في ذلك.

يتحدث الناس، طواعية، عن الحب من أول نظرة. لايغيب عن وعيي أن الحب يميل إلى أن يخلق من نفسه أسطورة، إلى أن يؤسطِر بداياته بعد حدوثها. ولذلك أحاذر من تأكيد كون الأمر قد دار هنا حول حب في هذه السرعة. ولكنه حدث حقاً، هذه المرة، نوع من العرافة: فجوهر لوسي، أو ـ إذا كان علي أن أكون دقيقاً تماماً ـ جوهر ما صارت إليه لوسي فيما بعد بالنسبة ليّ فهمته، أحسست به، رأيته فوراً ودفعة واحدة: فما حملته إليّ لوسي كان هو نفسها، كما تحمل حقائق مكشوفاً عنها.

كنت أنظر إليها، ألاحظ تسريحتها القروية التي تفرق شعرها إلى كتلة لاشكل لها من التجعيدات الصغيرة، ألاحظ معطفها الكستنائي البائس، الرث، بل والأقصر مما ينبغي بقليل. كنت ألاحظ وجهها المتحفظ الجمال، الجميل التحفظ. كنت أحس لدى هذه الفتاة، الهدوء والبساطة والتواضع، وأحس أن تلك كانت قيماً

أحتاج إليها. بدا لي أننا كنا، فضلاً عن ذلك، متقاربين جداً وأنه سوف يكفي أن أقاربها، أن أتحدث إليها، وأنه في اللحظة التي ستنظر فيها، أخيراً، إلى عيني سوف تبتسم كما لو أنها قد رأت فجأة أخاها الذي لم تره منذ عدة سنوات.

عند ذلك رفعت لوسي رأسها. كانت تنظر إلى ساعة البرج (هذه الحركة مسجلة إلى الأبد في ذاكرتي، حركة الفتاة التي لاتحمل ساعة في معصمها وتجلس دائماً، آلياً، أمام ساعة). غادرت مقعدها ومضت في اتجاه السينما. أردت أن أنضم إليها. لم تكن الجرأة تنقصني، ولكن الكلمات خانتني فجأة. كانت الأحاسيس، بالتأكيد، تملأ صدري، إلا أنه لم يكن، في رأسي، مقطع واحد. تبعت الفتاة حتى نقطة تسليم البطاقات التي كانت الصالة ترى منها خالية. دخل بعض الأشخاص واندفعوا نحو شباك التذاكر. سبقْتهم وأخذت بطاقة للفيلم المقيت.

عندها دخلت الفتاة الصالة، وفعلتُ الشيء نفسه. كانت الأرقام المكتوبة على البطاقات تفقد معناها في هذا المكان نصف الفارغ، وكل واحدٍ يجلس حيث يشاء. دلفت إلى صف لوسي نفسه وجلست إلى جانبها. ثم اندلعت الموسيقى الحادة من أسطوانة متعبة، وسادت الظلمة وظهرت الإعلانات على الشاشة.

يجب أن تكون لوسي قد انتبهت إلى أنه ليس من قبيل المصادفة أن يأتي جندي بكتافيتين سوداوين ليجلس إلى جانبها تماماً وأنها بالتأكيد، قد أدركت حضوري القريب وأحست به، لاسيما أني كنت، أنا نفسي متركزاً تماماً عليها. لم أسجل شيئاً مما يجري على الشاشة (وياله من ثأر موهوم: كنت سعيداً لأن الفيلم الذي كان وعاظي الأخلاقيون قد ردوني، مرات عديدة، إلى سلطته يمر الآن دون أن أعيره انتباهاً).

عندما انتهى العرض، أضيئت الشاشة من جديد وغادر المشاهدون النادرون مقاعدهم. نهضت لوسي وأخذت معطفها الكستنائي من على ركبتيها وأدخلت يداً في أحد كميه. اعتمرتُ

سيدارتي بسرعة خوفاً من أن تلمح رأسي المحلوق إلى آخر درجة، ودون أي كلمة، ساعدتها على إدخال يدها الأخرى في كمها. نظرتْ إلي قليلاً ولم تقل شيئاً، وكل ما أبدته هو أنها ربما أحنت رأسها احناءة خفيفة، ولكنني لم أعلم ما إذا كانت تلك طريقة لشكري أم حركة لا إرادية تماماً. ثم خرجتْ، بخطى صغيرة، من صف المقاعد. ارتديت بدوري، بسرعة، معطفي الأخضر (الذي كان، لفرط طوله، غير لائق بالتأكيد) وتبعتها. لم نكن قد أصبحنا بعد في الخارج عندما وجهت إليها الكلام.

كان الأمر كما لو أن ساعتين إلى قربها، مفكراً فيها، قد ضبطتني على طول موجتها: عرفت فجأة كيف أكلمها، كما لو كنت أعرفها جيداً. لم أبدأ الحديث بمزحة ومفارقة ما كما كنت معتاداً. كنت طبيعياً تماماً وهو ما فاجأني، أنا نفسي، على اعتبار أني كنت دائماً حتى ذلك الحين أتعثر في وجود الفتيات، تحت ثقل الأقنعة.

سألتها أين تسكن وماذا تعمل وما إذا كانت تذهب غالباً إلى السينما. قلت لها إني كنت أعمل في المناجم وإن ذلك قاتل، وإني لا أخرج إلا في أوقات متباعدة. قالت إنها تعمل في مصنع وهي تسكن بيتاً للعاملات الشابات حيث يجب أن تعود في الساعة الحادية عشرة وإنها غالباً ما تذهب إلى السينما لأن حفلات الرقص لم تكن تسليها. قلت لها بأنني سأرافقها، عن طيب خاطر، إلى السينما حين يتفق أن تكون لديها أمسية حرة أخرى. قالت إنها اعتادت أن تذهب وحدها. فسألتها عما إذا كان مردّ ذلك لإحساسها بالحزن في الحياة، فأومأتْ إيجاباً. قلت لها إني لم أكن مرحاً بدوري.

لاشيء يقرب بين الناس بهذه السرعة (حتى ولو كان ذلك، في الغالب، تقارباً خداعاً) مثل اتفاق حزين، كئيب. هذا الجو من التواطؤ المسالم الذي ينيم أي نوع من المخاوف أو المكابح وتفهمه النفوس المهذبة كالنفوس العامية: يمثل أسهل نمط للتقارب، وأندر هذه الأنماط، مع ذلك: فينبغي حقاً أن يُستبعد منه هذا «الوقار العقلي» الذي شكله المرء لنفسه، والحركات والإيماءات المصنوعة،

وأن يتصرف المرء ببساطة. أجهل كيف توصلت إلى هذا (دفعة واحدة، دون تحضير) وكيف استطعت أن أصل إلى هذا وأنا الذي كنت دائماً أتلمس كالأعمى وراء وجوهي الزائفة. لا أعلم شيئاً عن ذلك، ولكني كنت أحسه كهِبة غير متوقعة، كتحرير عجائبي.

كنا إذن نقول عن ذاتينا أبسط الأشياء. مشينا حتى بيتها، وهناك توقفنا برهة. كان مصباح يغمر لوسي بضوئه وكنت أنا أنظر إلى معطفها الكستنائي ولا أداعب وجهها أو شعرها، بل القماش المهترىء لهذا اللباس المؤثر.

أتذكر أيضاً أن المصباح كان يتأرجح من هنا إلى هناك، وأنه مرت حولنا بضحكات عالية منفرة فتيات فتحن باب البيت، وأرى، من جديد، المنظور العمودي للبناء وجدرانه الرمادية والعارية ذات النوافذ دون حواف. أتذكر أيضاً وجه لوسي الذي بقي (بالمقارنة مع وجوه فتيات أخريات كنت قد عرفتهن في ظروف مشابهة) هادئاً بصورة مطلقة ودون اضطراب، ينكّر بتعبير التلميذ الذي يقتصر، أمام السبورة، على العرض المتواضع (دون تعنت متجهم ولا خداع) لما يعرفه غير مهتم بالعلامة ولا بالثناء.

اتفقنا على أن أرسل إليها بطاقة لإعلامها بموعد إجازة جديدة ومتى سنستطيع أن نرى بعضنا ثانية. افترقنا (دون أن نتبادل القبل، دون أن نتبادل اللمس) ومضيت. بعد بضع خطوات، التفتُ ورأيتها عند العتبة ممسكة بمفتاحها، دون حراك، تنظر إليّ. كانت، الآن فقط، بعد أن أصبحت على مسافة ما، قد تخلت عن تحفظها، وعيناها (الخفِرتان حتى ذلك الحين) تحدقان بي طويلاً. ثم رفعت يدها على طريقة من لم يقم قط بمثل هذه الحركة، ولايعرف كيف يفعل، ويعلم فقط أنه يلوح باليد كإشارة وداع، ولهذا السبب قررث بصورة خرقاء المجازفة بهذه الحركة. توقفت ورديث على إشارتها. تبادلنا النظر عن بعد، ومضيت، ثم توقفتُ من جديد (ولوسي مازالت تمدد حركة يدها) وهكذا ابتعدتُ، بتمهل، حتى زاوية الطريق التي أخفت كل منا عن الآخر.

8

منذ ذلك المساء، كان كل شيء فيّ قد تحول. كنت مسكوناً من جديد. فقد رُتب داخلي فجأة كما لو كنت غرفة، وكما لو أن أحداً يعيش فيها. كانت ساعة الجدار بعقربيها المشلولين منذ شهور تصقل دقاتها من جديد. كان ذلك هاماً: فالوقت الذي كان يمر، حتى ذلك الحين، كتيار لامعنى له، من لاشيء نحو لاشيء آخر (على اعتبار أني كنت في حالة توقف) أخذ يستعيد، شيئاً فشيئاً، وجهه المؤنسن: كان يعود إلى التمفصل والحساب. علقتُ فجأة أهمية على إجازات الخروج من الثكنة، وأصبحت الأيام في نظري درجات سلم كنت أرتقيها لألقى لوسي.

ومنذ ذلك الحين، لم أكرس أبداً لامرأة أخرى مثل هذا المقدار من الأفكار، من الرعاية الصامتة (وهو مالم يعد لدي أبداً هذا الوقت له). ولم أحس حيال أية امرأة قط بهذا القدر من الامتنان.

الامتنان؟ لأي شيء؟ لقد انتزعتني لوسي، أولاً، من هذا الأفق العشقي البائس الذي كان يحاصرنا جميعاً. من المؤكد أن ستانا، وهو عريس جديد جداً قد كسر على طريقته هذه الدائرة هو أيضاً. لقد أصبحت لديه، بعد الآن، في بيته في براغ امرأة يحبها، يستطيع أن يفكر فيها. إلا أنه لم يكن لديه مايُحسد عليه. فقد حرك بعقد زواجه مصيره، ولكنه منذ اللحظة التي يصعد فيها إلى قطار ليعود إلى أوسترافا كان يفقد كل تأثير فيه.

كنت أنا أيضاً، لأني اكتشفت لوسي، قد حركتُ مصيري، ولكنه لم يغب عني. ومع ذلك كانت لقاءاتي مع لوسي تفيد، على الرغم من أنها متباعدة، من دورية شبه منتظمة وكنت أعرف أنها قادرة على انتظاري خمسة عشر يوماً وأكثر مستقبلة إياي، بعد ذلك، كما لو أن فراقنا الأخير يعود إلى الأمس.

ولكن لوسي لم تقتصر على تحريري من الغثيان العام الناجم

عن يأس مغامرات أوسترافا الغرامية. كنت أعلم حقاً من قبل، أنني خسرت معركتي وأني لن أغير شيئاً من كتافتيّ السوداوين، وكنت أعلم أن من العبث أن أحاول الاعتصام في داخلي أمام رجال يجب أن أقضي معهم سنتين أو أكثر، وأن من العبث أن أطلب، باستمرار، حقي في الاحتفاظ بمساري الخاص (الذي بدأت أفهم طابعه المتميز)، ولكن هذا التغيير في الموقف لم يكن سوى من فعل العقل والإرادة، أي أنه لايستطيع تجفيف الدمع الداخلي الذي كنت أذرفه على مصيري المفقود. هذا الدمع الداخلي، هدأته لوسي كما لو كان بسحر ساحر. كان يكفيني أن أحس بها إلى جانبي، بكل حياتها التي لم تكن تلعب فيها الكوزموبوليتية والأممية، اليقظة والصراع الطبقي، المناقشات حول تعريف ديكتاتورية البروليتاريا، السياسة بستراتيجيتها وتكتيكها، أي نوع من الأدوار.

هذه المشاغل (التي كانت بنت عصرها إلى حد أن مفرداتها سرعان ما ستصبح غير مفهومة) هي التي غرقتُ عندها. وهي بالضبط التي كنت أتمسك بها. كنت قد استطعت، عندما استُدعيت للمثول أمام لجان متنوعة، أن أقدم بالعشرات الأسباب التي قد قادتني إلى الشيوعية، ولكن ماكان قد فتنني، بل سحرني فوق كل شيء، في الحركة، هو مقود التاريخ الذي وجدت نفسي (أو خيل إلي أني وجدت نفسي) قربه. وبالفعل كنا نقرر آنذاك حقاً مصير الأشخاص والأشياء، وذلك بالضبط في الجامعات: فبما أن أعضاء الحزب، داخل مجالس الأساتذة، كانوا يعدون في ذلك الوقت على أصابع يد واحدة، فقد كان الطلاب الشيوعيون، خلال السنوات الأولى، يتولون وحدهم تقريباً إدارة الكليات ويقررون تعيينات الأساتذة وإصلاح التعليم والمناهج. النشوة التي كنا نتذوقها تسمى، عادة، سكرة السلطة، إلا أني أستطيع (بذرّةٍ من النية الحسنة) أن أختار كلمات أقل قسوة: كنا مسحورين بالتاريخ، كنا سكارى لكوننا قد امتطينا جواد التاريخ، سكارى بأننا أحسسنا بجسده تحت مؤخراتنا. وفي معظم الأحيان كان هذا ينتهي بالتحول إلى ظمأ

دنيء للقوة، ولكنه كان هناك (تماماً كما أن كل الشؤون الإنسانية ملتبسة)، في الوقت نفسه، الوهم الجميل بأننا كنا نحن من يدشن هذا العصر، الذي لن يعود فيه الإنسان (كل إنسان) خارج التاريخ ولاتحت عقب التاريخ، بل يقوده ويصنعه.

كنت مقتنعاً بأن الحياة لم تكن، بعيداً عن مقود التاريخ هذا، حياة، بل نصف موت، مللاً، منفى، سيبيريا. وها أنا الآن (بعد ستة أشهر في سيبيريا) أميز فجأة إمكانية وجود جديد جداً وغير متوقع: فقد كان يمتد أمامي، مختفياً وراء جناح التاريخ الطائر، مرج اليومي المنسي الذي كانت تنتظرني فيه امرأة متواضعة وفقيرة، جديرة مع ذلك بالحب: لوسي.

ماذا كان في استطاعة لوسي أن تفهم من جناح التاريخ الكبير هذا؟ يمكن، بصعوبة، أن تكون الضجة الصماء قد مست أذنها. كانت تجهل كل شيء عن التاريخ، تعيش تحته، لاتتعطش إليه، لم تكن تعرف شيئاً عن المشاغل الكبيرة والمؤقتة، فقد كانت تعيش همومها الصغيرة والأبدية، وأنا تحررت فوراً. كان يبدو لي أنها جاءت تبحث عني لتقودني إلى فردوسها الباهت. والخطوة التي بدت لي، قبل لحظة مخيفة، هذه الخطوة التي كانت قد قادتني إلى «خارج التاريخ» أصبحت فجأة، بالنسبة إلي، خطوة الراحة والسعادة. وكانت لوسي تمسك، خَفِرةً، بمرفقي وتدعني أقود...

كانت لوسي مرشدتي الباهتة. ولكن من هي لوسي حسب معطيات أكثر تجسداً؟

كانت في التاسعة عشرة من عمرها، ولكنها أكبر من ذلك بكثير، شأن النساء اللواتي كانت حياتهن صعبة وقُذف بهن، ورؤوسهن في المقدمة، من الطفولة إلى بحر الرشد. قالت إنها ولدت في شيب وإنها ارتادت المدرسة حتى الرابعة عشرة قبل أن تمضي لتعلم مهنة. لم تكن تحب أن تتحدث عن أسرتها، وإذا اتفق لها ذلك، فإنه يحدث لأنها تُرغم على ذلك. لم تكن سعيدة في بيتها. كانت تقول: «لم يكن أبواي يحبانني». وتذكر أمثلة تؤيد قولها: فقد تزوجت أمها ثانية،

وكان زوجها يسكر ويبدو شريراً حيالها. وفي ذات مرة، ارتابا في أنها سرقت منهما مالاً. وكانا، فوق ذلك، يضربانها. وعندما بلغ الخلاف نقطة معينة، أفادت لوسي من فرصة لتهرب إلى أوستراليا. وهي تعيش هنا منذ أكثر من عام. كانت لها صاحبات، ولكنها تفضل الخروج وحدها. فالصاحبات يذهبن للرقص ويُحضرن أصدقاءهن إلى البيت، وهي لاتريد ذلك، فهي رصينة، وتفضل الذهاب إلى السينما.

نعم، كانت ترى نفسها «رصينة» رابطةً بين هذه الصفة وبين ميلها إلى السينما. تحب، خاصة، الأفلام الحربية التي كان يُعرض الكثير منها آنذاك. وهي دون شك تحبها لأنها تجدها آسرة، إلا أنه يمكن أن يكون ذلك، بالأحرى، بسبب المعاناة المخيفة التي تمتلئ بها هذه الأفلام والتي تعبّ لوسي من صورها المشحونة بالرأفة والأسى، وهما عاطفتان كانت تظنهما قادرتين على الارتفاع بها ودعم هذه «الرصانة» التي تحبها في نفسها.

من قبيل الخطأ، بالطبع، أن يُظن أن تغريب بساطة لوسي هو ما جذبني إليها. فبراءتها ونواقص تعليمها لم تكن تمنعها أبداً من فهمي. ولم يكن هذا الفهم يستند إلى مجموعة خبرات أو معرفة، إلى قدرة على مناقشة مسألة والإسداء بنصيحة، بل إلى قابلية التلقي الحدسية التي كانت تصغي إليّ بها.

أذكر يوماً صيفياً: هذه المرة، كنت قد استطعت الخروج من المقر قبل أن تخرج لوسي من عملها. فأخذت إذن كتاباً، وكنت أقرأ وأنا جالس على جدار الحاجز الصغير. بالنسبة للقراءة، كان الأمر على درجة كافية من السوء، إذ ليس لدي سوى القليل من الوقت ومن الاتصالات بأصدقائي البراغيين، ولكني كنت قد حملت معي، إلى خزانتي كمجند، ثلاث مجموعات شعرية كنت أعود للغوص فيها باستمرار، مستمداً منها العزاء: كانت قصائد لفرانتيزيك هالاس.

لعبت هذه الكتب، في حياتي، دوراً فريداً كانت فرادته، فعلاً، في

كوني لست قارىء شعر وهي الكتب الشعرية الوحيدة التي تعلقت بها. لقد اكتشفتها بعد فصلي من الحزب. ففي ذلك العهد، على وجه الضبط، عاد اسم هالاس من جديد شهيراً، لأن الرئيس الإيديولوجي لتلك السنوات قد أتى على اتهام الشاعر الذي كان قد توفي منذ عهد قريب بالمرضية وانعدام الإيمان والوجودية وبكل مايحمل آنذاك نبرة اللعنة السياسية. (كان كتابه الذي جمع فيه آراءه حول الشعر التشيكي وحول هالاس قد صدر، في ذلك الحين، بعدد هائل من النسخ، وكانت ألوف حلقات الشباب تدرسه كنص إجباري).

حتى ولو بدا هذا مضحكاً قليلاً، فإني أعترف به: فالحاجة إلى أشعار هالاس جاءتني من الرغبة في معرفة محروم آخر. كنت أريد أن أعرف ما إذا كان عالمي العقلي يشبه حقاً عالمه. كنت أريد أن أحاول رؤية ما إذا كان الحزن الذي كان الإيديولوجي النافذ يعلن عن مرضيته وفساده يستطيع، بالتفاعل مع حزني، أن يحمل إلي شيئاً من الفرح (لأني لم أكن، في موقفي، أستطيع أن أبحث عن الفرح في الفرح). كنت قد استعرت، قبل أن أتوجه إلى أوسترافا، المجموعات الصغيرة الثلاث من زميل قديم مولع بالأدب وحصلت، لكثرة مارجوته، على ألاّ يطلب مني ردها.

عندما وجدتني لوسي، في ذلك اليوم في المكان المتفق عليه، وفي يدي كتاب، سألتني عما كنت أقرؤه، مددت إليها الكتاب المفتوح، فقالت بدهشة: «أشعار؟»، «وهل يبدو لكِ غريباً أن أقرأ أشعاراً؟». قالت وقد بدأت رفعاً لكتفيها: «لماذا؟» ولكني أعتقد أن دهشتها كانت واقعية لأن الشعر يمتزج لديها، احتمالاً، بفكرة قراءات طفلية. كنا هنا نهيم على وجهينا في هذا الصيف المهزلة، صيف أوسترافا المليء بالسخام، صيف أسود كانت تتراكض فوقه، بمثابة غيوم، سلال من الفحم الحجري تنزلق على أسلاكها الطويلة. كنت أرى جيداً أن هذا الكتاب الذي كان بين أصابعي لم يتوقف عن اجتذابها. ولذلك أعدت فتحه عندما صرنا في غابة صغيرة هزيلة وقلت: «هل يثير فضولك؟» فأومأت برأسها إيجاباً.

لم أقرأ قط، لاقبل هذه المرة ولابعدها، شعراً لأحد ما. كنت مزوداً بنظام يعمل جيداً، قاطع للتيار من الخفر يحميني من الإفراط في التعري أمام الناس، من نشر عواطفي أمامهم. ولم تكن قراءة الأشعار، بالنسبة لي، كما لو كنت أتحدث عن عواطفي فقط، بل كما لو أني بذلك أتوازن على قدم واحدة. كان هناك شيء متكلف سيربكني في مبدأ الإيقاع والقافية نفسه لو أن علي أن أستسلم له في غير حالة انفرادي بنفسي.

ولكن لوسي كانت تملك قدرة سحرية (لم يحصل عليها أي شخص بعدها) على اللعب بقاطع التيار وإبعاد هواجسي. كنت أستطيع أمامها السماح لنفسي بكل شيء حتى بالصدق، بالعاطفة، بالتأثر. وهكذا قرأت:

جسدك سنبلة نحيلة

لن تنثني البذرة الساقطة منها

جسدك كسنبلة نحيلة

جسدك شلة من حرير

مكتوبة من رغبة حتى آخر طياتها.

جسدك كشلة من حرير

جسدك سماء محروقة

في نُسجك يترقب الموت ويحلم

جسدك كسماء محروقة

جسدك صمت فريد

من دموعه ترتعش جفوني

كم هو صامت جسدك

كنت قد وضعت ذراعي على كتفها (المبسوط تحت القماش الخفيف لثوب صغير مزهر) الذي كنت أحسه تحت أصابعي. كنت

أمتثل للإيحاء الذي توافر بأن الأشعار التي كنت أقرؤها (هذه الصلات البطيئة) كانت تتحدث عن حزن جسد لوسي، الجسد الأبكم، المستسلم، المحكوم بالموت. ثم قرأت قصائد أخرى، وهذه الأخيرة التي مازالت حتى اليوم تعرض لي صورتها، والتي تنتهي بهذا السر:

ياجنون الكلمات الخداعة، إني أؤمن بالصمت

أقوى من الجمال، أقوى من كل شيء

ياعيد أولئك الذين يتفاهمون في صمت.

ما الذي أمكنه أن يجتذب منها هذه الدموع؟ أهو معنى الأبيات؟ أم أنها، بالأحرى، الكآبة التي لاتوصف والتي كانت تصدر عن الكلمات، عن طابع صوتي؟ أم ربما كان الانغلاق الخطير للأشعار قد ارتفعت بها، وهذا الارتفاع أثر فيها حتى درجة الدموع؟ أم أن الأبيات حطمت، ببساطة، قفلاً سرياً فيها وحررت ثقلاً متراكماً منذ وقت طويل؟

لا أعلم. كانت لوسي قد تعلقت كطفل بعنقي وقد التصق رأسها بالشبكة التي تشد على صدري، وكانت تبكي، وتبكي وتبكي.

9

كم من مرة، في هذه السنوات الأخيرة، أخذت عليّ نساء من كل الأنواع (لأني لم أستطع مبادلتهن عواطفهن) التكبر. هذا شيء لامعنى له، فلست متكبراً، ولكني في الحقيقة متأسف، أنا نفسي، لعدم قدرتي في عمري الراشد على أن أجد النسبة الحقيقية حيال امرأة، لأني، كما يقال، لم أحب واحدة. لست متأكداً من معرفة أسباب هذا الفشل، لاأعلم ماإذا كانت عيوب القلب هذه فطرية أم أنها، بالأحرى، تمد جذورها في قصة حياتي. لاأريد أن أقع في المفجع، ولكن الأمر هو هكذا: فغالباً جداً ما تضاء، في ذكرياتي، قاعة يقرر فيها مئة شخص، رافعين أيديهم، تحطيم حياتي. لم يكن الأشخاص المئة هؤلاء يعرفون أن الأمور ستبدأ، ذات يوم، في التغير ببطء. لقد توقعوا أن يكون إبعادي أبدياً. اخترعت عدة مرات لا لمتعة اجترار العشب المر، بل بسبب عناد هو خاصة التفكير، متغيرات لقصتي متخيلاً، على هذا النحو، ما كان يمكن أن يحدث لو أنه اقُترح شنقي بدلاً من فصلي من الحزب. لم أصل قط إلى أن أستنتج شيئاً خلاف أن جميعهم، حتى في هذا الاحتمال، كانوا سيرفعون أيديهم، خاصة لو سوّغ التقرير التمهيدي، بعبارات شاعرية، فائدة هذه العقوبة. ومنذ ذلك الحين كنت حين أتعرف على أشخاص جدد، من رجال ونساء، أصدقاء جدد أو عشيقات محتملات، أحولهم في فكري إلى ذلك العهد وتلك القناعة، وأتساءل ما إذا كانوا سيرفعون الأيدي. لم يقاوم أحد هذا الامتحان: فكلهم يرفعون أيديهم. كما فعل في السابق أصدقائي ومعارفي (بعضهم بلهفة، وبعضهم على الرغم منه، عن اقتناع أو عن خوف). فسلموا إذن أن من الصعب العيش مع أشخاص مستعدين لإرسالك إلى المنفى أو الموت، من الصعب أن تصنع منهم أصدقاء حميمين، كما من الصعب أن تحبهم.

ربما كان ظلماً مني أن أخضع الناس الذين كنت أعاشرهم

لفحص خيالي بهذه القسوة عندما كان محتملاً جداً أنهم كانوا سيُمضون إلى جانبي حياة على درجات متفاوتة من الهدوء، ماوراء الخير والشر دون أن يعبروا، أبداً، القاعة الكبيرة حيث ترتفع الأيدي. ربما سيمضي أحدهم إلى درجة القول بأنه كان لسلوكي هدف واحد: رفعي، في غطرسة أخلاقية، إلى مافوق الآخرين. ولكن الاتهام بالتكبر لن يكون صحيحاً حقاً. صحيح أني لم أصوت قط على تدمير كائن من كان، إلا أني كنت أعرف تماماً أن هذه المزية كانت افتراضية، لأني رأيت نفسي أُحرم من حق رفع اليد بصورة مبكرة جداً. حاولت حقاً زمناً طويلاً إقناع نفسي بأنني، على الأقل، لم أكن في مثل هذه المناسبة لأتصرف كالآخرين، إلا أنه كان لدي، في كل مرة، ما يكفي من الأمانة كي أضحك في النهاية من نفسي: أهكذا كنت، أنا وحدي، من لن يرفع يده؟ أكان من شأني أن أكون العادل الوحيد؟ آه، لا! لم أكن أجد في نفسي أدنى ضمانة لأن أكون أفضل من الآخرين. ولكن ماذا سيغير ذلك من علاقاتي بالآخرين؟ إن وعي بؤسي الخاص لايصالحني أبداً مع بؤس أشباهي. لاشيء ينفرني مثل تآخي الناس لأن كل واحد منهم يرى في الآخر خِسته الخاصة. لاحاجة لي إلى هذه الأخوّة اللزجة.

كيف إذن استطعت أن أحب لوسي؟ إن التأملات التي أفلتت مني منذ قليل أحدث، لحسن الحظ، من ذلك بحيث استطعت (في عمر أكثر انصرافاً إلى العذاب منه إلى التفكير) أن أقبل لوسي بقلب متعطش ولايرتاب كهبة، هبة من السماوات (الرمادية والحانية). كان ذلك، بالنسبة لي، -زمناً سعيداً، الأسعد احتمالاً: كنت منهكاً، مضنى ومرهقاً بالمتاعب، ولكن سلاماً متزايد الزرقة كان ينتشر في أعماق نفسي ويزيد كل يوم. وهذا شيء طريف: لو أن النساء اللواتي يأخذن علي اليوم تكبري ويرتبْن في كوني أجد جميع الناس أغبياء قد عرفن لوسي لاعتبرنها بلهاء، ولم يكن من شأنهن أن يفهمن لماذا أحببتها. وأنا كنت أحبها بدرجة من القوة لم أتصور معها أنه يمكننا أن نفترق قط. صحيح أني ما من مرة حدثت لوسي عن ذلك،

ولكني كنت، أنا نفسي، أعيش مع الاقتناع بأني سأتزوجها ذات يوم. وإذا بدا لي هذا الاتحاد غير متعادل، فإن عدم التعادل هذا كان يجذبني أكثر مما يصدني.

كان يجدر بي أكون شاكراً لقائدنا، أيضاً، من أجل هذه الشهور القصيرة من السعادة. كان ضباط الصف يرهقوننا بقدر مايستطيعون، يدققون سعياً وراء أدنى قذارة في طيات بزاتنا، يقلبون أسرتنا إذا لم تكن مرتبة بشكل متقن، ولكن القائد، نفسه، كان مستقيماً. لقد نُقل، وهو لم يعد فتياً جداً، إلى قطعتنا من فرقة مشاة وخُفضت، لهذا السبب، رتبته كما قيل. فقد كان، إذن، هو الآخر، معاقباً، وربما كنا قد كسبناه من أجل هذا. من جهتنا، كان الأمر بديهياً، فقد كان يطلب النظام والانضباط فضلاً عن يوم عمل طوعي في بعض أيام الآحاد (من أجل أن يستطيع تقديم تقرير عن نشاطه السياسي إلى رؤسائه)، ولكنه لم يكن يضايقنا، أبداً، دون سبب ويمنحنا، بسهولة، الإجازات كل سبت من اثنين، بل أعتقد أني استطعت، في ذلك الصيف، أن أرى لوسي حتى ثلاث مرات في الشهر.

في الأيام التي كنت فيها محروماً منها، كنت أكتب إليها رسائل وبطاقات بريدية لاتحصى. ولم أعد أعلم، جيداً جداً، اليوم ماذا وكيف كنت أحدثها. ولكن ماكانت عليه رسائلي لايهم كثيراً. فقد كنت أريد، بالأحرى، أن أبينّ أني كتبت رسائل كثيرة، في حين لم تكتب لوسي أية رسالة.

كان الحصول على أن تكتب إليّ فوق إمكانياتي. فربما رسائلي الخاصة قد أفزعتها. وربما بدا لها أنها لم تكن تعرف ماذا تكتب إلي، وأنها تخطىء في الإملاء، وربما تخجل من كتابتها الخرقاء التي لم أكن أعرف منها سوى التوقيع على بطاقة هويتها. لم أنجح في إقناعها بأن عدم مهارتها وضروب جهلها عزيزة على قلبي لأنها كانت تكشف عن لوسي لم تُمس، واهباً نفسي الأمل في أن أنطبع فيها بعلامة يزيد في عمقها كونها لاتمحى.

لم تفعل لوسي في البدء سوى شكري، بحياء، على رسائلي. وسرعان مااعترتها الرغبة في أن تقدم لي شيئاً بالمقابل، وبما أنها لم تكن تريد أن تكتب، فقد اختارت الزهور. وإليكم كيف حدث ذلك: كنا نهيم في غابة صغيرة، وفجأة انحنت لوسي لتقطف زهرة صغيرة مدّتها إلي. وجدتُ ذلك مؤثراً وغير مفاجئ أبداً. ولكني شعرت بشيء من الضيق عندما انتظرتني، في الموعد التالي، وفي يدها باقة.

كنت في الثانية والعشرين من عمري، وكنت أهرب من كل ماكان يمكن أن يسقط عليّ حتى ظلاً مؤنثاً وغير بالغ. في الطريق، كنت أخجل من حمل زهور، وكان يزعجني أن أشتري زهوراً، ويضايقني، أكثر من ذلك، أن أتلقاها. كنت قد اعترضت، مرتبكاً، لدى لوسي بأن الرجال هم الذين يقدمونها للنساء، وليس العكس، ولكني عندما رأيتها على أهبة البكاء، سارعت إلى امتداحها عليها وإلى أخذها.

لم يكن هناك مايمكن فعله. فمنذ ذلك اليوم، كانت باقة تنتظرني في كل موعد من مواعيدنا، وانتهيت إلى قبول ذلك لأن عفوية الهبة كانت تجردني من سلاحي، ولأني فهمت أن لوسي تحرص على هذا الشكل من الهدية. فربما كانت تتألم لنقص بلاغتها وترى في الزهور طريقة في الكلام، ليس بموجب الرمزية الثقيلة للغات الزهور القديمة، بل بالأحرى، بمعنى أقدم أيضاً، أكثر ضبابية، أكثر غريزية، سابق للغة. وربما كانت لوسي، وقد فضلت دائماً الصمت على الخطاب، تحلم بذلك الزمن حيث كان الناس يتبادلون الحديث، لأن الكلمات لم تكن موجودة، بحركات صغيرة: كانوا بإشارة من إصبع يدلّون على شجرة، يضحكون، يلمس أحدهم الآخر...

وسواء أكنت نجحت أم لم أنجح في توضيح المعنى الحقيقي لهدايا لوسي، فقد أثّرت، نهائياً، فيّ وأيقظت لدي الرغبة في أن أقدم إليها، أنا أيضاً، هدية. لم تكن لوسي تملك سوى ثلاثة فساتين كانت تغيرها في الترتيب نفسه، دائماً، بحيث أن لقاءاتنا كانت تتعاقب على

إيقاع وزن له ثلاث حركات. كنت أحبها كثيراً، أحب هذه الفساتين الصغيرة، الواحد منها مثل الآخر، بالذات لكونها مفتوقة، بالية، سقيمة الذوق إلى درجة كافية. كانت تروق لي بقدر مايروق لي معطفها الكستنائي (المهترئ عند مقلبي الكمين) الذي داعبته، فوق ذلك، قبل وجه لوسي، لذا قررت أن أبتاع لها فستاناً، فستاناً جميلاً، كدسة من الفساتين. وفي ذات يوم، اقتدت لوسي إلى مخزن كبير للألبسة الجاهزة.

في البداية، خيل إليها أننا نمضي إلى هناك كفضوليين، لنرقب الموج البشري الذي يرتقي الأدراج وينزل منها. وفي الطابق الثاني، وقفت أمام علاقات طويلة تتدلى منها ألبسة نسائية في موكب كثيف، وبما أن لوسي لاحظت أني كنت أفحصها باهتمام، فقد اقتربت وحملقت نحو بعض هذه الألبسة. قالت: «هذا جميل»، وهي تدلني على فستان بزهور حمراء قُلدت حتى في تفاصيلها. كان هناك حقاً القليل من الأشياء الجميلة، إلا أنه يمكن، أخيراً، أن يوجد منها فعلاً. سحبت فستاناً وناديت البائع قائلاً: «هل يمكن للآنسة أن تجرب هذا؟». ربما كانت لوسي ستحتج إلا أنها لم تكن تجرؤ أمام غريب، أمام مسؤول الجناح، بحيث أنها وجدت نفسها في مقصورة دون أن تعرف كيف.

بعد برهة، أزحت زاوية من الستارة لأنظر إليها. وعلى الرغم من أنه لم يكن في الفستان المجرّب أي شيء خارق، فإني لم أفق من دهشتي: كان، بتفصيلته الحديثة تقريباً، قد جعل من لوسي، كما لو أن ذلك بسحر ساحر، مخلوقاً آخر. قال البائع، من وراء ظهري: «هل تسمح؟» وأغدق على لوسي والفستان إعجاباً مطنباً. وعند ذلك، ألقى عليّ نظرة، أنا وكتافتيّ، وسألني (على الرغم من أن الجواب كان بديهياً) إذا ماكنت من «السياسيين». أومأت برأسي إيجاباً. غمز بعينه وابتسم وقال لي: «ربما لدي بضاعة أفضل، هل تريد رؤيتها؟». ورأيت فوراً، تشكيلة من فساتين الصيف وفستاناً أسود مكسياً. لبستها لوسي، الواحد منها بعد الآخر، وكانت كلها تليق بها

إلى حد السحر، فكل واحد منها كان يستحيل بها، ولم أعد أعرفها في الفستان الأسود.

البرهات الحاسمة في تطور الحب لاتنجم، دائماً، عن أحداث دراماتيكية. فغالباً ماتُصنع من ظروف تبدو، لأول وهلة، تافهة تماماً. ذلك هو شأن زيارتنا لمخزن الألبسة الجاهزة. كانت لوسي قد مثلت، بالنسبة لي، حتى ذلك الحين، كل الممكنات: الطفل، نبع الحنان والعزاء، البلسم والهرب من ذاتي. كانت، حرفياً، كل ذلك ـ ماعدا كونها امرأة. لم يكن حبنا، بالمعنى الحسي للكلمة، قد تجاوز حد القبلات ـ وفوق ذلك، فإن طريقة لوسي في التقبيل، نفسها، طفلية (كنت مفتوناً بالقبلات الطويلة الطاهرة من الشفتين المغلقتين اللتين تبقيان جافتين، اللتين تُبرزان في تلامسهما المتبادل، خطوطهما العمودية الرقيقة المؤثرة إلى درجة تفوق الوصف).

باختصار، كنت أحس حتى ذلك الحين، فيما يتصل بها، بالحنان لابالشهوة. كنت قد تعودت على هذا الغياب إلى حد لم أكن معه أنتبه إليه. فقد كان تعلقي بلوسي يبدو لي من الجمال بحيث ما كان ممكناً حتى لفكرة كون شيء ينقصه أن تراودني: ياله من ترابط متناغم: لوسي، فساتينها الرمادية الرهبانية، والطاهرة رهبانياً، علاقاتي معها. في اللحظة التي ارتدت عندها لوسي فستاناً جديداً، انقلبت المعادلة كاملة: فقد هجرت لوسي، دفعة واحدة، صور لوسي عندي. رأيت الساقين اللتين ترتسمان تحت تنورة جيدة التفصيل، ونسب الجسم التي تتمايل بظُرف، امرأة جميلة انحلّت رصانتُها القاتمة في لباسٍ بسيط الألوان وأنيق الشكل. هذا الاكتشاف المفاجيء لجسدها تركني مبهور الأنفاس.

كانت لوسي تشغل، في بيت العاملات، غرفة مع ثلاث فتيات أخريات. لم تكن الزيارات مقبولة إلا لمدة ثلاث ساعات فقط، بين الخامسة والثامنة، ليومين في الأسبوع. وكان الزائر ملزماً، أيضاً، بتسجيل اسمه لدى الاستعلامات، في الطابق الأرضي حيث ينبغي عليه أن يودع هويته ويقدم نفسه عند المغادرة. وفضلاً عن ذلك،

فقد كان لكل رفيقة من رفيقات لوسي عشيق أو عدة عشاق يجب أن تلقاهم في حميمية الغرفة المشتركة، بحيث كن يتشاجرن ويتبادلن الكراهية واللوم على كل دقيقة تقضمها إحداهن. كان كل ذلك من المشقة بحيث لم أجازف قط بالذهاب لرؤية لوسي في البيت. إلا أني علمت أن شريكاتها في الغرفة يجب أن يلتحقن، خلال شهر، بفرقة زراعية لمدة ثلاثة أسابيع. قلت للوسي إني أريد الإفادة من هذه الفترة لألقاها في غرفتها. أصبحت حزينة وقالت إن صحبتي تروق لها، أكثر، في الخارج. أفصحت لها عن رغبتي أن أكون معها في مكان لا أحد ولاشيء فيه يزعجنا، حتى نكون لبعضنا تماماً وإني كنت أريد، فوق ذلك، رؤية كيفية سكناها. لم تكن لوسي تعرف كيف تقاومني، ومازلت أتذكر أيضاً انفعالي عندما انتهت إلى الموافقة على اقتراحي.

10

كنت قد أمضيت مايقرب من السنة في أوسترافا، وكانت الخدمة، غير المحمولة في البدء، قد أصبحت بالنسبة لي شيئاً تافهاً واعتيادياً. توصلت، على الرغم من كل المضايقات، مع ذلك إلى أن أكوّن لي رفيقين أو ثلاثة، وكنت سعيداً. كان صيفاً جميلاً بالنسبة لي (كانت الأشجار مليئة بالسخام، ومع ذلك، فإن عيني اللتين لم تكادا أن تُغسلا من ظلمة المقلع تريانها فائقة الخضرة)، إلا أن بذرة التعاسة تختفي، وهو شيء معروف، في قلب الهناء: كانت شؤون الخريف الحزينة قد تكونت خلال هذا الصيف الأخضر ـ الأسود.

بدأ ذلك مع ستانا. كان قد تزوج في آذار. وبعد بضعة أشهر، وصلته أولى الأخبار: فقد كانت زوجته تتنقل في الملاهي الليلية. وثارت أعصابه، فوجه إليها رسائل متلاحقة، وكانت الإجابات تصله مهدئة. وعند ذلك (مع الأيام الجميلة)، جاءت أمه إلى أوسترافا. ظلا معاً طيلة يوم سبت، وعاد إلى المقر شاحباً وصموتاً. في البدء، لم يشأ خجلاً أن يقول شيئاً. ومع ذلك انفتح في الغد لهونزا ثم لبضعة آخرين. وعندما رأى أن الكل كانوا على علم، تحدث عن ذلك، أيضاً، وفي كل يوم ودون انقطاع: قال بأن زوجته مومس وانه سيذهب ليقول لها كلمتين وانه سيدق عنقها. وعلى الفور مضى إلى القائد ليحصل على إجازة يومين. إلا أن القائد تردد في منحه إياها لأنه قد تلقى، في تلك الأيام بالضبط، شكاوى عديدة (من الثكنة كما من المناجم) ضد ستانا المذهول والثائر باستمرار. فتوسل إليه هذا الأخير، إذن، لمنحه أربعة وعشرين ساعة على الأقل. أشفق عليه القائد وأعطاه إياها. ومضى ستانا ولم نره بعد ذلك قط، أما ماجرى فلا أعرفه سوى عن طريق السماع:

فقد وصل إلى براغ، وانقضّ على امرأته (أقول امرأة، ولكنها كانت صبية في التاسعة عشرة من عمرها)، واعترفت له من جانبها

بوقاحة (وربما بتلذذ) بكل شيء. بدأ بضربها فقاومت، حاول خنقها، وفي النهاية ضربها على رأسها بزجاجة. انهارت الصبية على الأرض وظلت دون حراك. هرب ستانا الذي استولى عليه الهلع. والله وحده يعلم كيف عثر على شاليه صغير في أعماق الجبال، وهناك عاش في انتظار اعتقاله وإرساله إلى المشنقة. وجاؤوا فعلاً لاعتقاله بعد شهرين، إلا أنه حوكم بتهمة الفرار من الخدمة لا بتهمة القتل. وبالفعل، فبعد رحيل ستانا بقليل، استعادت زوجته وعيها وكانت، باستثناء حدبة على رأسها، سليمة. وأثناء وجوده في السجن العسكري طلقته. وهي اليوم زوجة ممثل براغي معروف أذهب لرؤيته بين حين وآخر، لأتذكر الرفيق القديم الذي انتهى فيما بعد بصورة محزنة: فبعد انتهاء خدمته العسكرية بقي عامل منجم. وقد حرمه حادث عمل من أحد ساقيه، وحرمه بترٌ سيء الاندمال من الحياة.

هذه المرأة الطيبة التي يقال أنها مازالت تلمع في الأوساط الفنية، لم تجلب النحس لستانا وحده، بل لنا جميعاً حقاً. كان هذا، على الأقل، انطباعنا على الرغم من أنه لم يكن يمكننا أن نميز، بدقة، ما إذا كانت هناك (كما كان يظن الجميع) علاقة علة بمعلول بين الفضيحة التي أحاطت بفضيحة ستانا ووصول لجنة مراقبة وزارية، بعد ذلك بقليل، إلى ثكنتنا. وعلى كل حال، خُفضت رتبة قائدنا وتم إبداله بضابط شاب (لايكاد يبلغ الخامسة والعشرين من عمره) غيّر قدومه كل شيء.

قلت إنه كان في الخامسة والعشرين ولكنه يبدو أصغر بكثير، له هيئة صبي. ولم يجعله ذلك إلا أكثر تجشّما لعناء صنع انطباع. لم يكن يحب أن يصرخ، يتكلم بجفاء ويفهمنا، جيداً، بهدوء رصين، أنه يعتبرنا جميعنا مجرمين. صرح لنا هذا الطفل منذ خطبة وصوله قائلاً: «أعلم أن أكثر رغبة لديكم هي أن تروني على المشنقة، المصيبة هي أنه إذا كان هناك من سيشنق، فأنتم لا أنا».

لم يطل أمرُ وقوع الصراعات الأولى. وقد بقيت قصة سينيك،

خاصة، في ذاكرتي لأنها على وجه الاحتمال بدت لنا مسلية جداً: فمنذ سنة انقضت على تجنيده، كان قد صنع كثيراً من اللوحات الجدارية كان من حظها في عهد قائدنا السابق أنها حازت على القبول. كان موضوعه المفضل، كما ذكرت سابقاً، جان زيزكا، القائد الكبير في الحروب الهوسية ومقاتليه القروسطيين. وكان يصحب هذه المجموعات، رغبة منه في تسلية الرفاق، بامرأة عارية يقدمها للقائد كرمز للحرية أو الوطن. وبما أن قائد الوحدة الجديد قد قرر، بدوره، اللجوء إلى خدمات سينيك، فقد استدعاه، أخيراً، ليطلب إليه رسم شيء لتزيين القاعة المخصصة لدروس التربية السياسية. وطلب إليه إذ ذاك أن يتخلى، هذه المرة، عن أقمار زيزكا من أجل أن «يزيد توجهاً نحو المعاصرة». وكان يجب أن تمثل اللوحة الجيش الأحمر واتحاده مع طبقتنا العاملة ثم، أيضاً، أهميته في انتصار الاشتراكية في شباط. قال سينيك: «حسناً ياسيدي القائد!»، وانصرف إلى العمل. انهمك عدة أسابيع في العمل على أوراق بيضاء شاسعة موضوعة على الأرض علقها، بعد ذلك، بدبابيس على طول جدار صدر القاعة. وعندما اكتشفنا اللوحة المنجزة (كان ارتفاعها يبلغ متراً ونصف المتر، في حين بلغ طولها ثمانية أمتار على الأقل)، كان الصمت كاملاً: ففي الوسط ظهر جندي روسي يرتدي لباساً دافئاً، يحمل رشيشاً يتدلى من عنقه ويعتمر طاقية من فرو تغطي أذنيه، كان في وضع البطل وتحيط به ثماني نساء عاريات. كانت اثنتان إلى جانبه تنظران إليه بهيئة غنج، في حين أنه يمسك بكل منهما من كتفها، وشعرها الكث يهتز بضحكة بذيئة. وكانت الأخريات يشكلن بلاطاً حوله تمد الواحدة منهن إليه ذراعاً، وكن، ببساطة، مزروعات هنا (هناك، أيضاً، واحدة راقدة) يعرضن أشكالهن الجميلة.

وقف سينيك أمام اللوحة (كنا وحدنا في القاعة في انتظار المفوض) وألقى محاضرة من هذا النوع: التي إلى يمين الرقيب هي إذن أيها السادة آلينا. إنها أول امرأة في حياتي، كنت في السادسة عشرة من عمري عندما امتلكتني. كانت عشيقة أحد أصحاب الرتب،

فهي، إذن، في مكانها هنا. رسمتها بالشكل الذي بدت عليه في ذلك العهد، وهي بالتأكيد أقل حُسناً اليوم، ولكنها كانت، في ذلك الزمن، مكتنزة إلى حد لابأس به، فعلاً، كما ترون، بصورة رئيسية، من وركيها (كان يشير إليهما بسبابته). ونظراً لأنها تبدو من الخلف أجمل بكثير، فقد رسمتها مرة أخرى هنا (انتقل نحو أحد حواف التشكيل وأشار بإصبعه في اتجاه امرأة كشفت عن مؤخرتها العارية للجمهور، تبدو ماضية إلى مكان ما). أنتم ترون ردفها الملكي. قد يتجاوز النموذج المعيار ولكننا نحبه، على وجه الدقة هكذا. انظروا إلى تلك (كان يشير إلى المرأة على يسار الرقيب)، إنها لوجزكا. عندما رأيتها لأول مرة، وكنت قد كبرت فعلاً. كان لها ثديان صغيران (دل عليهما) وساقان طويلتان (دل عليهما) ووجه جميل بشكل نحيف (دل عليه أيضاً)، وهي من دورتي في المدرسة. أما الأخرى هناك، فقد كانت نموذجنا في معهد الفنون، أعرفها عن ظهر قلب، والعشرون فرداً الذين كانوا معي يعرفونها، أيضاً، عن ظهر قلب لأنها كانت تقف دائماً وسط الصف، وكنا نحن نتدرب على رسم الجسم البشري انطلاقاً منها. لم يمسها أحد قط. فأمها كانت تنتظرها دائماً عند المخرج، لإعادتها فوراً إلى الحظيرة. فليغفر الله لهذه الفتاة أيها الرفاق فنحن لم نتمعن في تفاصيلها إلا بكل خير وكل شرف. وبالمقابل فهذه أيها السادة كانت امرأة قذرة (وأشار إلى شخص يتمرغ على أريكة فريدة منمنمة). اقتربوا، تعالوا انظروا (وهو ما فعلناه)، أترون هذه النقطة، هنا، على البطن؟ إنها محروقة بسيجارة من غيورة، كما قيل، من عشيقتها لأن هذه السيدة كانت أيها السادة تتواصل بالطريقتين. لقد كان لها فرج، أكورديون حقيقي أيها السادة، وأي شيء يجد فيه مكاناً له، إذ يمكننا نحن جميعاً أن نندس فيه، مهما بلغ عددنا، مع زوجاتنا وعشيقاتنا وأولادنا وأجداد أجدادنا على البيعة.

كان سينيك، على مايبدو، على أهبة مباشرة أفضل مقطع من عرضه عندما دخل المفوض قاعة الدروس بحيث كان علينا أن نعود إلى مقاعدنا. وبدأ المفوض الذي كان معتاداً على أعمال سينيك منذ

عهد القائد السابق، دون مبالاة باللوحة الجديدة، يقرأ بصوت مرتفع نشرة توضح الفروق بين جيش اشتراكي وجيش رأسمالي. كان عرض سينيك مازال يتردد فينا، كان حلمٌ عذبٌ يهدهدنا عندما ظهر الصبي القائد في القاعة. جاء، دون شك، ليحضر جلسة الدراسة، ولكنه قبل أن يتاح له تلقي التقرير النظامي من المفوض، تلقى ضربة العصا من اللوحة الجدارية. ودون أن يدع المفوض يستأنف قراءته، سأل سينيك بصوت جليدي عما يجب أن تعني اللوحة. قفز سينيك ووقف أمام عمله وهتف: هذا إنجاز رمزي لأهمية الجيش الأحمر في معركة شعبنا. هنا (وأشار إلى الرقيب) الجيش الأحمر، ومن كل جانب يظهر رمز الطبقة العاملة (وأشار إلى عشيقة صاحب الرتبة) وأيام شباط المجيدة (وأشار إلى زميلة دراسته). وها هو (وأشار إلى السيدات الأخريات) مجاز الحرية، مجاز النصر ومجاز المساواة. وهنا (وأشار إلى عشيقة صاحب الرتبة التي كانت تكشف عن مؤخرتها) نتعرف على البورجوازية وهي في طريقها إلى مغادرة مسرح التاريخ.

سكت سينيك، وصرح القائد بأن اللوحة كانت إهانة للجيش الأحمر وبأنه يجب نزعها فوراً. أما بالنسبة لسينيك فسوف يرى ماسيأخذه على سجله. سألت (بين أسناني) عن السبب. سألني القائد الذي سمعني عما إذا كانت لدي اعتراضات. وقفت وقلت بأن اللوحة تروقني. فقال القائد إنه لم يكن يشك في ذلك نظراً لكونها، بالضبط، تصلح لممارسي الاستمناء. قلت إن ميسليك الوقور قد نحت، هو نفسه، الحرية كامرأة عارية وأن نهر جيزيرا ممثل، على لوحة آل الشهيرة بثلاثة أجساد عارية، وأن الرسامين فعلوا ذلك في كل العصور.

ألقى عليَّ الصبي القائد نظرة حاقدة وكرر أمره بنزع اللوحة، ومع ذلك، فربما كنا قد نجحنا في إرباكه لأنه لم يعاقب سينيك. إلا أنه حقد عليه، وعليَّ معه. وبعد قليل من الزمن تلقى سينيك عقوبة انضباطية، ونلتها، أنا أيضاً، بعد قليل.

جرى الأمر هكذا: في ذات يوم، كان الفصيل يعمل في ركن بعيد عن الثكنة بمعاول ومجارف، وعريف كسول يراقبنا بعين غير مبالية بحيث كنا، في كل لحظة، نتكئ على أدواتنا لنثرثر دون أن نلاحظ الصبي القائد الذي وقف غير بعيد عنا وأخذ يراقبنا. لم نلحظ ذلك إلا بعد برهة عندما نادى صوته المتعجرف: «الجندي جان: تعال إلى هنا». أمسكت بمجرفتي بشكل مصمم وانتصبت أمامه في وضعية استعداد. سألني قائلاً: «أهكذا تشتغل؟». لم أعد أعلم، حقاً، بماذا أجبته، ولم يكن جوابي، بالتأكيد، وقحاً لأنه لم تكن لدي أدنى نية في أن أعقّد حياتي في المقر بمضايقتي، من أجل تفاهات، شخصاً كانت له كل السلطة عليّ. إلا أن ذلك لم يمنع كون نظرته قد قست، بعد إجابتي المرتبكة وغير ذات المعنى، واقترب مني، وفي لمح البصر، أمسك بذراعي، وبحركة جودو بارعة ألقى بي من فوقه، ثم أقعى فوقي تماماً، وسمرني في الأرض (لم أكن قد أبديت بادرة دفاعية، كنت مندهشاً فقط). سألني بقوة (من أجل أن يسمعه الجميع مهما كانوا بعيدين): «أيكفي هذا؟» قلت له يكفي، فأمرني بالوقوف استعداداً، وأمام الفصيل الواقف في صف، أعلن مايلي: «أعاقب الجندي جان بيومين في قاعة البوليس. وليس ذلك لأنه كان وقحاً حيالي، فهذه المسألة، كما رأيتم، حللتها في لحظة. إن يومي السجن هما لأنه تباطأ. وهناك الكثير من هذه العقوبات في خدمتكم». ثم استدار ومضى مسروراً جداً من نفسه.

في تلك اللحظة، لم أشعر حياله إلا بالكراهية، والكراهية تُسقط ضوءاً قوياً جداً يضيع فيه نموذج الأشياء المجسد. كان قائدي يبدو لي، ببساطة، كفار ثأري وماكر. وأراه اليوم، خاصة، رجلاً كان شاباً وكان يلعب. وبعد كل شيء، إذا لعب الشباب، فليس ذلك ذنبهم. فالحياة غير المكتملة تزرعهم في عالم مكتمل يُطلب فيه أن يتصرفوا كرجال ناجزين. وهم يهرعون بعد ذلك إلى تملك أشكال ونماذج، هي الأشكال والنماذج الرائجة التي تناسبهم وترضيهم ويلعبون.

قائدنا كان، هو أيضاً، غير مكتمل، وفي ذات صباح وجد نفسه أمام مجموعتنا، غير قادر تماماً، على فهمها. ولكنه عرف كيف يتدبر أمره لأن ماكان قد قرأه وسمعه يوفر له قناعاً جاهزاً لمواقف مماثلة: البطل الفولاذي للقصص المصورة، الذكر الشاب ذو الأعصاب الفولاذية الذي يروض عصابة من الأوغاد، وليس ذلك بكلمات كبيرة، بل بلا شيء سوى الهدوء البارد، فكاهة مجردة تجرح الثقة بالذات وبقوة العضلات. وكلما زاد وعيه لكونه صبياً زاده ذلك تعصباً في دوره كسوبرمان.

ولكن أكانت تلك هي المرة الأولى التي أصادف فيها ممثلاً شاباً مثل هذا؟ لدى استجوابي في السكرتارية بصدد البطاقة البريدية، كنت ماأكاد أتجاوز العشرين من عمري، ولم يكن المستجوبون يكبرونني إلا بسنة واحدة أو سنتين. وكانوا، هم أيضاً، قبل كل شيء، صبياناً يخفون وجوههم غير المكتملة تحت القناع الذي كانوا يرونه الممتاز بين كل الأقنعة، قناع الثوري المتقشف والصلب. وماركيتا؟ ألم تكن قد اختارت أن تلعب دور المخلّصة، وهو دور عثرت عليه، فضلاً عن ذلك، في إحدى سخافات الشاشة في ذلك الموسم؟ وزيمانيك الذي استولى عليه، فجأة، البهاء العاطفي للأخلاق؟ ألم يكن ذلك دوراً؟ وأنا؟ ألم يكن لي عدة أدوار؟ كنت أركض، حائراً، من واحد إلى الآخر حتى أُمسك بي كعدّاء مرتبك.

الشباب مخيف: إنه مسرح يتحرك فيه أطفال على عكازات عالية وبأكثر الألبسة تنوعاً، ويدلون بصيغ متعلمة يفهمونها نصف فهم، ولكنهم يتمسكون بها بتعصب. التاريخ مخيف أيضاً، وهو الذي غالباً مايُستخدم ميدان لعب لغير الناضجين، ميدان لعب لنيرون فتي، لبونابرت فتي، لحشود الأطفال المكهربة التي تتحول عواطفها المقلدة وأدوارها المبسطة إلى حقيقة واقعية كارثياً.

عندما أفكر في هذا، فإن سلم القيم كلّه هو الذي يتقلب في ذهني، وأحس بكراهية عميقة للشباب ـ وبصورة معكوسة، بتسامح مفارق حيال ملفقي التاريخ الذين لا أرى، فجأة، في أعمالهم سوى هياج مخيف لغير ناضجين.

وبصدد غير الناضجين أتذكر اليكسيج. كان، هو الآخر، يلعب دوره الكبير الذي يتجاوز عقله وخبرته. كان لديه شيء ما مشترك مع قائدنا: إذ أنه يبدو أصغر من عمره، إلا أن فتوته (خلافاً لفتوة القائد) مجردة من الجمال: جسم صغير هزيل، عينان حسيرتان وراء نظارتين سميكتين، جلد مزروع بنقاط سوداء (جزيية بلوغ كان يتأبد). وجد نفسه بين عشية وضحاها، كمدعو للخدمة، طالباً في مدرسة ضباط المشاة، أولاً، وقد سُحب منه هذا الامتياز ونقل إلى وحدتنا. كنا فعلاً في عشية المحاكمات السياسية، وفي قاعات عديدة (للحزب، للعدالة، للبوليس)، كانت هناك أيدٍ ترتفع، باستمرار، لتنتزع من المتهمين الثقة، الشرف والحرية. وكان اليكسيج ابن شخصية شيوعية هامة سجنت منذ قليل.

لقد ظهر، يوماً، في مجموعتنا وأعطي سرير ستانا المهجور. كان له نظرة، حيالنا، شبيهة بتلك التي كنت قد رأيت بها في البدء رفاقي الجدد. ولذلك انغلق على نفسه، وعندما عرف الباقون أنه كان عضواً في الحزب (لم يكن قرار فصله قد صدر بعد)، بدؤوا ينتبهون إلى ما يقولونه في حضوره.

وعندما علم أني كنت قد انتميت إلى الحزب، أصبح أكثر انفتاحاً معي، أفضى إلي بأنه يجب عليه، مهما كلف الأمر، أن يجتاز هذه المحنة الكبيرة التي كانت الحياة قد فرضتها عليه وألاّ يخون الحزب. ثم قرأ لي قصيدة كان قد نظمها (على الرغم من أنه لم يكتب أبداً من قبل شعراً) بعد أن علم أنه سيُرسل به إلى هنا. منها هذه الرباعية:

أنتم أحرار أيها الرفاق

في أن تجعلوا مني كلباً وتبصقوا علي
تحت قناع الكلب هذا، وتحت بصاقكم
سابقى أيها الرفاق، أميناً، معكم في الصف.

كنت أفهمه لأني كنت، أنا نفسي، قد أحسست الشيء نفسه قبل ذلك بسنة. ومع ذلك وجدت نفسي، حالياً، أقل تمزقاً: فمرشدتي اليومية، لوسي، كانت قد حولتني عن هذه المنطقة التي كان أمثال اليكسيج يتعذبون فيها بيأس.

11

أثناء قيام الصبي القائد بإرساء نظامه في وحدتنا، كنت أتساءل، خاصة، عما إذا كنت سأنتزع إجازة الخروج. فرفيقات لوسي كن، منذ وقت طويل، في فرقتهن، في حين مضى شهر لم أستطع خلاله أن أغادر المقر. كان القائد قد حفظ اسمي ووجهي جيداً، وهو أسوأ مايمكن أن يحدث في اللواء. لم يكن، الآن، يفوت فرصة ليُفهمني أن كل ساعة من وجودي كانت تتوقف على نزوته. أما فيما يتعلق بالإجازات، فلم يكن الأمر على مايرام. فمنذ البداية، أعلن أن الوحيدين الذين سيحصلون عليها هم الذين يسهمون، بانتظام، في فرق الأحد التطوعية. ولذلك مضينا فيها جميعاً. إلا أن ذلك كان حياة منكودة لأنه ليس لدينا يوم واحد لاننزل فيه إلى المنجم، وإذا استفاد أحدنا، أخيراً، في يوم سبت، من وقت حُرّ حتى الثانية صباحاً، فإنه يقع نعِساً يوم الأحد وهو يباشر عمله.

سجلت نفسي كالآخرين من أجل عمل يوم الأحد هذا، وهو مالم يكن يضمن لي أبداً أني سأحصل على إجازتي لأنه يكفي سرير سيء الترتيب، أو أية هفوة أخرى، لإلغاء مزية جهد أيام الآحاد. ومع ذلك، فإن غطرسة السلطة لاتتجلى في القسوة فقط، بل أيضاً (على الرغم من أن ذلك كان أندر) في الرأفة. ولذلك، فبعد انقضاء بضعة أسابيع، استمتع الصبي القائد بإبداء كرمه وحظيت، في آخر لحظة، بعطلة مسائية قبل يومين من عودة رفيقات لوسي.

اضطربت عندما كتبت عجوز المقصورة اسمي في سجل وسمحت لي، بعد ذلك، بالصعود إلى الطابق الرابع حيث قرعت باباً في آخر الممشى. انفتح الباب، ولكن لوسي بقيت مختبئة خلفه ولم يكن أمامي سوى الغرفة نفسها التي لم تكن لها، من أول نظرة، أدنى علاقة بغرفة في بيت عاملات. كان يمكن أن أظن نفسي في غرفة مهيأة لما لاأدري من الطقوس الدينية: فالطاولة تتألق بباقة من

الداليا، وغصنا تين كبيران يتطاولان إلى جوار النافذة، وفي كل مكان (على الطاولة، على السرير، على الأرض، خلف الإطارات)، كان ينتشر نثار نبتات خضراء (سرعان ماتبينت أنها من الهليون البري) كما لو أنه ينتظر مجيء يسوع المسيح على حماره الصغير.

جذبت إليّ لوسي (التي كانت ماتزال مختبئة وراء الباب المفتوح) وقبلتها. كانت في فستان أسود مكسي، تحتذي حذائين بكعبين عاليين كنت قد قدمتهما لها يوم اشترينا الفساتين. كانت واقفة ككاهنة في هذه الخضرة الرسمية.

أغلقنا الباب، وعند ذلك فقط، شعرت أني كنت في غرفة عادية، وأن الديكور النباتي لم يكن يغطي سوى أربعة أسرة حديدية وأربع طاولات صغيرة مخدوشة وطاولة كبيرة وثلاث كراسي. ولكن ذلك لم يكن يستطيع أبداً أن يخفض من الإثارة التي استولت عليّ منذ اللحظة التي فتحت فيها لوسي لي الباب. فبعد شهر تُركت، أخيراً، لبضع ساعات. إلا أنه كان هناك ماهو أكثر: فللمرة الأولى، بعد سنة طويلة، كنت من جديد في حجرة صغيرة، وكان أريج الحميمية يغلفني بفوحانه المسكر، وكادت قوته أن تلقي بي أرضاً.

حتى ذلك الحين، وخلال كل نزهاتي مع لوسي، كان الفضاء المفتوح يربطني بالثكنة وبالشرط الذي هو شرطي. وكان الهواء الذي يحوم حولي، في كل مكان، يربطني بخيطه غير المرئي، بالحاجز الذي تعلوه العبارة التالية: «نحن في خدمة الشعب». وكان يبدو لي أنه مامن مكان كنت أستطيع فيه، ولو للحظة، أن أتوقف عن «خدمة الشعب». لقد مضت سنة كاملة لم أجد نفسي، خلالها، بين جدران أربعة لغرفة صغيرة خاصة.

كان ذلك فجأة موقفاً جديداً. شعرت، لمدة ثلاث ساعات، بحرية كاملة. كنت أستطيع، مثلاً، أن أخلع دون خوف (ضد كل القواعد العسكرية) سترتي وبنطلوني وحذائي وكل شيء، وليس سيدارتي وحزامي فقط. وكنت، إذا لزم الأمر، أستطيع أن أدوسها بقدمي. كنت

أستطيع أن أفعل أي شيء دون أن يراني أحد من أية جهة. وفضلاً عن ذلك، فقد كانت الغرفة مدفأة بشكل لطيف، وهذه الحرارة وتلك الحرية كانتا تصعدان إلى رأسي. ضممت إليَّ لوسي واقتدتها إلى السرير المزدان بالخضرة. أربكتني هذه الأغصان الصغيرة على السرير (المزود بغطاء رمادي شرير). لم أكن أعرف كيف أفسرها سوى كونها رموزاً لعرس. وخطرت لي فكرة (أثرت فيّ) هي أن أصداء أقدم العادات كانت تتردد، لاشعورياً، في براءة لوسي بحيث أنها قررت أن تودع عذريتها في طقس رسمي.

اقتضى الأمر بعض الوقت كي أرى أنه على الرغم من أن لوسي كانت تبادلني القبل والعناق، فإنها تفعل ذلك بتحفظ واضح. إذ أن شفتاها، مهما كان ظمؤها، تبقيان مغلقتين. كانت ملتصقة بي بكل جسدها، ولكنها تملصت حين وضعتُ يدي تحت تنورتها لأحس ببشرة ساقيها تحت أصابعي. فهمت أن العفوية التي كنت أريد أن أستسلم لها، في دوار أعمى معها، بقيت منفردة. أتذكر أني أحسست، إذ ذاك (ولم تكن قد انقضت خمس دقائق على وجودي في غرفة لوسي) بدموع الخيبة في عيني.

جلسنا إذن جنباً إلى جنب، على السرير (ساحقين الغصينات المسكينة تحت مؤخرتينا) وأخذنا نتحدث. وبعد فترة لابأس بها (كانت المحادثة تتماوت)، حاولت من جديد أن أعانقها، ولكنها قاومت. بدأتُ إذن أصارعها، ومع ذلك سرعان ما عرفت أن ذلك لم يكن شوط حب سار، بل هو بالأحرى مشاجرة لاتصلح إلا للانحطاط باتحادنا إلى مالاأدري من البشاعة على اعتبار أن لوسي كانت تدافع عن نفسها جدياً، بوحشية، بيأس تقريباً. ولم يعد أمامي سوى التوقف.

جربت الكلمات لإقناعها. أخذت أتحدث. قلت لها، دون شك، إني أحبها وإن الحب يعني منح كل واحد منا نفسه للآخر كلياً. وكانت المحاكمة، على فقرها، لاتُدحض، ولذلك لم يكن يبدو أبداً على لوسي أنها تريد دحضها. وبدلاً من ذلك كانت تلتزم الصمت أو تتوسل: «لا،

أرجوك، لا!» أو: «ليس اليوم، ليس اليوم!...» محاوِلة، إذ ذاك (بانعدام مؤثر للبراعة) تحويل الحديث إلى موضوع آخر.

استأنفت كلامي قائلاً: «هل أنت مثل هؤلاء الفتيات اللواتي يشعلن النار في الشريك ليسخرن منه بعد ذلك؟ هل أنت معدومة الإحساس، شريرة إلى هذا الحد؟». وعانقتها من جديد، ومن جديد بدأت معركة قصيرة ومؤسفة، شرسة وليس فيها ذرة من حب، تركتْ لدي، مرةً أخرى، مذاقاً قبيحاً.

توقفت. وفجأة خيل إلي أني فهمت لماذا كانت لوسي تصدّني. يا إلهي؟ كيف لم أنتبه إلى ذلك من قبل؟ لوسي طفلة، والحب يجب أن يخيفها، إنها عذراء، وتخاف من المجهول. وقررت، فوراً، أن ألغي من سلوكي هذه الأساليب الملحة التي لاتصلح إلا لإخافتها، وأن أبدو لطيفاً، رقيقاً من أجل ألاّ يختلف فعل الحب، في شيء، عن مداعباتنا، ألاّ يكون سوى واحدة منها، لم أُبد إذن مزيداً من الإلحاح، ولاطفت لوسي. كنت أقبلها (بصورة مخيفة في طولها إلى حد لم أجد معه في ذلك أية متعة) وأداعبها (دون صدق) محاولاً، دون أن يبدو عليّ ذلك، أن أمددها على السرير. توصلت إلى ذلك. داعبت ثدييها (لم تكن لوسي قد اعترضت على ذلك قط). كنت أهمس في أذنها أني كنت أريد أن أكون حانياً حيال كل جسدها، لأنها هذا الجسد، ولأني كنت أريد نفسي حانياً عليها كلها، بل نجحت في رفع تنورتها قليلاً، وكذلك في تقبيل عشرة سنتمترات أو عشرين سنتمتراً فوق ركبتها. ولكني لم أصل أبداً إلى أبعد من ذلك. وعندما حاولت دس رأسي حتى عضوها، أفلتت مني مرعوبة، وقفزت من على السرير. نظرت إليها ووجدتُ على وجهها مالاأدري من جهد تشنجي، تعبيراً لم أكن قد عرفته لديها قط.

سألتها: لوسي، لوسي، هل أنت خجلة بسبب النور؟ أتريدين أن تسود الظلمة؟ والتقطت هي سؤالي كخشبة نجاة فوافقت: النور كان يربكها. مضيت إلى النافذة لأسدل الستارة. ولكن لوسي قالت: «ليس

هذه! دعها! ـ قلت: لماذا؟ ـ إني خائفة؟ ـ ماالذي يخيفك: الظلام، أم النور؟» انخرطت، صامتة، في البكاء.

وبدلاً من الإشفاق، كان رفضها يبدو لي بلا معنى، إجحافاً، ظلما، كان يعذبني، لم أكن أفهمه. سألتها عما إذا كانت تقاومني لأنها عذراء، ماإذا كانت تخشى الألم الجسدي الذي قد تحسه. وكانت توافق، بوداعة، على كل سؤال من هذا النوع لأنها ترى فيه ذريعة لرفضها. قلت لها إن كونها عذراء شيء جميل، وإنها سوف تكتشف كل شيء، معي وحدي، معي أنا الذي أحبها. وقلت لها: «ألا تستمتعين بأن تكون امرأتي كلياً؟». قالت إن هذه الفكرة كانت تسرها. ومرة أخرى، ضممتها إلي، ومرة أخرى تصلبت. كنت أسيطر على غضبي بمشقة: «وأخيراً، ما الذي يُنفرك مني؟». أجابت: «أرجوك! انتظر المرة القادمة. نعم، أريد حقاً، ولكن ليس هذا المساء، مرة أخرى ـ ولماذا ليس اليوم؟ ـ كلا! ليس هذا المساء ـ ولكن لماذا؟ ـ أرجوك! ليس الآن. ـ ومتى إذن؟ تبدين كما لو كنت لاتعرفين أنها فرصتنا الأخيرة لنكون معاً وحدنا، وأن رفيقاتك عائدات بعد غد! أين سيمكننا، بعد ذلك، أن نوجد دون أحد معنا؟ ـ قالت: ستجد، جيداً، شيئاً ما ـ قلت: موافق؟ سأجد حلاً، ولكن عديني بأنك ستأتين لأن فرص عثوري على ركن صغير لطيف كغرفتك قليلة ـ قالت: لاأهمية لذلك! كل ماسوف تريده جيد ـ حسناً! فليكن! ألا أنك ستعدينني بأنك ستتوقفين عن التمنع عندما ستصبحين امرأتي ـ قالت: نعم! ـ هل تقسمين على ذلك؟ ـ نعم!».

فهمت أني لن أستطيع أن أحصل، هذه المرة، إلا على وعد. كان ذلك هزيلاً، ولكنه، مع ذلك، كان شيئاً ما. تغلبت على خيبتي وأمضينا بقية الوقت نتحدث. وعندما حان وقت ذهابي، نفضت بذلتي المزروغة بفتات الهليون وداعبت خد لوسي قائلاً لها إني لن أعود أفكر إلا في لقائنا المقبل (ولم أكن أكذب).

12

بعد بضعة أيام من هذا اللقاء الأخير مع لوسي (كان ذلك في يوم خريفي ماطر)، كنا نسير صفاً من المنجم إلى الثكنة، عن طريق مرتفعات تفصل بين بقاع ماء عميقة. كنا موحلين، منهكي القوى، مبللين حتى العظام وجوعى راحة. مضى شهر لم يحصل خلاله معظمنا على وقتٍ حُر في يوم أحد واحد. إلا أننا ماكدنا نبتلع طعام الغذاء حتى صفر الصبي القائد داعياً إلى الاجتماع من أجل أن يعلن لنا أنه لمس ضروباً متنوعة من الفوضى لدى تفتيشه غرفنا. وبعد ذلك، نقل الإمرة إلى ضباط الصف آمراً إياهم بإطالة تدريباتنا ساعتين على سبيل العقوبة.

وبما أننا كنا دون أسلحة، فقد كانت تدريباتنا العسكرية عابثة على نحو خاص. ولم يكن لها من معنى خلاف خفض قيمة زمن حياتنا. أذكر أنه كان علينا مرة في عهد الصبي القائد، أن ننقل، طيلة بعد الظهر، ألواحاً خشبية ثقيلة من ركن إلى آخر في الثكنة وأن نعيدها إلى مكانها في الغد، وأن نستمر على هذا النحو عشرة أيام متتالية. وكان مانفعله في باحة الثكنة، بعد عودتنا من المناجم، يشبه، فضلاً عن ذلك، نقل الألواح هذا. إلا أن ماكنا ننقله في ذلك اليوم لم يكن ألواحاً، بل أجسادنا. كنا نسيّرها، نديرها يساراً أو يميناً، نلقي بها على بطونها، نجعلها تركض ونجرها ونحن نزحف على الحصى. مضت ثلاث ساعات على هذه التحركات عندما ظهر القائد وأعطى تعليماته لضباط الصف باقتيادنا إلى الرياضة.

كان يمتد في العمق وراء البرّاكات شيء يشبه الملعب، أقرب إلى الضيق كنا نستطيع أن نلعب فيه كرة القدم، ولكننا نستطيع، كذلك، أن نُجري فيه المناورة أو أن نركض. وكان ضباط الصف قد تخيلوا تنظيم سباق تتابع لنا. كان في السرية تسع مجموعات في كل منها عشرة رجال: تسع فرق متنافسة جاهزة تماماً. وبطبيعة الحال،

كان ضباط الصف يقصدون أن يهزوا كروشنا حقاً. ولكن، بما أن أعمار معظمهم تتراوح بين الثامنة عشرة والعشرين، وبما أنه كانت لديهم طموحات سنهم، فقد أرادوا أيضاً إجراء سباق ليبرهنوا لنا على أننا لم نكن نساويهم. ولذلك شكلوا، ضدنا، فرقتهم الخاصة التي جمعت عشرة عرفاء أو جنود برتبة صنف أول.

واقتضى الأمر منهم برهة طويلة ليشرحوا خطتهم ويفهمونا إياها: يجب على العشرة الأوائل أن يجروا من أحد طرفي الملعب إلى الطرف الآخر. وعلى خط الوصول يجب أن تكون المجموعة التالية جاهزة للقفز إلى الاتجاه المعاكس حيث تنتظرها، هي الأخرى، مجموعة ثالثة من العدائين المتهيئين، من قبل، للانطلاق، وهكذا دواليك. وكان ضباط الصف قد أحصونا ووزعونا على طرفي الملعب.

كنا بعد المنجم وجلسة التدريب نموت من التعب، وكان منظور هذا السباق يجعلنا مجانين من الغضب. وعند ذلك، اقترحتُ على رفيقين أو ثلاثة لعبة: فسوف نركض جميعاً بكل رخاوة. وقُبِلت الخطة فوراً، وانتشرت من فم إلى أذن، وسرعان ماهبت موجة خفية من القهقهات المسرورة بكتلة الجنود المنهكة.

كنا في نهاية الأمر، كل كما يريد، مستعدين لمسابقة كان غرضها الكلي مجرداً من كل معنى: علينا أن ننطلق، على الرغم من البزات والأحذية العسكرية الثقيلة، من وضعية الركوع. وبما أنه كان علينا أن نسلم الراية بشكل لم يره أحد قط (على اعتبار أن المستلم يجب أن يهرع للقائنا)، فإن عصي تتابع هي ماكنا نضغط عليها في راحتنا، وأعطيت إشارة الانطلاق بمسدس رياضة حقيقي. وبينما كان عريف (أول العدائين في فرقة أصحاب الرتب) يتحفز لسباق عنيف، انتصبنا بدورنا (كنت في صف المقدمة) لنجري بإيقاع متباطىء. لم نكن قد اجتزنا عشرين متراً حين كنا نكبت، بصعوبة كبرى، رغبتنا في الانفجار بالضحك لأن العريف كان يقترب من طرف الملعب الآخر، في حين اصطفّت مجموعتنا بشكل لايصدق،

على مسافة مازالت غير بعيدة جداً عن خط الانطلاق، وبدت مبهورة الأنفاس في جهد استثنائي. كان رفاق متجمعون عند طرفي المضمار يدعموننا بأصواتهم «إلى الأمام، إلى الأمام، إلى الأمام!...». وفي منتصف الطريق، التقينا بالرقم اثنين من ضباط الصف الذي كان يندفع فعلاً نحو الخط الذي أتينا على مغادرته. وأخيراً وصلنا إلى الهدف، وفي الوقت نفسه الذي كنا فيه نسلم الراية، كان صاحب رتبة ثالث قد غادر، فعلاً، من خلفنا، خط البداية والعصا في قبضته.

أتذكر سباق التتابع هذا كما لو أنه العرض الكبير لرفاقي السود. كان ابتكارهم دون حد: فهونزا يركض وهو يعرج، والجميع يشجعونه بصورة محمومة ووصل، من جانبه، فعلاً، إلى موقع التبديل (في ظل رعدٍ من الهتافات) كبطل، قبل الآخرين بخطوتين. وتكوم ماتلوس الغجري على نفسه ثماني مرات أثناء السباق. وسينيك يرفع ركبتيه حتى ذقنه (وهو ماكان، بالتأكيد، يتعبه أكثر مما لو أنه دفع بإيقاعه إلى الحد الأعلى). ولم يفسد أحد اللعبة: لا الانضباطي ومحرر البيانات من أجل السلام، المستسلم بيدريش الذي اتبع برصانة ووقار الإيقاع البطيء لكل واحد منا، ولاجوزيف ابن المزارع، ولا بيتر بيكني هذا الذي لم يكن يحبني، ولا العجوز امبروز الذي كان يخبّ بتصلب، معقود الذراعين وراء ظهره، ولا بترات الأصهب الذي كان صوته يصدر فائق الحدة، ولا فارغا المجري الذي كان يتجشأ بهتافه «هورا!» أثناء الطريق. لم يُفسد أحدهم هذا الإخراج الرائع والبسيط الذي كان مشهده يجعلنا نهوي على الأرض من الضحك.

في هذه الأثناء، لمحْنا الصبي القائد يصل من جانب البراكات. استبق عريف كان قد رآه الأمور وذهب ليقدم إليه تقريراً. أصغى القائد إليه ثم جاء ليشهد منجزاتنا على حافة الملعب. وكان أصحاد الرتب الذين أصبحوا عصبيين (ففرقتهم بلغت الهدف منذ وقة طويل) يصرخون في اتجاهنا: «هيا! بسرعة! تحركوا! شيء

الأعصاب!». ولكن تشجيعاتهم كانت تضيع بين تشجيعاتنا. ولم يكن ضباط الصف الحائرون يعرفون ماذا يفعلون، وتساءلوا عما إذا كان عليهم أن يوقفوا المسابقة، كانوا يجرون، من واحد إلى آخر، ويتشاورون ناظرين نحو القائد الذي اقتصر على ملاحظة السباق بعين جليدية دون نظرة منه إليهم.

وأقلعت المجموعة الأخيرة، وكان اليكسيج منها. كنت أنتظر تصرفه بفضول، ولم أخطىء في ذلك. إنه يريد كسر اللعبة، فعلى الفور اندفع بكل قوته، وبعد عشرين متراً كان متقدماً بخمسة أمتار على الأقل. إلا أن شيئاً غريباً قد جرى: فقد ضَعفَ إيقاعه ولم يعد يزيد في تقدمه. فهمت فجأة، أن اليكسيج لم يكن يستطيع أن يكسر اللعبة حتى ولو أنه يريد ذلك. كان فتى ضعيفاً واقتضى الأمر، عن رضى أو غير رضى، أن يُعهد إليه، بعد يومين من قدومه، بأعمال خفيفة لأنه لم يكن يملك العضلات ولاالنَفَس.

بدا لي، إذ ذاك، أن جريه هو ختام مشهدنا. كان اليكسيج يبذل نفسه حتى الأعماق، لكنه يشبه، إلى حد التصديق، الأفراد الذين كانوا يجرّون أنفسهم خلفه بخمس خطوات في المجموعة نفسها. يجب أن يكون القائد وضباط الصف قد ظنوا أن انطلاق اليكسيج الصاعق كان وارداً في برنامج التمثيلية الكوميدية، لا أكثر ولا أقل من عرج هونزا المصطنع أو من سقطات ماتلوس أو من زئيرنا كمشجعين. كان اليكسيج يجري ضاغطاً قبضتيه، تماماً مثل أولئك الذين كانوا يتظاهرون، وراء ظهره، بالكدح وينفخون بمباهاة. وإنما كان لـ «اليكسيج» نقطة حقيقية إلى جانبه، ولأنه يسعى للسيطرة عليها بأكبر جهد، راح يسيل على وجهه عرقٌ حقيقي. وفي منتصف المضمار، أُجبر اليكسيج، أيضاً، على خفض ركضه بحيث أن كل الآخرين لحقوا به دون أن يستعجلوا. وقبل ثلاثين متراً من خط الوصول، تجاوزوه. وفي حين لم يعد إلا على مسافة عشرين متراً، توقف عن الركض لينهي السباق مترنحاً ويده تغفو على جنبه الأيسر.

أمر القائد بالتجمع. وأراد معرفة سبب بطئنا: «كنا مرهقين أيها الرفيق النقيب». طلب من كل المتعبين أن يرفعوا أيديهم. رفعنا أيدينا. نظرت جيداً إلى اليكسيج (كان في الصف، أمامي). وحده الذي لم يرفع يده. ولكن القائد لم يكن قد لاحظه. قال: «جيد! كلكم إذن ـ قال أحدهم: كلا ـ من هو الذي لم يكن متعباً؟» أجاب اليكسيج: «أنا؟» دهش القائد وقال مواجهاً إياه: «ماذا؟ ألم تكن متعباً كيف جرى أنك لم تكن متعباً؟» رد اليكسيج قائلاً: «لأني شيوعي». ولدى هذا الجواب، زمجرت السرية بضحكة صماء. سأل القائد قائلاً: «أأنت حقاً الذي كنت الأخير في الوصول؟» قال اليكسيج: «نعم!» وقال القائد: «ولم تكن متعباً؟». رد اليكسيج قائلاً: «كلا!». فقال القائد: «بما أنك لم تكن متعباً، فقد عملت عمداً على تخريب التدريب. فأنا أعاقبك إذن بعشرين يوم سجن لمحاولة العصيان. أما أنتم الآخرون، فقد كنتم متعبين، وهو مايعني أن لديكم عذراً. ونظراً لكون مردودكم في المنجم لايساوي مسماراً، ولأن تعبكم ناجم من خروجكم من الثكنة، فلن يكون للسرية، لمصلحة صحتكم، إجازات خلال شهرين».

حرص اليكسيج على التحدث إلي قبل النزول إلى المنجم. لامني على عدم تصرفي كشيوعي، وسألني، بعينين قاسيتين، عما إذا كنت أؤيد الاشتراكية أم لا. أجبته إني مؤيد للاشتراكية ولكن ذلك لاقيمة له هنا في مقر السود، لأنه يوجد هنا خط فاصل مختلف عنه في الخارج: فهناك، من جهة، الذين فقدوا مصيرهم الخاص، والذين سرقوه منهم ويتصرفون به على هواهم من الجهة الأخرى. لم يكن اليكسيج يقرني على ذلك. فهو يرى أن خط الفصل بين الاشتراكية والرجعية يمر من كل مكان وأن ثكنتنا لم تكن، في نهاية المطاف، سوى وسيلة دفاع ضد أعداء الاشتراكية. سألته كيف كان الصبي القائد يدافع عن الاشتراكية ضد أعدائها في حين أنه أرسل بـ «اليكسيج» إلى الزنزانة لخمسة عشر يوماً، ويعامل الناس بصورة تحولهم إلى أسوأ أعداء الاشتراكية. وافق اليكسيج على أن القائد لم يكن يروق له. ولكني عندما قلت له أنه لو كانت الثكنة وسيلة دفاع

ضد الأعداء لما كان ينبغي أن يُرسل بـ «اليكسيج» إليها، أجابني، بعنف، بأنه كان موجوداً هناك عن حق: «لقد اعتقل أبي بسبب التجسس. هل تقدّر معنى ذلك؟ كيف يمكن للحزب أن يثق بي؟ إن من واجب الحزب أن لايثق بي!».

ثم تحدثت إلى هونزا. شكوت (وأنا أفكر في لوسي) من الشهرين اللذين كانا ينتظراننا دون إجازات خروج. قال لي: «أيها الغبي العجوز، سنخرج أكثر من ذي قبل!».

كان تخريب سباق التتابع المرح قد قوَّى، لدى رفاقٍ، معنى التضامن وأيقظ لديهم روح المبادرة. فهونزا قد خلق نوعاً من لجنة ضيقة سرعان ماهتمت بدراسة إمكانيات القفز من فوق الجدار. وخلال ثمان وأربعين ساعة جهّز كل شيء. تشكل صندوق سري من أجل الرشاوى، وأمكن إغواء رتيبين مسؤولين عن غرفنا، ووجدنا أفضل مكان لقطع الأسلاك سراً، وذلك عند آخر الثكنة تماماً، حيث لم يعد هناك سوى المستوصف. كانت خمسة أمتار صغيرة تفصل السياج عن أول بيت منخفض في التجمع يسكنه عامل منجم كنا نعرفه. وسرعان مااتفق الرفاق معه: فهو لن يغلق باب ردهته بالمفتاح. ويجب على الجندي الهارب أن يصل إلى السياج سراً ثم يجتازه بلمحة عين، ويركض الأمتار الخمسة. وعندما يقطع باب الردهة يصبح آمناً: فمن هناك يجتاز البيت الصغير ويخرج إلى زقاق في الضاحية.

كان الطريق إذن آمناً نسبياً شريطة ألاّ نتجاوز الحد. فإذا غادر أكثر مما ينبغي من الرفاق الثكنة في اليوم نفسه، فإن غيابهم سيُلاحظ بسهولة. ولذلك كانت لجنة هونزا تنظم الخروج.

إلا أن كل عملية هونزا انهارت قبل أن يصل دوري، ففي ذات ليلة قام القائد بنفسه بزيارة للبرّاكات ولاحظ أن ثلاثة أشخاص ينقصون. أمسك بالعريف (رئيس الغرفة) الذي لم يُخبر عن الغائبين وسأله، كما لو أنه يعرف كل شيء، كم كان قد قبض. ولم يحاول

العريف الذي ظن أن أحداً قد خانه حتى أن ينكر. استحضر هونزا للمواجهة، واعترف العريف بأنه قبض المال منه.

كان الصبي القائد قد نال منا. أحال العريف وهونزا والجنود الثلاثة الذين خرجوا من الثُكنة، سراً، هذه الليلة إلى المدعي العام العسكري (لم يُتح لي حتى أن أودّع أفضل رفيق لي، فكل شيء جرى بسرعة في الصباح حين كنا في الأعماق. ولم أعلم، إلا فيما بعد بكثير، أنهم أدينوا جميعاً، وحكم على هونزا بالسجن سنة كاملة). وأعلن للسرية المجتمعة أنها ستُحتجز لفترة شهرين إضافيين، فضلاً عن كونها ستعاني، من الآن فصاعداً، نظام الوحدات التأديبية. وطلب بناء برجين ووضع أنوار كشافة دون ذكر مجيء شخصين مع كلبيهما الذئبيين لحراسة الثُكنة.

كان تدخل القائد صاعقاً ودقيقاً إلى حد حاصرنا جميعاً معه شعور واحد: يجب أن يكون شخص ما قد وشى بعملية هونزا. وليس معنى ذلك أن الوشاية ازدهرت ازدهاراً خاصاً لدى السود. فقد كنا جميعنا نحتقرها، ولكننا كنا نعرف أنها موجودة كاحتمال، على اعتبار أنها كانت معروضة لنا بوصفها أنجع وسيلة لتحسين وضعنا والوصول إلى نهاية الخدمة دون تأخير، مع شهادة تضمن مستقبلاً يستحق أن يعاش. كنا (أو معظمنا) قد نجحنا في عدم السقوط إلى هذا الدرك الأدنى ولكننا لم ننجح في عدم الاشتباه به، لدى الآخرين، بأسهل مما ينبغي.

هذه المرة، أيضاً، مدت الريبة جذورها فوراً، وسرعان ماتحولت إلى قناعة جماعية (على الرغم من أنه يمكن، بداهة، تفسير ضربة القائد بطريقة أخرى غير حدوث وشاية) استهدفت، بتأكد غير مشروط، اليكسيج. كان هذا الأخير يقضي آخر أيام سجنه، ولكنه ينزل، وهذا بديهي، معنا كل صباح إلى الحفرة. ولذلك فالجميع يدّعون أنه أمكنه، جيداً جداً، السماع («بأذنيه البوليسيتين») بعملية هونزا.

وعانى الطالب المسكين ذو النظارتين كل صنوف العذاب. كان رئيس الفرقة (واحد من جماعتنا) يكلفه بأسوأ المهمات، وأدواته تختفي بانتظام، وعليه أن يسدد ثمنها من أجره. ولم يُجنب التلميحات والإهانات، بالإضافة إلى ألوف العقوبات الصغيرة التي كان يجب أن يعانيها. وكان أحدهم قد كتب، بالشحم الأسود، على الحاجز الخشبي الذي نُصب عنده سريره، بحروف ضخمة: «انتبه! وغدا!».

بعد بضعة أيام من رحيل هونزا وأربعة مذنبين آخرين، مخفورين، ذهبتُ في نهاية بعد الظهر، لألقي نظرة على غرفة مجموعتنا. لم يكن هناك من أحد سوى اليكسيج الذي كان منحنياً فوق سريره يعيد ترتيبه. أوضح لي أن الرفاق كانوا يقلبون سريره عدة مرات في اليوم. قلت له إن الجميع مقتنعون بأنه هو الذي وشى بهونزا. احتج، وهو يكاد يبكي. فهو لم يكن يعرف شيئاً، ولم يكن ليشي قط. قلت له: «لماذا تقول هذا؟ أنت تعد نفسك حليفاً للقائد، فمن المنطقي إذن أنِ تستطيع الوشاية». قال بصوت متقطع: «لست حليف القائد! القائد مخرب!». وعرض لي رأيه، الذي أوصَلَته إليه، كما قال، تأملاته: لقد خلق الحزب تشكيلات الجنود السود من أجل الذين لايستطيع أن يعهد إليهم بسلاح، ولكنه يريد إعادة تربيتهم. إلاّ أن عدو الطبقة لاينام، وهو يريد، بأي ثمن، عرقلة إعادة التربية هذه. ومايريده هو أن يُحتفظ بالجنود السود في حالة كراهية غاضبة للشيوعية كي يمكن أن يكونوا احتياطياً للثورة المضادة. وإذا كان الصبي القائد يتصرف حيال كل واحد بحيث يستجر غضبه، فمن الواضح أن هذا جزء من خطة العدو. ويبدو أنه ليست لدي أدنى فكرة عن كل الخبايا التي يندس فيها أعداء الحزب. والقائد بالتأكيد عميل للعدو. واليكسيج يعرف واجبه، وقد كتب تقريراً مفصلاً عن تصرفات القائد. ذهلت: «ماذا؟ ماالذي كتبته؟ أين أرسلت هذا؟». أجابني بأنه قد وجه شكوى ضد القائد إلى الحزب.

في هذه الأثناء، كنا قد خرجنا من هذه البراكة. سألني عما إذا

كنت لا أخاف من الظهور، أمام الآخرين معه. قلت له إنه يجب أن يكون غبياً ليطرح مثل هذا السؤال، وغبياً مضاعفاً ليتصور أن رسالته ستصل إلى من وُجّهت إليه. وهو ماأجاب عنه بأنه، كشيوعي، كان عليه أن يتصرف، في كل الظروف، بحيث لايكون عليه أن يحمرّ خجلاً. وذكرّني مرة أخرى، بأني كنت، أنا نفسي، شيوعياً (ولو كنت مفصولاً من الحزب)، وأن علي أن أتصرف بغير الطريقة التي أتصرف بها: «نحن الشيوعيين مسؤولون عن كل مايجري هنا». أضحكني ذلك. قلت له إنه لايمكن التفكير في المسؤولية دون الحرية. فرد بأنه يحس بنفسه على قدر من الحرية يكفي ليتصرف كشيوعي. فيجب أن يُثبت، وسيثبت أنه شيوعي. كانت ذقنه ترتعش وهو يقول هذا. وعندما أتذكر اليوم، بعد هذا العدد من السنوات تلك اللحظة، أعي أكثر من أي وقت مضى أن اليكسيج لم يكد، آنذاك، أن يتجاوز العشرين من عمره وأنه كان شاباً، صبياً، وأن مصيره كان يتماوج فوقه كثوب عملاق على جسمٍ صغيرٍ جداً.

أتذكر أن سينيك سألني، بعد قليل من هذا الحديث مع اليكسيج، لماذا أتكلم مع هذا الوغد. فقلت له إن اليكسيج غبي ولكنه ليس وغداً. ونقلت إليه ما أتى اليكسيج على روايته لي عن شكواه ضد القائد. لم يؤثر ذلك في سينيك وقال: «لاأعلم ما إذا كان غبياً، ولكنه، بالتأكيد، وغد لأن المرء يجب أن يكون وغداً ليتنكر لأبيه علناً». لم أفهم، ودهش لأني لم أكن مطلعاً. فالمفوض، شخصياً، أراهم صحفاً تعود إلى عدة شهور كان فيها تصريح لـ «اليكسيج»: يتنكر فيه لأبيه الذي خان، على حد قوله، ولطخ كل ماكان ابنه يراه أقدس الأشياء.

حوالى مساء ذلك اليوم، ومن أعلى برج (بني في الأيام السابقة)، كانت الكشافات تنير للمرة الأولى الثكنة. وكان حارس وكلبه يسيران على طول محيط السياج. هبط عليَّ حزن لايمكن سبر أعماقه: كنت دون لوسي، أعلم أني لن ألقاها لمدة شهرين طويلين. كتبت إليها في ذلك المساء نفسه رسالة طويلة. قلت لها بأنني لن

أستطيع رؤيتها قبل زمن طويل ولم يكن يحق لنا الخروج من الثكنة، وكم كنت آسفاً لأنها رفضت منحي ماكنت أشتهيه والذي كان من شأن ذكراه أن تساعدني على تحمل هذه الأسابيع القاتمة.

وغداة إيداعي رسالتي البريد، كنا ننفذ الإيعازات الأبدية: «استعد»، «إلى الأمام سر»، «انبطاح». كنت أنفذ هذه الحركات المطلوبة آلياً، ولا أرى العريف يثور ولارفاقي يمشون أو يرتمون على الأرض. ولم أكن أرى أيضاً، ماكان حولي: براكات على جوانب الباحة الثلاثة، سياج على الجانب الرابع يحد طريقاً. وهناك كان مارة (غالباً ماكانوا أطفالاً، وحدهم أو مع أهلهم الذين يوضحون لهم أن الجنود الصغار يتدربون خلف السياج) يتوقفون، بين حين وآخر. كل ذلك كان يتحول، بالنسبة لي، إلى ديكور دون حياة، إلى لوحة مرسومة (كل ما هو خلف الأسلاك الحديدية لم يكن سوى لوحة مرسومة). ولذلك، لم أكن لأنظر إلى تلك الناحية، لو لم يكن أحدهم قد هتف، في ذلك الاتجاه، قائلاً: «أتحلمين أيتها الدمية؟».

عند ذلك فقط رأيتها. إنها لوسي. كانت واقفة عند السياج بمعطفها الرمادي القديم المهترىء (لماذا نسيت، يوم مشترياتنا، أن أيام البرد ستأتي بعد أن ينتهي الصيف؟)، وهي تحتذي الحذاء الأسود ذا الكعب العالي (هديتي). كانت تراقبنا جامدة. وباهتمام متزايد، راح الجنود يعلقون على هيئتها الصابرة بشكل طريف ويضعون، في أقوالهم، كل اليأس الجنسي لرجال احتُفظ بهم في عزوبية إجبارية. حتى ضابط الصف سرعان ماتنبّه إلى الهيجان الذاهل للجنود وسببه. اغتاظ أمام عجزه: فهو لم يكن يستطيع منع الفتاة من أن تكون هناك. فخارج الأسلاك الحديدية تمتد مساحة حرية نسبية تفلت من أوامره. فبعد أن أمر الفتيان، إذن، بالاحتفاظ بملاحظاتهم لأنفسهم، رفع صوته في إيعازاته ورفع إيقاع التدريب.

كانت لوسي تنتقل عدة خطوات أحياناً، وتغيب تماماً عن ساحة بصري أحياناً أخرى، ولكنها تعود أخيراً إلى المكان الذي كنا نستطيع أن نرى فيه بعضنا. ثم انتهت جلسة النظام المنضم لكن لم

يتوافر الوقت للاقتراب من لوسي لأنه يجب الذهاب بسرعة إلى درس التربية السياسية. استمعنا إلى عبارات عن معسكر السلام وعن الإمبرياليين، ولم أستطع أن أهرب (متردداً) وأرى أن لوسي مازالت عند السياج إلا بعد ساعة. فركضتُ إليها.

طلبت مني ألاّ أحمل لها ضغينة، فهي كانت تحبني وتحقد على نفسها لمعرفتها أني كنت حزيناً بسببها. قلت لها إني لاأعلم متى ستتاح لي فرصة لقائها. فقالت إن ذلك لايهم وهي ستعود إلى هناك كثيراً. (كان فتيان يمرون خلف ظهري ويصرخون في اتجاهنا، بأقوال فاحشة). سألتها عما إذا لم تكن فظاظات الجنود تزعجها. فأكدت لي أن لاأهمية لذلك لأنها تحبني. دست لي، من بين الأسلاك، وردة (دوى النفير، كانوا يدعوننا إلى التجمع). قبلنا بعضنا خلال حلقة من السياج.

13

كانت لوسي تأتي كل يوم تقريباً إلى سور الثكنة عندما أكون في المنجم صباحاً، وأقضي، إذن، في المقر، ساعات بعد الظهر. وكنت أتلقى كل يوم باقة صغيرة (رماها الرقيب لي، جميعها، على الأرض لدى استعراضٍ للرزم). وكنت أتبادل مع لوسي بعض العبارات النادرة (عباراتٍ نمطية لأنه لم يكن لدينا، جملةٌ، مانقوله لبعضنا. لم نكن نتبادل أفكاراً أو أخباراً، ولم نكن نؤكد لبعضنا سوى حقيقة واحدة عبّرنا عنها عدة مرات). وفي الوقت نفسه، كنت أكتب إليها كل يوم، تقريباً. كان ذلك أشد أطوار حبنا حدة. كانت كشافات البرج ونباح الكلاب القصير حوالى المساء، والصبي الذي يسيطر على كل ذلك تحتل مكاناً فقيراً في فكري المتجه كله نحو مجيء لوسي.

وفي الواقع، كنت سعيداً جداً في هذه الثكنة التي تحرسها الكلاب، أو في أعماق منجمي حيث كنت أتكىء على مطرقة الثقب التي كانت تتقافز. كنت سعيداً وفخوراً لأنني كنت أملك، في لوسي، ثروة لم يكن أحد من رفاقي، ولامن أصحاب الرتب، يملكها: كنت محبوباً أمام الجميع، وبمباهاة. وعلى الرغم من أن لوسي لم تكن تجسد المثل الأعلى النسائي لرفاقي، وعلى الرغم من أن حنانها يتجلى – في رأيهم – بصورةٍ كافيةٍ من الغرابة، فقد كان ذلك، على الرغم من كل شيء، حب امرأة، ويوقظ الدهشة والحنين والحسد.

وكلما طال احتجازنا بعيداً عن العالم والنساء، زادت عودة النساء، بكل التفاصيل، إلى أحاديثنا. كنا نذكر الشامات ونرسم (بالقلم على الورق، بالمعول على الآجر وبطرف الإصبع على الرمل) محيطات أثدائهن وأردافهن. كنا نتجادل لمعرفة أي من الأوراك الغائبة يمثل الرشاقة الفضلى. نستعيد، بصورة مضبوطة، الأقوال

والتأوهات المصاحبة للمضاجعات. وكل ذلك كان يُناقش، أيضاً وأيضاً، وبتفاصيل جديدة دائماً. وسئلت، أنا أيضاً، وزاد في فضول الرفاق أن الفتاة التي قد أتحدث عنها كانت تظهر لهم كل يوم وأنهم كانوا يستطيعون بسهولة، إذن، أن يربطوا مظهرها المجسد بروايتي. لم أكن أستطيع أن أخيب أمل رفاقي، كما لم أستطع إلا أن أروي. تحدثت، إذن، عن جسد لوسي العاري الذي لم أكن قد رأيته قط، وعن ليالي حبنا التي لم أعشها أبداً. وتشكلت فجأة أمام عيني لوحة واضحة ودقيقة لعاطفتها الهادئة.

كيف كانت المرة الأولى التي طارحتها، فيها الحب؟

حدث ذلك في بيتها، في غرفة بيت العاملات، فقد تعرت أمامي، طيعة، مخلصة، ومع ذلك على الرغم منها لأنها كانت فتاة ريفية وكنت أول رجل يراها عارية. كان هذا الإخلاص الممزوج بالخفر يثيرني إلى حد الجنون. وعندما اقتربت منها تكومت على نفسها ويداها ملتصقتان فوق عانتها...

لماذا تحتذي، طيلة الوقت، هذا الحذاء الأسود ذا الكعب العالي؟

كنت قد اشتريته لها عمداً، بقصد جعلها تمشي أمامي عارية تماماً، بحذائها فقط. كانت خجلة، ولكنها تفعل كل ماأريد، كنت أبقى دائماً مرتدياً ثيابي أطول وقت ممكن، بينما تتجول عارية في حذائها الصغير هذا (كونها عارية وأنا بملابسي كان يروقني إلى حد مخيف)، وكانت تمضي، عارية، لجلب الخمر من الخزانة، وعاريةً تأتي لتملأ كأسي.

وهكذا لم أكن، لدى مرات مجيء لوسي إلى السياج، الوحيد الذي ألاحظها، بل كان معي عشرة من الرفاق الذين يعرفون، بالضبط، كيف تمارس لوسي الحب وما الذي تقوله، إذ ذاك، أو كيف تتأوه، وفي كل مرة كانوا يتبينون أنها ماتزال تحتذي الحذاء الأسود، ويتخيلونها عارية تتجول على كعبيها العاليين من زاوية أخرى في الغرفة الصغيرة.

كان كل واحد من رفاقي يستطيع أن يتذكر امرأة ويشارك الآخرين، على هذا النحو، فيها إلا أن أحداً غيري لم يكن يستطيع تقديم رؤية هذه المرأة. فامرأتي وحدها كانت حقيقية، حية وحاضرة. وكانت نتيجة التضامن الذي دفعني إلى تصوير جسم لوسي العاري وسلوكها الشبقي تجسيد رغبتي حتى الألم. لم يكن الرفاق الذين يعلقون على قدومها بسفاهات يغيظونني أبداً: فطريقتهم في امتلاك لوسي لم تكن تستطيع أن تفقدني امتلاكها (فالسياج والكلاب تحميها من الجميع، بمن فيهم أنا). وعلى العكس من ذلك، كانوا يقدمونها لي: فكلهم كانوا يجهزون لي صورة مثيرة لها، يقولبونها معي ويضفون عليها اغراء هائماً. استسلمت لرفاقي، واستسلمنا معاً، لاشتهاء لوسي. وعندما كنت أذهب، بعد ذلك، للقائها عند السياج، كانت الرعشات تتملكني. لم أكن أستطيع الكلام، فإلى هذا الحد كنت أشتهيها. لم أكن أفهم كيف استطعت معاشرتها ستة أشهر، كطالب خجول، دون أن أكتشف المرأة فيها. وكان يمكن أن أضحي بكل شيء في سبيل مضاجعة واحدة معها.

لاأريد بذلك أن أقول إن تعلقي بها قد تحول خاماً، سطحياً وأنه فقد كل حنان. بل أقول بأنني كنت أحس، آنذاك ـ للمرة الوحيدة في حياتي ـ بالرغبة الكلية بامرأة انخرط فيها كل وجودي: جسداً وروحاً، شبقاً وحناناً، لوعة وحباً مجنوناً للحياة، رغبة ملحة في الابتذال كما في العزاء، ظمأ إلى لحظة متعة كما إلى لحظة امتلاك أبدي. كنت منخرطاً انخراطاً تاماً، متوتراً، مركزاً، وأذكر هذه اللحظات كفردوس مفقود (فردوسٌ فريد يحرسه كلاب وحراس).

كنت مستعداً لكل شيء شريطة أن أستطيع لقاء لوسي خارج الثكنة. لقد وعدتني بأنها «لن تمتنع عني» في المرة القادمة، وبأنها ستذهب حيث أريد. وجددت لي مرات عديدة هذا الوعد عبر الأسلاك الحديدية. يكفي، إذن، أن أتجرأ على عمل مغامر.

وسرعان مانضج الأمر في ذهني. كان الأساسي في خطة هونزا قد بقي مجهولاً من القائد. فقد بقي سياج السور سراً، منفرجاً، والاتفاق المعقود مع عامل المنجم الذي يسكن إلى جوار المقر مازال قائماً. وكانت المراقبة، بالتأكيد، من الكمال حالياً، بحيث لم يكن موضع بحث أن ينسل المرء نهاراً. وفي الليل، كان الحراس وكلابهم الذئبية يتجولون على الجوانب، والكشافات الضوئية تعمل، ولكن ذلك كان، في الحقيقة، يجري لمتعة القائد أكثر منه بسبب هربنا الذي أصبح غير محتمل الحدوث. فضبط الواحد منا يكلفه المحكمة العسكرية، وهذه مجازفة أكبر مما ينبغي. ولذلك بالضبط قلت لنفسي إن أمامي فرصتي الصغيرة.

كان علي، إذن، أن أكتشف لنا مخبأ لايبعد كثيراً عن الثكنة. وإن معظم عمال المناجم الذين يسكنون الجوار ينزلون في القفص نفسه الذين كنا ننزل فيه بحيث سرعان مااتفقت مع أحدهم (أرمل في حوالى الخمسين من عمره) وافق (مقابل ثلاثمئة كورون من ذلك العهد) على إعارتي مسكنه. كان جناحاً رمادياً من طابق واحد مرئياً من الثكنة. دللت عليه لوسي انطلاقاً من السياج موضحاً لها مشروعي. لم يرُقها ذلك، وحاولت ردعي عن المجازفة من أجلها، ولم تنته إلى القبول إلا لأنها لم تكن تعرف كيف تقول لا.

وصل اليوم المتفق عليه، وقد بدأ بصورة غريبة، ماكدنا نعود من المنجم حتى جمعنا الصبي القائد لنصغي إلى واحد من خطاباته. كان في العادة يلوح بفزاعات الحرب الوشيكة الحدوث وبالقسوة التي سينقض بها الرجعيون (الأمر يدور في ذهنه، حولنا بالدرجة الأولى). وأضاف هذه المرة أفكاراً جديدة: فعدو الطبقة تسلل إلى الحزب الشيوعي. ولكن فليعلم الجواسيس والخونة جيداً، بأن الأعداء المقنّعين سوف يعاملون بصورة أسوأ بمئة مرة من الذين لم يكونوا يخفون آراءهم لأن العدو المقنّع كلبٌ جربٌ. وقال الصبي القائد: «ولدينا نحن واحد منهم هنا بالذات». وأخرج من الصف

الصبي اليكسيج. ثم سحب من جيبه ورقة دسها تحت أنفه وقال: «هل تعني لك هذه الرسالة شيئاً؟ ـ قال اليكسيج: نعم ـ أنت كلب جرب، وفوق ذلك، نمام وشرطي. إلا أن نباح الكلب لايصل إلى السماء!». ومزق الرسالة تحت بصره.

ثم قال وهو يقدم ظرفاً مفتوحاً إلى اليكسيج: «لدي رسالة، أخرى لك. اقرأها بصوت مرتفع!». أخرج اليكسيج من الظرف ورقة اطّلع عليها في لحظة ولزم الصمت. كرر الضابط: «اقرأها إذن!». كان اليكسيج صامتاً. سأله القائد: «ألا تريد؟». وأمام صمت اليكسيج صاح آمراً: «انبطاحاً!»، فتمدد اليكسيج فوق الوحل. وتوقف القائد فوقه طويلاً وكنا كلنا نقدّر أن لاشيء يمكن أن يحصل خلاف: وقوفاً! انبطاحاً! وقوفاً! انبطاحاً! وأنه سوف ينبغي على اليكسيج أن يقف ثم ينبطح، يقف ثم ينبطح، ومع ذلك لم يتابع القائد أوامره، وتحول عنه ومشى ببطء مستعرضاً الصف الأول من الرجال، وفحص بعينيه التجهيزات، ووصل إلى آخر الصف (استغرق ذلك عدة دقائق)، ودار على عقبيه، ودون مزيد من العجلة، عاد إلى الجندي المنبطح على بطنه وقال: «والآن، اقرأ!» رفع اليكسيج ذقنه الملطخة بالوحل ومد يده اليمنى التي احتفظ فيها بالورقة طيلة الوقت وقرأ، وهو مايزال منبطحاً: «نُعلمكم أنه بتاريخ الخامس عشر من أيلول عام ألف وتسعمئة وواحد وخمسين، فُصلتم من الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي. عن اللجنة المنطقية...» وأمر القائد اليكسيج بالعودة إلى الصف ونقل القيادة إلى أحد أصحاب الرتب وجعلنا نتابع التدريب.

وبعد النظام المنضم هناك التثقيف السياسي، وحوالى السادسة والنصف (كان الليل قد هبط من قبل) كانت لوسي تنتظر قرب السياج. اتجهت إليها، حنت رأسها علامة على أن كل شيء على مايرام، ومضت. جاء بعد ذلك حساء المساء وإطفاء الأنوار، ومضينا إلى النوم. انتظرت في سريري حتى ينام عريف الغرفة. وعند ذلك احتذيت حذائي العسكري وغادرت الحجرة، كما أنا، بالسروال

الطويل الأبيض وقميص النوم. وبعد اجتيازي الممشى، صرت في الباحة. كنت أشعر بالبرد. كانت الثغرة في الحاجز قد فُتحت في آخر المقر وراء المستوصف، وهو ماكان جيداً لأني أستطيع دائماً أن أدّعي في حال لقاء غير متوقع، أن توعكاً أصابني وأني كنت ذاهباً لرؤية الطبيب. إلا أني لم أصادف أحداً. درت حول جدار البناء الصحي، منسلاً في ظله. كان كشاف يضيء بكسل المنطقة نفسها (لم يكن الشخص الواقف في البرج، على ماييدو، يأخذ مهمته مأخذ الجد الكبير)، والقسم الذي توجب علي اجتيازه من الباحة غارقاً في الظلمة، لم يبق لدي سوى هم واحد هو ألاّ أصطدم بالحارس الذي يقوم بدوريته، طيلة الليل، على طول السياج، مع كلبه. كان كل شيء صامتاً (صمتاً مخيفاً كان يعقّد تربصي). بقيت حقاً هناك حوالى عشر دقائق عندما سمعت، أخيراً، نباحاً. كان ذلك في الطرف الآخر من المقر. أقلعت إذن من جداري وركضت إلى المكان الذي بقي السياج فيه منفرجاً عند الأرض. انزلقت تحته منبطحاً. لم يعد ينبغي التردد الآن، بضع خطوات أخرى، وصرت عند سياج عامل المنجم الخشبي. كان كل شيء منتظماً: لم يكن الباب مغلقاً بالمفتاح، دخلت إلى باحة البيت الصغيرة التي كانت نافذتها (بستارتها المسدلة) تخفف النور الداخلي. قرعت على الزجاج، وبعد بضع ثوان، وقف عملاق عند إطار المدخل ودعاني بصخب لأن أتبعه. (هذه التظاهرات الصاخبة تكاد تسيّل عرقي لأني لم أكن أستطيع أن أنسى أني كنت على مقربة من الثكنة).

كان الباب ينفتح مباشرة على حجرة. بقيت عند العتبة مخبولاً قليلاً: في الداخل خمسة أشخاص جالسين براحة حول طاولة (عليها زجاجة مفتوحة). وعندما رأوني في هذا الزي المضحك، أخذوا يضحكون. أكدوا أني كنت، بالتأكيد، أموت برداً في قميص النوم، وصبوا لي كأساً. تذوقته: كان كحولاً مركزاً بدرجة 90% مايكاد أن يكون ممدداً بالماء. شجعوني وبقيت واقفاً. سعلت، وهو ماأضحكهم مرةً أخرى، ضحكة أخوية من جديد وقدموا لي

كرسياً. اهتموا بالطريقة التي نجحت بها في «عبور الحدود» ونظروا، مرة أخرى، إلى لباسي المضحك وقهقهوا مسمّين إياي «السروال الهارب». يبدو أن كل عمال المناجم هؤلاء الذين تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والأربعين قد اعتادوا على اللقاء هنا. كانوا يشربون، ولكنهم لم يكونوا ثملين. بعد المفاجأة الأولى، حررني وجودهم اللامبالي من بؤسي. لم أعترض على كأس آخر من هذا السائل القوي والمثير للسعال. وفي هذه الأثناء، أسرع عامل المنجم إلى الغرفة المجاورة وعاد منها بطقم غامق في يده. سأل قائلاً: «هل سيكون مناسباً؟». انتبهت إلى أنّ عامل المنجم أطول مني بعشرة سنتمترات وأسمن بكثير، ولكني قلت: «يجب أن يناسب». ارتديت البنطلون فوق السروال النظامي، لكن كان يجب الإمساك به وإلا هبط. سأل صاحب الهبة: «هل لدى أحد حزام؟». لم يكن لدى أحدهم هذا الحزام. قلت: «لو أن هناك حبل على الأقل». وجدوا لي حبلاً ثُبّت البنطلون، بفضله، تقريباً. ارتديت السترة وقرر الأشخاص (لاأدري لماذا) أني كنت أشبه شارلي شابلن، وأنه لم يكن ينقصني سوى القبعة والعصا. ومن أجل أن أبدو لطيفاً معهم، باعدت بين رأسي قدمي المتلاصقتين. كان البنطلون يشكّل عند فرعتي الحذاء العسكري مايشبه الأكورديون، والأصحاب يمرحون مقسمين على أن أية امرأة ستزحف من أجلي، هذه الليلة، على أربعة. وجعلوني أفرغ كأساً ثالثة ورافقوني حتى الرصيف. طمأنني الرجل إلى أني أستطيع أن آتي وأنقر على نافذته في أية ساعة أريد أن أعود فيها لأغير ملابسي.

خرجت إلى زقاق الضاحية الضعيف الإنارة. بقيت حوالى ربع ساعة أدور في دائرة واسعة حول السور العسكري قبل أن أقارب الطريق الذي كنت ذاهباً منه لألحق بلوسي. إلا أني كنت، على كل حال، مرغماً على المرور أمام بوابة ثكنتنا المنارة. وتبين أن قرصة القلق الصغيرة لم تكن لازمة: فقد كان لباسي المدني يحميني

حماية كاملة، ولمحني الحارس دون أن يتعرف علي. وصلت سالماً. وفتحت باب المنزل (المضاء بمصباح وحيد) وتقدمت مستعيناً بالذاكرة (مسترشداً بوصف عامل المنجم وحده): الدرج إلى اليسار، الطابق الأول، الباب المواجه. ضربت على الباب، فدار المفتاح في القفل، وفتحت لي لوسي.

قبلتها (كانت تنتظرني هناك منذ الساعة السادسة، على اعتبار أنها جاءت منذ رحيل عامل المنجم الذي كان في عداد فرقة الليل). سألتني عما إذا كنت قد شربت، فأجبت بالإيجاب ورويت لها كيف جئت. قالت إنها كانت ترتعد من أجلي، كل هذا الوقت، خوفاً من حدوث شيء لي (تبين لي، إذ ذاك، أنها ترتعد فعلاً). رويت لها بأي فرح عظيم جئت لألقاها. وكنت أحس بين ذراعي برعشاتها المتكررة. قلت لها قلقاً: «ماذا بك؟ ـ قالت: لاشيء ـ ولكن لماذا ترتجفين؟ قالت: كنت خائفة عليك»، وتملصت برفق.

ألقيت نظرة حولي. كانت الغرفة صغيرة ومتقشفة الأساس: طاولة، كرسي، سرير (كان مرتباً والأغطية لم تكن ناصعة جداً). هناك صورة مقدسة فوقه. وعلى الجدار المقابل، توجد خزانة متوجة بمربيات في أوعيتها (الشيء الوحيد الذي فيه شيء من الحلاوة في هذه الحجرة)، وفوق كل هذا، كان ضوء مصباح وحيد في السقف، دون غطاءٍ واقٍ من النور يخز العينين بصورة مزعجة، ويضيء بقسوة شخصي كله الذي كان يؤلمني، حالياً. الشيءُ المضحك الحزين فيه: السترة العملاقة، البنطلون المحزوم بحبل، طرفا الحذاء العسكري. وفي الأعلى تماماً هناك رأسي المحلوق حديثاً الذي يجب أن يكون، تحت ضوء المصباح، يلمع كقمر شاحب:

توسلت قائلاً: «كرمى لله، سامحيني يالوسي على كوني هكذا!»، وشرحت لها، أيضاً، ضرورة تنكري. طمأنتني لوسي إلى أنه لم يكن لذلك أية أهمية، ولكني صرحت، من جانبي، مدفوعاً بالعفوية

الناجمة عن الكحول، بأنه من المستحيل أن أظل هكذا أمامها، وأسقطت السترة والبنطلون بسرعة. إلا أنه كان هناك، تحتهما، قميص النوم والسروال العسكري القبيح (الذي يصل إلى عقبيّ)، وهما قطعتين أكثر اضحاكاً بعشر مرات من الطقم الذي كان يخفيهما منذ دقيقة. أدرت الزر لأطفئ النور، ولكن أية ظلمة لم تأت لإنقاذي، لأن مصباح الطريق كان يبلغ بضوئه الغرفة. وبما أن الخجل من المضحك انتصر علي الخجل من العري، فقد قذفتُ بالقميص والسروال ووقفتُ عارياً أمام لوسي، ضممتها إلي (ومرة أخرى، شعرت أنها ترتعش). طلبت منها أن تتعرى، أن تتخلص من كل ماكان يفصل بيننا. كنت أداعب كل جسدها وأرجوها، أيضاً وأيضاً، ولكن لوسي طلبت مني أن أنتظر قليلاً، وقالت إنها لم تكن تستطيع، لم تكن تستطيع فوراً، لا تستطيع بهذه السرعة.

أخذتُ يدها وجلسنا على السرير، ألصقت رأسي ببطنها وبقيت برهة دون حراك. وفجأة بدت لي كل فظاظة عُريي (المضاء إضاءة ضعيفة بضوء المصباح القذر). تبادر إلى ذهني أن كل شيء يدور على عكس ماكنت قد حلمت به: لم تكن هناك فتاة عارية أمام رجل يرتدي ثيابه، بل هناك رجل عار يلتصق إلى بطن امرأة بملابسها. كان لدي انطباع بأني كنت يسوع النازل عن الصليب بين يدي مريم الحانية، وسرعان ماأخافتني هذه الفكرة لأني لم آت إلى هنا باحثاً عن الحنو، بل عن شيء مختلف تماماً. ومرة أخرى، رحت أقبّل لوسي في وجهها وفي فستانها الذي حاولت أن أفك أزراره خفيةً عنها.

ولكني فشلت، وأفلتت لوسي: فقدتُ اندفاعتي الأولية، صبريَّ الواثق. كنت قد استنفدت احتياطيّ من الكلمات والملامسات. بقيت ممدداً على السرير، دون حراك، عارياً. كانت لوسي إلى قربي وتداعب وجهي بيديها الخشنتين. وفي هذه الأثناء، وشيئاً فشيئاً، راحت المرارة والغضب يتصاعدان فيّ. ذكّرت لوسي، في ذهني، بكل

الأخطار التي كان علي أن أتعرض لها من أجل أن ألقاها اليوم. ذكّرتها بكل العقوبات التي كان يمكن أن أستحقها على رحلة هذا المساء. ولكنها لم تكن سوى مآخذ سطحية (ولذلك كان يمكنني ـ في ذهني على الأقل ـ أن أعترف بها للوسي). كان المصدر الحقيقي لغضبي موجود في مكان أعمق بلا حدود (ومن شأني أن أحمرّ خجلاً لو بحت به): كان بؤسي يعذبني، بؤس شبابي المحبط المحزن، بؤس هذه الأسابيع الطويلة، غير المرتوية، المهانة اللامتناهية للرغبة غير الملبّاة. تذكرت فشل امتلاكي لماركيتا وابتذال تلك الشقراء على الآلة الزراعية، ومرة أخرى فشل امتلاكي للوسي. كانت لدي رغبة في أن أصرخ بشكواي: لماذا ينبغي لي أن أكون راشداً في كل شيء؟ كراشد حوكمت وفُصلت وأُعلنت تروتسكياً، وكراشد أرسل بي إلى المناجم، في حين لم يكن لي الحق في أن أكون راشداً في الحب وأُرغم على شرب كل عار عدم النضج. كنت أكره لوسي، لاسيما وأني كنت أعرف حبها لي، وهو ماكان يجعل مقاومتها ضالة وغير مفهومة ويرغمني على الغضب، وهكذا عدت بعد نصف ساعة من الصمت العنيد إلى الهجوم.

انقضضت عليها. وتوصلت، مستعملاً كل قوتي، إلى رفع تنورتها وتمزيق حمالة صدرها والإمساك بالصدر العاري. ولكن لوسي واجهتني بدفاع كان يزداد شراسة باستمرار وتملصت (وهي تحت سيطرة عنف لايقل عمى عن عنفي) وقفزت من على السرير والتصقت بالخزانة.

صرخت: «لماذا تدافعين عن نفسك؟»، غمغمت، وهي غير قادرة على الادلاء بجواب، بأنه لا ينبغي أن أغضب أو أحقد عليها، ولكنها لم تقدم إيضاحاً. شتمتها قائلاً: «لماذا تدافعين عن نفسك؟ ألا تعلمين إذن أني أحبك؟ أنت مجنونة يجب أن تُربط!» قالت وهي مازالت تلتصق بالخزانة: «اطردني إذن!». قلت: «نعم، سأطردك لأنك لاتحبينني، لأنك تسخرين مني». وأنذرتها، صارخاً، بأنها إما أن تكون لي وإما أن تعلم بأني لم أعد أريد رؤيتها إلى الأبد.

ومضيت، أيضاً، نحوها وقبلتها. في هذه المرة لم تدافع عن نفسها، ولكنها كانت بين ذراعي بلا قوة، كأنها ميتة. قلت لها: «ماذا تظنين نفسك ببكارتك؟ لمن تريدين أن تحتفظي بنفسك؟». ظلت صامتة. «لماذا أنت صامتة؟ قالت: أنت لاتحبني! ـ أنا لاأحبك؟ ـ كلا! لقد تخيلت أنك تحبني...» وانخرطت في البكاء.

جثوت أمامها قبلت ساقيها، توسلت إليها. كانت تكرر، وهي تبكي، أني لم أكن أحبها.

ودفعة واحدة استولى عليّ الغضب. بدا لي أن قوة خارقة للطبيعة تسد الطريق أمامي، منتزعة دائماً، من بين يدي، كل ماكنت أريد العيش من أجله، كل ماكنت أرغب فيه، كل ماكان يخصني. هذه القوة كانت تبدو لي هي نفسها التي سرقت مني الحزب ورفاقي والكلية، هي نفسها التي كانت في كل مرة تأخذ كل شيء، وبنعم أو لا، ودون أي سبب دائماً. فهمت أن هذه القوة هي التي كانت تُوقف لوسي ضدي وكنت أكره لوسي لأنها جعلت من نفسها أداة لها. ضربتها على وجهها ظاناً أني لاأصيب لوسي، بل تلك القوة المعادية. صرختُ بأني كنت أكرهها وبأني لم أعد أريد أن أراها أبداً طيلة حياتي.

رميتُ لها بمعطفها الكستنائي (المتروك على كرسي) وصرختُ طالباً إليها الرحيل.

أخذتْ معطفها وخرجت.

ثم ارتميت على السرير وفي روحي فراغ. كنت قريباً جداً من أن أستدعيها، فقد كنت أفتقدها فعلاً في اللحظة التي كنت أطردها فيها، لأني كنت أعلم أن وجودي مع لوسي مرتدية ثيابها ومتمردة أفضل، ألف مرة، من أن أكون دون لوسي.

كنت أعلم ذلك، ومع ذلك لم تبدر مني حركة لإعادتها.

بقيت طويلاً عارياً على سرير الغرفة المستعارة، لأنه لم يكن معقولاً أن أقابل في هذه الحالة أناساً، أن أعود إلى الظهور في

البيت المقابل للثكنة، أن أمازح عمال المناجم وأرد على استجوابهم السليط.

ومع ذلك (في وقت متأخر جداً من الليل)، انتهيت إلى ارتداء ثيابي والرحيل. ومن على الرصيف المقابل، كان المصباح مايزال ينير البيت الذي غادرته. درت حول الثكنة وقرعت على النافذة (المظلمة الآن)، وانتظرت ثلاث دقائق وخلعت ثيابي في حضور عامل المنجم الذي كان يتثاءب، وأجبت بإبهام عندما سألني عن حظي الطيب. واتجهت (بقميص النوم والسروال من جديد) نحو الثكنة. كنت، وأنا خائر القوى، لاأبالي بشيء. لم أكن منتبهاً إلى الجهة التي يوجد فيها الحارس وكلبه الذئبي، ولا إلى ضوء الكشاف. انزلقت تحت السياج واتجهت، بهدوء، نحو براكتنا. كنت، بالضبط، عند جدار المستوصف عندما سمعت صوتاً يصرخ: «قف هنا!» وقفت أضاء حولي مصباح جيب. «ماذا تفعل هنا؟».

قلت، وأنا أستند بيدٍ إلى الجدار: كنت أتقيأ أيها الرفيق الرقيب.

رد الرقيب قائلاً: «تابع، تابع!» واستأنف دوريته مع حيوانه.

14

وصلت دون مزيد من المشكلات (فقد كان العريف يغط في نوم عميق) إلى سريري غير قادر، على كل حال، على أن أغمض عيني بحيث سعدت عندما جاء صوت العريف الخشن (صارخاً: «أنتم الذين في الداخل: انهضوا!») ليضع حداً لهذه الليلة السيئة. انزلقت في حذائي وركضت إلى المغاسل لأرش وجهي بالماء البارد. وأثناء عودتي لمحت حول سرير اليكسيج فصيلاً من الرفاق الذين ارتدوا نصف ثيابهم، يتضاحكون دون صوت. فهمت مايجري: كان اليكسيج (الراقد على بطنه تحت الغطاء ورأسه مختف في الوسادة) نائماً كصخرة جامدة. وسرعان ماذكرني هذا بفرانتا بترازيك الذي تظاهر، ذات صباح، بسبب حنقه على رئيس مفرزته، بنوم من العمق بحيث هزه ثلاثة رؤساء هزاً عنيفاً دون نتيجة. واقتضى الأمر، بعد اليأس من كل الطرق، حمله مع سريره إلى الباحة حيث لم يستفق، بكسل، إلا بعد أن صُوبت عليه قاذفة لهب. إلا أنه ليس بالإمكان أن يُشتبه لدى اليكسيج بعصيان، ولاريب في أنه مامن سبب آخر لنومه العميق خلاف ضعف بنيته. جاء أحد العرفاء (رئيس غرفتنا) حاملاً قِدراً هائلاً مليئاً بالماء بين ذراعيه، يواكبه عدة رفاق أوحوا له، كما يظهر، بطريقة الماء القديمة الحمقاء هذه التي تناسب، بشكل عجيب، عقول ضباط الصف في كل الأزمنة.

أثارني هذا التواطؤ الأخرق بين الرجال وصاحب الرتبة (المحتقر جداً عادة). كنت أحس بالإهانة لرؤيتي كل الحسابات القديمة بينهم تمّحي، فجأة، بفعل كراهيتهم المشتركة لـ «اليكسيج». كانوا جميعاً قد فسروا، بداهة، في اتجاه ريبتهم الخاصة، كلمات القائد الذي تحدث بالأمس عن اليكسيج الواشي وأحسوا فجأة بالدفق الدافئ للموافقة على قسوة صاحب الرتبة. صعد إلى رأسي غضب أعمى، غضبت منهم جميعاً، مَنْ حولي، لتعجلهم إلى تصديق

أول اتهام وارد لقسوتهم الجاهزة دائماً ـ وسبقت العريف وصحبه، وقلت، وأنا إلى جانب السرير، بصوت مرتفع: «انهض ياأليكسيج، لاتكن غبياً!».

وفي هذه اللحظة لوى أحدهم، من الخلف، قبضتي مُرغماً إياي على السقوط راكعاً. أدرت رأسي، فتعرفت على بيتربيكني الذي همس متوجهاً إليّ: «أجئت إذن أيها البلشفي لتعكر العيد؟». تحررت بانتفاضة ووجهت إليه صفعة. كنا على أهبة الاشتباك، ولكن الآخرين سارعوا إلى تهدئتنا خشية استيقاظٍ قبل الأوان من جانب اليكسيج. وفوق ذلك، كان هناك العريف الذي ينتظر مع قِدره. صرخ، وقد وقف إلى جانب سرير اليكسيج: «انهض»، وصب عليه ليترات الماء العشرة.

حدث شيء غريب: فقد بقي اليكسيج راقداً كما من ذي قبل ولم يتحرك قيد أنملة. هتف العريف وقد أصابه الذهول للحظة: «أيها الجندي! انهض» ولكن الجندي لم يتحرك. انحنى العريف وهزه (كان الغطاء مبللاً، وكذلك السرير والشراشف، وقطرات تسقط على الأرض). نجح في أن يقلب جسم اليكسيج الذي بدا لنا وجهه غائراً، شاحباً، جامداً.

صرخ العريف: «الطبيب!». لم يتحرك أحد، فقد كان الجميع ينظرون إلى اليكسيج بقميص نومه المبلل، وصرخ العريف من جديد: «الطبيب!» وأشار إلى جندي مضى فوراً.

(كان اليكسيج راقداً دون حراك، أشد هزالاً وسقماً من أي وقت مضى، وكذلك أصغر، كطفلٍ، باستثناء أن شفتيه كانتا مضمومتين بصورة شديدة جداً، كما لايضم الأطفال شفاههم. كانت قطرات تسقط من تحته. قال أحدهم: «إنها تمطر...»).

أخذ الطبيب الذي أتى مسرعاً قبضة اليكسيج وقال: «حسناً..»، ثم رفع الغطاء المبلل: رأيناه جميعاً بقامته القصيرة، وفي سرواله الطويل الأبيض المبلل وأخمصا قدميه المسكينتين العاريتين

مرفوعان في الهواء. تفحص الطبيب ماحوله، والتقط أنبوبين من على الطاولة المجاورة للسرير. فحصهما (كانا فارغين) وقال: «مايكفي لتصفية اثنين». ثم سحب غطاء السرير المجاور وبسطه فوق اليكسيج.

كل ذلك قد أخرّنا، أُجبرنا على تناول طعام الإفطار ونحن نركض، وبعد ثلاثة أرباع الساعة، نزلنا إلى الحفر. ثم كانت هناك نهاية العمل، فترة تدريب جديدة، تربية سياسية، غناء إجباري، أعمال التنظيف، وهناك النوم. فكرت في أن ستانا لم يعد هنا وأن هونزا، أفضل أصدقائي، لم يعد هنا بدوره (لم أره من جديد أبداً وكل ماقيل لي هو أنه، بعد انتهاء مدة خدمته، انتقل سراً إلى النمسا) وأن اليكسيج، أيضاً، لم يعد هنا. لقد أدى دوره المجنون بشكل أعمى وشجاع، ولم يكن ذنبه أنه لم يعد، فجأة، يستطيع مواصلة أدائه، وإذا كانت قواه قد خانته فهو ما عاد يعرف كيف يبقى في الصف بقِناعه، قناع الكلب. لم يكن رفيقي، كان غريباً عني في استماتة إيمانه، ولكنه كان، بمصيره، أقرب الجميع إلي. ويبدو لي أنه كتم، في موته، ملامة موجهة إليّ، كما لو أنه أراد إفهامي أنه منذ أن ينفي الحزب رجلاً من بين صفوفه، فلا يبقى لهذا الرجل مبررات للعيش. شعرت بنفسي فجأة مذنباً لكوني لم أحبه، لأنه كان الآن ميتاً، ميتاً دون رجعة ولأني لم أفعل أبداً شيئاً من أجله، على الرغم من أني كنت الوحيد هنا القادر على فعل شيء ما من أجله.

ولم تقتصر خسارتي على اليكسيج وعلى فرصتي الوحيدة لإنقاذ إنسان. وعندما أسترجع الأمور اليوم، أرى أن ذلك الحين هو الذي فقدت فيه، أيضاً، الحس الدافىء بتضامني مع رفاقي السود، وبالتالي لآخر احتمال لبعث ثقتي بالناس. بدأت أشك في قيمة تضامننا الناجم فقط عن ضغط الظروف وغريزة البقاء التي كانت تلصقنا ببعضنا كقطيع كثيف. وبدأت أفكر في أن جماعتنا، نحن السود، كانت قادرة، كجماعة القاعة سابقاً، وكل جماعة على وجه الاحتمال، على مطاردة إنسان (إرساله إلى المنفى والموت).

كنت، في تلك الأيام، كما لو أن صحراء تعبرني. كنت صحراء في الصحراء، وكانت لدي رغبة في استدعاء لوسي. لم أكن فجأة أستطيع أن أفهم لماذا اشتهيت جسدها إلى هذا الحد. بدا لي، الآن، لأنها ربما لم تكن امرأة من لحم، بل عموداً شفافاً من الحرارة كان يعبر امبراطورية اللامتناهي الباردة، عموداً شفافاً يبتعد عني، طردته أنا نفسي.

ثم جاء يوم آخر، وأثناء التدريبات في الباحة، لم تبرح عيناي الحاجز. كنت أنتظر مجيئها. إلا أنه لم تأت، خلال كل هذا الوقت، سوى عجوز وقفت ودلت طفلها الوسخ علينا. وفي المساء كتبت رسالة طويلة ومولهة. رجوت لوسي أن تعود، وقلت بأنني يجب أن أراها، ولم أعد أطلب شيئاً خلاف أن تكون موجودة وأن أستطيع رؤيتها وأعرف أنها معي، وأنها...

وكما لو أن في الأمر سخرية، أصبح الطقس دافئاً، والسماء زرقاء. كان تشريناً رائعاً، الأشجار ملونة، والطبيعة (هذه الطبيعة الأوسترافية المسكينة) تحتفل بوداعها الخريفي بنشوة مجنونة. كان ينبغي أن أرى فيها سخرية لأن رسائلي الحزينة إلى لوسي بقيت دون صدى ولأنه لم يكن يتوقف أمام السياج (تحت شمس استفزازية) سوى أناس غرباء بشكل بشع. وبعد خمسة عشر يوماً، أعاد البريد إليّ إحدى رسائلي. كان العنوان مشطوباً من على الغلاف، وكُتب بقلم الرصاص: رحلتْ دون أن تترك عنوانها.

اجتاحني الهلع. فمنذ آخر لقاء لي مع لوسي، تذكرت، ألف مرة، ماقلناه لبعضنا آنذاك، ولعنت نفسي مئة مرة، وبررت نفسي أمام نفسي مئة مرة، وخيل إلي أني طلقتها إلى الأبد مئة مرة، وتأكدت مئة مرة، من أن لوسي ستعرف، مع ذلك، كيف تفهمني وتسامحني. ولكن قلم ساعي البريد الرصاصي رن صداه وكأنه حكم.

سمحت لنفسي، في اليوم التالي، وأنا فريسة لقلق لم أعد أسيطر

عليه، بجنون جديد. أقول إنه جنون، ولكنه ليس أخطر من هربي الأخير من الثكنة، ولم يظهر جنون هذا الإنجاز إلا بصورة استرجاعية وبسبب عدم نجاحه أكثر منه بسبب خطورته. كنت أعلم أن هونزا فعل الشيء نفسه، أكثر من مرة قبلي، عندما كان يخرج خلال الصيف مع بلغارية يعمل زوجها صباحاً في الخارج. قلدت إذن طريقته: فقد قدمت نفسي مع الآخرين في فرقة الصباح، وسحبت بطاقتي ومصباح الأمان ولوثت وجهي بالغبار واختفيت سراً. ركضت إلى بيت لوسي وسألت البوابة عنها. علمت برحيل الفتاة، منذ حوالى خمسة عشر يوماً، مع حقيبة صغيرة وضعت فيها كل أمتعتها. ولم يكن أحد يعرف أين ذهبت، فلم تقل شيئاً لأحد. خفت. ماذا لو أن شيئاً ما قد حدث لها. نظرتْ إليّ البوابة وأومأت بحركة لامبالية: «ماذا؟ هؤلاء الصبايا اللواتي يأتين للعمل في فرقة. إنهن يفعلن هذا دائماً. إنهن يأتينّ ويذهبن دون أن يقلن أبداً شيئاً لأحد». مضيت في الاستعلامات حتى مكتب المستخدمين في مصنعها، ولكني لم أعرف المزيد. ثم همت على وجهي في أوسترافا وعدت إلى مكان العمل قبل نهايته، بالضبط، وأنا أنوي الاختلاط بقطيع الرفاق لدى صعودهم من المنجم، إلا أن نقطة مايجب أن تكون قد فاتتني في الوضعية التي رتبها هونزا لهذا النوع من النزهات: فقد علقتُ، وبعد أسبوعين، كنت أمثل أمام المحكمة العسكرية لأحصد عشرة أشهر بتهمة الفرار.

نعم، في ذلك الوقت، في البرهة التي فقدت فيها لوسي بدأت هذه المرحلة الطويلة من اليأس والفراغ، التي ذكرني بها ديكور الضواحي الموصل لمدينتي التي وصلتُ إليها لإقامة قصيرة. في هذه البرهة فقط بدأ هذا: فخلال هذه الأشهر العشرة وراء القضبان ماتت أمي، ولم أستطع حتى الذهاب لحضور دفنها. ثم عدت إلى أوسترافا، إلى السود وقضيت سنة خدمة أخرى، وفي هذه الفترة، وقّعت تطوعاً للعمل ثلاث سنوات في المناجم بعد انتهاء خدمتي

العسكرية لانتشار شائعة تقول بأن من يرفضون سوف يُحتفظ بهم لبضع سنوات أخرى. وهكذا نزلت، أيضاً، إلى المنجم لمدة ثلاث سنوات كمدني.

لاأحب التفكير في ذلك، لاأحب الحديث عنه. ولنقل، بهذه المناسبة، إني لاأستسيغ أن يتباهى بمصيرهم أناسٌ رفضتهم، كما رفضتني، الحركةُ التي كانوا يؤمنون بها. نعم، من الصحيح أنني أيضاً، أضفيت البطولة على مصيري كمنفي، ولكن ذلك كان غروراً مزيفاً. فقد كان علي مع مضي الزمن، أن أتذكر دون تسامح، أني لم أجد نفسي بين السود لأني كنت شجاعاً، لأني ناضلت، لأني بَعثت بفكرتي لتقاتل أفكاراً أخرى. كلا! إن سقوطي لم يُسبق بأية مأساة حقيقية. كنت موضوع قصتي أكثر مني مؤلفها، وبالتالي، لم يكن لدي (إذ لم أعرف قيمة للعذاب، للأسى، للفشل) أدنى مبرر لأتباهى به.

ولوسي؟ آه، نعم: مضت خمسة عشر عاماً دون أن أراها، بل وبقيت طويلاً لاأعرف شيئاً عنها. إلا أني سمعت، بعد خدمتي العسكرية، أن من المحتمل أن تكون موجودة في مكان ما، غرب بوهيميا. ولكني لم أعد أبحث عنها.

القســم الرابع

جاروسلاف

1

أرى طريقاً في الحقول. أرى أرض هذه الطريق التي خططتها عجلات العربات الفلاحية. وعلى طول الطريق، كان هناك العشب شديد الاخضرار الذي لاأستطيع الامتناع عن مداعبته.

وهناك في كل مكان حولي، حقول صغيرة، لم تكن حقول التعاونيات المجمعة. وكيف ذلك؟ أليس ما أجتازه مشهداً من زماننا؟ أي مشهد هو إذن؟

مضيت أبعد من ذلك، وها هي نبتة نسرين أمامي، عند حافة حقل. وهي مليئة بزهور برية صغيرة. توقفت وأنا سعيد. جلست على العشب في أسفل حرشٍ صغير، وسرعان ماتمددت. أحسست بظهري يلامس الأرض. تلَمستها بظهري. أمسكت بها بظهري ورجوتها ألّا تخشى من أن تكون ثقيلة علي، وأن تستريح عليّ بكل وزنها.

ثم سمعت طقطقة حوافر. ومن بعيد، ارتفعت سحابة غبار دقيقة. وأصبحت واضحة بقدر ماكانت تقترب. وبان منها فرسان. كانوا شباناً على صهوات خيلهم ويرتدون بزات بيضاء. إلا أن الإهمال في لباسهم كان يزداد وضوحاً كلما زادوا اقتراباً. كانت بعض الصدور تزدان بأزرار ذهبية، في حين كانت صدور أخرى عارية، وهناك رجال بقمصان فقط. بعضهم يعتمر خوذة، وبعضهم عاري الرأس. آه! كلا! لم يكن هذا فصيلاً نظامياً، إنهم فارّون، متسللون، قطاع طرق! إنهم فرساننا نحن! نهضت ونظرت إليهم قادمين. سحب أول فارس سيفه وامتشقه. وتوقف الفصيل.

انحنى رجل السيف على عنق جواده ليتفرس فيّ.

قلت: «نعم! هذا أنا!».

قال الآخر مدهوشاً: الملك! عرفتك!

أحنيت رأسي سعيداً. إنهم يتجولون فوق خيولهم كل هذه القرون هنا، وقد عرفوني.

سأل الرجل: «كيف تعيش يا مليكي؟

قلت: إني خائف أيها الأصدقاء.

ـ هل يلاحقونك؟

ـ كلا! الأمر أسوأ. شيء ما يدبّر ضدي. لاأتعرف على الناس الذين يحيطون بي. أعود إلى بيتي، فأجد غرفة أخرى وامرأة أخرى، كل شيء مختلف. أقول لنفسي لا بدّ أنّي قد ضللت الطريق. أخرج، ولكن هذا من الخارج بيتي حقاً! إنه بيتي من الخارج، وبيت غريب في الداخل. والأمر هو هكذا حيثما التفت. تجري أمور تخيفني يا أصدقائي».

سألني الرجل: «أما زلت تحسن الركوب؟». لاحظت إذ ذاك أنّ إلى جانب جواده مطية أخرى، مسرجة تماماً، دون فارس. دلّني الرجل عليها. وضعت قدمي في الركاب وارتقيت. تململ الحيوان ولكن ركبتيّ كانتا، من قبل، تضغطان على جنبيه ببهجة. سحب الرجل من جيبه نقاباً أحمر مده إلي قائلاً: «اربطه على وجهك كي لايتعرفوا عليك». كنت قد أصبحت، بوجهي المقنع، أعمى. وصل إليّ صوت الرجل يقول: «الحصان سيقودك».

انتقل كل الفصيل إلى السير خبباً. كنت أحس، إلى جانبي، بجيران يسيرون خبباً. كانت ربلتا ساقي تلامسان ربلاتهم، وفي بعض اللحظات كنت أسمع تنفس مطاياهم المتقطع. وربما انقضت ساعة ونحن نركب بهذه الطريقة. ثم توقفنا. قال لي صوت الرجل نفسه: «لقد وصلنا يامليكي!.

سألت: وأين نحن؟

ـ ألا تسمع تمتمة النهر الكبير؟ هانحن على ضفة الدانوب. أنت آمن هنا يامليكي؟

قلت: هذا صحيح! أحس بنفسي في مأمن. أريد نزع النقاب.

ـ لاينبغي ذلك ياامليكي، ليس بعد. ماحاجتك إلى عينيك؟ عيناك لن تستطيعا سوى تضليلك.

ـ ولكني أريد رؤية دانوبي، نهري، أريد أن أراه!

ـ لاحاجة بك إلى عينيك ياامليكي! سأروي لك كل شيء. هذا أفضل بكثير. حولنا السهل إلى أبعد من مرمى النظر، هناك مراعٍ، أشواك هنا وهناك، وينتصب هنا وهناك سهم خشبي، عارضة لبئر. ولكننا على الحافة، في العشب، وعلى مسافة خطوتين، يتغير العشب إلى رمل لأن سرير الدانوب، في هذه النواحي، مرمل. والآن انزل من على الجواد ياامليكي!».

وضعنا أقدامنا على الأرض. واستأنف صوت الرجل الكلام وقال: «فليشعل الفتيان ناراً. الشمس تنحل هناك في الأفق، والبرودة لن تتأخر.

قلت فجأة: أريد أن أرى فلاستا!

ـ ستراها.

ـ أين هي؟

ـ ليست بعيدة، ستذهب للقائها. سيقودك جوادك إليها».

قفزت وطلبت أن أمضي فوراً، ولكن قبضة رجولية أمسكت بكتفي: «ابق جالساً ياامليكي! يجب أن تستريح وتأكل. وفي هذه الأثناء سأحدثك عنها.

ـ تكلم! أين هي؟

ـ على مسافة ساعة من هنا، يوجد بيت صغير بسقف من القش. محاط بسياج صغير.

قلت، وقلبي ينصهر من السعادة: نعم، نعم، كل شيء من خشب. وهذا جيد جداً. فأنا لاأريد مسماراً واحداً من المعدن في هذا البيت الصغير.

تابع الصوت قائلاً: نعم! السياج من أوتاد لم تكد تشذب بحيث نتعرف فيها على شكل الأغصان البدائي.

قلت: كل الأشياء المفصلة من الخشب تذكر بقطة أو بكلب. إنها كائنات أكثر منها أشياء. أحب عالم الخشب. لاأكون في بيتي إلا داخلها.

ـ وراء السياج تنبت نبتات دوار الشمس وحشيشة القمر والداليا، ثم هناك شجرة تفاح هرمة. وهذه، بالضبط، فلاستا واقفة عند العتبة!

ـ ماذا ترتدي؟

ـ إنها ترتدي تنورة من كتان متسخة، قليلاً جداً، لأنها عائدة من الزريبة. وهي تحمل دلواً خشبياً صغيراً، إنها حافية، ولكنها جميلة جداً لأنها فتية.

ـ إنها فقيرة، خادمة فقيرة.

ـ نعم ولكن ذلك لايمنع كونها ملكة. ولأنها ملكة، يجب أن تختبئ. أنت نفسك لاتستطيع الاقتراب منها خوفاً من أن تُكتشف. تستطيع ذلك فقط إذا كان على وجهك نقاب، الجواد يعرف الطريق».

كانت قصة الرجل من الجمال بحيث اعتراني فتور عذب خدَّرني. كنت أسمع الصوت وأنا راقد فوق العشب، ثم انقضى الصوت، ولم يعد يُسمع سوى صوت الموج وطقطقة النار. كان ذلك من الجمال بحيث لم أكن أجرؤ على أن أفتح عيني، ولكنه لم يكن هناك مايمكن فعله. كنت أعلم أن الساعة قد حانت وأنه يجب أن أفتحهما.

2

كان الفراش ينبسط، تحتي على خشب لاكيه. لاأحب خشب اللاكيه. القوائم المعدنية المحدبة التي تدعم الأريكة، لاأحبها بدورها. وتتدلى من السقف، ثريا زجاجية وردية تحيط بها ثلاث غصابات بيضاء. لاأحب هذه الكرة أيضاً، ولاالبوفيه المقابلة التي تعرض واجهتها الزجاجية كومات من زجاجيات أخرى لاتصلح لشيء. ولم يكن هناك من خشب سوى الهارمونيوم في الزاوية. لاأحب غيره في هذه الغرفة. لقد بقي ذكرى من أبي. وأبي مات منذ سنة.

نهضت عن الأريكة. كنت ماأزال أحس بنفسي متعباً. كان ذلك بعد ظهر أحد أيام الجمعة، قبل أحد كوكبة الملوك بيومين. كان كل شيء يقوم عليّ. كل مايتصل، في مقاطعتنا، بالفولكلور يقوم دائماً عليّ. مضت خمسة عشر يوماً لم أنل فيها كفايتي من النوم، بسبب المشاغل والمساعي والمنازعات.

ثم دخلت فلاستا الغرفة. غالباً ماأفاجيء نفسي وأنا أفكر في أنها يجب أن تسمن. فالنساء المتينات البنية يُعتبرن طيبات. فلاستا نحيلة وذات تجعدات خفيفة في وجهها. سألتني عما إذا كنت، وأنا عائد من المدرسة، قد نسيت أن أمر على المغسلة لجلب الغسيل. كنت قد نسيت. قالت: «كنت أعلم ذلك». وأرادت أن تعرف ماإذا كنت، لمرة واحدة، أنوي أن أبقى اليوم في البيت. أرغمت على أن أجيبها بالنفي. لأن لدي بعد قليل اجتماع في المدينة، في المقاطعة. «وعدت أن تساعد فلاديمير في فروضه». هززت كتفي. «ومن سيحضر هذا الاجتماع؟». وعندما بدأت أذكر لها الأسماء، قاطعتني قائلة: «وهذه الهانزليك أيضاً؟»، قلت: «نعم!». انزعجت فلاستا، وفسد كل شيء. للسيدة هانزليك سمعة سيئة. فقد كان معروفاً عنها أنها قد ضاجعت بيير وبول. لم تكن فلاستا تشك فيّ، ولكنها كانت تحتقر الاجتماعات

التي تشترك فيها هانزليك. مامن طريقة للتحدث معها. لذا من الأفضل أن أمضي فوراً.

كان الاجتماع مكرساً للتحضيرات الأخيرة لكوكبة الملوك. كل شيء يسير على عكس ماتريد. فقد بدأت اللجنة الوطنية تقتّر علينا. كانت، حتى القليل من السنوات، تخصص مبالغ هائلة للأعياد الفولكلورية. أما الآن فعلينا نحن أن ندعم مالية اللجنة الوطنية. لم يعد اتحاد الشبيبة يمارس أية جاذبية، فليعهد إليه إذن بتنظيم الكوكبة من أجل أن تُرد له المكانة! في السابق، كانت أرباح كوكبة الملوك تستعمل لتمويل مشروعات فولكلورية أخرى أقل ربحية. فلتفد إذن هذه المرة اتحاد الشبيبة، الذي سيتصرف بها كما يريد. طلبنا إلى أجهزة الأمن أن توقف المرور أثناء موكب الكوكبة. إلا أننا حصلنا يوم اجتماعنا بالذات على جواب سلبي. فقد قيل أنه لم يكن ممكناً إرباك المرور بسبب كوكبة ملوك. ولكن بماذا ستتشبّه هذه الكوكبة، بمهور عالقة بين سيارات؟ هموم، هموم.

طال الاجتماع، وكانت الساعة قد بلغت الثامنة تقريباً عندما عدت منه. وفي الميدان لمحت لودفيك. كان يسير في الاتجاه المعاكس، على الرصيف المقابل. جفلتُ تقريباً من مرآه. ماالذي أتى به إلى هنا؟. فاجأتني النظرة التي ألقاها علي، خلال ثانية، قبل أن يشيح بوجهه عني بسرعة. تظاهر بأنه لم يرني. صديقان قديمان قضيا ثماني سنوات على مقعد المدرسة نفسه ويتظاهر، مع ذلك، بأنه لم يرني.

لودفيك كان أول صدع في حياتي. أما اليوم فقد تَعَودتُ. حياتي منزل غير متين. ذهبت، إذ كنت في براغ مؤخراً، إلى واحد من هذه المسارح الصغيرة التي رأيناها تُفتتح بغزارة في الستينات والتي سرعان ماراجت جداً بفضل محركين شباب أصحاب فكر طلابي. كانوا يقدمون فيه هزلية لم تكن مسلية جداً، إلا أن هناك أغان مليئة بالمرح، وموسيقى جاز جيدة. فجأة، اعتمر الموسيقيون تلك اللبادات المستديرة ذات الريشة التي كانت تُعتمر لدينا مع اللباس

الشعبي، وأخذوا يقلدون أوركسترا السنبالوم. كانوا يقلدون، بكل مرح، حركات رقصاتنا وتلك الحركة النموذجية ـ الذراع مرفوعة مباشرة نحو السماء. كان الجمهور يتلوى ضحكاً. لم أصدق عينيّ. فمنذ خمس سنوات فقط لم يكن أحد ليتجرأ على السخرية بنا هكذا. وفضلاً عن ذلك، فما كان هذا ليُضحك أحداً. وها نحن الآن مهرجون. لماذا نحن كالمهرجين فجأة؟.

وفلاديمير. كم جعلني أعاني في هذه الأسابيع الأخيرة. كانت اللجنة الوطنية للمقاطعة قد أوصت اتحاد الشبيبة باختياره، هذه السنة، ملكاً. مثل هذا الاختيار يعني دائماً تكريماً للأب. أنا الذي فكروا فيه. أرادوا أن يكافئوني في شخص ابني، عن كل مافعلته من أجل الفن الشعبي. إلا أن فلاديمير كان يمانع ويراوغ بقدر مايستطيع. قال إنه يريد الذهاب إلى برنو، هذا الأحد، من أجل سباق الدراجات النارية، بل إنه ادعى خوفه من الجياد. وفي النهاية صرح بأنه يرفض أن يكون الملك، لأن ذلك كان قراراً من الأعلى وهو لايقبل الوساطة.

كم أغضبني هذا! إنه كما لو كان يريد أن يمحو من حياته كل مايمكن أن يذكره بحياتي. لم يُرد قط أن يرتاد مجموعة الأطفال للأغاني والرقصات التي أنشأتُها على هامش تشكيلتنا، كان يدّعي أنه غير موهوب بالنسبة للموسيقى، إلا أنه كان يعزف، جيداً جداً، على الغيتار ويلتقي، بانتظام، أصدقاء ليغنوا مالاأدري من هذه الأغنيات الأمريكية المزعجة.

صحيح أن فلاديمير في الخامسة عشرة من عمره فقط، وأنه يحبني حقاً. لقد كان هناك، في هذه الأيام الأخيرة، حديث بيننا وربما يكون قد فهمني.

3

أذكر ذلك جيداً. كنت جالساً على مقعد دوار، وفلاديمير على الأريكة تجاهي. كنت أستند بمرفقي على غطاء الهارمونيوم، هذه الآلة العزيزة جداً على قلبي. كنت أصغي إليه منذ طفولتي. وكان أبي يعزف عليه كل يوم، ولا سيما أغنيات شعبية في تناغمات بسيطة. وكان ذلك كما لو كنت أسمع زقزقة ينابيع بعيدة، هذا إذا وافق فلاديمير على سماعه، إذا قرر أن يفهم.

في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كف شعبنا التشيكي عن الوجود إن صح هذا القول. وشهد القرن التاسع عشر، بالفعل، ولادته من جديد. كان، في دائرة الشعوب الأوروبية، طفلاً. كان له، هو أيضاً، بالتأكيد، ماضيه العظيم، ولكنه بدا مفصولاً عنه بهوة قرنين. وخلال هذا الوقت لجأت اللغة التشيكية من المدن إلى الأرياف بحيث لاتنتمي إلا إلى الأميين. ومع ذلك استمرت حتى بينهم في ولادة ثقافتها. كانت ثقافة متواضعة وخفية تماماً عن عيون أوروبا، ثقافة أغنيات وحكايات وطقوس عرقية وأمثلة وحكم. كانت العبّارة الوحيدة فوق قرنين.

عبّارة وحيدة، قنطرة وحيدة، جذع وحيد لتقليد لم ينقطع قط. وعليه طبع رواد الآداب التشيكية الجديدة، على وجه الدقة، إبداعاتهم على عتبة القرن التاسع عشر. وهذا هو السبب الذي غالباً ماانصب، من أجله، شعراؤنا الأوائل على جمع الحكايات والأغاني. كانت أولى أشعارهم تشبه ألحاناً شعبية.

يافلاديمير، ياعزيزي، تكرم بفهم هذا! ليس أبوك سوى مجنون بالفولكلور. ربما هناك شيء من ذلك، ولكنه يرمي، ماوراء هذا الصولجان، إلى ماهو أعمق من هذا. إنه يريد أن يصعد، من خلال الفن الشعبي، عبر النسغ الذي لن تعود الثقافة التشيكية دونه سوى شجرة يابسة.

فهمت كل هذا أثناء الحرب. أرادوا أن يجعلونا نؤمن بأنه لاحقّ لنا في الوجود، وأننا كنا ببساطة ألماناً يتكلمون التشيكية. كنا ملزمين بأن نطمئن إلى أننا قد وجدنا ومازلنا موجودين. كنا كلنا في ذلك العهد قد حججنا إلى الينابيع.

كنت، آنذاك، أعزف على الكونترباس في فرقة صغيرة لتلاميذ ثانويين كانوا يعزفون الجاز. وهاهم أفراد الحلقة الموارفية جاؤوا ذات يوم لملاقاتنا من أجل أن نبعث إلى الوجود بأوركسترا سنبالوم.

من كان يستطيع أن يرفض في تلك البرهة؟ مضيت إليها عازفاً على الكمان.

كنا ننتزع الأغنيات القديمة من رقدة الموت. عندما سجل الوطنيون، في القرن التاسع عشر، الفن الشعبي في مجموعات، وصلوا في اللحظة الأخيرة. كانت المدنية الحديثة في طريقها فعلاً إلى الحلول محل الفولكلور. وهكذا ولدت، في بداية قرننا، دوائر فولكلورية من أجل أن يدخل، في الحياة، الفن الشعبي الذي أُنقذ بالكتب. وجرى هذا، خاصة، في مورافيا. نُظمت أعياد شعبية، كوكبات ملوك وشُجعت الأوركسترات الشعبية. وكان جهداً عظيماً ولكنه كان مهدداً بأن يبقى عقيماً: فلم يكن الفولكلوريون يُبعثون إلى الحياة بالسرعة نفسها التي تدفن المدنية بها.

وجاءت الحرب لتنفخ فينا قوة جديدة. في السنة الأخيرة من الاحتلال النازي، أخرجنا كوكبة ملوك. كان في المدينة ثكنة، وكان ضباط ألمان يقفون بين جمهور الأرصفة، جنباً إلى جنب مع الناس. أصبحت كوكبتنا مظاهرة. سار فصيل الفتيان المبرقشين والسلاح في قبضاتهم، كظهورٍ لأزمنةٍ بعيدةٍ في التاريخ. كان التشيكيون جميعهم يفهمون الأمر على هذا النحو، وكانت عيونهم تقدح شرراً. كنت في الخامسة عشرة، وجرى لختياري ملكاً. كنت أدفع بمطيتي بين وصيفين، ووجهي مغطى بنقاب. كنت فخوراً، وأبي كذلك. كان

يعلم أنهم اختاروني ملكاً ليكرموه. كان معلماً في مدرسة القرية ووطنياً، والجميع يحبونه.

يافلاديمير، ياصغيري، أؤمن بأن للأشياء معنى. أؤمن بأن المصائر البشرية متلاحمة، فيما بينها، بملاط حكمةٍ. إن كونهم قد جعلوا منك، هذه السنة، ملكاً يبدو لي علامة. أنا فخور كما منذ عشرين سنة، وأنا أكثر فخراً لأني أنا الذي يريدون تكريمه من خلالك. ولماذا أنكر ذلك؟ إن لهذا الشرف قيمة في نظري. أريد أن أسلمك ملكيتي. أريد أن تتلقاها من يديّ.

ربما يكون قد فهمني. وعدني أن يَقبل اختياره ملكاً.

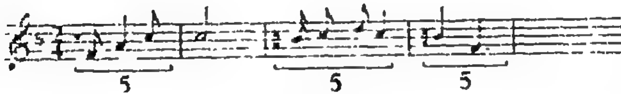
4

آه، لو أراد أن يفهم كم هذا مهم. لاأستطيع تخيل شيء أهم، شيء أكثر جاذبية.

شيء كالتالي مثلاً. لقد ادعى علماء الموسيقى البراغيون طويلاً، أن أغاني أوروبا الشعبية واردة من الباروك. كان يعزف ويُغنّي في أوركسترات القصور، موسيقيون ريفيون، ينقلون بعد ذلك، إلى حياة الناس البسطاء، ثقافة النبلاء الموسيقية. وهكذا، فإن الأغنية الشعبية قد لاتمثل أبداً سوى شكل فني في حد ذاته. إنها مشتقة من الموسيقى المثقفة.

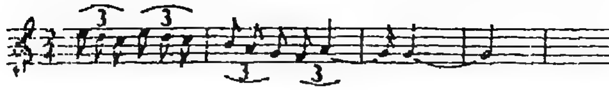
إلا أنه مهما كان الأمر عليه في حالة بوهيميا، فإن الألحان التي نغنيها في مورافيا تنفلتُ من هذا التفسير، من وجهة نظر نغمته فعلاً. كانت موسيقى عصر الباروك المثقفة تُكتب بمقامي الماجور والمينور. أما أغانينا فهي تُغنى بأنغام لايمكن أن تتصورها أوركسترات القصور.

مثل النغم الليدي مثلاً. إنه ذاك الذي يحتوي على فاصلة فريدة. إنه دائماً يذكرني بحنين الغزليات الريفية للزمن الماضي. أرى إله الوثنيين بان وأسمع مزماره:
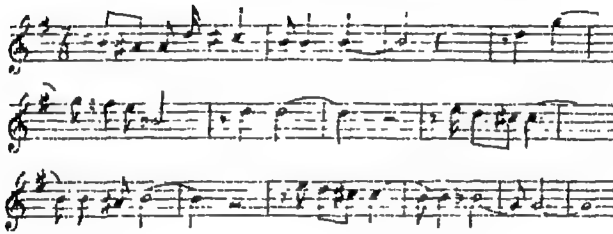


كانت موسيقى الباروك والفترة الكلاسيكية تُكن عبادة متعصبة لترتيب الماجور السابع الجميل. لم تكن تعرف طريقاً أخرى إلى القرار خلاف انضباط النوطة الحساسة. وكان المينور السابع الذي يصعد إلى القرار عن طريق الماجور الثاني يخيفها. وما أحبه أنا في ألحاننا الشعبية هو، على وجه الضبط، هذا المينور السابع سواء

انتمى إلى النمط الأيولي أو الدوري أو الميكسوليدي. أحبه لكآبته، لرفضه أن يركض ببلاهة إلى النغمة الأساسية التي ينتهي بها كل شيء، الأغنية والحياة:



إلا أن هناك أغنيات ذات نغميات فريدة إلى حد يستحيل تصنيفها في أي من النغمات المعروفة باسم النغمات الكنسية. وأمام هذه أبقى مذهولاً:



تبدي الأغنيات المورافية تعقيداً نغمياً لايمكن تصوره. إن فكرها الهارموني لغزي. فهي، إذ تبدأ بمقام المينور، تنتهي بمقام الماجور، إنها تبدو مترددة بين مختلف النغمات. وغالباً ما لا أعلم، بالمرة، عندما ينبغي عليّ جعلها في حالة تناغم، كيف أفهم نغمها.

وهي تملك الإبهام نفسه على المستوى الإيقاعي، خاصة فيما يتعلق بالألحان البطيئة التي وصفها بارتوك بمصطلح بارلاندو. لاتوجد أية وسيلة لكتابة إيقاعها في نظام نوطاتنا. وبعبارة أخرى، فإن كل المؤدين الشعبيين يغنون، في نظام كتابتنا، هذه الأغاني بإيقاع غير دقيق.

كيف نفسر ذلك؟ كان ليوس جاناسيك يؤكد أن هذا التعقيد الذي

لايُستوعب في الإيقاع ناجم عن تحولات وقتية في مزاج المغني. فهو يرتكس، بالصورة التي يغني بها، لتلونات الزهور، للطقس، لسعة المنظر.

ولكن، أليس ذلك تفسيراً مبالغاً في شاعريته؟ منذ سنتنا الأولى في الجامعة، نقل إلينا أحد الأساتذة إحدى تجاربه. لقد جعل عدة مؤدين شعبيين يغنون، كلٌ على حدة، اللحن ذا الإيقاع المستعصي على الكتابة نفسه. وقد سمحتْ له قياسات تم الحصول عليها بمساعدة أجهزة الكترونية دقيقة بتبين أن جميعهم قد غنوا بصور متماثلة.

ليس سبب تعقيد هذه الأغنيات الإيقاعي انعدام الدقة ومزاج المغني. إنه يخضع لقوانينه السرية. وهكذا، ففي نمط معين من الغناء الموراڤي الراقص مثلاً، يكون نصف المقياس الثاني أطول بجزء من الثانية، من الأول. ولكن كيف يُسجل هذا التعقيد في النوطة؟ ان مقياس الموسيقى المثقفة يعتمد على التناظر. فالمستديرة تساوي بيضاوين، والبيضاء تساوي سوداوين، والمقياس ينقسم إلى فاصلين أو ثلاثة فواصل أو أربعة متساوية القيمة. ولكن كيف نعامل مقياساً ذا فاصلين غير متساويين؟ لماذا تكون طريقة تنويط الإيقاع الأصلي للأغنيات الموراڤية أصعب معضلة؟

هناك إذن شيء مؤكد. إن أغنيات بلدنا لايمكن أن تكون قد ولدت من موسيقى الباروك. ربما كان الأمر كذلك بالنسبة لأغنيات بوهيميا. ففي بوهيميا، كان مستوى الحضارة أعلى والاتصال بين المدن والريف، بين الريفيين والقصور أوثق. كان في موراڤيا، أيضاً، قصور. ولكن العالم الفلاحي كان أكثر بدائية، ومن جراء ذلك، أكثر عزلة بكثير. لم يكن معتاداً هنا أبداً أن يكون موسيقيون ريفيون أعضاء في أوركسترا قصر. وضمن هذه الشروط، أمكن لأغاني الشعب، حتى أغاني أوغل الأزمنة في القدم، أن تُحفظ لدينا. ذلك هو

تفسير تنوعها. إنها تعود إلى أطوار مختلفة من تاريخها الطويل، البطيء.

عندما تكون أمام موسيقانا الشعبية، فإن ذلك كما لو كانت ترقص أمام عينيك امرأة ألف ليلة وليلة وتخلع، على التعاقب، نقاباً بعد نقاب.

انظر! إنه النقاب الأول. القماش مطبوع بنقوش بسيطة. إن الأمر يدور حول أفتى أغانينا، تلك التي تعود إلى الخمسين أو الستين سنة الأخيرة. لقد وصلت من الغرب، من بوهيميا. كان المعلمون يعلمونها لأطفال مدارسنا. ومعظمها من مقام الماجور، ولكنها متكيفة قليلاً مع عاداتنا الإيقاعية.

ولكن هاهو النقاب الثاني يُخلع. وهو، فعلاً، أكثر تلوناً. إنَّ هذه الأغنيات جاءت من أصل مجري وصاحبت ازدهار اللغة المجرية. لقد نشرتها أوركسترات غجرية في القرن التاسع عشر. كانت سزاردات وإيقاعات إغراء.

عندما تجردت الراقصة من هذا النقاب، ظهر التالي. إنها أغاني السلافيين الأصليين للقرنين السابع عشر والثامن عشر.

ولكن النقاب الرابع أجمل، أيضاً، بكثير. إنها أغنيات تعود إلى القرن الرابع عشر. في ذلك الزمان، كان يحج إلينا، من قمم جبال الكاربات، فالاكيون قادمون من الجنوب الشرقي. كانوا رعاة وكانت رعوياتهم وأغاني قطاع طرقهم تجهل كل شيء عن التساوق والتناغمات. لقد جرى تصورها بطريقة لحنية خالصة. كانت نغميات قديمة محددة بالآلات، بالمصفار[1] والشبابة.

وبعد سقوط هذا النقاب، لم يعد نقاب آخر تحته. المرأة ترقص عارية تماماً على أقدم نظام للفكر الموسيقي، على نظام النوطات

(1) المصفار: آلة تشبه عضو الصوت عند الطيور (المترجم).

الأربع، السلم الرباعي. إنها أغاني التعشيب، أغاني الحصاد، الأغاني المرتبطة بطقوس القرية البطريركية.

وسواء أكانت أغنية أم احتفالية شعبية، فهي نفق تحت التاريخ أُنقذ فيه نصيب جيد من كل ماكان في الأعلى ودمرته، زمناً طويلاً، الحروب والثورات والحضارة، نفق أرى منه بعيداً إلى الوراء. أرى روستيسلاف وسفاتوبولك، أول أميرين مورافيين. أرى العالم السلافي القديم.

ولكن لماذا الحديث عن العالم السلافي وحده؟ لقد كنا نضيع في تخمينات أمام لغز نص أغنيةٍ. يُغنّى فيها عن حشيشة الدينار في ما لاأعلم من علاقة مبهمة بعربة وعنزة. إن أحدهم يقفز فيها فوق عنزة، وأحدهم يتجول فيها داخل عربة. وتُمتدح حشيشة الدينار التي تجعل من عذارى خطيبات. حتى أن المغنين الشعبيين، أولئك الذين كانوا يغنون هذا اللحن لايفهمون هم أنفسهم كلماته. القصور الذاتي في تقليد يعود إلى مالايحصى من السنين هو، وحده، الذي أبقى في الأغنية ترابط كلمات أصبحت، منذ عدد لايحصى من الشهور، غير مفهومة. وفي النهاية، ظهر التفسير الوحيد الممكن: ديونيزيات اليونان القديمة، نصف رجل ونصف عنزة على ظهر وعل والإله يمتشق رمحاً محاطاً بحشيشة الدينار.

الأزمنة القديمة! بدا ذلك لي غير قابل للتصديق! ومع ذلك كان عليّ فيما بعد، أن أدرس في الجامعة تاريخ الفكر الموسيقي. ان بنية أقدم أغانينا الشعبية تتوافق، فعلاً، مع بنية الموسيقى القديمة، مع السلم الرباعي الليدي، الفيرجي أو الدوري. وهو تصور متنازل للسلم الموسيقي يَعتبر النغمة العليا، لاالسفلى، أساسية كما سيغدو عليه الأمر عندما ستبدأ الموسيقى في التفكير بتعابير هارمونية فقط. فأقدم أغانينا الشعبية ينتمي، إذن، إلى العصر الموسيقي نفسه الذي تنتمي إليه تلك التي كانت تغنى في اليونان القديمة. إنها تَحفظ لنا أزمنة العصور القديمة.

5

هذا المساء، لم أتوقف أثناء العشاء، عن رؤية عيني لودفيك تتحولان عني. وكنت أحس كم زاد ذلك من تعلقي بفلاديمير. وفجأة خفت من أن أكون قد أهملته، من ألّا أتوصل أبداً إلى اجتذابه إلى عالمي الخاص. وعندما انتهت الوجبة، بقيت فلاستا في المطبخ، وانتقلت وفلاديمير إلى غرفة الجلوس. حاولتُ أن أحدثه، من جديد، عن الأغاني. إلا أن الأمر بدا بلا جدوى. كنت أحس إحساس معلم، خشية أن أضجره. وكان هو بالطبع يجلس صامتاً كما لو أنه يصغي إليّ. كان دائماً لطيفاً معي. ولكن كيف أعرف مافي رأسه حقاً؟

كان قد مضى من الوقت مليّاً وأنا أرهقه بخطابي عندما ظهرت فلاستا وقالت بأن وقت النوم قد حان. ماالعمل؟ إنها هي روح البيت، تقويمه، ساعته.

لن نخلق متاعب. هيا ياصغيري، ليلة سعيدة!.

تركته في غرفة الهارمونيوم. فهناك ينام على الأريكة ذات القوائم المطلية بالكروم. أما أنا، فأنام في الغرفة المجاورة، في السرير الذي أتقاسمه مع فلاستا. لن أذهب للنوم فوراً، فلن أتوقف عن التقلب وأخشى أن أوقظها. فسوف أُمضي إذن بعض الوقت خارجاً. الليل دافىء. وخلف البيت المنخفض الذي نسكنه تمتلىء الحديقة بروائح الماضي الريفية. وتحت شجرة الإجاص يوجد مقعد خشبي.

ياللودفيك اللعين! لماذا إذن جاء اليوم بالضبط؟ أخشى أن يكون ذلك علامة مصيبة. إنه أقدم رفاقي! كم مرة جلسنا تحت شجرة الإجاص هذه عندما كنا صبيين. كنت أحبه جداً، منذ الصف السادس من الثانوية حين عرفته. كان يملك على طرف إصبعه أكثر مما

لدينا، نحن الآخرين، في كل أجسادنا، ولكن هذا لايمنع أنه لم يكن يُظهر ذلك. فلم يكن يبالي بالمدرسة وبالأساتذة. وماكان يسليه هو أن يفعل كل ما من شأنه أن يكون ضد نظام المدرسة.

لماذا شكلنا، نحن الاثنين، زوجاً. أهو التشابه؟ هذا محتمل. فكل منا قد فقد أحد أبويه. ماتت أمي أثناء الولادة. وعندما كان لودفيك في الثالثة عشرة، اقتاد الألمان أباه المعماري إلى معسكر ولم يره بعد ذلك قط.

كان لودفيك الابن البكر. وأصبح في ذلك العهد ابناً وحيداً بعد موت أخيه الصغير. وبعد اعتقال الأب، لم يبق للأم والابن أحد. كان بؤسهما كبيراً. وكانت كلفة ارتياد المدرسة عالية بالنسبة للودفيك. وبدا أن عليه التخلي عنها.

إلا أن الخلاص جاء في آخر لحظة.

كان لوالد لودفيك شقيقة قد نجحت، قبل الحرب بكثير، في الزواج بمتعهد محلي غني. ومنذ ذلك الحين انقطعت تقريباً عن لقاء أخيها المعماري. ولكن قلبها كامرأة وطنية اشتعل فجاة لدى اعتقاله. اقترحت على زوجة أخيها الاهتمام بلودفيك. ولم يكن لها، هي نفسها، سوى ابنة متخلفة قليلاً بحيث أن ابن أخيها، الصبي الموهوب، كان يثير لديها إحساساً بالغيرة. لم يقتصرا على مساعدته مادياً، وأخذا يدعوانه كل يوم. قدموه إلى علية قوم المدينة الذين كانوا يلتقون بانتظام تحت سقفهما. كان لودفيك مرغماً على أن يُظهر لهما امتنانه لأن دراسته تتوقف على دعمهما. إلا أنه كان يحبهما كما تحب النار الماء تقريباً. كان يدعيان «كوتيكي»، ومنذ ذلك الحين، كنا نستعمل هذا الاسم للدلالة على الدّعيين.

كانت السيدة كوتيكي تنظر إلى زوجة أخيها شزراً، وتحقد على أخيها لكونه لم يعرف كيف يتزوج جيداً. بل إنها لم تغير موقفها من زوجته عندما أصبح في السجن. كانت مدافع محبتها غير مصوبة إلّا

نحو لودفيك وحده. فهي ترى فيه وريث دمها وكانت ترغب في أن تجعل منه ابناً لها. ولم يكن وجود زوجة الأخ، في نظرها، سوى غلطة مؤسفة. لم تطلب منها مرة أن تزورهما. وكان لودفيك الذي يلاحظ كل ذلك يصرّ بأسنانه. أراد عدة مرات أن يثور. ولكن أمه حصلت منه، بالدموع والتوسلات كل مرة، على التزام الحكمة.

هذا السبب زاد من سعادته في بيتنا. كنا كتوأمين، ولولا القليل لفضّله أبي عليّ. كان سعيداً لكون لودفيك يلتهم مكتبته التي يعرف كل عناوينها. ولدى بداياتي في فرقة الجاز الطلابية، حرص على أن يكون عضواً فيها معي. اشترى من سوق السلع المستعملة كلارينيت بأربعة فلوس وسرعان ما تعلم العزف عليها بصورة مناسبة جداً. وبعد ذلك، نذرنا نفسينا معاً للجاز، وانضممنا إلى أوركسترا السنبالوم.

تزوجت الابنة كوتيكي حوالى نهاية الحرب. قررت الأم إقامة عرس مدهش بخمسة أزواج من الوصيفات والوصفاء. فرضت سخرة أحد هذه الأدوار على لودفيك مزاوجة إياه، للمناسبة، مع ابنة صيدلاني المدينة الصغيرة (أحد عشر عاماً). كان يحمر خجلاً لكونه مرغماً على أن يلعب دور المهرج في مهزلة منتفجي البلدة الزواجية هذه. فقد كان يتحرق إلى الظهور كراشد، وخجل من تقديم ذراعه لبليدة في الحادية عشرة من عمرها. كان يجن غضباً من وجوب تقبيل صليب متسخ خلال الاحتفال. وعندما جاء المساء، هرب من المأدبة ليوافينا في قاعة الفندق الخلفية. كنا حول السنبالوم نشرب ونثيره. انفجر وأعلن كراهيته للبورجوازيين. ثم لعن فخفخة الزواج الديني وأعلن أنه يبصق على الكنيسة وأنه سيعمل على محو اسمه من سجل المؤمنين.

لم نأخذ أقواله على محمل الجد، ولكن لودفيك فعل، بعد بضعة أيام من نهاية الحرب، ماكان قد أعلنه. وكان ذلك فضيحة مميتة

لأسرة كوتيكي. ولم يكن ذلك ليزعجه، فقد تخاصم معهما مسروراً. كان يذهب إلى الاجتماعات التي يعقدها الشيوعيون ويشتري الكراسات التي ينشرونها. كانت منطقتنا كاثوليكية جداً، ومدرستنا كذلك بشكل خاص. وعلى الرغم من هذا، كنا مستعدين لأن نغفر للودفيك انحرافه الشيوعي. فقد كنا نعترف له بامتيازات.

وفي عام سبعة وأربعين، كانت الشهادة الثانوية. ومنذ الخريف مضينا للدراسة، لودفيك في براغ وأنا في برنو. ولم أره مجدداً طيلة السنة.

6

كنا في عام ثمانية وأربعين. بدت الحياة قد أتت على التغيّر. عندما جاء لودفيك في العطلة ليرانا في حلقتنا، كان استقبالنا له أقرب إلى الارتباك. وقد بدا لنا أن الانقلاب الشيوعي، في شباط حلولاً للإرهاب. وكان لودفيك قد جلب معه الكلارينيت، ولكنه لم يحتج إليها. فقد قضينا الليل في النقاش.

أيعود الخلاف بيننا إلى هذا العهد؟ لاأظن ذلك. في تلك الليلة، أيضاً، استولى لودفيك عليّ. تحدث عن فرقتنا متجنباً بقدر استطاعته المناقشات السياسية. كان علينا في رأيه أن نفهم معنى عملنا من منظور أوسع من ذي قبل. ماجدوى الاكتفاء بإحياء ماضٍ ضائع؟ من ينظر إلى الوراء ينتهِ كما انتهت امرأة لوط.

ما الذي ينبغي علينا نحن إذن أن نفعل؟ أجاب بأن علينا، بالطبع، معالجة تراث الفن الشعبي، ولكن هذا لايكفي. نحن نعيش في زمن جديد، وآفاق واسعة تنفتح أمام عملنا. فعلينا نحن تنقية الثقافة الموسيقية المشتركة، ثقافة كل يوم، من هذه اللوازم، من هذه المقاطع التي يلقمها البورجوازيون للناس، وأن نُحِل محلها فن الشعب الأصيل.

غريب! ماكان يقوله لودفيك هنا، هو الطوباوية القديمة لأكثر الوطنيين المورافيين محافظة، الذين قد أرعدوا دائماً ضد فساد ثقافة مدينية وبلا إله. كانت أنغام الشارلستون، في آذانهم، مزمار الشيطان! وبعد كل شيء، لم يكن هذا مهماً. فلم يُكسب ذلك أقوال لودفيك سوى المزيد من الوضوح بالنسبة إلينا.

وفضلاً عن هذا، فتفكيره التالي كان أكثر أصالة أخذ يتحدث عن الجاز. الجاز خرج حقاً من الموسيقى الشعبية السوداء وغزا كل

الغرب. ويمكن أن يصلح، بالنسبة إلينا، برهاناً مشجعاً على كون الموسيقى الشعبية تملك سلطاناً مدهشاً، وعلى كونها تستطيع أن تولّد الأسلوب الموسيقي العام لعصر.

كنا، ونحن نصغي إلى لودفيك، نحس مزيجاً من الإعجاب والنفور. كانت ثقته تغيظنا. كانت له الهيئة نفسها التي هي، آنذاك، لكل الشيوعيين، كما لو أن له، مع المستقبل نفسه، ميثاق سري ما، يعطيه تفويضاً للتصرف باسمه. وإذا كان قد ضرب على أعصابنا فذلك أيضاً، دون شك، لأنه بدا فجأة مختلفاً عن الفتى الذي عرفناه سابقاً. كان دائماً في نظرنا، الفتى الطيب، الساخر. وها هو حالياً ينطلق في التشدق عبر الكلمات الكبيرة دون تهيب. ثم بالتأكيد إن تلك الطريقة في ربط مصير فرقتنا بمصير الحزب الشيوعي، بيسر وحزم حين لم يكن أحدنا شيوعياً، كانت تخيب أملنا. ولكن خطابه كان، من جهة أخرى، يجذبنا. وأفكاره تقابل أكثر أحلامنا خفاءً. وبدت ترفعنا، فجأة، إلى مستوى العظمة التاريخية.

سميته في ذهني صائد الجرذان. بدا لي حقاً كذاك. كانت نفخة واحدة من مزماره. تكفي لنهرع من تلقاء ذواتنا إلى أذياله. وحيث تبدو أفكاره غير مكتملة كنا نطير إلى نجدته. أذكر محاكمتي الخاصة. كنت أتحدث عن تطور الموسيقى الأوروبية منذ عصر الباروك. بعد فترة الانطباعية وجدت نفسها متعبة من ذاتها. وقد استنفدت من قبل، بصورة كاملة تقريباً، نسغها بالنسبة لسوناتاتها وسيمفونياتها، كما بالنسبة للوازمها. ومن أجل هذا، أجرى الجاز فيها نوعاً من المعجزة. لم يسحر ملاهي أوروبا ومراقصها فقط، بل فتن كذلك سترافنسكي وهونيغر وميلود الذين افتتحوا مؤلفاتهم بإيقاعاته. ولكن يجب الانتباه. ففي الوقت نفسه أو فلنقل قبل ذلك بحوالى عشر سنوات، كانت الموسيقى الأوروبية قد تموّنت بدم فولكور القارة القديمة الطازج الذي لم يكن باقياً على هذه الدرجة من الحياة، في أي مكان آخر خلاف ما هو لدينا هنا، في أوروبا الوسطى، لدى جاناسيك وبارتوك. وهكذا كان تاريخ الموسيقى

نفسه يوازي بين الطبقات القديمة للموسيقى الشعبية الأوروبيه والجاز. فكلتاهما أسهمتا، بقدر متساوٍ، في نشوء موسيقى القرن العشرين الرصينة الحديثة. إلا أن الأمور جرت خلاف ذلك بالنسبة لموسيقى الجماهير الواسعة. فألحان شعوب أوروبا القديمة لم تترك فيها أي أثر. هنا أقام الجاز سيداً. وهنا تبدأ مهمتنا.

نعم! تلك كانت قناعتنا: ففي جذور موسيقانا الشعبية توجد القوة نفسها الموجودة في جذور الجاز. فلهذا الأخير نغميته الخاصة به التي يتلامح عبرها، باستمرار، سلم الأنغام السوداء القديمة السداسي البدائي. ولكن لأغنيتنا الشعبية، أيضاً، نغميتها الأكثر تنوعاً، بكثير، من ناحية اللحن. إن للجاز أصالة إيقاعية تكوَّن تعقيدها العجيب خلال عشرات القرون من ثقافة قارعي الطبول والتام تام الأفريقية. ولكن إيقاعات موسيقانا لاتنتمي، كذلك، إلا إلى ذاتها. والجاز قائم، في نهاية المآل، على الارتجال. ولكن الجوقة المدهشة لعازفي الكمان الذين لم يعرفوا قط قراءة نوطاتهم تقوم، هي أيضاً، على الارتجال.

أضاف لودفيك إن شيئاً واحداً يفصلنا عن الجاز. فهو يتطور ويتغير سريعاً وأسلوبه متحرك. الدرب يمضي شاقاً من تعدد الأصوات في نيو أورليانز، عبر أوركسترا السوينغ، نحو البوب وماوراءه. فلم يكن لنيوأورليانز أن تتصور، حتى في الحلم، الهارمونيات التي يعرفها جاز أيامنا. إن موسيقانا الشعبية حسناء غابة نائمة من قرون مضت، ويجب علينا إيقاظها. يجب أن تدخل في حياة اليوم وتتطور معها، على غرار الجاز، دون أن تكف عن أن تكون هي ذاتها، ودون أن تفقد شيئاً من لحنياتها وإيقاعاتها، يجب أن نكتشف لها دائماً أطواراً جديدة لأسلوبها. إن ذلك صعب عمل جليل لايمكن إنجازه إلا في الاشتراكية.

احتججنا قائلين: ماذا أتت الاشتراكية تفعل هنا؟

أوضح لنا ذلك. كان ريف الزمن القديم يعيش في تواصل. كانت

هناك طقوس تقسم السنة الفلاحية من بدايتها إلى نهايتها. ولم يكن الفن الشعبي يعيش إلّا داخل هذه الطقوس. كانوا في عصر الرومنطيقية يتخيلون فلاّحة في الحقول يزورها الوحي، وسرعان ماكانت أغنية تنبع من بين شفتيها، كالماء من الصخر. ولكن الأغنية الشعبية تولد بطريقة مختلفة عن ولادة قصيدة فصحى. الشاعر يبدع ليعبر عن نفسه بنفسه، ليقول مافيه من فريد. لم يكونوا يسعون، عن طريق الأغنية الشعبية إلى التميز، بل إلى الاتحاد بالآخرين. وكانت تتغلف، قطرة قطرة، بأفكار جديدة، بمتغيرات جديدة. ويجري تناقلها من جيل إلى جيل ويضيف إليها كل مغنٍ عنصراً جديداً ما. فقد كان إذن لكل من هذه الأغنيات حقاً مؤلفون، تواروا جميعاً بتواضع وراء إسهامهم الخاص. لم توجد أية أغنية هكذا، من أجل ذاتها. فقد كانت لها وظيفتها الدقيقة. كانت هناك أغنيات للأعراس، وأخرى لأعياد الحصاد والكرنفال وعيد الميلاد والتعشيب. وهناك أغنيات للرقص وللدفن. بل إنه لم يكن لأغاني الحب وجود خارج بعض الأعراف: نزهات مسائية، سيريناد تحت النوافذ، طلبات الزواج، وكل ذلك كان طقوساً جماعية، وكان للأغاني مكانها الراسخ.

الرأسمالية دمرت هذه الحياة الجماعية. وهكذا فقد الفن الشعبي قاعدته، مبرر وجوده، وظيفته. وعبثاً تجري محاولة بعثه في مجتمع يعيش الإنسان فيه بعيداً عن الآخرين، من أجل ذاته فقط. ولكن هاهي الاشتراكية تأتي لتحرر الناس من نير العزلة. سوف يعيشون في جماعة جديدة، متحدين بمصلحة واحدة مشتركة. وسوف تندمج حياتهم الخاصة مع الحياة العامة. وسوف يترابطون بجمهرة من الطقوس. إن بعضها سيُستعار من الماضي: أعياد الحصاد، سهرات الرقص، الأعراف المتصلة بالعمل. وستكون أخرى تجديدات: الاحتفال بأول أيار، عيد التحرير، المهرجانات، الاجتماعات. وسوف يجد الفن الشعبي مكانه في كل مكان. وفي كل مكان، سيتطور، سيتحول، سيتجدد. هل تفهم ذلك أخيراً؟

والواقع فإنه سيبدو، بسرعة، أن الذي لايصدق كان يصبح واقعاً. لم يفعل أحد قط لفننا الشعبي مافعلته له الحكومة الشيوعية. فقد كرست مبالغ هائلة لخلق فرق جديدة. وقُدّمت الموسيقى الشعبية، بالكمان والسنبالوم، في برامج الإذاعة كل يوم. غزت الموسيقى المورافية الجامعات وأعياد أول أيار وحفلات الشباب الراقصة والاحتفالات الرسمية. ولم يقتصر الأمر على غياب الجاز تماماً من على ساحة وطننا، بل إنه رَمَزَ إلى الرأسمالية الغربية وأذواقها المنحطة. هجرت الشبيبة التانغو، كما هجرت الهوغي ووغي، وفضلت الرقص في حلقة والأيدي موضوعة على أكتاف الجيران. واجتهد الحزب الشيوعي في خلق أسلوب حياة جديد. استند فيه إلى تعريف ستالين للفن الجديد: محتوى اشتراكي عبر شكل قومي، ولايمكن لغير الفن الشعبي أن يعطي موسيقانا ورقصنا وشِعرنا هذا الشكل القومي.

أخذت فرقتنا تبحر فوق الموجات الضخمة لهذه السياسة. وأصبحت، وقد تنامى عدد المغنين والراقصين فيها، فرقة كبيرة راحت تقدم عروضها في مئات من المسارح، وتمضي، كل سنة، في جولة إلى الخارج. ولم نكن نكتفي بأن نغني، على الطريقة القديمة، أغنية قاطع الطريق الذي قتل حبيبته، بل كنا نغني أيضاً ألحاناً كنا نؤلفها، نحن أنفسنا، كأغنية لستالين وأخرى حول الحصادات التعاونية. لم تعد أغنيتنا مجرد تذكّر للأزمنة القديمة، بل أصبحت تشكل جزءاً من التاريخ الأكثر معاصرة، كانت ترافق ذلك التاريخ.

كان الحزب الشيوعي يدعمنا. ولذلك تبددت تحفظاتنا السياسية بسرعة، وقد انضممت إلى الحزبُ منذ بداية عام تسعة وأربعين، ولحق بي رفاق الفرقة، الواحد بعد الآخر.

7

ولكننا بقينا أصدقاء. فإلى أي تاريخ يعود أول سوء تفاهم بيننا؟

طبعاً أعرف ذلك. أعرفه تماماً. كان يوم عرسي.

كنت في برنو طالباً في مدرسة الدراسات الموسيقية العليا، مع متابعتي في الجامعة لدروس علم الموسيقى. في السنة الثالثة، شعرت أني لست مرتاحاً تماماً. ففي البيت كان أبي يمضي من سيء إلى أسوأ. أصيب باحتقان دماغي وأُنقذ، ولكنه أُرغم على الانتباه جيداً. كانت فكرة وحدته تتسلط عليّ. فلو أصابه شيء، فلن يستطيع حتى إرسال برقية إلي. كنت أعود إليه، مرتعشاً خوفاً، كل يوم سبت وأغادره صباح الإثنين بقلق جديد. في ذات يوم أصبح هذا القلق أقوى مني. فقد عذبني يوم الإثنين، وزادني عذاباً يوم الثلاثاء، وفي يوم الأربعاء كدست حوائجي في حقيبتي وحاسبت صاحبة المنزل وقلت لها بأنني ذاهب دون رجعة.

مازلت أرى نفسي على الطريق من المحطة إلى منزلنا. كان ينبغي السير عبر الحقول للوصول إلى قريتي المجاورة للمدينة. كان الخريف، والوقت قبل الغسق. الريح تصفر، وكان أطفال يطلقون، من الأخاديد، طائرات ورقية تتعرج في أطراف خيوط لاتنتهي. من أجلي أنا أيضاً، صنع والدي فيما مضى واحدة لي. راح يصحبني إلى الحقول ويطلقها ويركض من أجل أن يضغط الهواء على الطائر الورقي ويرفعه عالياً جداً. كان ذلك يسليني كثيراً، ويسلي أبي أكثر مني. كانت هذه الذكرى تملؤني حناناً، وكنت أتعجل في سيري. أخذت تجتازني فكرة أن أبي يرسل هذه الطائرات إلى أمي.

كنت دائماً أتخيل أمي في السماء. كلا! لم أعد أؤمن بالله وبالحياة الأبدية أو بأشياء مشابهة. فالأمر لايدور حول الإيمان، بل

يدور حول أخيلة. لاأعلم لماذا يجب أن أتخلى عنها. فدونها سوف أحس بنفسي يتيماً. فلاستا تأخذ عليّ كوني حالماً. يبدو أني لاأرى الأشياء كما هي. ليس الأمر كذلك أبداً، فأنا أراها كما هي حقاً، ولكني، فضلاً عن الأشياء المرئية، أدرك أشياء أخرى. فلم توجد الأخيلة من أجل لاشيء. إنها هي التي تجعل من منزلنا بيت أسرة.

لم أعرف أمي أبداً. لذا لم أبكها قط إذن. كنت أفرح، على العكس من ذلك، لعلمي أنها فتية وجميلة في السماء. فلم يكن للأبناء الآخرين أمهات في صبا أمي.

أحب أن أتخيل القديس بطرس جالساً على مقعده، قرب نافذته الصغيرة التي تُرى الأرض منها. وغالباً ما تنضم إليه أمي عند هذه النافذة. فمن أجلها سيفعل بطرس أي شيء لأنها جميلة. إنه يسمح لها بالنظر. وأمي ترانا، أنا وأبي.

لم يكن وجه أمي حزيناً قط. وعلىالعكس من ذلك، كانت غالباً ما تضحك وهي تراقبنا من نافذة مقصورة بطرس. فمن يعش في الأبدية لايعرف الشجن. إنه يعلم أن حياة البشر لاتدوم سوى ثانية، وأن اللقاءات قريبة. ولكن سمات أمي كانت تبدو لي، وأنا في برنو، وقد تركت أبي وحيداً، حزينة ومثقلة بضروب اللوم. وأنا كنت أريد العيش في سلام مع أمي.

أسرعت إذن نحو المنزل وأنا أرى الطائرات الورقية معلقة في السماء. كنت سعيداً. لم أكن آسفاً على أي شيء مما تخليت عنه. بالطبع كنت متعلقاً بكماني وبعلم الموسيقى. ولكني لم أكن أتحرق توقاً إلى البروز في مهنتي. بل لم يكن من شأن أكبر نجاح منافسة فرحي بالعودة إلى بيتي.

عندما أعلنت لأبي أني لن أعود إلى برنو، احمرّ غضباً. لم يكن يقبل بأن أفسد حياتي بسببه. عندئذ رويت له أنه كان علي ترك المدرسة بسبب علاماتي الرديئة. وعندما انتهى إلى الاقتناع، زاد ذلك في انزعاجه مني. ولكن ذلك لم يكن يعذبني كثيراً، لاسيما وأني

لم أعد لأعيش متبطلاً. فقد عدت إلى موقعي كعازف كمان أول في فرقتنا، وفضلاً عن ذلك، حصلت على وظيفة أستاذ كمان في المدرسة البلدية للموسيقى. وهكذا كنت أستطيع أن أكرس نفسي لما أحبه.

وهو مايعني، أيضاً، لفلاستا. كانت تسكن القرية المجاورة التي تشكل اليوم كقريتي، إحدى ضواحي المدينة. كانت ترقص في فرقتنا. وبما أني تعرفت عليها لدى دراستي في برنو، فقد سررت بلقائها مجدداً، يومياً، تقريباً، منذ عودتي. إلا أن الحب الحقيقي كان يجب أن يولد بعد ذلك بقليل بصورة غير متوقعة، لدى تدريب سقطتْ فيه سقطةً من الشدة بحيث كسرت ساقاً. حملتها بين ذراعي حتى عربة الاسعاف التي استُدعيت على وجه السرعة. أحسست إذ ذاك بين ذراعي بجسمها الصغير الهش، النحيل. وفجأة انتبهتُ إلى أن طولي مئة وتسعون سنتمتراً، وأزن مئة كيلو غرام، وكنت أستطيع أن أقوض سنديانات، بينما هي كانت ضعيفة جداً، ضعيفة جداً.

كانت تلك دقيقة النور. فقد رأيت فجأة في فلاستا المخلوقة الصغيرة الجريحة، شخصاً آخر أعرفه أكثر من ذلك بكثير. كيف لم أنتبه إلى هذا قبل ذلك بكثير؟ كانت فلاستا «الخادمة الفقيرة»، شخصية أغنيات شعبية لاتحصى! الخادمة الفقيرة التي لاتملك سوى شرفها، الخادمة الفقيرة التي تهان، الخادمة الفقيرة ذات الملابس المهترئة، الخادمة الفقيرة اليتيمة.

لم يكن الأمر بالتأكيد هكذا بالضبط. فقد كان لها أهلها ولم يكونوا فقراء أبداً. بل إن العهد الجديد كان يشددُ عليهم قبضته لأنهم كانوا، بالضبط، مزارعين كباراً. ولم يكن نادراً أن تأتي فلاستا إلى تدريباتنا والدموع في عينيها. كانت تُفرض عليهم توريدات هائلة، وأُعلن أبوها من الكولاك. لقد صادروا جراره وآلاته، وهدّدوه بالاعتقال. كنت أرثي لها وأداعب فكرة الاهتمام بها، بالخادمة الفقيرة.

منذ أن تعرفت عليها وقد أضاءتها، على هذا النحو، كلمات أغنية شعبية، بدا الأمر كما لو أني كنت أحاكي حباً عاش ألف مرة، كما لو كنت أعزف من نوطة موغلة في القدم، كما لو كانت هذه الأغاني تغنى لي. وكنت، وأنا مغمور في هذا الموج الصوتي، أحلم بالزواج.

قبل يومين من الحدث، وصل لودفيك دون سابق إنذار. استقبلتُه بسعادة. وعلى الفور أعلمته بالخبر الكبير مضيفاً أني كنت أعتمد عليه كشاهد لأنه أعز أصدقائي. وعدني وجاء.

كان أصدقائي في الفرقة حريصين على أن يقيموا لي عرساً مورافياً حقيقياً. ومنذ الساعة الأولى كانوا بكاملهم مع الموسيقى والملابس في بيتنا. كان عازف خمسيني بارع على السنبالوم أكبر الوصفاء عمراً، وواجبات «البطريرك» تقع على عاتقه. قبل كل شيء قدم أبي لكل واحد منهم خمر الخوخ، وخبزاً وشحم خنزير. ثم تلا البطريرك، وقد حصل على السكوت بإشارة واحدة، بصوت رنان مايلي:

«أيها العازبون المحترمون جداً، وكذلك العازبات،

سيداتي سادتي!

انتدبتموني إلى هذا المقام

لأن سيد البيت رجانا

أن نمضي معه إلى مسكن والد من

اختارها خطيبة، البكر النبيلة...»

البطريرك هو رئيس الاحتفال بكامله، روحه، خليته العاملة. بدا الأمر كذلك خلال قرون. العريس لم يكن من جانبه صانع زواجه قط. لم يكن يتزوج، بل كانوا يزوجونه. كان الزواج يستولي عليه ويحمله كموجة عالية. لم يكن التصرف والكلام من شأنه. فقد كان البطريرك يفاوض ويخطب مكانه، بل إن البطريرك لم يكن هو من يفعل ذلك.

إنه تقليد الجدود الذي كان ينتقل بين الناس واحداً واحداً ويجرفهم في تياره الرفيق.

انطلقنا بقيادة البطريرك إلى قرية خطيبتي. كنا نسير عبر الحقول، وأصدقائي يعزفون وهم سائرون. ومن قبل، وأمام بيت فلاستا، كان أهلها ينتظروننا مرتدين الملابس الشعبية. صرح البطريرك قائلاً:

«نحن مسافرون متعبون.

دعونا ندخل،

وأنتم الكرماء

تحت سقفكم النبيل».

انفصل عن المجموعة التي كانت تقف عند الباب عجوز وقال: «أهلاً بكم إن كنتم أناساً طيبين». ودعانا إلى الدخول. أسرعنا في الدخول دون التلفظ بكلمة. فبعد أن قدمنا البطريرك كمسافرين بسطاء منهكين، لم يكن علينا في البدء الكشف عن غرضنا الحقيقي. شجعنا العجوز الناطق بلسان فريق الزوجة المقبلة قائلاً: «إذا كان هناك عبء يضغط على قلوبكم، فتكلموا!».

عند ذلك، بدأ البطريرك في الكلام بطريقة مبهمة، بالألغاز أولاً، وكان محاوره يرد عليه بالطريقة نفسها. وبعد عدة مداورات، انتهى إلى كشف سبب زيارتنا، وهو ما جعل العجوز يطرح السؤال التالي:

«أسألك أيها الرفيق العزيز

لماذا يريد هذا الراغب الشريف في

اتخاذ هذه الفتاة الشريفة زوجة.

أهو من أجل الزهرة أم من أجل الثمرة»

أجاب البطريرك قائلاً:

«كل الناس يعلمون، جيداً أن الزهرة

تتفتح جمالاً وروعة وتمتّعنا.

ولكن الزهرة تمضي

وتأتي الثمرة.

فليست خطيئتنا أبداً من أجل الزهرة،

بل من أجل الثمرة، لأن الثمرة تغذينا».

وجرى تبادل الردود برهة أخرى، أيضاً، حتى ختام كلام العجوز: «في هذه الحالة، فلتحضر المُختارة، ولتقل إن كانت موافقة أم لا». وانتقل إلى الغرفة المجاورة التي عاد منها بعد لحظة، يقود بيده امرأة في ملابس شعبية. بدت طويلة نحيلة، كلها عظام، ووجهها مغطى بوشاح، وقال: «هذه خطيبتك!».

إلا أن البطريرك هز رأسه وأبدينا، نحن أنفسنا، بصخب كبير، كل عدم موافقتنا. وبعد أن ماحك العجوز قليلاً، كان عليه أخيراً أن يقرر أخذ المرأة المقنّعة. وعند ذلك فقط أحضر فلا..تا. كانت تنتعل حذائين أسودين وتلبس مئزراً قرمزياً وسترة بألوان زاهية، وعلى رأسها تاج مضفور. بدت لي جميلة. أخذ يدها ووضعها في يدي.

ثم التفت العجوز نحو أم الخطيبة وتوجه إليها بصوت باكٍ: «أوه! أيتها الأم الصغيرة!».

لدى هذه الكلمات، سحبت خطيبتي يدها وجثت أمام أمها وقبلت جبينها. وتابع العجوز قائلاً:

«يا أمي العزيزة الحبيبة، اغفري لي الألم الذي أسببه لك!

أمي الصغيرة المحبوبة، كرمى لله،

اغفري لي ماسببته لك من ألم!

أمي الصغيرة المعبودة، كرمى لجراح المسيح الخمسة،

اغفري لي ماسببته لك من ألم!»

لم نكن هنا سوى في محاكاة بكماء لنص موغلٍ في القدم. وكان النص جميلاً، جذاباً، وكان كل ذلك صحيحاً. ثم استؤنف عزف

الموسيقى وسرنا في اتجاه المدينة. جرى الزواج المدني في البلدية مع الموسيقى، أيضاً. ثم ذهبنا لتناول طعام الغداء. وبعد الظهر، رقص الجميع.

في المساء، انتزعتْ الوصيفات من على رأس فلاستا تاجها وسلمنه لي بصورة رسمية. وصنعن من شعرها المحلول جديلة لففنها حول رأسها وألبسنها طاقية محكمة. كان هذا الطقس يمثل الانتقال من حالة العذراء إلى حالة المرأة. بالطبع، لم تعد فلاستا عذراء منذ وقت طويل. فلم يكن لها، إذن، الحق في رمز التاج. ولكن هذا لم يكن يبدو لي هاماً. فالآن فقط وعلى مستوى أهم بكثير، فقدت عذريتها، في اللحظة التي كانت وصيفاتها يقدمن لي التاج.

ياإلهي! كيف يجري أن يؤثر فيّ هذا التاج الصغير أكثر من عناقنا الأول، من دم فلاستا الحقيقي؟ لاأعلم عن ذلك شيئاً، ولكن الأمر كان كذلك. كانت النساء يغنين، وفي أغانيهن راح هذا التاج الصغير يطفو فوق الماء ويحلّ أشرطته الحمراء.

أشتهيت أن أبكي، كنت ثملاً. كنت أراه، أرى هذا التاج الذي يطفو، الساقية الصغيرة كانت تنقله إلى الساقية، والساقية إلى النهر، والنهر إلى الدانوب، والدانوب إلى البحر. كنت أراه، أرى تاج العذرية يمضي بلا عودة. نعم، بلا عودة، فكل المواقف الرئيسية في الحياة تحدث مرة واحدة، بلا عودة. من أجل أن يكون الرجل رجلاً، يجب أن يكون واعياً كل الوعي للّاعودة هذه. فليمتنع عن الغش! فليمتنع عن التظاهر بأنه لايعرف شيئاً. إنه يحاول أن يلتف على كل البرهات الكبيرة التي هي بلا عودة وأن ينتقل هكذا، دون أن يُدفع، من الولادة إلى الموت: ولكن رجل الشعب أشد صدقاً، إنه ينحدر، مغنياً، إلى عمق كل موقف رئيسي. عندما لوّثتْ فلاستا بالدم المنشفة التي كنت قد مددتها تحتها، كنت بعيداً عن الارتياب بأني أصادف الموقف الرئيسي الذي لاعودة عنه. ومع ذلك، في دقيقة الاحتفال والأغنيات، كانت اللاعودة هناك. كانت النساء يغنين أغاني الوداع. انتظر، انتظر يا حبيبي العذب أن أستأذن أمي الصغيرة، انتظر،

انتظر، أوقف المطية، أختي الصغيرة تبكي ومغادرتها أمر صعب. الوداع، الوداع يارفيقاتي العزيزات، أنا راحلة، راحلة إلى الأبد.

ثم كانت الظلمة تتكاثف وواكبنا العرس حتى منزلنا.

فَتَحتُ باب المدخل. فلاستا الواقفة على العتبة، التفتت مرة أخيرة نحو أصدقائها المتجمعين أمام البيت. وعند ذلك، بدأ أحدهم أغنية أخيرة:

«كانت على العتبة،

كم كانت تبدو جميلة،

وردة، وردتي الصغيرة.

عبرت العتبة،

امّحت الفتنة،

ذبلت وردتي الصغيرة».

ثم انغلق الباب علينا. كنا وحدنا. كانت فلاستا في العشرين من عمرها، وأنا لم أكن أكبرها كثيراً، ولكني كنت أقول لنفسي إنها عبرت العتبة، وفتنتها سوف تسقط عنها اعتباراً من هذه الدقيقة السحرية مثل أوراق الشجر. كنت أرى فيها سقوط الأوراق القادم، السقوط الذي انطلقت بدايته. قائلاً لنفسي إنها لم تكن زهرة فقط، ولحظة الثمرة المقبلة كانت موجودة فيها فعلاً، في هذه اللحظة. كنت أحس في هذا كله بالنظام المحتوم الذي كنت أمتزج به، النظام الذي كنت أوافق عليه. كنت أفكر في فلاديمير في حين لم أكن أعرف آنذاك مظهره، بل لم أكن أتوقعه. ومع ذلك فقد كنت أفكر فيه، وأنظر عبره إلى أحفاده البعيدين. ثم تمددنا، فلاستا وأنا، على السرير، وكنت أحس أن لانهائية الجنس البشري الحكيمة هي التي تأخذنا بين ذراعيها.

8

ماذا فعل بي لودفيك يوم زواجي؟ الأصح أن أقول لاشيء. كان فمه متجمداً، وبدا غريباً. عندما كنا نرقص، بعد الظهر، قدم له الرفاق كلارينيت، كانوا يريدون رؤيته يعزف معهم. رفض، وبعد قليل اختفى. ومن حظي أني كنت فائق الجذل، فلم أنتبه إلى ذلك. وعلى كل حال، كنت قد لاحظت في الغد، أن اختفاءه قد صنع مايشبه بقعة صغيرة على يوم الأمس. كان الكحول ينحلّ في دمي ويضخّم هذه البقعة. وكانت فلاستا تضخّمها أكثر من الكحول أيضاً. فلم تكن قد أحبت لودفيك أبداً.

عندما أعلنتُ لها أنه سيكون شاهدي، لم يكن يبدو عليها أنها متحمسة جداً، بحيث طاب لها، منذ غداة عرسنا، أن تكون قادرة على تذكيري بسلوكه، بالهيئة التي بدا عليها باستمرار، كما لو كان الجميع يزعجونه، هذا الدعي!

في المساء نفسه، جاء لودفيك ليزورنا حاملاً معه هدايا صغيرة لفلاستا، ومعتذراً طلب إلينا أن نصفح عنه، لأنه أمس لم يكن على مايرام. روى لنا ماحدث له، طَرْده من الحزب ومن الكلية وجهله لما سيصير إليه.

لم أصدق أذني، ولم أعرف ماذا أقول. وفضلاً عن ذلك، فإن لودفيك الذي لايقبل أن يُرثى له سارع إلى تغيير مجرى الحديث. كان على فرقتنا أن تمضي، بعد خمسة عشر يوماً عبر جولة في الخارج. لم نشعر نحن الريفيين بمزيد من الفرح. بدأ لودفيك يسألني عن هذه الرحلة. إلا أني سرعان ماتذكرت أنه كان منذ طفولته يحلم بالسفر إلى الخارج، وأنه لن يستطيع الآن أبداً القيام بذلك. فلم يكن يُسمح للموسومين سياسياً عبور الحدود. كنت أرى جيداً أن وضعينا كانا بعد الآن مختلفين في كل شيء. فكان مستحيلاً إذن أن أتحدث، بصوت مرتفع، عن جولتنا خوف إلقاء الضوء على الهوة التي حُفرت

فجأة بين مصيرينا. كنت لانشغالي في التعتيم على هذه الهوة، أخشى أن تهدد كل كلمة بإضاءتها. كانت أدنى جملة متصلة بحياتنا، مهما بدت هذه الصلة ضعيفة، تبين أننا كنا بعيدين عن بعضنا، وأن منظوراتنا ومستقبلنا بدأت تفترق، وأننا كنا محمولين في اتجاهين متعاكسين. حاولت إذن أن أتحدث عن توافه، ولكن الأمر أصبح أسوأ. فانعدام المعنى المقصود للحديث كان، على الفور، شفافاً والحديث غير محتمل.

استأذن لودفيك وذهب. تطوع للعمل في مكان ما خارج مدينتنا، في حين رأست فرقتي في الخارج. منذ ذلك الحين، لم أره لعدة سنوات. بعثت له رسالة أو اثنتين إلى الجيش في أوسترافا. وكان مترسّباً فيّ كل مرة عدم الرضى نفسه، الذي شعرت به بعد محادثتنا الأخيرة. لم أكن أستطيع أن أنظر إلى سقوط لودفيك مواجهة. كنت خجلاً من نجاحي. لم أكن أتحمل أن أتوجه، من قمة نجاحاتي، إلى صديقي بكلمات تشجيع أو عطف. رحتُ أجتهد، بالأحرى، في التظاهر بأن شيئاً لم يتغير بيننا. كانت رسائلي تفصّل له ماكنا نفعله، ما يحدث من جديد في فرقتنا، كيف صار عازف السنبالوم الجديد يؤكد موهبته. كنت أصور له عالمي هذا، كما لو أنه بقي مشتركاً بيننا.

ثم في ذات يوم، تلقى أبي نعياً. كانت أم لودفيك قد توفيت. لم يكن أحد لدينا قد علم أنها كانت مريضة. فعندما اختفى لودفيك من أفقي كففت عن الاهتمام بها. أمسكت الورقة المؤطرة بالأسود واكتشفت لامبالاتي حيال الناس الذين ابتعدوا عن طريق حياتي، حياتي الناجحة، مهما كان هذا الابتعاد قليلاً. كنت أحس بنفسي مذنباً. ولم ألحظ، إلا بعد ذلك، شيئاً بعث فيّ الاضطراب. ففي أسفل ورقة النعي لم يظهر، من كل الأسرة، سوى الزوجين كوتيكي. ولم تكن هناك أية إشارة إلى لودفيك.

جاء يوم الجنازة. منذ الصباح، شعرت بالوجل متخيلاً لقائي بلودفيك. ولكنه لم يكن هناك. كان وراء النعش بضعة أشخاص فقط.

سألت الزوجين كوتيكي عن لودفيك، فهزا أكتافهما وقالا أنهما لم يكونا يعرفان أين يوجد. وقفت المجموعات الصغيرة والنعش قرب قبر فخم بشاهدة ثقيلة من الرخام وتمثال ملاك أبيض.

وبما أن كامل أملاك المتعهد الغني وأسرته قد صودر، فقد كان هؤلاء الناس يعيشون على معاش هزيل. لم يبق لهم سوى مغارة الأسرة المهيبة هذه مع ملاك. كنت أعلم ذلك، ولكني لم أكن أفهم لماذا أُنزل النعش هنا بالضبط.

فيما بعد فقط علمت أن لودفيك كان، في ذلك العهد، في السجن، وأمه الوحيدة في مدينتنا التي تعلم ذلك. وعندما ماتت، استولى الزوجان كوتيكي على جثة زوجة الأخ غير المحبوبة. كانا يستطيعان، أخيراً، الانتقام من ابن الأخ الجاحد. لقد سرقوا أمه وأخفوها تحت كتلتهم الرخامية التي يعلوها ملاك. هذا الملاك ذو الشعر المجعد والذي يحمل غصناً، لم يكف عن الظهور لي منذ ذلك الحين. كان يحوم فوق الحياة المنهوبة لصديقي الذي سَرَق منه حتى جسدا أبويه الميتين، ملاك الخراب.

9

فلاستا لاتحب المبالغات. والاسترخاء على المقعد، ليلاً، في الحديقة مبالغة. سمعت طرقات قوية على الزجاج. كان الظل القاسي لقامة أنثوية بقميص النوم ينتصب وراء النافذة. أطعت. أنا عاجز عن مواجهة أضعف الناس. وبما أن طولي مئة وتسعون سنتمتراً وأرفع بيد واحدة، كيساً يزن مئة كيلو غرام، فلم يتفق لي أن التقيت أحداً أستطيع أن أصمد له.

وهكذا دُفعت لأرقد إلى جانب فلاستا، وذلك فقط لأقول مفضياً بأني صادفت لودفيك. قالت بلا مبالاة مقصودة: «وماذا بعد؟». من المؤكد أنها لم تكن تتحمله. وهي لاتطيقه حتى اليوم. لكن ليس لها أن تشكو. فلم تره سوى مرة واحدة منذ زواجنا، عام ستة وخمسين. وفي تلك المرة لم أستطع أن أخفي عن نفسي الهوة التي كانت تفصل بيننا.

كان لودفيك قد أنهى خدمته العسكرية ومدة سجنه وعدة سنوات من العمل في المنجم. وقد تدبر أمره في براغ ليستأنف دراسته، وإذا كان قد عاد إلى الظهور في مدينتنا فذلك ببساطة لتسوية بعض الشكليات البوليسية. أصابني الوجل لفكرة وجودي ثانيةً في صحبته. لكن لم يكن في الرجل الذي لقيته شيء من المنتحِب المحطَّم، بل عكس ذلك، كان لودفيك مختلفاً عن ذاك الذي عرفته من قبل. فيه خشونة وصلابة، وربما المزيد من الهدوء. لم يكن فيه شيء من شأنه أن يستدعي الشفقة. بدا لي أننا سنجتاز دون مشقة الهوة التي كانت تخيفني. ولتلهفي على إعادة عقد العلاقة، اجتذبته إلى تدريب لفرقتنا. كنت أعتقد أنها مازالت فرقته أيضاً. وما أهمية أن يكون هناك عازف آخر على السنبالوم وآخر ككمان ثان، بل وأن يكون عازف الكلارينيت قد تغير وبقيت أنا وحدي من الحرس القديم.

أخذ لودفيك كرسياً وجلس على مقربة من السنبالوم. عزفنا أولاً أغنياتنا المفضلة، تلك التي كنا نعمل عليها ونحن في المدرسة الثانوية، ثم عزفنا أغنيات جديدة كنا قد عثرنا عليها في القرى المفقودة عند سفوح الجبال. وأخيراً جاءت تلك التي نعتز بها أشد الاعتزاز. لم تكن هذه المرة أغنيات تقليدية حقيقية، بل أغنيات اخترعناها على طريقة الفن الشعبي. وهكذا كنا نغني حول اتساع الحقول التعاونية أو حول الفقراء الذين أصبحوا اليوم سادة بلادهم، أو حول سائق الجرار الذي لاتجعل التعاونية شيئاً ينقصه. كانت موسيقى هذه الأغنيات تشبه الألحان الشعبية، وكلماتها أحدث من نص الصحف. وكانت تعز على قلوبنا، على نحو خاص الأغنية المكرسة لفوسيك، البطل الذي عذبه النازيون أثناء الاحتلال.

كان لودفيك يتابع بعينيه، وهو جالس على كرسيه، سباق طرقات عازف السنبالوم. وغالباً ماكان يسكب لنفسه خمراً. كنت أراقبه من فوق مشط كماني. بدا في حالة تأمل، ولم يرفع رأسه مرة في اتجاهي.

ثم دخلت القاعة زوجات، واحدة بعد الأخرى، علامة على أن التدريب قارب نهايته. عرضت على لودفيك مرافقتي إلى البيت. أعدّت لنا فلاستا شيئاً للعشاء، ثم تركتنا بمفردنا ومضت للنوم. تحدث لودفيك عن أشياء وأشياء. ولكنني كنت أحس أنه لم يكن ثرثاراً إلى هذا الحد إلا ليستطيع السكوت عما كنت أريد الحديث عنه. ولكن كيف لاأقول شيئاً لأفضل أصدقائي عما كان يشكل أثمن ثروة لكلينا؟ وحدث ذلك بحيث قاطعت ثرثرة لودفيك. ماذا تقول عن أغنياتنا؟ أجاب لودفيك بأنها قد راقت له. لم أدعه يتملص بهذا الأدب، وأمعنت في استجوابه. ماهو رأيه في الأغنيات الجديدة التي آلفناها، نحن أنفسنا؟

كان لودفيك يتجنب المناقشة. ولكني فرضتها عليه، خطوة خطوة، وانتهى إلى الكلام. هذه الحفنة من الأغنيات الشعبية القديمة كلية الجمال. أما بالنسبة إلى مابقي، فإن قائمة أغانينا تدعه في

حالة برود. إننا نلتزم أكثر مما ينبغي الذوق الرائج. ولاعجب في ذلك، فنحن إذ نعرض أمام الجمهور الكبير، نسعى إلى الإرضاء. ولذلك فإننا نسلب أغنياتنا كل سماتها الفريدة، نسلبها إيقاعها الذي لايُقلّد بتكييفها مع سلم اصطلاحي. نحن نختار أقل الطبقات الزمنية عمقاً لأنها أسهلها تقبلاً.

احتججت. لسنا إلا في البدايات. والأمر يدور، بالنسبة إلينا، حول تنشيط انتشار الأغنية الشعبية. وهذا هو السبب الذي يدعونا كي نطابق بعض الشيء بينها وبين عادات العدد الأكبر. المهم هو حقاً، اننا خلقنا فعلاً فولكلوراً معاصراً، أغنيات شعبية جديدة تحكي قصة حياتنا اليوم.

لم يكن موافقاً. فهذه الأغاني الجديدة كانت، بالضبط، تمزق أذنيه. يالها من أغنيات تدعو إلى الرثاء! ويالـه من زيف!

مازال يؤلمني التفكير في ذلك. من هو الذي كان قد هددنا بالانتهاء كامرأة لوط لو تعنتنا في النظر إلى الوراء؟ من الذي كان قد روى لنا أن موسيقى الشعب سوف تُخرج أسلوب العصر الجديد؟ ومن هو الذي كان قد حثنا على إعطاء دفعة لهذه الموسيقى الشعبية لقسرها على السير إلى جانب تاريخ زمننا؟

قال لودفيك: كل هذا كان طوباوية.

كيف يكون طوباوية؟ هذه هي الأغاني هنا! إنها موجودة.

ضحك مني: إن فرقتكم تغنيها. ولكن دلني خارج الفرقة على إنسان واحد يغنيها! اعثر لي على تعاوني واحد يدندن، لمتعته الخاصة، بجملكم الموسيقية التي تمجد التعاونيات! إنها تجعله يكشر لكثرة ماهي مزيفة! وهذا النص الدعائي الملصق بهذه الموسيقى الشعبية الزائفة كقبة سيئة الأحكام! أغنية مورافية زائفة حول فوسيك! ياله من تحدٍ للذوق السليم! ما المشترك بين صحفي براغي وموراڤيا؟

اعترضت قائلاً بأن فوسيك يخص الجميع، ويحق لنا نحن أيضاً أن نغنيه على طريقتنا.

أتقول على طريقتنا؟ أنتم تغنون على طريقة التحريض الدعائي وليس أبداً على طريقتنا! تذكر الكلمات فقط! ولماذا أولاً الأغنية حول فوسيك؟ ألم يكن هناك غيره في المقاومة؟ ألم يُعذب آخرون؟

ولكنه، في كل الأحوال، أشهرهم!

بطبيعة الحال! الجهاز المولج بالدعاية يسهر على حسن النظام في صالة كبار الموتى. ينبغي له، من بين الأبطال، بطل قائد.

ماجدوى هذه التهكمات؟ أليس لكل عصر رموزه؟

فليكن! ولكن من المهم أن نعرف من الذي انتُقي رمزاً! هناك مئات كانوا، آنذاك، في إقدامه تماماً، وجرى نسيانهم. وغالباً ماكانوا أناساً خارقين: سياسيين، كتاباً، علماء، فنانين. لم يُجعل منهم رموزاً. صورهم لاتزين جدران سكرتاريات المدارس. إلا أنهم غالباً ماخلّفوا عملاً. ولكن العمل هو، على وجه الدقة، الذي يزعجهم. أنهم يجدون مشقة في ترتيبه وتشذيبه والتقطيع فيه. إنه العمل الذي يربك في صالة دعاية الأبطال.

لاأحد منهم كان مؤلف «ريبورتاج مكتوب تحت المشنقة»!

هاقد وصلنا! ما العمل ببطل صامت؟ بطل يمتنع عن استخدام لحظاته الأخيرة مشهداً؟ درساً تربوياً؟ على الرغم من أن فوسيك لم يترك أي عمل وراءه، فقد وجد أمراً رئيسياً أن ينقل إلى العالم ماكان يفكر فيه، ويحسه ويعيشه ويطلبه ويوصي به الإنسانية من سجنه. كان يسجل هذه الأشياء على بطاقات صغيرة جاعلاً الذين كانوا ينقلونها، تهريباً، إلى الخارج من أجل الاحتفاظ بها في مكان أمين، يجازفون بحياتهم. يالها من قيمة عليا تلك التي كانت، في نظره، لأفكاره وانطباعاته الخاصة! يالها من قيمة عليا تلك التي كان ينسبها إلى نفسه!

هنا أصبح الأمر فوق ماكنت أستطيع التسامح به. أكان فوسيك، ببساطة، منخوراً بالتكبر؟

كان لودفيك كجواد جامح. لم يكن التكبر هو الذي إلى هذا الحد يدفعه إلى الكتابة، بل الضعف. ذلك أن كون المرء شجاعاً في العزلة، دون شهود، دون قبول من الآخرين، وجهاً لوجه مع نفسه، يقتضي اعتزازاً كبيراً بالنفس وكثيراً من القوة. كان فوسيك يحتاج إلى مساعدة الجمهور. إنه يصنع لنفسه، في عزلة زنزانته، جمهوراً وهمياً على الأقل. كان يلزمه أن يُرى، أن يُقوى بتصفيقات، وهمية إذا لم توجد أخرى. يلزمه تحويل زنزانته إلى مسرح وإلى أن يجعل مصيره مقبولاً بعرضه، بكشفه.

كنت مهيَّأً لانهيار لودفيك، لمشاكسته. ولكن هذا الغضب، هذه السخرية الحاقدة فاجآني. بماذا آذاه فوسيك المسكين؟ أنا أرى قيمة إنسان ما في وفائه. لقد عانى لودفيك عقاباً جائراً، ولكن هذا يزيد الأمر خطورة، لأن دوافع تغييره لآرائه تغدو، إذ ذاك، فائقة الشفافية. هل يمكن للمرء أن يقلب موقفاً كاملاً حيال الحياة لمجرد أنه قد أوذي؟

قلت كل ذلك للودفيك. ثم جرى شيء غير متوقع. لودفيك لم يرد عليّ، كما لو أن حمى الغضب هذه قد بارحته فجأة. راح يتفحصني بنظرة قلقة، ثم طلب إلي، بصوت منخفض وهدوء، أن لاأنزعج، فربما يكون قد أخطأ. قال ذلك بدرجة من الغرابة والبرود بدا لي عدم صدقه معها فاضحاً. لم أكن أريد أن ينتهي حديثنا بانعدام الصدق هذا. فقد بقيت، مهمها كانت مرارتي، تحت سيطرة قصدي الأول. كنت أريد التفاهم مع لودفيك واستعادة صداقتنا. ومهما كان التصادم قاسياً، فقد كنت آمل مع ذلك، أن يكون هناك في مكان ما في نهاية خصام طويل، ركن مشترك من الأرض كان الطقس فيه بالغ الجمال سابقاً، ويمكن أن نسكنه معاً من جديد. إلا أن جهدي المبذول لمتابعة الحديث لم ينجح. فقد أخذ لودفيك يُفيض في

الاعتذارات: فمرة أخرى، على حد قوله، كان قد أذعن لهوسه في المبالغة. ويرجوني أن أنسى الأقوال التي أدلى بها.

أنسى؟ ولماذا، بحق الشيطان، يجب أن أنسى حديثاً جدياً؟ ألن يكون من الأفضل أن نستمر فيه؟ لم ينكشف لي إلا في الغد المعنى الخفي لطلب لودفيك. فقد قضى الليل في منزلنا وتناول طعام الإفطار صباحاً. وبعد ذلك كانت ماتزال أمامنا نصف ساعة للحديث. قص عليّ مساعيه الصعبة للحصول على السماح له بإنهاء دراسته في الكلية خلال سنتين، وكم كان فصله من الحزب يشكل وصمة في حياته، والتحدي الذي كان يلقاه في كل مكان. وربما استطاع، بفضل مساعدة عدد صغير من الأصدقاء الذين كانوا قد عرفوه قبل فصله من الحزب، فقط، أن يعود من جديد إلى مقاعد الدراسة. ثم تحدث عن بعض المعارف الذين كان وضعهم مشابهاً لوضعه. أكد لي أنهم مراقبون وأن أحاديثهم مسجلة بعناية، وأن محيطهم كان يُستجوب، ويمكن لشهادة متحمسة أو سيئة النية أن تسبب لهم حقاً بضع سنوات إضافية من المتاعب. ثم خاتل من جديد حول تفاهات، وعندما جاءت لحظة الوداع، صرح بأنه سُرّ لرؤيتي وكرر رجاءه بألّا أعود إلى التفكير فيما قال بالأمس.

كان التقريب بين هذا الرجاء والتلميحات إلى التجربة التي عاشها أصدقاؤه بالغ الوضوح. كنت مذهولاً. لقد توقف لودفيك عن التحدث إليّ لأنه كان خائفاً! خائفاً من أن تتسرب مناقشتنا! خائفاً من الوشاية! خائفاً مني! كان ذلك مرعباً، وغير متوقع مرة أخرى. بدت الهوة بيننا أعمق مما كان يخيل إلي، من العمق بحيث لم تكن تسمح لنا حتى بإنهاء محادثة.

10

كانت فلاستا نائمة من قبل. المسكينة الصغيرة تشخر من حين إلى آخر شخيراً خفيفاً. كل شيء نائم في بيتنا. كنت ممدداً، عريضاً، طويلاً وكبيراً، وأفكر كم تنقصني القوة. أحسست بذلك إحساساً بالغ القسوة هذه المرة. كنت من قبل سريع التصديق، أفترض أن كل شيء كان بين يدي. لم يسبق لنا، لودفيك وأنا، أن عذبنا بعضنا. ماالذي يمنعني، بقليل من الإرادة الحسنة، من أن أصبح من جديد قريباً منه؟

لقد تم البرهان على أن هذا ليس بين يدي. لم تكن قطيعتنا ولاتقاربنا بين يدي. فأنا سلمتهما إذن للزمن. وكان الزمن يمضي. انقضت تسع سنوات على لقائنا الأخير. أنهى لودفيك دراسته ووجد وظيفة ممتازة كعامل علمي في قطاع يهمه. تابعت من بعيد مصيره. أتابعه بمحبة، فأنا لاأستطيع أبداً أن أعد لودفيك عدواً لي أو شخصاً غريباً ما. إنه صديقي، ولكنه مسحور، كما هو الأمر في صيغة ما مجددة للحكاية التي تحولت فيها خطيبة الأمير إلى أفعى أو حرذون. الصبر الوفي للأمير أنقذ دائماً في الحكايات كل شيء.

أما أنا، فإن الزمن لايوقظ صديقي من سحره. علمت عدة مرات في تلك السنوات، أنه مر بمدينتنا. لم يتوقف مرة واحدة عندنا، صادفته اليوم وتجنبني. يااللودفيك اللعين!

بدأ كل شيء بعد أن تحدثنا للمرة الأخيرة. شعرت من سنة إلى أخرى بالصحراء تتسع حولي، وبقلق ينمو في قلبي. كان هناك قدر متزايد من التعب وقدر متناقص من الفرح والنجاح. في السابق، كانت الفرقة تذهب، كل عام، في جولة إلى الخارج، ثم تباعدت الدعوات، ولم يعد أحد تقريباً، يدعونا الآن. كنا نعمل كل الوقت ونضاعف الجهود، ولكن ماحولنا هو الصمت. بقيتُ في قاعة فارغة. وبدا لي أن لودفيك هو الذي أَمَرَ بأن أبقى وحيداً، ذلك أن الأصدقاء، لا الأعداء، هم الذين يحكمون على الإنسان بالعزلة.

منذ ذلك الوقت اعتدت بصورة متزايدة على الهرب عبر هذا الطريق الترابي الذي تصطف على جانبيه حقول صغيرة، عبر هذا الطريق بين الحقول حيث تنبت زهور نسرين، وحدها، فوق تلعة. هنا ألقى آخر الأوفياء. فهناك الفارّ من الجندية مع فتيانه، وهناك موسيقي متشرد. ووراء الأفق، يوجد بيت خشبي، في داخله فلاستا ـ الخادمة الفقيرة.

سماني الفارّ مَلِكه وأقسم على أني أستطيع، في أي وقت، أن ألجأ إلى حراسته. ليس علي سوى المجيء قرب نبتة النسرين وسوف يكون دائماً في الموعد.

كم هو بسيط العثور على السلام في عالم من أخيلة! ولكني حاولت باستمرار أن أعيش في العالمين معاً، دون أن أغادر أحدهما إلى الآخر. ليس لي الحق في التخلي عن العالم الواقعي على الرغم من أني أخسر فيه كل شيء. ربما سيكفي، في نهاية النهايات، أن أنجح في شيء واحد هو الأخير: تسليم حياتي كرسالة واضحة ومفهومة إلى الفرد الوحيد الذي سيفهمها ويحملها إلى مكان أبعد. وحتى ذلك الحين، لاحق لي في أن أمضي مع الفارّ نحو الدانوب.

هذا الإنسان الفريد الذي أفكر فيه، أملي الأخير بعد هذا القدر من الهزائم، يفصله عني حاجز وينام. سوف يمتطي بعد غدٍ جواداً، وسيكون وجهه مغطى بنقاب. سيعاملونه كملك. تعال ياصغيري. إني أغفو. سوف يعطونك لقبي. سأنام، أريد أن أراك على جوادك في حلمي.

القسم الخامس

لودفيك

1

نمت طويلاً وجيداً جداً. استيقظت بعد الثامنة، ولم أكن أتذكر أي حلم، جيد أو سيء، ولم يكن رأسي يؤلمني، ولم أكن ببساطة، أشتهي أن أنهض. بقيت إذن راقداً. فقد أقام النوم بيني وبين لقاء الأمس مايشبه الحاجز. وليس ذلك لأن لوسي تلاشت من شعوري، ولكنها كانت قد عادت لتصبح تجريداً.

تجريد؟ نعم. فبعد اختفائها اللغزي والمؤلم في أوسترافا، لم تكن لدي في البدء أية وسيلة عملية للبحث عن أثرها. ومع مرور السنوات (بعد خدمتي العسكرية)، كنت أفقد شيئاً فشيئاً الرغبة في مثل هذه الأبحاث. كنت أقول لنفسي إنها كانت، مهما بلغت قوة حبي لها ومهما كانت كاملة التفرد، غير قابلة للفصل عن الموقف الذي تلاقينا فيه وهام كل منا بالآخر. كان تجريد المرأة المحبوبة من جملة الظروف التي لاقاها وعاشرها فيها المرء وأحبها، والاجتهاد في تنقيتها، بتركيز عقلي عنيد، من كل مالم يكن هي نفسها، أي من التاريخ الذي عاشه معها وأعطى الحب شكلاً، كان ذلك، كما يبدو لي، اقتراف خطأ في المحاكمة.

وبالفعل لاأحب في المرأة ماهي عليه بالنسبة إليها هي نفسها، بل ماتتوجه به إلي، ماتمثله بالنسبة إليّ. أحبها كشخصية من تاريخ كلينا. مامعنى هاملت بدون قصر ألسينور، بدون أوفيليا، وكل المواقف المشخصة التي يجتازها، بدون النص الذي كُتب فيه دوره؟ ماذا سيبقى سوى ما لا أعرف من ماهية جوفاء ووهمية؟ وكذلك فإن لوسي، دون الضواحي الأوسترافية، دون الورود المدسوسة في السياج، دون فساتيها المهترئة، دون أسابيع انتظاري دون أمل، لن تعود، دون شك، لوسي التي كنت أحبها.

هكذا كنت أتصور الأمور، وهكذا كنت أوضحها لنفسي. ومع مرور السنين، كنت خائفاً، تقريباً، من أن أراها مجدداً لأني كنت

أعلم أننا سنلتقي، إذ ذاك، في مكان لن تعود لوسي فيه لوسي، وأنه لن يعود لدي ما أعيد به عقد الخيط. لاأريد أن أقول بأنني كففت عن حبها، نسيتها، وصورتها قد شحبت. كانت، على العكس من ذلك، تسكنني ليل نهار كحنين صامت. كنت أشتهيها كما يشتهي المرء أشياء فقدها إلى الأبد.

وبما أن لوسي كانت قد أصبحت، في نظري، ماضياً نهائياً (كان، كماضٍ، مازال حياً، وميتاً كحاضر)، فقد أخذت تفقد ببطء بالنسبة إلي، ظاهرها الجسدي المادي المشخص، من أجل أن تتحّل بصورة متزايدة إلى خرافة، إلى أسطورة مكتوبة على ورق ومخفية في صندوق معدني صغير مودع في قعر حياتي.

ربما كان مالايمكن التفكير فيه قد أصبح من أجل ذلك بالذات ممكناً: ترددي أمام وجهها في مقعد صالون الحلاقة. من أجل هذا، أيضاً، أحسست هذا الصباح أن ذلك اللقاء لم يكن واقعياً، أنه كان يجب أن يجري، هو أيضاً، على مستوى الخرافة، مستوى العرّاف أو مستوى الحزورة. إذا كان الوجود الواقعي للوسي قد أذهلني مساء أمس، وألقى بي فجاة في الزمن البعيد الذي كانت تسود فيه، فإني تساءلت، في صباح يوم السبت هذا، بقلب هادئ (أراحه النوم): لماذا التقيتها؟ مامعنى هذه المصادفة؟ وماذا عليها أن تقول لي؟

هل تقول القصص الشخصية، فضلاً عن انقضائها، شيئاً؟ لقد بقي لدي، على الرغم من كل ريبيتي، قليل من التطير اللاعقلاني، مثل هذا الاقتناع الطريف بأن كل حدث يقع لي يحمل، فوق ذلك معنى، يعني شيئاً ما، وبأن الحياة تتحدث إلينا بمغامرتها الخاصة، تكشف لنا بالتدريج عن سر، وبأنها تعرض نفسها كلغز للحل، وبأن كل القصص التي نعيشها تشكل، في الوقت نفسه، ميثولوجيا لحياتنا، وهذه الميثولوجيا تملك مفتاح الحقيقة والسر. أهو وهم؟ هذا ممكن، بل قريب من التصديق، ولكني لاأستطيع كبت هذه الحاجة إلى أن أحلّ باستمرار ألغاز حياتي الخاصة.

كنت، وأنا راقد على سرير الفندق الذي يئن، أفكر من جديد بلوسي متحولة إلى مجرد فكرة، إلى مجرد نقطة استفهام. كان السرير يئن، وهذه الخاصة التي مست، من جديد، شعوري أحدثت نقلة تفكير (مفاجئة، نشازاً) في اتجاه هيلينا. وكما لو أن هذا السرير الذي يئن، هو الصوت الذي يدعوني إلى الواجب، تنهدت وأخرجت قدمي من السرير وجلست على حافته. مررت بأصابعي على شعري ونظرت إلى المساء من خلال زجاج النافذة ثم نهضت. كان لقاء الأمس بلوسي قد محا وخنق، على كل حال، اهتمامي بهيلينا الذي كان فائق الحدة قبل أيام قليلة. لم يعد هذا الاهتمام الآن سوى ذكرى اهتمام، شعور بالواجب تجاه اهتمام مفقود.

اقتربت من المغسلة وتخلصت من سترة المنامة وفتحت الصنبور إلى آخره. وضعت يديّ اللتين اتخذتا شكل صَدَفة تحت الصنبور ورششت، متعجلاً وبسخاء، عنقي وكتفي وجسمي قبل أن أفرك نفسي بالمنشفة. كنت أريد أن أجلد دمي. خفت فجأة من فقدان اهتمامي بوصول هيلينا. خشيت أن تُفسد لامبالاتي فرصة استثنائية كانت احتمالات تكررها ضئيلة. وعدت نفسي بوجبة متينة مدعومة بالفودكا.

نزلت إلى قاعة المقهى، ولكني لم أجد فيها سوى موكب حزين من الكراسي المصفوفة، وقوائمها في الهواء، على طاولات دون شراشف، وعجوز قصيرة بمئزر قذر تجر نفسها بينها.

في قاعة الاستقبال، سألت البواب المنهار، وراء مكتبه، في مقعد عميق عمق بلادته، عما إذا كانت هناك وسيلة لتناول طعام الإفطار في الفندق. ودون أية حركة، قال إن ذلك اليوم كان يوم إغلاق المقهى. خرجت إلى الطريق. كان النهار يبدو جميلاً، فالسحب الصغيرة تتنزه في السماء، والريح الخفيفة ترفع الغبار من على الأرصفة. أسرعت نحو الميدان. أمام دكان جزار هناك صف. كانت النساء ينتظرن، بسلال أو شبكات في أيديهن، دورهن بصبر. وسرعان مالاحظت أن هناك بين المارة من يمسك بقبضته قروناً من

البوظة، تشبه مشاعل صغيرة تعلوها قلنسوة يلعقونها. وفي اللحظة نفسها، وصلت إلى الميدان الكبير. كان هناك، في بيت بطابق واحد، مطعم خدمة ذاتية.

دخلت إليه. كانت القاعة واسعة، مبلطة الأرض وهناك أناس يقفون أمام طاولات عالية جداً ويعضون أرغفة صغيرة محشوة ويشربون القهوة أو الجعة.

لم أكن أرغب في تناول الإفطار هنا. فمنذ استيقاظي كان يسكنني هاجس وجبة دسمة من البيض وشحم الخنزير المدخن مع كأس من الكحول لأستعيد حيويتي. تذكرت مطعماً أبعد من هذا بقليل، في ميدان آخر فيه حديقة ونصب من طراز الباروك. لم يكن فيه، دون شك، مايغري، ولكني رضيت به شريطة أن أجد فيه طاولة وكرسياً ونادلاً مستعداً لخدمتي.

مررت إلى جانب النصب. كانت قاعدته تحمل قديساً، والقديس يحمل سحابة، والسحابة ملاكاً، والملاك سحابة أخرى يجلس عليها ملاك، الملاك الأخير. رفعت بصري إلى كامل النصب، هذا الهرم المؤثر من القديسين والسحب والملائكة الذين كانت كتلتهم الرخامية الثقيلة تحاكي السماوات وعمقها، في حين بقيت السماء الحقيقية، الزرقاء الشاحبة، بعيدة بعداً يحمل على اليأس عن هذه القطعة الغبراء من الأرض.

اجتزت إذن الحديقة بدروبها ومقاعدها (التي كانت، مع ذلك، على درجة من العري تكفي من أجل عدم تعكير جو فراغٍ أغبر) وأمسكت بقبضة باب المطعم. كان مغلقاً. بدأت أفهم أن الوليمة الصغيرة التي تمنيتها بهذه القوة ستبقى حلماً، وأقلقني ذلك لأني كنت أعتبرها، بعناد طفليّ، الشرط الحاسم لنجاحِ ذلك اليوم. فهمت أن المدن الصغيرة لم تكن تهتم بغريبي الأطوار المصرّين على تناول الإفطار جالسين على اعتبار أنها لم تكن تفتح مطاعمها إلا بعد ذلك

بكثير. عدلت إذن عن البحث عن مطعم، واستدرت واجتزت الحديقة في الاتجاه المعاكس.

ومن جديد، صادفت أولئك الذين يحملون القرون الصغيرة التي تعلوها القلنسوات الوردية، ومن جديد كررت لنفسي بأن هذه القرون تذكر بالمشاعل، وأنه ربما كان لهذا المظهر معنى ما على اعتبار أن هذه المشاعل ليست كذلك، بل محاكاة لمشاعل فقط، وأن ماكانت تحمله باحتفالية هذه البقية الآبقة لمتعة وردية، لم يكن نشوة، بل محاكاة لنشوة، وهو مايعبرّ، بموجب كل الاحتمالات، عن طابع المحاكاة في كل مشاعل مدينة الغبار هذه ونشواتها. ثم توقعت أن تتوافر لي، شريطة أن أعبر من جديد تيار حملة المشاعل اللاعقين، فرصة إيجاد محل حلويات يوجد فيه ركن لطاولة وكرسي، بل قهوة وحتى قطعة حلوى صغيرة.

وبالفعل وصلت إلى بار حليب. كان الناس يصطفون فيه للحصول على شوكولا أو حليب مع رقائق خبز بالزبد. وهاهي من جديد الطاولات العالية والزبائن الذين يشربون ويأكلون عليها. كان في الركن الخلفي من الدكان حقاً بعض المناضد والكراسي، ولكنها كلها مشغولة. وقفت إذن في الصف الذي كان يتقدم بخطى صغيرة، وبعد عشر دقائق انتظار، حصلت على كوب شوكولا ورقاقتين حملتها إلى طاولة صغيرة عالية مزدحمة بنصف دستة من الأكواب الفارغة، وهناك على طرف من السطح لايوجد عليه سائل مسكوب وضعت كوبي.

أكلت بسرعة محزنة: وبعد ما لايكاد يتجاوز الثلاث دقائق وجدت نفسي، من جديد، في الطريق. كانت الساعة التاسعة، ومايزال أمامي ساعتان: فهيلينا قد أخذت، هذا الصباح، أول طائرة إلى برنو لتستطيع اللحاق بالسيارة التي تصل إلى هنا قبل الحادية عشرة بقليل. كنت أعلم أنهما ستكونان ساعتين فارغتين تماماً.

كنت أستطيع، بالطبع، أن أذهب لأرى مواضع طفولتي القديمة

والتوقف قرب البيت الذي وُلدتُ فيه، وعاشت فيه أمي حتى أيامها الأخيرة. غالباً ما أفكر فيها ولكن ذكرياتي مسممة هنا، في المدينة التي يرقد فيها هيكلها الصغير تحت رخامة غريبة: كان إحساسي الحاد بعجزي، آنذاك، يسممها ـ وهذا ما أمتنع عنه.

لم يعد أمامي إذن سوى أن أجلس على مقعد في الميدان لأنهض عنه، فوراً تقريباً، وأمضي لمشاهدة الواجهات والتطلع إلى أغلفة الكتب في واجهات المكتبات وأنتهي إلى شراء جريدة «الرودي برافو»، ثم أعود إلى المقعد وألقي نظرة على العناوين العديمة المذاق وأقرأ خبرين لهما بعض الأهمية في الزاوية الخارجية، ثم أنهض من على المقعد وأطوي الصحيفة وألقي بها في حاوية مهملات، ثم أقترب ببطء من الكنيسة وأتوقف أمامها وأنظر إلى الناقوسين، بعدها أصعد الدرجات العريضة وأقف في المدخل بوجل من أجل ألّايصدم الناس كون القادم الجديد لم يرسم إشارة الصليب ولم يأت إلى هنا إلا ليتنزه كما لو أنه في حديقة.

عندما زاد عدد الناس، أحسست بشعور دخيل لم يكن يعرف الموقف الذي يجب أن يتخذه في هذا المكان. لذلك مضيت، ونظرت إلى الساعة وتبينت أن حياة وقتي الميت قاسية. ومن أجل الاستفادة من هذا الوقت الفارغ، انهمكت في تذكر هيلينا، في التفكير فيها. ولكن هذا التفكير كان يرفض التطور، يبقى ساكناً ولايكاد يتوصل إلى تذكيري بالصورة البصرية لهيلينا. وفضلاً عن ذلك، فهذا أمر معروف! عندما ينتظر رجل امرأة، فإنه لايستطيع إلا بمشقة كبيرة، أن يفكر فيها، ولايستطيع سوى أن يروح ويجيء تحت رسمها المتجمد.

كنت إذن أروح وأجيء. رأيت تجاه الكنيسة حوالى عشر عربات أطفال متوقفة، فارغة، أمام بناء البلدية (التي أصبحت الآن اللجنة الوطنية للمدينة). لم أستطع أن أفهم حول أي شيء كان يدور الأمر. ثم تقدم شاب مبهور الأنفاس ليصفّ عربة إلى جانب

الأخريات، وسحبت منها مرافقته لفة من القماش والمطرزات البيضاء (تحتوي، دون شك، على طفل) واختفى الزوجان بعجلة داخل البلدية. فكرت في أنه مازال أمامي ساعة ونصف الساعة، فتبعتهما.

منذ الدرج الكبير صار هناك كثير من الأطفال يتزايد عددهم بقدر ماكنت أصعد. بدا رواق الطابق الأول مزدحماً، في حين كان الدرج الذي يقود إلى أعلى فارغاً. فالحدث الذي اجتذب هؤلاء الناس كان يجري إذن، كما يظهر، في الطابق الأول، وعلى وجه الاحتمال في الصالة التي كان بابها الكبير المفتوح على الرواق مسدوداً بجمع غفير. مضيت إليها. كانت أبعاد الصالة متواضعة، وفيها حوالى سبعة صفوف من الكراسي يحتلها، من قبل، أشخاص بدا عليهم أنهم ينتظرون مشهداً. وفي المقدمة هناك منصة تحمل طاولة طويلة مغطاة بقماش أحمر مع باقة ورود كبيرة في إناء. وفي الخلف، على الجدار، كانت طيات علم بألوان الدولة تتهدل وقد رُتبت بفن. أسفل المنصة، وفي مواجهتها (على مسافة ثلاثة أمتار من الصف الأول من الردهة) ثمانية مقاعد ترسم نصف دائرة. وفي آخر الطرف الآخر من القاعة، هناك هارمونيوم صغير. كان رجل عجوز يجلس منحنياً بصلعته فوق الملامس المكشوفة.

كانت عدة كراسٍ ماتزال شاغرة. احتللت واحداً منها. مضى وقت طويل ولم يحدث شيء، ولكن الجمهور لم يكن يبدي أي ملل. فقد أخذ كل واحد يميل برأسه نحو جاره ويتحدثان بصوت منخفض. وفي هذه الأثناء، كانت المجموعات الصغيرة المتأخرة في الرواق قد انتهت إلى ملء القاعة محتلةً آخر محلات الجلوس أو واقفة حولها.

حدث شيء ما أخيراً: فخلف المنصة فُتح باب، وظهرت سيدة بفستان بني ونظارتين فوق أنف طويل دقيق. جالت ببصرها على الحضور ورفعت يدها اليمنى. أحاط بي الصمت. ثم عادت تلك المرأة إلى الغرفة التي خرجت منها كما لو أن ذلك لتوجه إشارة أو

كلمة لأحدهم، ولكنها سرعان ماعادت والتصقت بظهرها إلى الجدار، في حين ظهرت، في اللحظة نفسها، ابتسامة رسمية وجامدة على وجهها. كان كل شيء جيد التوقيت لأن الهارمونيوم بدأ، ورائي، في الوقت نفسه الذي ارتسمت فيه الابتسامة.

وبعد بضع ثوان، ظهرت، في الباب خلف المنصة، امرأة صبية ميالة إلى الحمرة بشعرٍ أصفر، غنية التجعيدات والماكياج، زائغة العينين، وبين ذراعيها كيس أبيض مع الطفل. زادت المرأة ذات الفستان البني التصاقاً بالجدار لتسمح لها بالمرور، في حين كانت ابتسامتها تريد تشجيع حاملة الطفل. بدأت هذه الأخيرة تتقدم بخطى مترددة ضامة إليها رضيعها. وظهر ثانية، بالكيس الأبيض نفسه ووراءها (في صف)، موكب صغير كامل. كنت ماأزال ألاحظ الأولى: تاهت عيناها أولاً في مكان غير بعيد عن السقف، ثم انخفضتا وكانتا قد التقتا بالتأكيد نظرة أحدهم في القاعة، على اعتبار أنها اضطربت، وحاولت فجأة أن تنظر إلى مكان آخر وأخذت تبتسم. ولكن هذه الابتسامة (هذا الجهد المبذول للابتسام) انحلّت سريعاً جداً إلى تقلص لشفتيها الجامدتين. كل ذلك جرى على وجهها في فترة ثوان (زمن اجتياز مالايكاد يبلغ ستة أمتار اعتباراً من الباب). وبما أنها مضت إلى الأمام بخط مستقيم ولم تنحرف، في الوقت المناسب، أمام نصف دائرة الكراسي، فإن السيدة ذات اللباس البني قفزت من الجدار (مقطبة الحاجبين قليلاً) واعترضت طريقها لتذكّرها، بلمسة من يدها، بالاتجاه الصحيح. وصححت المرأة، على الفور، انحرافها ورسمت حركة انعطاف متبوعة بحاملات أطفال أخريات كان مجموعهن ثماني. وبعد أن أنجزن أخيراً المسار المقرر ووقفن وظهورهن إلى الجمهور، كل واحدة منهن أمام كرسي، أعطت السيدة ذات اللباس البني إشارة من فوق إلى تحت. وببطء فهمت النساء (اللواتي كانت ظهورهن مازالت تجاه الجمهور)، واحدة بعد الأخرى، وجلسن (مع رزم رضّعهن).

ابتسمت السيدة ذات اللباس البني من جديد، ومضت نحو الباب الذي مازال منفرجاً. تجمدت لحظة عند العتبة، ثم خطت ثلاث أو أربع خطوات سريعة وعادت القهقرى إلى القاعة حيث عادت إلى الالتصاق بالجدار. ظهر، إذ ذاك، رجل في حوالى العشرين من عمره يرتدي الأسود وقميصاً أبيض كانت ياقته المزينة بربطة عنق ذات نقوش ملونة تلتصق بعنقه. كان منخفض الرأس وثقيل الخطى. يمشي وراءه سبعة رجال آخرين من أعمار مختلفة ولكنهم كانوا كلهم باللباس القاتم وقمصان الأحد. التفوا حول النساء حاملات الأطفال وتوقفوا، كل منهم وراء كرسي. وفي هذه اللحظة، ظهرت على اثنين أو ثلاثة منهم علامات القلق، وألقوا حولهم بنظرات كما لو كانوا يبحثون عما لاأدري. هرعت السيدة ذات اللباس البني (التي غطت وجهها، من جديد، فوراً سحابة المزاج الذي كانت عليه منذ قليل)، وهمس أحد هؤلاء الرجال المرتبكين في أذنها بضع كلمات، فهزت برأسها موافقة. وعند ذلك بدّل هؤلاء الرجال أمكنتهم بسرعة.

عادت السيدة ذات اللباس البني باسمةً من جديد، واستعادت مرة أخرى اتجاه الباب خلف المنصة. في هذه المرة، لم تكن في حاجة حتى إلى رسم إشارة ما. فقد دخل فصيل جديد، ويجب أن أقول إنه كان منضبطاً، يعرف جيداً ماكان يفعل ويسير دون ارتباك سير المحترفين الطبيعي. كان يمكن لعمر الأطفال الذين كانوا يؤلفونه أن يبلغ العاشرة. راحوا يتقدمون في صف يتناوب فيه الصبيان والبنات. كان الصبيان يرتدون بنطلونات كحلية وقمصاناً بيضاء بشال مثلث الشكل أحمر كان أحد طرفيه يقع بين لوحي الظهر. وكانت كل بنت ترتدي تنورة كحلية صغيرة وكنزة بيضاء وحول عنقها شال الصبيان نفسه. وكل منهم يحمل في يده باقة ورود. راحوا يمشون، كما قلت، بثقة بقدر ماكانوا يمشون برشاقة، وليس كما فعل الفصيلان السابقان: فلم يسايروا نصف دائرة الكراسي وساروا مستعرضين المنصة. ثم وقفوا ونفذوا ربع دورة

بحيث كان خطهم يحتل كل طول المنصة تجاه النساء الجالسات والقاعة.

انقضت بضع ثوان قبل أن يظهر على الباب شخص جديد، لم يكن يتبعه أحد ومشى مباشرة نحو المنصة وطاولتها الطويلة المغطاة بالأحمر. كان رجلاً متوسط العمر برأس خال من الشعر. كانت مشيته وقوراً، وبدا صارم اللباس ببذلة سوداء، وفي يده ملف كبير قرمزي. توقف عند منتصف الطاولة وواجه الجمهور وحياه منحنياً. كان يُرى وجهه المنتفخ وشريط عرض بالأحمر والأزرق والأبيض متصالب يحمل ميدالية مذهبة تتدلى إلى معدته، تأرجحت عدة مرات فوق المنبر أثناء انحنائه.

فجأة بدأ أحد الصبيان الصغار المصطفين أمام المنصة إلقاء خطاب بصوت مرتفع. كان يقول إن الربيع هناك، وإن الآباء والأمهات كانوا فرحين وإن كل الأرض فرحة. تابع برهة بالروح نفسها، ثم قاطعته إحدى البنات الصغيرات لتقول أشياء مماثلة لم يكن معناها واضحاً تماماً، إلا أن الكلمات نفسها كانت تتردد: الأم، الأب والربيع، أيضاً، وكلمة ورد أحياناً. وبعد ذلك، قاطعها صبي صغير آخر، بدوره، وقاطعته، هو نفسه، بنت صغيرة أخرى. من المستحيل أن يقال إنهم كانوا يتخاصمون لأنهم كلهم يؤكدون الشيء نفسه تقريباً. فقد صرح أحد الصبيان الصغار، مثلاً، بأن الطفل هو السلام. وبالمقابل قالت البنت الصغيرة التي تلته إن الطفل زهرة. وفضلاً عن ذلك، تم الإجماع على هذه الفكرة الأخيرة التي استعادتها جوقة الأطفال، مجتمعة، ممدودة الأذرع، وفي طرف كل ذراع باقة. وبما أنهم كانوا ثمانية وهو بالضبط، عدد النساء الجالسات في نصف دائرة، فقد تلقت كل منهن باقة. وعاد الأطفال للإقتراب من المنصة وسكتوا بعد ذلك.

وبالمقابل، فتح الرجل الواقف على المنصة ملفه الكبير القرمزي وبدأ يقرأ بصوت مرتفع. تحدث هو أيضاً عن الربيع والزهور والآباء والأمهات، وتحدث أيضاً عن الحب الذي كان في

رأيه يحمل ثماراً. ولكن مفرداته سرعان مابدأت تحولاً، فلم يعد يذكر كلمتي «بابا» و«ماما»، بل يذكر الآباء والأمهات. عدّد ماكانت تقدمه لهم (للآباء والأمهات) الدولة ملحّاً على أنه يجب عليهم بالمقابل، ولمصلحة الدولة، أن يربوا أطفالهم كمواطنين نموذجيين. وصرح بعد ذلك بأن كل الآباء والأمهات الموجودين هنا سيمهَرون التزامهم بذلك بالتوقيع، وأشار إلى طرف الطاولة حيث كان يوجد دفتر ضخم مجلد.

في هذه اللحظة، جاءت السيدة ذات اللباس البني للوقوف وراء الأم الجالسة في طرف نصف الدائرة ولمست كتفها، فالتفتت الأم وأخذت السيدة رضيعها من بين أيديها. ثم نهضت الأم ومضت نحو الطاولة. فتح الرجل ذو الشريط الدفتر ومد ريشة إلى الأم. وقّعت وعادت إلى مكانها، وأعادت السيدة ذات اللباس البني الطفل. وذهب الأب للتوقيع بدوره. ثم أخذت السيدة ذات اللباس البني طفل الأم التالية التي توجهت إلى المنصة، ووقع بعدها زوجها، وبعده أم أخرى فزوج آخر، وهكذا دواليك حتى النهاية. ثم صدرت عن الهارمونيوم سلسلة جديدة من الأنغام، في حين كان جيراني يتعجلون للذهاب لمصافحة الأمهات والآباء. كنت أتابع الحركة (كما لو كنت، أنا نفسي، أريد المصافحة) حين سمعت فجأة أحدهم يناديني باسمي: كان الرجل ذو الشريط من يسألني عما إذا كنت قد عرفته.

لم أتعرف عليه، بالتأكيد، على الرغم من أني لاحظته طيلة خطابه. وكي لاأعطي إجابة سلبية عن هذا السؤال المربك قليلاً، سألته عن حاله. قال إنه لايأس به، وعرفته: كان كوفاليك، أحد رفاقي في الثانوية. لم أتذكر ملامحه إلا الآن، كما لو كان شيء من السمنة قد طمسها. وفضلاً عن ذلك، فقد بدا كوفاليك دائماً، بين زملائي، في الوسط تماماً. لم يكن طيباً ولاوغداً، لا اجتماعياً ولا منعزلاً، ودراساته تسير بصورة متوسطة. كانت قمة جبينه تزدان،

في ذلك الوقت، بخصلة شعر غير موجود اليوم ـ فقد كان لي، إذن، بعض الأعذار في عدم تعرفي عليه فوراً.

سألني عما كنت أفعله هناك، عما إذا كان لي قريبات بين الأمهات. قلت له بأن لا قريبات لي واني لم آت إلا بداعي الفضول. أخذ، مبتسماً من السرور، يوضح لي أن اللجنة الوطنية للمدينة كانت قد بذلت الحد الأعلى من الجهود من أجل إنجاز محترم، حقاً، للاحتفالات المدنية وأضاف، بفخر خجول، إنه، وهو المسؤول عن الشؤون المدنية، كان صاحب فضل في هذا الصدد، بل إنه تلقى ثناءات من رؤسائه. سألته عما إذا كان ماحدث معمودية. قال لي إنه لم يكن معمودية بل ترحيباً بالمولودين الجدد في الحياة. بدا مسروراً، بشكل ظاهر، لأنه كان يستطيع أن يتحدث. كانت مؤسستان كبيرتان تتواجهان في رأيه: الكنيسة الكاثوليكية بطقوسها وتقاليدها الألفية، وفي مقابلها مؤسسات مدنية يجب أن تحل احتفاليتها الفتية محل هذه الطقوس التي تعود إلى ماضٍ سحيق. قال إن الناس لن يعدلوا عن الاحتفال بالمعموديات والزيجات في الكنيسة إلا عندما تكون لاحتفالاتنا المدنية هذا القدر من العظمة والجمال المساوي للاحتفالات الدينية.

قلت إن الأمر، حسب الظواهر، لم يكن سهلاً إلى هذا الحد. وافق على ذلك وقال إنه سعيد لكونهم، هم أنفسهم، المسؤولين عن الشؤون المدنية يجدون أخيراً بعض الدعم من جانب فنانينا الذين كانوا قد فهموا (كما هو مأمول به) بأنه لشرف عظيم أن يعطوا شعبنا جنازات وزيجات ومعموديات (زلة لسان استدركها بحيوية قائلاً: الترحيبات بالمواطنين الجدد) اشتراكية حقاً. أما بالنسبة للأشعار التي كان الرواد الصغار قد أنشدوها اليوم، فهي كما أضاف جميلة جداً. وافقته على ذلك وسألته عما إذا لم يكن من الأنجع تجنب أي احتفال كان لإبطال تعوّد الناس على الاحتفالات الكنسية.

قال إن الناس لن يدعوا أنفسهم قط يُحرمون من زيجاتهم أو

جنازاتهم، فضلاً عن أن عدم استخدام مثل هذه الاحتفالات لتقريب الناس من أيديولوجيتنا ودولتنا سيكون خسارة من وجهة نظرنا نحن (وضغط على كلمة «نحن» كما لو كان ذلك ليفهمني أنه، هو أيضاً، قد دخل الحزب الشيوعي).

سألت رفيق صفي القديم كيف كان يتصرف مع الممتنعين إذا افترضنا وجود بعض منهم. قال لي إن هؤلاء الناس كانوا موجودين بطبيعة الحال، إذ ليس كل الناس قد تمثلوا العقلية الجديدة، ولكنهم إذا امتنعوا، فإنه توجه إليهم الدعوة بعد الدعوة بحيث ينتهي الجميع إلى المجيء على كل حال. سألته عما إذا كان حضور هذا النوع من الاحتفالات إجبارياً، فقال لي مبتسماً، بأن الأمر ليس كذلك، ولكن اللجنة الوطنية تبني عليه حكمها بشأن مستوى وعي المواطنين، وبشأن موقفهم من الدولة أيضاً. وبما أن كل واحد يفهم في نهاية الأمر ذلك، فإنه يجيء.

قلت لكوفاليك إن اللجنة الوطنية تعامل رعاياها بصورة أقسى من تلك التي تبديها الكنيسة للمؤمنين بها. ابتسم كوفاليك وقال لي إنه لم يكن هناك مايمكن عمله في هذا الصدد. ثم دعاني إلى قضاء برهة في مكتبه. قلت له ليس لدي للأسف وقت، لأن علي أن أنتظر أحدهم عند محطة السيارات. سألني، أيضاً، عما إذا كنت قد رأيت أحد «الفتيان» (كان يعني: رفاق المدرسة) فأجبته بالنفي وقلت إن لقاءه قد أسعدني ولن أقصر، عندما سيكون عندي ابن أعمّده، عن القدوم إلى هنا والتوجه إليه. ضرب على كتفي مقهقهاً وتصافحنا ونزلت من جديد إلى الميدان وأنا أفكر في أنه مازال أمامي خمس عشرة دقيقة قبل وصول السيارة.

لم تكن الدقائق الخمس عشرة طويلة. وبعد أن اجتزت الميدان، مررت من جديد بجوار صالون الحلاقة، وألقيت عليه نظرة جديدة من خلال الزجاج (على الرغم من علمي بأن لوسي غائبة وأنها لن تكون هنا إلا بعد الظهر). ثم همت على وجهي قرب المحطة وأخذت أتخيل هيلينا: وجهها تحت خلفية صبغة باهتة، شعرها الأصهب

الذي أُزيل لونه بداهة، قامتها التي لم تكن هيفاء ولكنها تحتفظ، مع ذلك، بالنسبة الأولية من الأبعاد التي تسمح بإدراك امرأة كامرأة. كنت أتخيل كل ماكان يضعها على الحدود المثيرة بين التنفير والجاذبية: صوتها الذي كان خشناً أكثر منه لطيفاً، وتمثيلها المبالغ فيه الذي ينم، على الرغم منها، عن طموح إلى أن يكون مايزال في وسعها أن تروق لرجل.

لم أر هيلينا سوى ثلاث مرات في حياتي، أي أقل بكثير من أن تحتفظ ذاكرتي بصورة مضبوطة عنها. وفي كل مرة كنت أحاول فيها تذكرها، كانت سمة من هذه الصورة تبدو بارزة إلى حد أن هيلينا تتحول معه، بالنسبة إلي إلى كاريكاتور دائماً. ومع ذلك، ومهما كان تخيلي غير دقيق، فإني أعتقد أنه يُلتقط في هيلينا، بسبب هذه التشوهات على وجه الدقة، شيئاً أساسياً كان يختفي تحت مظهرها.

ماكنت، هذه المرة، عاجزاً عن التخلص منه هو، خاصةً، وهْنُ هيلينا الجسدي، رخاوتها، وهما ليسا فقط علامتين على عمرها وأمومتها، بل قبل كل شيء على نفسيتها (شبقيتها) العاجزة، على عجزها عن المقاومة (المقنع، دون جدوى، بالثقة في أقوالها)، على كونها منذورة لأن تكون فريسة جنسية. أكانت هذه الصورة تعكس حقاً جوهر هيلينا أم فقط علاقتها بي؟ من يعلم. ستصل السيارة بين ثانية وأخرى، وكنت أريد أن تظهر هيلينا كما فصّلها خيالي. اختبأتُ تحت بوابة أحد أبنية الميدان التي تحاصر المحطة لأني كنت أريد أن أنظر إليها برهة صغيرة، أن أراها تحملق حولها عاجزة، تحاصرها فكرة كونها قد قامت برحلة عقيمة وأنها لن تراني هنا.

وقفت سيارة وسط المحطة، وكانت هيلينا من أوائل الذين نزلوا منها. كانت ترتدي معطفاً أزرق واقياً من المطر (مرفوع الياقة حُزمت القامة فيه جيداً بحزامٍ يعطيها هيئة فتية ورياضية). التفتتْ إلى الجانبين، ودون أن تبقىَ حائرة، دارت على عقبيها واتجهت، دون تردد، نحو فندقي الذي حجزت لها فيه غرفة.

ومرة أخرى، اختبرت ما إذا كان الخيال قد عرض عليّ صورة مشوهة لهيلينا. ولحسن الحظ، فإن هيلينا الواقعية كانت تبدو دائماً أجمل من هيلينا خيالاتي كما تبين لي، مرة أخرى، وأنا أراها من ظهرها، تسلك على كعبيها العاليين طريق الفندق. وتبعتها.

وصلت إلى قاعة الاستقبال، وانحنت على المكتب حيث كان البواب اللامبالي يسجلها في سجله. كانت تتهجى له اسمها: «زيمانيك، زي.. مانيك». كنت وراءها أصغي إليها. وعندما وضع البواب قلمه سألته: «هل نزل الرفيق جان هنا؟» تقدمتُ، ومن وراء وضعت يدي على كتفها.

2

ماكان بيني وبين هيلينا جاء نتيجة لحساب دقيق. وما من أدنى شك في أن غرضاً ما داعب مخيلة هيلينا، أيضاً، اعتباراً من موعدنا الأول، ولكن الاحتمال ضعيف في أن تكون نواياها قد مضت إلى ماوراء رغبة مبهمة ما لامرأة تريد المحافظة على عفويتها، على شِعرها العاطفي، وبالتالي غير مشغولة بتنظيم مجرى الأحداث والسيطرة عليها سلفاً. أما أنا فقد تصرفت بالمقابل، منذ البداية، كمؤلف المغامرة التي سأعيشها ومخرجها معاً، ولم أدع لنزوة الإلهام اختيار أقوالي ولا اختيار الغرفة التي كنت أريد أن أبقى فيها وحيداً معها. كنت أتخوف من أي تهديد بتفويت الفرصة المتوافرة التي كنت أحرص عليها حرصاً عظيماً، لا لأن هيلينا كانت فتية أو لطيفة أو جميلة على نحو خاص، بل لسبب وحيد وفريد هو الاسم الذي كانت تحمله، لأن زوجها كان الرجل الذي أكرهه.

عندما أعلموني، ذات يوم في المؤسسة، بزيارة الرفيقة زيمانيك العاملة في الإذاعة وبأنه يقع على عاتقي أن أزودها بوثائق حول موضوع أبحاثنا، تذكرت حقاً، على الفور، رفيق دراستي القديم، ولكن تماثل الاسم بدا لي مجرد مصادفة، وإذا كانت فكرة استقبال هذه المرأة قد ضايقتني، فذلك لأسباب من طبيعة أخرى.

لم أكن أحب الصحفيين. فهم في أغلب الأحيان سطحيون، متحذلقون وثقلاء إلى حد لانظير له. وكان مثول هيلينا باسم الإذاعة، وليس باسم صحيفة، يزيدني بروداً. ذلك أنه يمكن أن يكون للصحف، في رأيي، ظرف مخفف قوي: فهي ليست صاخبة، وتفاهتها يمكن أن تبقى صامتة. إنها لاتفرض نفسها ويمكن الإلقاء بها في سلة المهملات. أما الإذاعة، وهي تافهة بدورها، فليس لها هذا الظرف المخفف: فهي تطاردنا في المقهى، في المطعم، بل خلال

زياراتنا لأشخاص أصبحوا لايستطيعون العيش دون غِذاء الآذان المستمر.

نفرني لدى هيلينا حتى طريقتها في الكلام. فهمت فوراً أن آراءها حول مؤسستنا وأبحاثنا كانت جاهزة بحيث لم يعد الأمر يدور الآن إلا حول استلالها مني بعض الأمثلة المشخصة المكرسة لتجسيد الكليشات المعتادة. فعلت مافي إمكاني لأعقّد عليها مهمتها، مستخدماً لغة صعبة يستحيل فهمها ومجتهداً في قلب آرائها التي سبق تصورها. وعندما هدد الخطر بكونها ستفهم شروحي، على الرغم من كل شيء، حاولت أن أُفلت منها بالانتقال إلى الشؤون الحميمة. قلت لها إن لون شعرها كان يليق بها جداً (كنت أعتقد العكس تماماً)، وسألتها عن عملها في الإذاعة، عن قراءاتها المفضلة. وفي تفكير صامت، تحت محادثتنا بكثير، توصلت إلى فكرة مفادها أن تشابه الأسماء لم يكن بالضرورة من قبيل المصادفة. فقد بدا لي أن لهذه الصحافية المتحذلقة، الكثيرة الحركة، الانتهازية، صلة أسرية بالشخص الذي كنت قد عرفته متحذلقاً، كثير الحركة، انتهازياً مثلها. ولذلك استعلمت عن زوجها مستخدماً لهجة مغازلة خفيفة. كان الأثر الذي اتبعته صحيحاً، فقد كشف سؤالان أو ثلاثة عن هوية باڤيل زيمانيك بشكل مؤكد. ويجب أن أقول إني لم أفكر، في تلك اللحظة، بالتقرب منها بالصورة التي جرت فيما بعد. وعلى العكس من ذلك، فإن الكراهية التي كنت قد أحسست بها حيالها منذ دخولها، قد زادت بعد اكتشافي. بحثت فوراً عن عذر يسمح لي بقطع الحديث مع الصحافية المتطفلة بتحويلها إلى زميل. بل فكرت في الغبطة التي سأشعر بها لوطردت هذه المرأة ذات الابتسامة الدائمة، وأسفت لكون ذلك مستحيلاً.

ولكن هيلينا أبدت، في اللحظة التي بلغ فيها تعبي منتهاه، وكصدى للهجة الحميمة لأسئلتي وملاحظاتي (التي لم يكن يمكن لوظيفتها الاستقصائية الخالصة أن تنكشف لها)، بعض الحركات التي كانت من الطبيعية في أنثويتها، بحيث اتخذت ضغينتي فجأة

لوناً جديداً: فقد ميّزتُ، تحت تصنعات هيلينا المهنية، امرأة قابلة لأن تعمل كامرأة. وفي قهقهة داخلية أقنعت نفسي، في البدء، بأن زيمانيك استحق حقاً مثل هذه القرينة، التي هي بالتأكيد عقوبة كافية، ولكني استدركت فوراً تقريباً: فهذا التقويم المزدري كان مفرط الذاتية، بل مقصوداً. فهذه المرأة كانت، دون شك، جميلة تماماً، ولاشيء يسمح بالاعتقاد بأن باڤيل زيمانيك لم يعد يستعملها طواعية كامرأة؛ وتابعت العبث بصورة ودية، دون أن أكشف عما كنت أفكر فيه. كان مالاأدري يدفعني إلى أن ألاحق، حتى أبعد حد ممكن، اكتشافي للملامح الأنثوية للصحافية الجالسة أمامي، وحددث هذه الملاحقة مجرى محادثتنا.

إن توسط امرأة يمكنه أن يبثَّ في الكراهية بعض الجوانب المميزة للتعاطف، كالفضول والاهتمام الجسدي والرغبة في اجتياز عتبة الحميمية. وصلت إلى نوع من النشوة: تصورت زيمانيك، هيلينا، عالمهما (العالم الذي كان بالغ الغربة عني)، وبنوع من اللذة الفريدة كنت أداعب حقدي (حقد ودود، فيه حنان تقريباً) على مظهر هيلينا، حقد على شعرها الأصهب، على عينيها الزرقاوين، على أهدابها المقصوصة القصيرة، حقد على وجهها المستدير، على منخريها الشهوانيين، حقد على الفاصل الخفيف بين قواطعها، حقد على امتلاء جسدها الناضج. كنت ألاحظها كما نلاحظ النساء اللواتي نحبهن، وكنت أسجل كل تفصيل فيها كما لو أن ذلك لتركيبها في ذاكرتي. ومن أجل أن أخفي اهتمامي الحقود، كنت أختار كلمات متزايدة الخفة، متزايدة اللطف، بحيث أصبحت هيلينا متزايدة الأنثوية. لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في أن فمها وثدييها وعينيها وشعرها كانت ملك زيمانيك. وأمسك بكل هذا في ذهني، أجسه، أروزه، أحاول أن أحدد ما إذا كان سيمكن أن أطحنه بين راحتي أو أن أسحقه على جدار ثم كنت ألاحظ كل هذا، مرة أخرى، بانتباه وأحاول أن أراه بعيني زيمانيك، وبعيني من جديد.

ربما راودتني الفكرة غير ممكنة التنفيذ والأفلاطونية تماماً بأني قد أستطيع مطاردة هذه المرأة من حيز محادثتنا المغناجة الضيق، حتى السرير. ولكن تلك كانت من الأفكار التي تهاجم الذهن ثم تنطفئ. صرحتْ هيلينا بأنها تشكرني على معلوماتي الثمينة وأنها ستلوم نفسها لو احتجزتني أكثر من ذلك. أستأذن كل منا من الآخر وكنت مسروراً لرحيلها. كانت النشوة الطريفة قد هبطت. لم أعد أحس حيال هذه المرأة إلا بنفوري السالف، وكنت أجد من المؤسف أن أكون قد أبديت لها علامات اهتمام ومودة في هذه المباشرة (حتى ولو أنها متكلفة).

وكان يمكن للأمور، دون شك، أن تبقى عند هذا الحد لو لم تهتف هيلينا بعد بضعة أيام، لتطلب مني موعداً. من الممكن أن تكون قد أحست حقاً بالحاجة إلى إطلاعي على نص برنامجها، ومع ذلك حصل لدي فوراً الانطباع بأن ذلك ذريعة، وأن اللهجة التي تحدثني بها كانت تتخذ جانب لقائنا الأخير الخفيف الأنيس أكثر من جانبها الجدي والمهني. تبنيت هذه اللهجة بسرعة ودون تفكير، ولم أعد أغيّرها. التقينا في مقهى، وبقيت بشكل ظاهر غير مبال بكل ماكان يتصل بالورقة. أهملت دون تردد، ما يعنيها كصحافية. كان موقفي يحيرها، ولكني تبينت في الوقت نفسه، أني بدأت أسيطر عليها. اقترحت عليها نزهة خارج براغ. احتجتْ وذكرتني بأنها متزوجة. لم يكن شيء يسعدني مثل هذه الطريقة في المقاومة. توقفت عند اعتراضها العزيز عليّ. كان يسليني، كنت أعود إليه وأمزح بصدده. وكانت في النهاية سعيدة كل السعادة لتمكنها من الهرب من هذا الموضوع بقبول الدعوة. وبعد ذلك، سار الأمر نقطة نقطة حسب خطتي. كنت قد حلمت بذلك بقوة خمس عشرة سنة من الحقد، وكنت أحس بالتأكد غير المفهوم من أنه سينجح ويتحقق.

نعم، كانت الخطة تتحقق جيداً. أخذت حقيبة هيلينا الصغيرة من قرب مكتب الاستقبال، وصعدت مصطحباً إياها إلى غرفتها التي

كانت في قبح غرفتي. وأرغمت هيلينا على التسليم بذلك على الرغم من ميلها المضحك إلى وصف الأشياء بأحسن مما هي عليه في الواقع. قلت لها أن لاتتأبه لهذا واننا سنعرف كيف نتدبر أمورنا. رمقتني بنظرة مثقلة بالدلالة. ثم قالت إنها تريد أن تصلح من شأنها قليلاً، فأجبت بأن تلك فكرة طيبة وأني سأنتظرها في ردهة الفندق.

عندما نزلت (وكانت ترتدي، تحت معطفها المفكوك الأزرار، تنورة سوداء وكنزة وردية)، استطعت أن أقتنع من جديد بأناقتها. قلت لها إننا سنذهب لتناول الغداء في مطعم متواضع، ولكنه الأفضل في هذا الموقع. فردّت بأنها تسلمني أمرها وتطيعني في كل شيء لأني ولدت هنا. (كان يبدو عليها اختيار مفردات ذات معنى مزدوج قليلاً. وكان هذا الاجتهاد مضحكاً بقدر ماكان مفرحاً). عاودنا اجتياز طريقي الصباحي لدى بحثي العقيم عن إفطار جيد. وعلى عدة كرّات، أعادت هيلينا تأكيد فرحها بالتعرف إلى مسقط رأسي. ولكنها لم تكن، على الرغم من وجودها، في هذه المدينة لأول مرة، تنظر حولها، ولم تكن تهتم بما يضمه هذا البناء أو ذاك كما ينبغي لزائر مدينة مجهولة أن يفعل. تساءلتُ عما إذا كانت هذه اللامبالاة تعود إلى تصلب ما في الروح لم يعد يعرف كيف يُحس بالفضول الاعتيادي أم ما عاد، بالأحرى، لدى هيلينا التي ركزتْ عليّ تركيزاً تاماً، شيء آخر في رأسها. كنت أريد أن أصدق الفرضية الثانية.

مررنا قرب النصب الباروكي. كان القديس يسند السحابة، والسحابة الملاك، والملاك سحابة أخرى، وهذه الأخيرة ملاكاً آخر. بدت زرقة السماء أكثر فجاجة مما كانت عليه هذا الصباح. خلعت هيلينا معطفها ووضعته على ذراعها وقالت إن الجو حار. كانت هذه الحرارة تقوي، أيضاً، انطباع الفراغ الأغبر المتسلط. بدا النصب واقعاً في منتصف الميدان كقطعة سماء لم تكن تستطيع العودة إليها. قلت لنفسي إننا، نحن أيضاً، أُلقي بنا في هذا الميدان غريب الصحراوية بحديقته ومطعمه المطروحين بما لاعودة عنه،

وانه عبثاً ما تتسلق أفكارنا وأقوالنا الأعالي، فإن أفعالنا كانت منحطة كالأرض نفسها.

نعم، حاصرني الشعور بدناءتي بقوة. فاجأني ذلك، ولكن مفاجأتي كانت أكبر، أيضاً، لكوني لم أشمئز من ذلك ولقبولي هذه الدناءة بسرور، بل بفرح وراحة، بسرور زاد فيه تأكدي من أن المرأة التي تسير إلى جانبي كانت تدع نفسها تقاد نحو ساعات بعض الظهر المريبة بدوافع ليست على ما يبدو أرفع من دوافعي.

كان المطعم قد فتح أبوابه، ولكن قاعة الطعام فارغة. لم تكن الساعة قد بلغت سوى الثانية عشرة إلا الربع. كانت الموائد موضوعة. وأمام كل كرسي، هناك صحن حساء مغطى بمنشفة من ورق تصالبت عليها ملعقة وشوكة وسكين. لم يكن هناك أحد. جلسنا إلى مائدة، وأخذنا الملعقة والشوكة والسكين والمنشفة وصففناها على جانبي الصحن، وانتظرنا. بعد بضع دقائق ظهر نادل عند باب المطبخ، وحامت عينه التعبة برهة حول القاعة، وكان يستعد للذهاب من جديد.

ناديته: «أيها النادل!».

دار على عقبيه وخطا بضع خطوات في اتجاه طاولتنا. قال، وقد وصل إلى مسافة تتراوح بين خمسة وستة أمتار بعيداً عنا: «أتريدون شيئاً؟». قلت: «نريد أن نأكل». رد قائلاً: «اعتباراً من الظهر فقط!» ومضى، دائراً على عقبيه مرة أخرى، نحو ملجئه. ناديت من جديد: «أيها النادل!». التفت نحونا. كان علي أن أصرخ بسبب المسافة: «من فضلك! هل لديكم فودكا؟ ــ كلا لاتوجد فودكا! ــ ماذا تستطيع أن تقدم إلينا إذن؟ ــ أجاب من بعيد: خمر العرعر. صرخت: إنه رديء إلى درجة كافية، هات أخيراً كأسين من هذا الخمر!».

قلت متوجهاً إلى هيلينا: لم أسألك فيما إذا كنت تشربين من خمر العرعر!

أخذت تضحك وقالت: «كلا! ليس هذا من عاداتي!.

قلت: لابأس! ستتعودين عليه. أنت في مورافيا، والعرعر هو كحول الشعب المورافي.

قالت هيلينا وهي فرحة تماماً: فليكن! لاشيء بالنسبة لي يساوي مطعماً بسيطاً كهذا، مكان لقاء السائقين والخراطين حيث تؤكل وتشرب أشياء عادية تماماً!

ـ ربما كنت معتادة على افراغ كأس من الروم في كوب الجعة؟

قالت هيلينا: ليس على وجه الدقة على كل حال.

ـ لكنك تحبين البيئة الشعبية.

قالت: هذا صحيح. أنا أكره المطاعم الأنيقة، أكره هذه الطغمة من اللصوص بأطباقها التي تُصنع بالجملة.

ـ أوافقك على ذلك تماماً، فلا شيء يعادل حانة يجهلك فيها الخادم، مكان مدخن رديء الرائحة! ولايوجد، خاصة، ماهو أفضل من العرعر. لم أكن أشرب غيره عندما كنت طالباً.

ـ وأنا أيضاً أحب أبسط الأطعمة، فلنقل فطيرة بطاطا أو مقانق مع البصل، لاأعرف ماهو أفضل...».

لقد تأصل لدي عدم التصديق، إلى حد أنه حين يفضي إليّ امرؤ بما يجب أو لايجب، لم أكن أحمل كل هذا على محمل الجد أو لم أكن، بصورة أكثر دقّة، أرى فيه سوى مجرد شهادة على الصورة التي يريد إعطاءها عن نفسه. لم أكن قد صدقت لحظة أن هيلينا كانت تتنفس في حانات حقيرة ذات جو محصور بصورة أفضل منها في قاعات المطاعم النظيفة والمهواة بشكل مناسب، أو أنها تفضل كحولاً مبتذلاً على الخمور الجيدة، ولايمنع ذلك من كون تصريحها غير مجرد من القيمة في نظري، إذ يكشف عن شيء من التكلف الذي انقضى زيه منذ زمن طويل، والذي كان مزدهراً في السنوات الثورية، حين كان الناس يتهجون أمام عمل ما كان «عادياً»،

«شعبياً» «بسيطاً» «ريفياً» ويبدون قاطعين في الخفض من قيمة كل شكل من أشكال «التهذيب»، و«الأناقة». كنت أتعرف في هذا التصنع على عهد شبابي، وفي هيلينا على امرأة زيمانيك قبل كل شيء. كان كسلي الذاهل لهذا الصباح يتلاشى بسرعة، وبدأت أركز.

عاد النادل إلى الظهور بطبق صغير يحمل كأسين من العرعر. وضعهما على الطولة مع ورقة مطبوعة على الآلة الكاتبة كانت تُقرأ عليها (بصعوبة، فهي النسخة المليون) قائمة الطعام.

رفعت كأسي قائلاً: «هيا! فلنشرب نخبنا من هذا العرعر، من هذا المشروب الشعبي!».

ضحكت وقرعت كأسي مصرحةً حول ذلك: «حننت دائماً إلى كائن بسيط ومستقيم غير معقد وصافٍ».

شربنا جرعة وقلت: «مثل هؤلاء الأشخاص نادرون.

قالت: نصادف بعضهم. أنت منهم.

قلت: أتظنين ذلك؟

– بلى، بلى».

عادت الدهشة تتملكني أمام هذه القدرة الإنسانية التي لاتصدق على إعادة قولبة الواقع على صورة المثل الأعلى، ولكني لم أتردد وصادقت على تفسير هيلينا لشخصي.

قلت: «من يعلم؟ ربما كنت مستقيماً وصافياً، ولكن مامعنى ذلك؟ كل مايهم هو أن يكون المرء كما هو، ألّا يحمر خجلاً من كونه يريد مايريد، يرغب فيما يرغب فيه. الناس عبيد المعايير. قال أحدهم يوماً، إنه ينبغي للمرء أن يكون مثل هذا أو ذاك، وعند ذلك اجتهدوا في أن يكونوه، ولن يعرفوا قط ماكانوا ولاماهم عليه، وبالتالي فهم ليسوا أحداً. يجب على المرء، فوق كل شيء، أن يجرؤ ليكون هو نفسه. إني أعلن لكِ ذلك ياهيلينا، فقد رقتِ لي منذ البداية،

وأنا أشتهيك على الرغم من كونك متزوجة. لاأستطيع أن أقول الأمر بغير هذه الصورة ولا أن لاأقوله».

بدا ماقلته مربكاً، ولكنه ضروري. إنَّ لمعالجة الفكر الأنثوي قواعده الثابتة. فالرجل الذي يضع في ذهنه إقناع امرأة، بأنْ يدحض وجهة نظرها بمبررات جيدة لاتتوافر له فرصة النجاح. والأحكم من ذلك بكثير هو أن يكتشف الصورة التي تود إعطاءها عن نفسها (مبادئها، مثلها العليا، قناعاتها) ويحاول أن يقيم (عن طريق سفسطات) علاقة متناغمة بين الصورة المذكورة والسلوك الذي يرغب في أن يراها تسلكه. فعلى سبيل المثال، كانت هيلينا تستهلك ذاتها في أحلام «البساطة» و«الطبيعية» و«الصفاء»، وكانت هذه المثل العليا واردة من الطهرانية الثورية القديمة، وتتحد بفكرة الإنسان «النقي» الذي هو «دون لطخة»، الحازم والصارم أخلاقياً. ولكن، بما أن عالم مبادئ هيلينا لم يكن يقوم على تفكير، بل (كما هي حال معظم الناس) على بعض المقتضيات التي لاصلة منطقية بينها، فلم يكن هناك ماهو أسهل من ربط صورة «شخص صافٍ» بسلوك لاأخلاقي تماماً، وبالتالي الحؤول دون دخول السلوك الذي ترغبه هيلينا (الزنى) في نزاعٍ رَضيّ مع مُثُلها العليا. للرجل الحق في أن يطلب أي شيء من امرأة، لكن يجب عليه، إذا أراد ألّايتصرف كوحش، أن يعمل بحيث تستطيع التصرف في تناغم مع أعمق أوهامها.

في هذه الأثناء، وصل زبائن، واحد بعد الآخر، وسرعان ما احتلوا معظم الطاولات. كان النادل الذي عاد إلى الظهور يدور بينهم ويسأل عما سيقدمه. مررت قائمة الطعام إلى هيلينا فأعادتها إلي قائلة إني أعرف المطبخ المورافي أكثر منها.

وبالتأكيد، لم تكن هناك جدوى من معرفة المطبخ المورافي على اعتبار أن القائمة لم تكن تختلف، في كلمة واحدة، عنها في كل المطاعم الأخرى من هذه الفئة وتقوم على تعداد مختصر لبضعة أطباق شائعة لاتعرف أيها تختار. تأملت (بكآبة) القائمة ولكن النادل

الذي فرغ صبره، من قبل، كان هنا منتظراً الطلب. طلبت منه أن ينتظر لحظة.

قال منحياً عليّ باللائمة: «منذ ربع ساعة كنتما تريدان تناول طعام الغداء، وأنتما لم تختارا بعد». ودار على عقبيه.

لحسن الحظ، سرعان ماعاد وسمح لنا بطلب طبقين من اللحم المفروم ومزيد من العرعر والصودا.

صرحت هيلينا (وهي تمضغ اللحم) بأنه كان رائعاً (إنها مولعة باستخدام هذا النعت) أن نجد أنفسنا جالسين فجأة في مدينة لم تكن تعرفها وتحلم بها دائماً عندما كانت ماتزال عضواً في فرقة فوسيك حيث غنت ألحاناً من هذه المنطقة. قالت أيضاً إن ذلك كان سيئاً، دون شك، ولكنها لم تكن تستطيع حياله شيئاً لأنها أحست بنفسها مرتاحة معي، وبأنه كان أقوى منها. أجبت بأن خجل الإنسان من عواطفه نفاق بشع. وناديت النادل لتسديد الحساب.

في الخارج، كان النصب الباروكي ينتصب تجاهنا. بدا لي مضحكاً. أشرت إليه بإصبعي: «انظري يا هيلينا إلى هؤلاء القديسين البهلوانات! انظري كيف يتسلقون! ذلك أنهم يرغبون في الصعود إلى السماء! والسماء لاتبالي بهم! السماء لاتعلم حتى بوجود أصحاب المؤخرات الغبراء هؤلاء!

قالت هيلينا التي كان الهواء يضاعف عمل الكحول فيها، موافقة: هذه هي الحقيقة! ماذا تفعل هنا تماثيل القديسين هذه؟ لماذا لاتبنى مكانها شيء يمجد الحياة لا الدين؟». يجب، على كل حال، أن يكون قد بقيت لديها بقية من تمالك النفس على اعتبار أنها أضافت-قائلة: «هل أهذي؟ قل إني لاأهذي!

ـ كلا، أنت لاتهذين يا هيلينا. أنت على حق تماماً. فالحياة جميلة ولن نحتفل بها قط إلى حد كاف.

قالت: نعم، الناس يستطيعون أن يقولوا مايشاؤون، فالحياة رائعة ثم إني أشمئز من هؤلاء، من أنبياء المصائب لأني لو كنت

أريد أن أرثي لنفسي، فسوف تكون لدي أسباب أكثر من أي كان، إلا أني أحاذر ذلك جيداً. لماذا الشكوى؟ اعترف بذلك، لماذا الشكوى عندما يمكن أن يحل عليك يوم كهذا اليوم؟ هذا رائع جداً: مدينة لم آت إليها قط، وأنا معك...».

تابعت هيلينا وسرعان ما أصبحنا أمام واجهة جديدة.

قالت هيلينا: «أين نحن؟

قلت لها: اسمعيني! هذه الحانات مضجرة. أنا أقترح عليك حانة خاصة لي في هذا البيت. هيا تعالي!

احتجت هيلينا وهي تتبعني إلى مدخل البناية: أين تقودني؟

ـ إلى الحانة الخاصة ذات الأسلوب الموريسكي. ألا تعرفين؟

قالت هيلينا: كلا».

وفي الطابق الثالث، فتحتُ بالمفتاح ودخلنا.

3

لم تتوقف هيلينا عند كوني أقتادها إلى شقة مستعارة، ولم تكن في حاجة إلى تعليق. وعلى العكس من ذلك، كانت على مايبدو، مصممة، منذ أن اجتازت العتبة، على الانتقال فوراً، من لعبة الغنج المبهمة إلى هذا السلوك الذي لم يعد له سوى معنى واحد. توقفت وسط الغرفة، نصف ملتفتة نحوي، ودلتني نظرتها على أنها لم تعد تنتظر سوى اقترابي، قبلتي، عناقي. في هذه اللحظة، على وجه الدقة، كانت هي هيلينا أحلامي: منزوعة السلاح وتحت رحمتي.

مضيت إليها. رفعت وجهها نحوي، وبدلاً من القبلة (التي طالما انتظرتها)، ابتسمت وأخذت بين أصابعي، كتفي معطفها. فهمت وفكت أزراره. أخذتهُ إلى المدخل وعلقته فوق المشجب. كلا، لن أتسرع الآن، وقد كان كل شيء جاهزاً (شهيتي واستسلامها)، وأغامر باحتمال أن أفوّت، في العجلة، عنصراً من كل ماكنت أريد تملّكه. أخذت أثرثر حول أي شيء. دعوتها إلى الجلوس وأريتها كل أنواع التفاصيل المنزلية. فتحت خزانة الفودكا التي كان كوستكا قد لفت نظري إليها بالأمس. فتحت الزجاجة ووضعتها فوق الطاولة الصغيرة مع كأسين صغيرين ملأتهما.

قالت: «سوف أسكر.

قلت: سيسكر كلانا» (قلت ذلك على الرغم من أني كنت أعرف أني لن أسكر لأني قررت أن أحافظ على ذاكرتي كاملة).

لم تنبسط أساريرها. شربت برصانة وقالت: «أنت تعلم يالودفيك أنه سيؤذيني إلى حد مخيف، أن تعدّني واحدة من هؤلاء النساء الطيبات اللواتي تملأ المغامرات أدمغتهن لأنهن ضجرات. لست ساذجة وأعلم أنك عرفت أكواماً من النساء وأنهن علّمنك أن تنظر إليهن باستخفاف. أنا سيجعلني ذلك تعيسة...

قلت: وأنا أيضاً سأكون تعساً إذا لم تكوني سوى امرأة صغيرة كالأخريات تقبل، بقلب خفيف، كل مغامرة تبعدها عن زوجها. لو كنت من هؤلاء لفقد لقاؤنا كل معناه.

ـ أهذا صحيح؟

ـ صحيح ياهيلينا. أنت على حق، عرفت كثيراً من النساء وعلمنني ألّا أخشى تبديلهن بقلب خفيف، ولكن لقاءنا نحن شيء آخر.

ـ ألا تقول ذلك، ببساطة، هكذا؟

ـ كلا! المرة الأولى التي رأيتك فيها تبينت، بسرعة، أني كنت أنتظرك أنت على وجه الدقة، منذ سنوات.

ـ لست، على كل حال، متحذلقاً. لن تقول ماقلته لو لم تكن تشعر به.

ـ هذا مؤكد، لاأعرف التظاهر بعواطفي، بل إنه الشيء الوحيد الذي لم تنجح النساء قط في تعليمي إياه، ولذلك فإني لاأكذب عليك ياهيلينا مهما بدا لك ذلك أمراً لايصدق. عندما لقيتك، تحققت من أنك أنت التي كنت أنتظرها منذ زمن طويل، وكنت أنتظرك دون أن أعرفك والآن أريدك لنفسي، وان ذلك في حتمية القدر.

قالت هيلينا خافضة جفنيها: «ياإلهي». كانت بقع احمرار تغطي وجهها، وكانت بصورة متزايدة هيلينا حلمي، منزوعة السلاح ومتروكة تحت رحمتي.

«آه، يالودفيك، لو كنت تستطيع أن تعلم! كان الأمر شبيهاً بذلك بالنسبة لي! علمت فوراً لدى رؤيتي إياك، للمرة الأولى، أن ذلك لم يكن مغازلة، وهذا بالضبط ماأخافني بما أنني متزوجة، وكنت أعلم أن كل ماكان بيننا هو الحقيقة، أنك كنت حقيقتي وأنا لم أكن أستطيع حيال ذلك شيئاً.

قلت لها: وأنت أيضاً حقيقتي ياهيلينا».

كانت وهي جالسة على الأريكة، تنظر إلي بعينين كبيرتين، في حين كنت، من الكرسي التي أواجهها منها، أراقبها بنهم. وضعت يدي على ركبتيها، ثم ببطء رفعت تنورتها حتى كشفت حافة الجرابين ورباطتيهما المطاطيتين التي كانت تذكّر، على فخذي هيلينا السمينتين فعلاً، بشيء ما لاأدري ماهو، حزين ومسكين. وظلت هيلينا هناك جامدة أمام لمستي، دون حركة أو نظرة.

«آه لو كنت تعرف كل شيء...

ـ لو كنت أعرف ماذا؟

ـ كيف أعيش؟

ـ كيف تعيشين؟»

ابتسمت بمرارة.

وفجأة خفت أن تُخرج لي ذريعة الزوجات الخائنات مفتئتة على زواجها وتجعلني أدفع الثمن في البرهة نفسها التي أصبحت فيها فريستي: «لاتقولي لي إنك تعيسة في بيتك وإن زوجك لايفهمك!

دافعت هيلينا عن نفسها، وقد اضطربت لهجومي قليلاً وقالت: لم أكن أريد أن أقول ذلك على الرغم...

ـ على الرغم من أنك كنت تفكرين فيه هذه اللحظة. إن ذلك يخطر في ذهن كل امرأة توجد وحدها مع رجل آخر، ولكن الأكذوبة تبدأ، على وجه الضبط، هنا. إلا أنك تنوين البقاء صادقة، أليس كذلك؟ لقد أحببتِ زوجك بالتأكيد، لم تكوني لتمنحي نفسك دون حب.

أقرت ذلك بعذوبة قائلة: نعم!

ـ في الحق، أي نموذج من الرجال هو زوجك؟»

هزت كتفيها وابتسمت: «رجل.

ـ أتعرفان بعضكما منذ زمن طويل؟

ـ ثلاث عشرة سنة زواج، وكنا قد عرفنا بعضنا قبلاً.

ـ أكنت ماتزالين طالبة؟

ـ نعم! في السنة الأولى».

حاولت أن تشد تنورتها، فأمسكت بيديها ومنعتها من ذلك.

تابعتُ استجوابها: «وهو؟ أين صادفته؟

ـ في تمرينات الفرقة.

ـ الفرقة؟ أكان زوجك يغني في الكورال؟

ـ نعم، مثلنا جميعاً.

ـ وهكذا تعرفتما إلى بعضكما في فرقة الغناء... إطار جميل لحب وليد.

ـ آه نعم!

ـ فضلاً عن ذلك، كل ذلك العهد كان جميلاً.

ـ أأنت أيضاً تحب تذكره؟

ـ أجمل فترة في حياتي، ولكن قولي لي، أكان زوجك حبك الأول؟».

ترددت وقالت: «لاأحب أبداً، أن أفكر فيه.

ـ هيلينا! أريد أن أعرفك. أريد بعد الآن أن أعرف كل شيء عنك. كلما زاد وضوح رؤيتي لك زاد امتلاكي لك. هل كان لك من قبله أحد؟».

أومأت برأسها: «نعم».

إن كون هيلينا كانت وهي فتية جداً لرجل، وكون أهمية اتحادها مع زيمانيك قد انخفضت لهذا السبب، أمر كان غير بعيد عن تخييب أملي: «حب حقيقي؟».

هزت رأسها قائلة: «فضول أحمق.

ـ بحيث كان حبك الأول، مع ذلك، هو زوجك.

وافقت قائلة: «نعم، ولكن ذلك قديم جداً...

ألححت قائلاً بصوت منخفض: كيف كان؟

ـ وأخيراً، لماذا تصر على معرفة ذلك؟

ـ لأني أريدك كاملة بكل ما تحت هذه الجمجمة!»، وداعبتُ شعرها.

إذا كان شيء ما يمنع امرأة من التحدث عن زوجها إلى عشيقها، فنادراً مايكون هذا الشيء النبل أو اللياقة أو الحياء الصادق، بل الخوف من مضايقة عشيقها. وعندما يبدد هذا الأخير ذلك التخوف فإن عشيقته ستكون ممتنة له، وسوف تشعر بمزيد من الراحة، ولكن هذا سيجعل لها، خاصة، ماتتحدث عنه لأن مقدار مواضيع المحادثات الممكنة ليس غير محدود. والزوج يقدم للمرأة المتزوجة الموضوع الذي تحلم به، الوحيد الذي تشعر فيه بالثقة بنفسها، الوحيد الذي تعالجه كخبيرة، وكل كائن بشري يسعد، بعد كل شيء، بالظهور خبيراً وبالتباهي بذلك. ولذلك فإن هيلينا بدأت، حين أعطيتها الضمانة بأن ذلك لم يكن يزعجني، تتحدث باسترخاء عن باڤيل زيمانيك مأخوذة بالذكرى إلى حد لم تضف معه إلى صورته أدنى لطخة سوداء. حدثتني كيف هامت به (بهذا الفتى الأشقر الذي كان يقف مستقيماً) وعن الاحترام الذي أوحى به إليها عندما أصبح مسؤولاً سياسياً عن الفرقة، وكم كانت تعجب به هي وصديقاتها (كان يحسن الكلام كثيراً)، وكيف امتزجت قصة حبهما، متناغمة، مع كل ذلك العهد الذي دافعت عنه بجملتين أو ثلاث (هل كان لدينا أدنى ريب في كون ستالين قد أعدَمَ رمياً بالرصاص، شيوعيين أوفياء؟)، وذلك بلاشك دون نية الاستطراد إلى الموضوع السياسي، بل لأنها كانت تحس بنفسها محتواة، شخصياً، في هذا الموضوع. كانت الطريقة التي تدافع بها عن عهد شبابها وتتماهى معه (كانت تتحدث كبيت أسرة مفقود) تتخذ، تقريباً، شكل مظاهرة صغيرة، كما لو أن هيلينا تريد أن تحذرني: خذني دون شروط باستثناء شرط واحد، هو أنه سوف تسمح لي بأن أكون كما أنا، أن تأخذني بقناعاتي. إن في مثل هذا الإعلان عن قناعات في ظرف

لايدور الأمر فيه حول قناعات، بل حول الجسد، شيئاً غير طبيعي يكشف عن كون القناعات تُحدث، على وجه الدقة، لدى المرأة المعنية رضّة بصورة ما: فإما أنها تخشى أن يُشتبه في انعدام أية قناعة لديها وأنها تكشف عنها بسرعة كبيرة، أو أنها (وهو ماكان في حالة هيلينا، أقرب إلى التصديق) تشك سراً في قيمتها وتضع موضع الخطر، للرفع من شأنها، من أجلها، ما يشكّل في نظرها قيمة غير مشكوك فيها: فعل الحب نفسه (ربما كانت تحس بالثقة الماكرة في كون فعل الحب أهم، في نظر العشيق، من مشادة بصدد قناعة). لم يكن هذا الأمر ليسوؤني من جانب هيلينا، لأنه كان يقرّبني من عقدة عاطفتها.

«خذ! انظر إلى هذا!». وعرضت عليّ صفيحة صغيرة ومربوطة بسوار ساعتها بسلسلة صغيرة. انحنيت لأرى، في حين راحت هيلينا تشرح لي: الصورة المنقوشة تمثل الكرملين. «إنها هدية من باڤيل»، وروت لي قصة هذه الميدالية التي قدمتها، سابقاً، فتاة روسية عاشقة إلى مواطنها ساشا الذي مضى إلى الحرب الطويلة حيث قاده الفصل الأخير منها إلى براغ التي أنقذها من الكارثة، ولكنه لقي فيها ضياعه. وكان الجيش الروسي قد أقام، آنذاك، في طابق الدارة الذي يسكنه باڤيل زيمانيك وأبواه مستوصفاً. وهناك عاش الملازم ساشا، المصاب بجرح بليغ، أيامه الأخيرة في صحبة باڤيل الذي ارتبط به. وأعطى ساشا لدى احتضاره، لباڤيل كتذكار، هذا الكرملين المصغر الذي كان قد حمله، معلقاً بخيط في عنقه، طيلة الحرب. وكان باڤيل يحتفظ بهذه الهدية كأثمن ذخيرة لديه. وفي ذات يوم، كانت هيلينا وباڤيل ـ اللذان كانا مخطوبين لبعضهما ـ متخاصمين، بل وفكرا في الهجران. عند ذلك، جاءها باڤيل ليعطيها، كعلامة على المصالحة، هذه الحلية الرخيصة (والتذكار العزيز جداً). ومنذ ذلك الحين، لم تنزع هيلينا قط هذا الشيء الصغيرة الذي كان، في نظرها، نوعاً من رسالة (سألتها عن نوع هذه الرسالة فأجابت «رسالة فرح») يجب عليها أن تحملها حتى نهاية أيامها.

ظلت جالسة أمامي، حمراء الخدين (وكانت تعيد تنورتها المرفوعة التي تكشف عن رباطي الجرابين المثبتين بسروال أسود من اللاستيكس الذي كان رائجاً)، ولكنها اختفت، في تلك البرهة، وراء صورة آخر: ففجأة، كانت قصة الميدالية المروية ثلاث مرات قد جعلت كل شخص باڤيل زيمانيك ينبثق أمامي.

لم أصدق للحظة واحدة، قصة الحارس الأحمر ساشا، بل حتى ولو وُجد، فقد كان من شأن وجوده أن يتلاشى، على كل حال، أمام تشدق البادرة التي كان باڤيل زيمانيك قد حوله بها إلى شخصية أسطورية لحياته هو، إلى تمثال مقدس، إلى أداة إثارة حنان وإلى حجة عاطفية وموضوع تُقى ستجلّه زوجته (الأكثر ثباتاً منه بكل وضوح) حتى موتها (بداعي التحمس والتحدي). كان يبدو لي أن قلب باڤيل زيمانيك (قلب استعراضي فاسد) موجود هنا حالياً، ورأيت نفسي فجأة من جديد وسط ذلك المشهد الذي يعود إلى خمس عشرة سنة: مدرج كلية العلوم الكبير، على المنصة، وعند منتصف الطاولة الكبيرة يقف زيمانيك. وإلى جانبه تجلس فتاة بدينة ممتلئة الوجه، ضُم شعرها في جديلة وارتدت كنزة بشعة، بينما جلس، في الجانب الآخر شاب، مندوب المقاطعة. ووراء المنصة مستطيل السبورة الواسع، وعلقت إلى اليسار على الجدار صورة فوسيك. وأمام المنصة، ارتفعت الدرجات التي كنت قد جلست عليها كالجميع، أنا الذي أنظر الآن بعد خمس عشرة سنة، بعيني ذلك العهد، إلى زيمانيك يعلن أنه سيجري فحص «حالة الرفيق جان»، كما أراه وهو يصرح قائلاً: «سأقرأ لكم رسالتي شيوعيين». وبعد وقفة قصيرة دعم بها هذه الأقوال، أمسك بكراس رقيق ومرر يده على شعره الطويل المتموج، وبدأ قراءته بصوت إيحائي، عذب تقريباً.

«اقتضى وصولك وقتاً أيها السيد الموت! ومع ذلك، فقد كان أملي حقاً ألّا أتعرف عليك قبل سنوات طويلة، أن أعيش أيضاً حياة رجل حر، أن أعمل كثيراً، أن أحب كثيراً وأن أغني حقاً أيضاً، أن أتجول عبر العالم...». كنت قد تعرفت على «ريبورتاج تحت

المشنقة» لفوسيك: «كنت أحب الحياة، ومن أجل جمالها ذهبت إلى الحرب. كنت أحبكم أيها البشر، وأنا سعيد عندما تبادلونني هذا الحب وأعاني عندما لم تكونوا تفهمونني». كان هذا النص الذي كُتب سراً في زنزانة سجن، وقد طبعت منه ملايين النسخ، وأذيع على موجات الأثير، ودرّس إجبارياً في المدارس، كان هذا النص كتاب العصر المقدس. كان زيمانيك يقرأ لنا أشهر المقاطع التي يعرفها أي كان عن ظهر قلب. «عسى ألّا يرتبط الحزن باسمي أبداً. هذه إرادتي الأخيرة التي أعبر عنها لكم ياأبي، ياأمي، ياشقيقتيّ، ياعزيزتي غوستينا، يارفاقي الأعزاء، أنتم جميعاً الذين كنت أحبكم...». وعلى الجدار، كانت تتدلى صورة فوسيك التي هي نسخة عن اللوحة الشهيرة لماكس سفابنسكي، هذا الرسام العجوز من «العصر الجميل»، الرسام البارع للمجازات والنساء الممتلئات والفراشات والجميلات. قيل أن الرفاق ذهبوا إليه غداة الحرب، ليرسم لهم لوحة لفوسيك عن صورة فوتوغرافية، وأن سفابنسكي رسمها (من الوجه الجانبي) بالقلم بهذه الرهافة الثابتة التي كانت تملي عليه ذوقه. ولولا قليل لوجدنا فيها تعبير فتاة مشبعة بالحميّة وأنواع التوق، شفافة وجميلة إلى حد كان معه الذين عرفوا الأصل، يفضلون هذه اللوحة على ذكراهم عن الهيئة الحية. كان زيمانيك يتابع في حين أن الجميع، في القاعة البكماء، يصغون متوترين، وفي حين كانت الفتاة البدينة على المنبر لاتغادر، بعينيها المجربتين القارئ. غيّر هذا الأخير فجأة الموضوع، وأصبحت النبرة شبه مهددة. كان الأمر يدور حول هذا الخائن ميريك: «تصوروا أنه كان رجلاً مقداماً لم يهرب أمام الرصاص حين كان يقاتل في إسبانيا، لم يخضع أمام المحنة القاسية، محنة معسكر الاعتقال في فرنسا! والآن جعلته عصا عميل من الغستابو يشحب ويخون لينقذ جلده. كم كانت هذه البسالة، التي كفَت بضع ضربات لمحوها، سطحية! كم كانت في قلة عمق قناعاته... لقد خسر كل شيء منذ اللحظة التي بدأ فيها يفكر في نفسه. من أجل أن ينقذ

حياته ضحى بالرفاق. استسلم للجبن، وخان جبناً....». على الجدار، كان وجه فوسيك الجميل يحلم كما يحلم على جدران ألوف القاعات العامة الأخرى في بلادنا. إنه من الجمال، بتعبيره المشع كصبية عاشقة، بحيث كنت وأنا أتأمله أحس بالخجل بسبب وجهي، وليس بسبب خطيئتي فقط. وراح زيمانيك ينهي قراءته: «إنهم يستطيعون أن يأخذوا حياتنا حقاً، أليس كذلك يا غوستينا؟ ولكنهم لايستطيعون سلبنا شرفنا وحبنا. آه أيها الناس الطيبون! أتستطيعون أن تتصوروا ماقد تكون عليه حياتنا لو عدنا والتقينا بعد كل هذا المحنة؟ من أجل أن نستأنف حياة حرة يجمّلها عمل خلاق؟ عندما سيتحقق ماكنا نوجه من أجله قوانا، والذي سنموت الآن من أجله؟». سكت زيمانيك بعد أن نطق العبارات الأخيرة بلهجة مؤثرة.

ثم قال: «كانت هذه رسالة شيوعي كُتبت في ظل المشنقة. والآن سأقرأ عليكم رسالة أخرى». ثم قرأ الجمل الثلاث الموجزة، المضحكة والكريهة التي جاءت في بطاقتي البريدية. ثم صَمَت، وَصَمَت معه المدرج، وعرفتُ أني ضعت. كان الصمت طويلاً، وكان زيمانيك، هذا المخرج الماهر، يحرص على عدم اختصاره. أخيراً دعاني إلى الكلام. كنت أعلم أني لم أعد أستطيع إنقاذ شيء. فإذا كان دفاعي قد لقي، عشر مرات من قبل، هذا الانطباع الضعيف، فأي أثر يمكن أن يحدثه اليوم، وقد أتى زيمانيك على تمرير جُملي الصغيرة على مقياس عذابات فوسيك المطلق؟ لم يعد عليّ سوى أن أنهض وأتكلم. أوضحت، مرة أخرى، أني كنت قد كتبت بطاقتي كمجرد دعابة وأدنت، على كل حال، الكلمات غير اللائقة وفظاظة المزحة وعدم لياقتها، وتحدثت عن فرديتي، عن تذبذبات «المثقف» لدي، عن بعدي عن الشعب، بل وكشفت عن الغرور والميول الريبية والكلبية، ولكني أقسمت أني، مع ذلك، كنت على الرغم من هذا، مخلصاً للحزب ولست عدواً له بأي حال من الأحوال. جرى النقاش الذي أعطى الرفاق فرصة دحض وجهة نظري بوصفها متناقضة.

سئلت كيف يمكن لرجل اعترف، هو نفسه، بالكلبية أن يكون مخلصاً للحزب. ذكّرتني رفيقة دراسة ببعض الأقوال الفاحشة، وأرادت أن تعرف ماإذا كنت أرى أن مثل هذه الخطابات مقبولة من فم شيوعي. وأفاض آخرون في تأملات مجردة حول الروح البورجوازية الصغيرة التي يمكن أن أظهر مثالاً مجسداً عنها. وبصورة عامة، قدّروا أن نقدي الذاتي لم يكن قد مضى إلى الأعماق لأن الصدق ينقصه. بعد ذلك، استجوبتني الفتاة البدينة الجالسة إلى جانب زيمانيك، وراء المنبر: «ماذا كان يمكن، في رأيك، للرفاق الذين عذبهم الغستابو ولم يبقوا أحياء أن يروا في أقوالك؟» (تذكرت أبي وانتبهت إلي أن كلهم هنا كانوا يتظاهرون بجهل نهايته). ظللت صامتاً. كررت سؤالها وأرغمتني على الإجابة. قلت: «لاأعلم!». ألحّت قائلة: «هيا! فكر قليلاً! ربما ستنتهي إلى إيجاد الجواب». كانت تريد أن أُصْدِرَ باللسان المتَخيَّلِ للرفاق الموتى، حكماً قاسياً علي نفسي، ولكن ماغمرني فوراً هو ردة غضب غير متوقع، غير منتظر بحيث أني قلت، وقد أنهكتني كل هذه الأسابيع التي قضيتها في نقد ذاتي: «هؤلاء واجهوا الموت. هؤلاء لم يكونوا، بالتأكيد، تافهين. لو أنهم قد قرؤوا بطاقتي فربما كانوا سيضحكون!».

في الواقع، إن الفتاة البدينة قد وفرت لي فرصة إنقاذ شيء ما على الأقل. كانت فرصتي لأخيرة لفهم انتقاد رفاقي القاسي، لأوافق عليه، لأتماهى معه ولأستطيع، مقابل هذا التماهي، أن ألتمس شيئاً من الفهم من جانبهم. ولكني بجوابي غير المتوقع، انسحبتُ، دفعة واحدة من دائرة تفكيرهم، رفضتُ الدور الذي كان يُلعب عادة في مئات الاجتماعات، مئات الاجراءات الانضباطية، بل مئات الجلسات القضائية: دور المتهم الذي يتهم نفسه بحماسة (متماهياً بذلك مع متهميه) ويحاول أن يستجدي رأفتهم.

ساد صمت جديد وضع زيمانيك حداً له. قال إنه غير قادر على أن يتخيل ماذا يحمل على الضحك في صيغي المعادية للحزب. ذكر مرة أخرى أقوال فوسيك، وأكد أن المراوغة والريبية تتحولان،

حتماً، في المواقف الحرجة، إلى خيانة وأن الحزب قلعة لاتتحمل الخونة في حرمها. وأضاف أن مداخلتي أثبتت أني لم أفهم شيئاً بالمرة والأمر لايقتصر على كون مكاني ليس داخل الحزب، بل لم أكن أستحق أيضاً أن تقدم الطبقة العاملة وسائل متابعة دراستي. اقترح فصلي من الحزب والكلية. رفع الناس في القاعة أيديهم، وقال لي زيمانيك إن علي إعادة بطاقتي الحزبية والرحيل.

نهضت لأودع بطاقتي على المنبر، أمام زيمانيك. لم يلق إلي بنظرة. كان قد كف من قبل عن رؤيتي. ولكني الآن أرى زوجته جالسة تجاهي، ثملة، ملتهبة الخدين، مشمورة التنورة حتى الحزام. كان يحدّ ساقيها الممتلئين، في الأعلى، سواد سروال اللاستكس، وقد رسم إيقاعهما، وهما ينفتحان وينغلقان، نبضات حوالى عشر سنوات من حياة زيمانيك. أضع يديّ على هذين الساقين وأظن أنهما يضغطان على حياة زيمانيك نفسها. نظرت إلى وجه هيلينا، إلى عينيها نصف المغمضتين تحت تأثير لمستي.

4

قلت بصوتٍ منخفض: «اخلعي ثيابك ياهيلينا».

نهضت من على الأريكة، فعاد هدب تنورتها إلى مستوى ركبتيها. نظرتْ في عيني، ثم دون أن تنطق بكلمة (ودون أن أبارح نظرها) أنزلت سحاب تنورتها. ونزلت هذه الأخيرة، وقد تحررت، على طول ساقيها. سحبت منها قدمها اليسرى ونقلتها، بقدمها اليمنى، إلى يدها ووضعتها على كرسي. كانت حالياً بالكنزة والخراطة، ثم خلعت كنزتها ممررة رأسها من خلالها وألحقتها بالتنورة.

قالت: «لاتنتظر!

قلت: أريد أن أراك.

ـ كلا، ليس عندما أخلع ثيابي».

اقتربت منها. وبعد أن أمسكت بها من الجانبين، تحت ابطيها، انزلقت يدي نحو وركيها. أحسست، تحت حرير الخراطة الذي كان دبقاً قليلاً من العرق، بالتحدي الرخو في جسدها. قربتْ وجهها مني، وانفرجت شفتاها بعادة (بعزّة) القبلة الطويلة. ولكنني لم أكن أرغب في تقبيلها، وماكنت أريده، بالأحرى، هو أن أنظر إليها ملياً، أطول وقت ممكن.

كررتُ قائلاً، وأنا أبتعد بضع خطوات لأخلع سترتي: «اخلعي ثيابك ياهيلينا!

قالت: يوجد كثير من النور هنا.

قلت وأنا أضع سترتي على ظهر كرسي: وهو ماينبغي».

خلعت خراطتها وألقت بها فوق الكنزة والتنورة. وفكت الجرابين ونزعتهما، الواحد بعد الآخر. لم تلق بهما، بل تحركت نحو

الكرسي لتضعهما عليها بعناية. ثم أبرزت صدرها ووضعت يديها خلف لوحي كتفيها. انقضت عدة ثوان قبل أن يعود كتفاها المشدودان للهبوط إلى الأمام بالحركة نفسها التي كانت حمالة الصدر تنزلق بها على سطح الثديين. وتكور هذان الأخيران على بعضهما، كبيرين، مليئين، شاحبين وثقيلين قليلاً، بداهة.

قلت لها مرة أخيرة: «اخلعي ثيابك ياهيلينا». نظرت في عيني ثم تخلصت من سروال اللاستكس الأسود الذي كان يشدها شداً وثيقاً وألقت به إلى جانب الجرابين والكنزة. كانت عارية.

كنت أسجل أدق تفاصيل هذا المشهد بانتباه: لم أكن أحرص على بلوغ متعة متعجلة مع امرأة (أية امرأة)، بل كنت أحرص على الاستيلاء على عالم حميم غريب دقيق تماماً، وكان عليّ أن أستولي عليه في بعد ظهيرة واحد، خلال فعل حب واحد، لم يكن عليّ أن أكون فيه من يستسلم للمتعة فقط، بل الذي يطارد فريسة هاربة ويجب أن يحافظ على يقظةٍ كليةٍ.

كنت، حتى ذلك الحين، قد استوليت على هيلينا بالنظرة فقط. ومازلت الآن أقف على مسافة ما في حين كانت هي، على العكس من ذلك، تتمنى من قبل حرارة الملامسات التي ستغطي جسدها المعرّض لبرد النظرة. وحتى على مسافة بضع الخطى هذه، كنت أحس فعلاً برطوبة فمها ونفاد صبر لسانها الشهواني. ثانية، ثم أخرى والتصقت بها تعانقنا واقفين وسط الغرفة، بين الكرسيين اللذين ملأتهما ملابسنا.

كانت تتمتم: «لودفيك، لودفيك، لودفيك...». قدتها نحو الأريكة ومددتها. كانت تقول: «تعال، تعال! قريباً مني، قريباً جداً...».

من النادر جداً أن يختلط الحب الجسدي بحب الروح. ماذا تفعل هذه الأخيرة بالضبط، حين يتحد الجسد (بهذه الحركة العامة والثابتة التي تعود إلى ماض سحيق) بالجسد الآخر؟ كل ماتتفنن هذه الروح في اختراعه، خلال هذا الوقت، يعيد تأكيد تفوقها على

رتابة الحياة الجسدية. أي ازدراء هي قادرة على إبدائه حيال جسدها الذي لاتستخدمه (مثل جسد الآخر) سوى ذريعة للخيال الذي هو أكثر جسدية، بألف مرة، من الجسدين المتحدين! أو على العكس من ذلك حقاً: كم هي بارعة في الحط منه تاركة إياه لمجيئه ورواحه الصغيرين النواسيين، في حين تبتعد مع أفكارها (التعبة من قبل من نزوات الجسد) إلى مكان آخر تماماً: نحو مباراة في الشطرنج، نحو ذكرى وجبة غداء، أو نحو ذكرى قراءة.

إن كون جسدين غريبين عن بعضهما، تماماً، يمتزجان أمر غير نادر. اتحاد الأرواح نفسه يمكن أن يحدث أحياناً. ولكن اتحاد جسد مع روحه والاتفاق معها على تقاسم عاطفة أندر بألف مرة.

ماذا فعلت روحي إذن حين كان جسدي يمارس الحب مع هيلينا؟

رأت روحي جسد امرأة. بدت لامبالية بهذا الجسد. كانت تعلم أنه ليس له، بالنسبة إليها، من دلالة إلا لأنه عادة يُرى ويُحب أيضاً، من جانب شخص ليس هنا. ولذلك كانت تحاول أن ترى هذا الجسد بعيني الطرف الثالث الغائب. لذا اجتهدت في أن تصبح وسيط هذا الطرف الثالث. كانت ترى عُري جسد أنثوي، ساقها المنثنية، طية بطنها وثديها، ولكن كل هذا لم يكن يكتسب معنى إلا في اللحظات التي كانت فيها عيناي تصبحان عيني هذا الطرف الثالث الغائب. آنذاك تدخل روحي فجأة، في نظرة الآخر هذه وتمتزج معه، تستولي على الساق المنثنية وطية البطن والثدي كما كان يراها الطرف الثالث الغائب.

ولم يقتصر الأمر على كون روحي كانت تصبح وسيطاً لهذا الطرف الثالث، بل تأمر جسدي بأن يحل محل جسده، وبعد ذلك تبتعد لترقب تلاحم جسدي الزوجين، ثم تأمر جسدي فجأة باستعادة هويته والدخول في هذا الجماع الزوجي وتفكيكه بقسوة.

ازرقّ عرقٌ في عنق هيلينا التي هزها التشنج. أدارت رأسها وأسنانها مغروسة في الوسادة.

همست باسمي، وتوسلت عيناها من أجل برهة راحة.

ولكن روحي أمرتني بالمتابعة، بأن أطاردها من نشوة إلى نشوة، بأن أقتحم جسدها في كل الأوضاع من أجل أن أنتزع، في الظل وسراً، كل الزوايا التي كان هذا الطرف الثالث الغائب يراها من خلالها. المهم لاراحة. يجب أن أكشف أيضاً وأيضاً، هذه الاختلاجة التي تكون فيها حقيقية وصادقة، التي لاتتظاهر فيها بشيء، التي تُنقش بها في ذاكرة هذا الطرف الثالث غير الموجود هنا، التي تُنقش كدمغة، كختم، كرقم، كشعار. ويجب أن أسرق إذن هذا الرقم السري، هذا الختم الملكي، أن أسطو على غرفة باڤيل زيمانيك السرية، منقّباً حتى في أدنى زواياها، وأن أقلب فيها كل شيء!

نظرت إلى وجه هيلينا المحمر الذي جعلته التكشيرة قبيحاً. وضعت يدي عليه كما توضع على شيء يمكن تقليبه، عجنه وسحقه، وكنت أشعر بأن هذا الوجه يقبل حقاً هذه اليد على هذا النحو: كشيء نهم إلى أن يُعجن ويُسحق. أدرت رأسها إلى اليمين، ثم إلى اليسار عدة مرات متوالية، ثم تحولت هذه الحركة إلى صفعة، وأخرى، وثالثة. أخذت هيلينا تنتحب وتصرخ، ولكن ذلك لم يكن أبداً من الألم. كانت تزأر من المتعة وذقنها مرفوعة نحوي، وكنت أضربها وأضربها. ثم رأيت أن الذقن لم تكن وحدها ترتفع في اتجاهي، بل كان صدرها كذلك أيضاً، وقابلتها (وأنا مشدود فوقها) وضربتها، جلدت ذراعيها وجنبيها وثدييها...

لكل شيء نهاية. وكان لهذا النهب الجميل أيضاً نهايته، كانت ترقد دون حراك، على بطنها فوق الأريكة، متعبة، منهكة. كانت تُرى، على ظهرها، شامة، وفي موقع أدنى، آثار الضربات وقد رَسَمت خطوطاً على ردفيها.

نهضت واجتزت الحجرة مترنحاً. فتحت باب الحمام وأدرت صنبوراً وغسلت، بماءٍ باردٍ غزير، وجهي ويديّ وجسدي بكامله. رفعت رأسي وواجهت نفسي في المرآة. كان وجهي يبتسم. وعندما

فاجأته هكذا (مبتسماً)، بدت لي الابتسامة مضحكة، فانفجرت ضاحكاً. ثم جففت نفسي وجلست على حافة المغطس. كنت أرغب في أن أبقى وحيداً لبضع ثوان، على الأقل، لأستمتع بانعزالي المفاجئ، لأستمتع بفرحي.

نعم كنت مسروراً، وربما سعيداً تماماً. كنت أحس بنفسي منتصراً، وكانت الدقائق والساعات القادمة تبدو لي دون جدوى ودون أهمية.

ثم عدت.

لم تعد هيلينا على بطنها، بل كانت ممددة على جنبها. كانت تنظر إلي. قالت: «تعال إلى جانبي يا حبيبي».

كثير من الناس يظنون، بعد أن يكونوا قد وحدوا بين أجسادهم، أنهم وحدوا أيضاً أرواحهم، ويظنون أنه من المسموح لهم، بهذا الاعتقاد الخداع، بأن يرفعوا الكلفة. وبما أني لم أؤمن قط بالتناغم المتزامن بين الجسد والروح، فإن رفع الكلفة من جانب هيلينا كان يربكني وينفرني. اتجهت، غير مطيع لدعوتها، نحو الكرسي الذي عليه ملابسي لأرتدي قميصي.

رجتني هيلينا قائلة: «لاترتد ثيابك...» وكررت، ويدها ممدودة في اتجاهي: «هيا، تعال!».

لم أكن أرغب إلا في شيء واحد هو ألّا تحدث اللحظات القادمة، وإذا كانت أمنيتي مستحيلة، أن تنقضي هذه اللحظات، في التفاهة، دون وزن، وأخف من غبار. لم أعد أريد ملامسة هيلينا. وكانت فكرة الحنان تفزعني، ولكني كنت أخاف أيضاً من احتمال توتر أو تأزيم للأمور. ولذلك عدلت على الرغم مني عن قميصي، لأجلس في نهاية الأمر على الأريكة قريباً من هيلينا. كان ذلك فظيعاً: جرّت نفسها نحوي ووضعت وجهها على ساقي التي كانت تقبلها. وفي لحظة تبللت ساقي. ولكنها لم تكن القبلات: فعندما رفعت رأسها، تبينت أن الدموع تسيل على وجهها. مَسَحتها قائلة: «لاتغضب يا

حبيبي، لاتغضب إذا بكيت». وأحاطتني، وهي تلتصق بي بمزيد من القوة، بذراعيها دون أن يعود باستطاعتها السيطرة على بكائها.

قلت لها: ماذا بك؟»

قالت وهي تهز رأسها: «لاشيء، لاشيء يا مجنوني الصغير». وأخذت تغطي وجهي وكل جسدي بقبلات محمومة. وتابعت، بعد ذلك، قائلة: «أنا مجنونة حباً». وبما أني لم أكن أقول شيئاً، تابعت تقول: «سوف تسخر مني، ولكني لاأبالي، أنا مجنونة حباً، مجنونة حباً». وبما أني بقيت صامتاً قالت: «وأحس بنفسي سعيدة...» ثم أشارت إلى الطاولة وزجاجة الفودكا التي لم ننه شربها وقالت: «هيا، صبّ لي!».

لم تكن لدي أدنى رغبة في أن أصب شراباً لهيلينا ولا لي أنا. كنت أخشى أن تنتهي كؤوس جديدة من الفودكا إلى تمديد خطير لهذه الجلسة (التي كانت رائعة، ولكن شريطة أن تكون قد انتهت، قد أصبحت ورائي).

كانت ماتزال تشير إلى الطاولة الصغيرة: «أرجوك يا حبيبي!» ثم أضافت على سبيل الاعتذار قائلة: «لاينبغي أن تلومني، أنا سعيدة، أريد أن أكون سعيدة...»».

قلت: ربما لاتحتاجين إلى فودكا من أجل هذا.

ـ أنا أرغب في ذلك، هل تسمح؟

لم يكن هناك مايمكن عمله. ملأتُ لها كأساً. قالت: «ألم تعد تريد كأساً؟». أومأت برأسي سلباً. جرعت الكأس دفعة واحدة ثم قالت: «دع لي هذه هنا!». وضعت الزجاجة وكأساً صغيرة على الأرض في متناول اليد، اعتباراً من الأريكة.

كانت قبل قليل تستعيد قواها من تعبها بسرعة مدهشة. أصبحت فجأة صبية صغيرة، تريد أن تستمتع، أن تكون مرحة وتظهر سعادتها. وكانت تحس بنفسها، بداهة، حرة وطبيعية في

عريها (إذ لم يكن على جسدها سوى ساعتها التي يرن فيها مصغر الكرملين على طرف السلسلة الصغيرة)، ؛ كانت تجرب كل الأوضاع لتحس بأكبر راحة ممكنة: ساقاها تحتها، متصالبتان على الطريقة التركية، ثم استندت إلى مرفقها بعد أن حررت عقبيها، ثم عادت إلى التمدد على بطنها ووجهها يغوص في فخذيّ. واعترفت لي، أيضاً وأيضاً، بمقدار سعادتها. وفي الوقت نفسه، كانت تحاول تقبيلي، وهو ماكنت أتحمله بكثير من نكران الذات، خاصة وأن فمها كان رطباً جداً ولأن كتفيّ وخديّ لم تكن تكفيها أخذت تنقض على شفتيّ (وأنا لاأحب قبلة ندية إلا في عمى الشهوة).

قالت لي أيضاً، بأنها لم تكن قد عاشت حتى الآن شيئاً مشابهاً. أجبتها (هكذا) بأنها تبالغ. بدأت تقسم بأنها لم تكن تكذب أبداً في الحب، وأنه لم يكن لدي أي سبب لعدم تصديقها. وأكدت، موسعة فكرتها، أنها قد أحست مسبقاً بكل شيء منذ لقائنا الأول، وأن للجسد غريزته التي لاتخطئ، وأني استوليت عليها، بداهة، بذكائي وحيويتي (نعم حيويتي! من أين أتت بهذا؟)، ولكنها كانت تعلم، أيضاً، على الرغم من أنها لم تجرؤ على التحدث عن ذلك قبلاً، بأنه قد وقّع بيننا فوراً واحد من هذه الاتفاقات السرية التي لاتوقّع الأجساد على مثلها إلا مرة واحدة في الحياة. «ومن أجل ذلك أنا على هذا القدر من السعادة، هل تعلم ذلك؟». وانحنت لتلتقط الزجاجة وتصب لنفسها جرعة أخرى. ضحكت، بعد أن أفرغت الكأس، وقالت: «يجب حقاً أن أشرب وحدي لأنك لم تعد تريد!».

على الرغم من أن المغامرة قد انتهت بالنسبة لي، فيجب أن أعترف بأن أقوال هيلينا لم تسؤني: فقد كانت تؤكد نجاح عمليتي وسلامة سروري. ولسبب وحيد هو أني لم أكن أعرف ماذا أقول، ولأني لم أرغب في أن أبدو صموتاً، اعترضت عليها بقولي إنها كانت تبالغ بالتأكيد في الحديث عن تجربة لاتقع إلا مرة واحدة في الحياة: ألم تكن قد عاشت مع زوجها حباً كبيراً؟

هذه الكلمات غاصت بهيلينا في تأمل جدي (كانت جالسة على الأريكة وقدماها على الأرض متباعدتان قليلاً، متكئة بمرفقيها على ركبتيها والكأس الفارغة في يدها اليمنى) وانتهت إلى قولها بصوت منخفض: «نعم».

كانت تتوقع، دون شك، أن تجبرها عاطفية التجربة التي أتت على عيشها على صدق لايقل عن ذلك عاطفية. كررت قولها «نعم» وقالت إنه قد يكون سيئاً أن تنكر ماكان قد حدث في الماضي باسم المعجزة التي جرت منذ قليل. شربت كأساً جديدة ثم وسعت ببلاغة الفكرة القائلة إن أقوى التجارب لاتقبل، على وجه الدقة، المقارنة بينها. فالحب في العشرين والحب في الثلاثين أمران مختلفان تماماً بالنسبة للمرأة. ويجب أن أفهم جيداً أن هذا لايقتصر على وجهة النظر النفسية، بل ينطبق على وجهة النظر الجسدية أيضاً.

ثم أكدت (بغير كثير من المنطق ودون تماسك) أنه كان لي وجه شبه ما مع زوجها! وهي لاتعرف، كثيراً، كيف يكون هذا التشابه. فعلى الرغم من أن ليس لي بالمرة الملامح نفسها، ولكنها لم تكن مخطئة، فقد كانت لها غريزتها المعصومة عن الخطأ التي تجعلها تخترق المظهر الخارجي.

قلت: «أود أن أعرف حقاً. بماذا أشبه زوجك».

قالت: إنها تعتذر. ولكني كنت، مع ذلك، أنا من سألتها عنه، ومن أردت أن تحدثني عنه، وأنها لهذا السبب وحده تجرؤ على التحدث بصدده. ولكني إذا كنت متمسكاً بمعرفة الحقيقة الحقيقية، فإنه ينبغي عليها أن تقول لي ذلك: لقد اجتُذبتْ مرتين في حياتها فقط بعنف غير مشروط إلى هذا الحد: من جانب زوجها ومن جانبي أنا. وماكان يجعلنا قريبين، على حد قولها، هو نوع من الاندفاعة الحيوية، الفرح الذي كان يشع منا، شباب أبدي القوة.

كانت هيلينا، وهي تريد أن توضح تشابهي مع باقيل زيمانيك، تستخدم كلمات على درجة كافية من الإبهام، ولكن لم يكن هناك

أدنى شك في أنها تِرى هذا التشابه، تحس به، تتمسك به بعناد. لاأستطيع أن أقول ان هذه التأكيدات كانت تثيرني أو تجرحني، بل كنت فقط مذهولاً من تفاهتها التي لاقرار لها. اقتربتُ من الكرسي وبدأت أرتدي ملابسي ببطء.

أحست هيلينا باستيائي فقالت: «هل أغظتك ياحبيبي؟». نهضتْ واقتربتْ مني. داعبتْ وجهي ورجتني أن لاأحقد عليها. منعتني من ارتداء ثيابي (كانت تعتبر بنطلوني وقميصي، لأسباب غامضة لاأعرفها، عدوين لها). قالت لي إنها تحبني حقاً وليس من عادتها أن تهذر بهذا الفعل، وهي ستعرف جيداً كيف تجد الفرصة لإثبات ذلك لي وإنها قد شعرت، منذ أسئلتي الأولى بصدد زوجها، بأنه كان من الغباء التحدث عنه، وإنها لم تكن تريد تسلل رجل آخر غريب في علاقاتنا. نعم غريب، لأن زوجها لم يعد منذ زمن طويل يعني لها شيئاً، وذلك يامجنوني الصغير، أخيراً، لأن كل شيء قد انتهى معه منذ ثلاث سنوات كاملة. لم نطلق بعضنا بسبب الصغيرة. كل منا يعيش وحده، كغريبين حقاً. لم يعد، بالنسبة لي، سوى ماضٍ، ماضي بعيد جداً...

سألتها قائلاً: «أهي الحقيقة؟.

قالت: نعم، هي الحقيقة.

قلت: لاتكذبي علي هكذا! هذا بشع!

– ولكني لاأكذب! نحن تحت سقف واحد، ولكن ليس كزوج وزوجة. أؤكد لك ذلك، نحن لانتحدث مع بعضنا منذ سنوات!».

كان الوجه المتوسل لامرأة عاشقة ينظر إلي. أعادت، عدة مرات، تأكيد كون ماقالته صحيحاً وأنها لم تكن تكذب علي، وأنه لم يكن لدي أي سبب لأغار من زوجها. فزوجها هو الماضي. إذن، اليوم لم تكن خائنة إذ ليس لديها من تخونه. ويجب ألّا أضايق نفسي: فساعات حبنا لم تكن جميلة فقط، بل نقية أيضاً.

فهمتُ فجأة وقد تملكني ذعر واضح، أني لم أكن أستطيع، في الواقع، ألّا أصدقها. وعندما لاحظتْ ذلك طلبت مني، مرتاحة، مكررة كي أقول لها بصوت مرتفع بأنها أقنعتني، ثم صبت لنفسها شيئاً من الفودكا وأرادت أن تقرع كأسها مع كأسي (رفضت). قبّلتني، وعلى الرغم من اشمئزازي، لم أستطع أن أحول نظري. كانت عيناها الغبيتا الزرقة وعريها (المتحرك والمرتعش) تفتنني.

هذا العري لم أعد أراه كما من ذي قبل. أصبح فجأة عرياً عارياً، عارياً من القدرة المثيرة التي كانت تغلف كل عيوب عمرها التي بدا تاريخ الزوجين زيمانيك مركزاً فيها، والتي أسرتني بعد ذلك. والآن، وهي أمامي مجردة، دون زوج ولاعلاقات زوجية، بمفردها ولاشيء آخر معها، كانت عيوبها قد فقدت فجأة فتنتها الداعرة، وما عادت هي أيضاً سوى ذاتها: مجرد عيوب جسدية.

كان سكر هيلينا وسرورها يتزايدان. سعيدة لأني صدقت حبها، غير عارفة كيف تظهر أحاسيس سعادتها: وفجأة خطرت لها فكرة فتح المذياع (أقعت، مديرة ظهرها لي، أمام الجهاز وأدارت المفتاح). سمعنا موسيقى جاز. عادت هيلينا إلى الوقوف، وقد التمعت عيناها. بدأت، بصورة خرقاء، حركات متموجة لرقصة تويست (كنت أنظر، مذعوراً، إلى ثدييها يتطايران يميناً وشمالاً). قهقهت ضاحكة: «أهذا جيد؟ هل تعلم، أنا لم أرقص هذه الرقصة أبداً». وضحكت بصوت مرتفع وجاءت لتضمني إليها. كانت تريد أن أراقصها. استاءت من رفضي. قالت لي إنها لم تكن تعرف هذه الرقصات وإن عليّ أن أعلمها إياها، وهي تعتمد علي لأعلمها كثيراً من الأشياء وإنها تريد أن تعود فتية معي. رجتني أن أؤكد لها بأنها مازالت فتية (فعلتُ ذلك) انتبهت إلى أني كنت مرتدياً ثيابي في حين هي لم تفعل. ضحكت، كان ذلك يبدو لها غريباً. سألتني عما إذا كان لدى صاحب المكان مرآة كبيرة تستطيع أن ترانا فيها. ولم يكن هناك كمرآة سوى زجاج المكتبة. حاولت أن تميزنا فيها، ولكن الوضوح كان ينقص الصورة. اقتربتْ من المكتبة وقهقهت ضاحكةً،

من جديد، أمام عناوين الكتب: التوراة، المؤسسة لكالفن، ريفيات باسكال، مؤلفات هوس. أخرجت التوراة واستقرت في جلسة رسمية وفتحت الكتاب عشوائياً وبدأت تقرأ بنبرة واعظ. تمسكت في أن تعرف ماإذا كانت تصلح كاهناً جيداً. صرحتُ لها بأن هذه القراءة المقدسة تليق بها، ولكنها تحسن صنعاً إذا ارتدت ثيابها لأن السيد كوستكا سيعود قريباً. سـألتني عن الساعة فأجبتُ قائلاً: «السادسة والنصف». أمسكت بمعصمي الأيسر حيث ساعتي وهتفت قائلة: «كاذب! الساعة السادسة إلا الربع! أنت تريد التخلص مني!».

تمنيت لو أنها بعيدة، لو يفقد جسدها (المادي إلى هذا الحد الداعي إلى اليأس) ماديته، أن يذوب، أن يمضي في الساقية أو أن يختفي كبخار من النافذة، ولكن هذا الجسد كان هنا، جسد لم أكن قد سرقته من أحد، لم أقهر ولم أدمر فيه أحداً. جسد متروك، هجره الزوج، جسد ادعيت استغلاله ولكنه هو الذي استغلني وهو يستمتع الآن بوقاحة بهذا الانتصار، يتهلل، يقفز من الفرح.

لم يتح لي اختصار عذابي الغريب. وحوالى السادسة والنصف، بدأتْ أخيراً في ارتداء ثيابها. رأت إذ ذاك على ذراعها، العلامة الحمراء لضرباتي، فداعبَتها وقالت إنها ستكون تذكاراً لها مني حتى لقائنا القادم. ثم استأنفت، بسرعة، كلامها قائلة: سوف نرى بعضنا بالتأكيد من جديد، قبل أن يمّحي هذا التذكار عن لحمها بكثير! كانت تريد، وهي واقفة ملتصقة بي (وقد لبست جراباً وبقي الآخر في يدها) أن أعدها بأننا سنرى بعضنا حقاً قبل ذلك بكثير. وافقتُ بهزة من رأسي. لم يكن هذا يكفيها، وألحت على أن أعدها بأننا سنلتقي أيضاً كثيراً من المرات، حتى ذلك الحين.

استغرق ارتداؤها لثيابها وقتاً طويلاً جداً، ورحلتْ قبل السابعة ببضع دقائق.

5

فتحت النافذة مشوقاً إلى تيار هواء يأخذ، بسرعة، كل ذكرى لبعد الظهيرة العقيم هذا، كل راسب رائحة أو إحساس. رفعت الزجاجة ورتبت وسائد الأريكة. وعندما بدا لي أن كل أثرٍ قد زال، استرخيت على المقعد قرب النافذة بانتظار كوستكا (الفوري تقريباً): بانتظار صوته كرجل (كنت في حاجة إلى صوت رجل عميق)، بانتظار قامته الطويلة بصدره المسطح وأحاديثه الهادئة، وكذلك بانتظار أن يخبرني عن لوسي التي كانت، على عكس هيلينا، فائقة العذوبة في لاماديتها، فائقة البعد عن النزاعات والتوترات والمآسي ولاتأثير لها، مع ذلك، في حياتي: خطر في بالي أن هذا التأثير كان يُمارس بالطريقة نفسها التي تؤثر النجوم بها في الحياة الإنسانية، على حد قول الفلكيين. وفي جوف المقعد (تجاه النافذة المنفرجة التي كانت تطرد رائحة هيلينا)، كنت أفكر في أنني تغلبت على تطيري بتخميني لسبب اجتياز لوسي السماء في اليومين الأخيرين: فعلتْ ذلك فقط لتختزل انتقامي إلى لاشيء، لتحل في الضباب كل ماكان قد أتى بي إلى هنا. ذلك أن لوسي، هذه المرأة التي أحببتها كثيراً والتي أفلتت مني، دون تفسير، في اللحظة الأخيرة، كانت إلهة الهرب، إلهة المطاردة العقيمة، إلهة الضباب. إنها ماتزال تمسك برأسي بين يديها.

القســم السادس

كوستكا

1

مضى زمن طويل لم نر بعضنا خلاله، ولكن الواقع هو أننا رأينا بعضنا بدرجة كافية من الندرة. هذا غريب لأني، في خيالي غالباً ما ألقاه، غالباً ما ألقى لودفيك جان متوجهاً إليه، غالباً جداً، بتأملاتي كما أتوجه بها إلى خصمي الرئيسي. كنت قد تعودت على وجوده اللامادي إلى حد بقيت معه مذهولاً عندما وقعت عليه، بالأمس فجأة، لحماً وعظاماً، بعد سنوات عديدة.

سمّيت لودفيك خصمي. هل يحق لي أن أسميه هكذا؟ إنما تشاء المصادفة بأني في كل مرة نلتقي فيها، أجد نفسي دون غوث تقريباً، ويكون هو الذي يساعدني في كل مرة. لكن كانت هناك، دائماً تحت هذا التحالف هوة من الاختلاف. أجهل ماإذا كان لودفيك قد قاس عمقها مثلي. وعلى كل حال، كان يعطي صلتنا الخارجية قدراً من الأهمية أكبر من الذي يعطيه لاختلافنا الداخلي، غير قابل للتصالح مع الأعداء الخارجيين ومتسامحاً في الاختلافات الداخلية. أما أنا، فلا! أنا العكس تماماً. وهو مالايعني أني لاأحب لودفيك. إني أحبه كما نحب خصومنا.

2

تعرفت عليه لدى واحد من تلك الاجتماعات الصاخبة التي كانت الكليات تغلي بها عام سبعة وأربعين. كان مستقبل الأمة في الميزان. كنت في كل المناقشات والمساجلات والاقتراعات إلى جانب الأقلية الشيوعية، ضد الذين كانوا آنذاك يشكلون الأغلبية في الجامعات.

كثيرون من المسيحيين، الكاثوليكيين أو البروتستانتيين، كانوا يحقدون عليّ من أجل ذلك. ويعدون خيانة مني أن أتضامن مع حركة سجلت الإلحاد في تعاليمها. أما الذين يتفق لي اليوم أن ألقاهم فيعتقدون أني وعيت بعد خمس عشرة سنة خطئي. ولكني مرغم على تخييب أملهم، فأنا لم أغير موقفي حتى الآن.

الحركة الشيوعية، بداهة، دون إله. وعلى كل حال، فلا يستطيع أن يأخذ على الشيوعية، وحدها، هذا الأمر سوى المسيحيين الذين لايستطيعون رؤية العمود في عيونهم. أقول: المسيحيين. ولكن، أين هم بالضبط؟ لاأرى حولي سوى مسيحيين مزيفين، يعيشون تماماً كغير مؤمنين. إلا أن كون المرء مسيحياً يعني أن يعيش بطريقة أخرى، يعني اتباع درب المسيح، تقليد المسيح، يعني التجرد من المصالح الخاصة، من الرخاء والسلطة الشخصيين، الالتفات نحو الفقراء والمهانين، نحو الذين يعانون. أهذا ماكانت الكنائس تفعله؟ كان أبي عاملاً متعطلاً أبدياً، متواضعاً في إيمانه. يتوجه بوجهه إلى الله، ولكن الكنيسة لم تلتفت إليه أبداً. ظل مهجوراً وسط أشباهه، مهجوراً داخل الكنيسة، وحيداً مع الله حتى مرضه وموته.

لم تفهم الكنائس أن الحركة العمالية كانت صعود المهانين والمعذبين الجائعين إلى العدالة. لم تكن تهتم بأن تقيم، معهم ومن أجلهم، ملكوت الله على الأرض. لقد تحالفت مع ممارسي الاضطهاد، وهكذا انتزعت الله من الحركة العمالية. وهاهي تدّعي لومها على كونها دون إله؟ يالها من فريسية! من المؤكد أن الحركة الاشتراكية

ملحدة، ولكني أرى، من جهتي، في ذلك لوماً إلهياً موجهاً إلينا، لوماً على قصور قلوبنا حيال البؤساء والمعذبين.

ماذا ينبغي أن أفعل في هذا الصدد؟ أأخاف من تناقص أعداد المؤمنين؟ أيصيبني الذعر من كون المدارس تعلم الأطفال فكراً معادياً للدين؟ كلا. الدين الحقيقي لايحتاج مطلقاً إلى جمائل القوة الزمنية. وليس لسوء النية الزمنية من أثر خلاف تقوية الإيمان.

أم هل يجب أن أقاتل الاشتراكية لأنها، بسبب خطأ منا، ملحدة؟ لاأستطيع إلا أن أرثي لهذه الخطيئة المأساوية التي أبعدت الاشتراكية عن الله. لاأستطيع إلا أن أوضحها وأعمل على إصلاحها.

وفوق ذلك، فلماذا القلق أيها المسيحيون، ياإخوتي؟ كل شيء يتم بإرادة الله وغالباً ما أتساءل ماإذا كان الله يعرّف الإنسانية، عمداً، على كون الإنسان لايستطيع أن يجلس، دون عقاب، على عرشه وعلى كون ترتيب أمور هذا العالم، مهما كان منصفاً، خارج مشاركته، لايمكن إلا أن يضل ويفسد.

أتذكر هذه السنوات التي كان فيها الناس لدينا يظنون أنهم على مسافة خطوتين من الجنة، وكم كانوا فخورين: كانت جنتهم وسوف يبلغونها دون أن يساعدهم أحد من أعلى السموات! إلا أن كل شيء تبخر بعد ذلك تحت أبصارهم.

3

قبل شباط 1948 ، كانت مسيحيتي تناسب الشيوعيين. كانوا يحبون جداً أن يسمعوني أشرح المحتوى الاجتماعي للإنجيل، أُرعد ضد العالم المنخور الذي كان ينهار تحت أملاكه وحروبه، أبرهن عن القرابة بين المسيحية والشيوعية. كان الأمر يدور، بالنسبة إليهم، حول كسب أوسع الطبقات، وبالتالي المؤمنين، إلى جانب قضيتهم. ولكن كل شيء بدأ يتغير بعد انقضاء شباط. كنت كمعيد قد دافعت عن عدة طلاب مهددين بالفصل من الكلية بسبب أفكار أهلهم السياسية. وسبب لي احتجاجي نزاعاً مع إدارة المؤسسة. ارتفعت أصوات لتقول إن رجلاً بمعتقدات دينية في هذا الحسم لم يكن يستطيع أن يربي الشبيبة الاشتراكية. كان يبدو أني سأكون مرغماً على القتال لأعيش. عند ذلك علمت أن الطالب لودفيك جان قد تحدّث لصالحي داخل اجتماع عام للحزب. كان نسيان مامثلته للحزب، عشية شباط، في نظره نكراناً خالصاً للجميل. وعندما عارضوه بمسيحيتي رد بأن الدين قد لايكون، في حياتي، سوى مرحلة انتقالية سأجتازها بفضل عمري الفتي.

ذهبت لأشكره على دعمه. لكنني صرحت له بأني أحرص على تذكيره، وأنا لاأريد خداعه، بأني أكبر منه سناً وألّا أمل في أن أستطيع «تجاوز» إيماني. جرت بيننا مناقشة حول وجود الله، حول الآخرة والأبدية وموقف ديكارت من الدين ومسألة معرفة مإذا كان سبينوزا مادياً، وحول أشياء كثيرة أخرى. لم نتوصل إلى الاتفاق. وفي النهاية، سألت لودفيك عما إذا لم يكن نادماً لدعمي بعد أن تبين له أني غير قابل للإصلاح. قال لي إن معتقدي الديني من شأني وهذا ليس، بعد كل شيء، من شأن أحد.

لم تسنح لي فرصة أخرى للالتقاء به في الكلية. وزاد ذلك في تقارب مصيرينا. فبعد ثلاثة أشهر من حديثنا، أقصي جان عن

الحزب والكلية. وبعد ستة أشهر أخرى، جاء دوري في مغادرة الجامعة. هل طردت؟ هل حمِلت على الرحيل؟ لاأعلم. الصحيح هو أن الأصوات كانت قد تضاعفت ضد شخصي وضد معتقداتي، صحيح هو أن بعض الزملاء أوحوا بأن عليّ أن أصدر تصريحاً علنياً ملوناً بالإلحاد، والصحيح، أخيراً، أنه قد جرت، خلال دروسي، بعض المداخلات العدوانية من جانب طلبة شيوعيين كانوا يهينون عقيدتي. كان اقتراح يلوح في الجو يتجه إلى رحيلي. ولكنه لايقلّ عن ذلك صحة هو أنه كان لي، بين شيوعيي الكلية، عدد لابأس به من الأصدقاء الذين يقدرونني من أجل موقفي قبل شباط. وربما كان يكفي القليل: أن أبدأ في الدفاع عن نفسي. كنت بالتأكيد سأجدهم خلفي. إلا أني لم أفعل.

4

قال يسوع لتلاميذه: «اتبعوني!». ودون اعتراض تركوا شباكهم وقواربهم وبيوتهم وأسرهم وتبعوه. «من وضع يده على محراث ونظر إلى وراء لايصلح لملكوت الله».

إذا أصغينا إلى نداء المسيح، فيجب أن نتبعه دون شروط. كل هذا معروف جداً عن طريق الإنجيل، ولكن هذه الأقوال لم تكن ترد، في العصر الحديث، سوى نغمة قصة جنيات. ماذا يمكن أن يعني نداء في نثر وجودنا؟ أين ينبغي لنا أن نذهب، ومن يجب أن نتبع تاركين شباكنا؟

ومع ذلك، فإن النداء يتردد صداه حتى في عالمنا، شريطة أن يكون لنا سمع حاد. النداء غير منقول لنا بالتأكيد عن طريق البريد، كبرقية مضمونة. إنه يصل مقنّعاً، ونادراً مايأتي كتنكر وردي ومغرٍ. وقد كتب لوثر يقول: «ليس العمل هو الذي ستختار ضمنه، بل إن عليك أن تُخلص لما سيحدث ضد اختيارك، ضد فكرك وضد رغبتك، هناك هو طريقك، إلى هناك أدعوك، إلى هناك يجب أن تتبعني، من هناك مرّ معلمك...».

كان لدي كثير من الأسباب للتمسك بعملي كمعيد. فقد كان، وهو مريح نسبياً، يتضمن كثيراً من الوقت الحر لمتابعة دراستي ويَعِدُ، من أجل مابقي من أيامي، بوظيفة أستاذ في الجامعة. ولكن ما أصابني، على وجه الدقة، بالفزع هو أني كنت متمسكاً بوظيفتي. وزاد في إخافتي أني كنت أرى، آنذاك، عدداً من الأشخاص ذوي القيمة، مربين أو طلاباً، يُقصون بالقوة عن عملهم. خفت من أن أتشبث بوضْع جيد كانت منظوراته المضمونة تفصلني عن المصير المزعزع لأقراني. فهمت أن الإيحاءات الرامية إلى ترحيلي عن الكلية كانت «نداء». سمعت أحدهم يدعوني، أحد ما يحذرني ضد رخاء وظيفتي القادر على تكبيل فكري ومعتقدي وحتى وحيي.

زوجتي التي ولدت لي طفلاً كان عمره، آنذاك، خمس سنوات كانت بالتأكيد تلحّ علي بألف طريقة للدفاع عن نفسي، وعمل كل شيء من أجل البقاء في الكلية. كانت تفكر في الصبي الصغير، في مستقبل الأسرة، ولاشيء آخر كان له قيمة في نظرها.

عندما كنت أنظر إليها بملامحها الذابلة، كان ينتابني رعب من هذا العدد اللامتناهي من الهموم: هموم من أجل الغد، ومن أجل السنة القادمة، هموم من أجل كل الأيام وكل السنوات القادمة. كنت أخشى من كل هذا العبء وأسمع في روحي أقوال يسوع: «لاتهتموا إذن بالغد لأن الغد سيفكر بما لنفسه. لكل يوم مايكفي من المشقة».

كان أعدائي يظنون أنني سوف أتفتت عذاباً، وها أنا أحس بلا مبالاة غير متوقعة. يتخيلون أني سأحس بحريتي محددة، وكانت تلك بالضبط البرهة التي اكتشفت فيها لنفسي الحرية الحقيقية. فهمت أن ليس للإنسان مايخسره وأن مكانه هو في كل مكان، في كل مكان ذهب إليه يسوع، وهو مايعني: في كل مكان بين البشر.

استبقت بعد أن كنت في البدء مذهولاً ومسحوقاً، أذية خصومي وقبِلت الضرر الذي أنزلوه بي كنداءٍ حُلت رموزه.

5

يفترض الشيوعيون، بصورة دينية تماماً، أن الإنسان المذنب حيال الحزب يستطيع الحصول على الغفران إذا مضى ليعمل خلال بعض الوقت بين المزارعين أو العمال. وخلال السنوات التي تلت شباط، راح كثير من المثقفين يسلكون، على هذا النحو لمدة متفاوتة الطول، طريق المناجم والمصانع والورشات ومزارع الدولة التي كان يمكنهم أن يعودوا منها إلى الإدارات أو المدارس أو السكرتيريات بعد تطهيرٍ غامضٍ في جو تلك الأمكنة.

عندما عرضتُ على إدارة الكلية أن أرحل دون أن أطلب منحي وظيفة باحث علمي، راغباً على العكس من ذلك، بوظيفة في بيئة شعبية، مفضلاً وظيفة عامل متخصص في مكان ما ضمن مزرعة دولة، لم يفسر زملائي الشيوعيون، أصدقاءً كانوا أم خصوماً، خطوتي في اتجاه عقيدتي، بل في اتجاه عقيدتهم: فسروها بوصفها تجلياً لقابلية استثنائية للنقد الذاتي. وبما أنهم قدروا هذه الخطوة، فقد ساعدوني على إيجاد مكان ممتاز في مزرعة دولة في بوهيميا الغربية، مع مدير طيب ومشهد جميل. وُضعت لي، كزاد سفر، بطاقة بعلامات شخصية مدّاحة بشكل فريد.

غمرني عملي الجديد بفرح حقيقي. كنت أحس بنفسي أولد من جديد. كانت مزرعة الدولة قد أنشئت في كومونة مهجورة، قريبة من الحدود وبالكاد أُعيد سكنى نصفها بعد نفي السكان الألمان نتيجة للحرب. تمتد حولها، تماماً، هضاب اقتلعت أشجار معظمها وغطيت بمراع، وبيوت قرى صغيرة تتناثر في قعر الأودية. وكانت الغيوم السائدة فوقها تتوضع كحاجز متحرك بيني وبين الأرض المسكونة بحيث أن العالم كله يبدو في يوم الخليقة الخامس، عندما كان الله مايزال يتردد فيما إذا كان سيعهد به للبشر.

حتى البشر أنفسهم كان لديهم المزيد من الصلابة. كانوا يواجهون الطبيعة ذات الأعشاب التي ليس لها حدود، يواجهون قطعان البقر والحملان. كنت أتنفس جيداً في صحبتهم. وسرعان ماوافتني الأفكار حول أفضل مايمكن استخراجه من نبات هذه المشاهد كثيرة الأودية: سماد، تخزين عقلاني للأعلاف، حقول تجريبية لنباتات طبية. كان المدير ممتناً لمبادراتي، وكنت أنا أكنُّ له عرفاناً بالجميل، لأنه يسمح لي بأن أكسب خبزي بعمل مفيد.

6

كنا في صيف 1951 . كان أيلول بارداً، ولكن الجو عاد إلى الدفء حوالى منتصف تشرين الأول، وكان الخريف جميلاً حتى وقت متأخر من تشرين الثاني. أخذت الأكوام التي تجف على جانب المرج تنشر رائحتها في الجوار. بدا جسم السرخسيات النحيل يلمع في العشب. وفي أكواخ الجوار بدؤوا يتحدثون عن المتشردة الفتية.

كان أطفال قرية مجاورة قد ذهبوا إلى المراعي المحصودة. وفي حين كانوا يتبادلون، بصخب كبير، رواية قصصهم، لاحظوا فتاة خارجة من كومة، مشعثة الشعر وقد علقت عشيبات في شعرها، فتاة لم يسبق لأحد منهم أن رآها هنا. وقد تلفتت خائفة إلى كل الجهات قبل أن تهرب باتجاه الغابة. ولم يكادوا يفكرون في الركض وراءها حتى كانوا قد فقدوا أثرها.

وأضيفت إلى ذلك رواية فلاحة من المنطقة نفسها: فذات بعد ظهيرة عندما كانت منهمكة بعملها في الباحة، ظهرت صبية في حوالى العشرين من عمرها بمعطف مهترئ جداً طالبة إليها، خافضة رأسها، قطعة خبز. قالت لها المرأة: «أين تذهبين إذن هكذا؟». ردت الفتاة بأن أمامها درباً طويلاً. «وتفعلين ذلك مشياً على الأقدام؟». ردت قائلة: «لقد فقدت المال الذي بقي معي». لم تلح الفلاحة وأعطتها خبزاً وحليباً.

ثم روى راعينا قصته بدوره. ففي ذات مرة، في المرتفعات، وضع شطيرته وجرة حليبه على أرومة. وكان قد ابتعد برهة مع قطيعه ولما عاد كان الخبز قد اختفى مع الجرة، بشكل غامض.

استولى الأطفال فوراً على هذه الأخبار التي كان خيالهم يضاعفها بنهم. كان يكفي الإعلان عن فقدان شيء ما ليجدوا في ذلك تأكيداً لوجود المجهولة. كان الماء بارداً جداً في بداية تشرين الثاني هذه، ومع ذلك شاهدوها، لدى دنو المساء، تستحم في مستنقع غير

بعيد عن القرية. وفي مرة أخرى سُمِعَ مساءً في مكان ما بعيد غناء خافت لصوت أنثوي. ادّعى الراشدون أن جهاز راديو قد وضع في أحد الشاليهات على المنحدرات، ولكن الأطفال كانوا يعلمون جيداً أنها كانت هي المتوحشة التي تمشي فوق القمم، مجنونة الشعر، وتغني.

وفي مساء آخر، صنعوا ناراً من أوراق الأشجار اليابسة في حقل، وألقوا بحبات بطاطا في الرماد الحار. ثم نظروا نحو طرق الغابة، وهتفت بنت صغيرة بأنها رأتها تراقبهم في الظلمة. ولدى هذه الكلمات، التقط صبي قطعة من الطين وألقى بها في الاتجاه الذي أشارت إليه البنت الصغيرة. والطريف أنه لم تسمع أية صرخة، ولكن حدث شيء آخر. فقد عَنَّفَ كل الأطفال من ألقى بقطعة الطين وكادوا ينقضون عليه.

نعم، كانت الأمور هكذا: لم توقظ التائهة الشابة أبداً القسوة الطفلية المعتادة على الرغم من السرقات الصغيرة التي ارتبطت بالفكرة المكونة عنها. كانت قد كسبت، منذ اللحظة الأولى، ضروب تعاطف خفية. هل مست براءة سرقاتها التافهة القلوب؟ أم كانت يد ملاك تحميها؟

وسواء أكان الأمر هذا أم ذاك، فإن قطعة الطين التي أُلقي بها أشعلت حب الأطفال للشريدة. وعندما غادروا نارهم المحتَضرة، تركوا قربها كومة من البطاطا المشوية تحت سرير من جمرات صغيرة للإبقاء عليها فاترة، ووضعوا غصناً من الصنوبر فوقها. بل إنهم وجدوا اسماً للفتاة. فعلى ورقة انتزعت من دفتر، كتبوا بحروف كبيرة: هذا لك ياشريدة. وضعوا الورقة قرب الكومة مع تلعة طين فوقها، ثم ذهبوا ليكمنوا بين الأشواك لمتابعة اقتراب الطيف الخائف. تكاثف المساء إلى ليلٍ ولم يظهر أحد. وكان على الأطفال أن يخرجوا أخيراً من مكامنهم ليعودوا إلى بيوتهم. ولكنهم عادوا جميعاً راكضين، مبكرين إلى الحقل في اليوم التالي. كانت حبات البطاطا قد اختفت هي والورقة والغصن.

أصبحت الفتاة جنية يدللها الأطفال. كانوا يضعون لها جرة صغيرة من الحليب، خبزاً، بطاطا، مع رسائل صغيرة. كانوا يغيرون في كل مرة مكان هداياهم. يتجنبون أن يضعوا لها غذاءها في مكان ثابت، كما قد يُصنع مع متسول. كانوا يلعبون معها لعبة البحث عن الكنز. يبتعدون انطلاقاً من المكان الذي وضعوا فيه لأول مرة حبات البطاطا المشوية، شيئاً فشيئاً، عن القرية ويغوصون في البرية. يدعون كنوزهم قرب أرومات، في أسفل صخرة، قرب تلة، قرب نبتة نسرين. لم يبوحوا لأحد بمخابئهم. حاذروا من أي خرق في نسيج هذه اللعبة العنكبوتي، فلم يتجسسوا قط على «شريدة»، ولم يسدوا عليها الطريق قط. قبلوها غير مرئية.

7

لم تستمر هذه القصة أبداً. فقد مضى مدير مزرعتنا، ذات يوم، بصحبة رئيس اللجنة الوطنية للكومونة، بعيداً في المرتفعات، من أجل وضع كشف بعدة منازل غير مسكونة كان يُراد تحويلها إلى مهاجع لعمال زراعيين يشتغلون بعيداً عن المدينة. وفي الطريق فاجأهم مطر غزير. لم يكن في الجوار سوى أجمة من الراتنجيات مع أهراء صغير إلى جانبها. هرعا إليه وانتزعا الوتد الذي يُستعمل قفلاً واندفعا إلى الداخل. كان الضوء يدخل من الباب، كما من شقوق السقف. وفي ركن كان العلف محفوراً على شكل سرير. تمددا هناك. كان يستمعان إلى صوت ارتطام قطرات المطر على السقف ويتنفسان العطر المسكر ويثرثران. وفجأة لمس الرئيس وهو يغوص بأصابعه في حائط العلف الذي يرتفع إلى يمينه، تحت أغصان يابسة، سطحاً قاسياً. كانت حقيبة صغيرة بالية من الورق المقوى الرخيص. لاأدري كم تردد الرجلان أمام اللغز. لكن الذي لاشك فيه هو أنهما فتحا الحقيبة حيث اكتشفا أربعة فساتين جديدة، رائعة لفتاة. كان مظهر هذه الملابس الجميل يتباين، كما يبدو، بشكل غير متوقع مع مظهر الحقيبة المهترئ، وأوحى بشبهة السرقة. وكانت الفساتين تغطي قليلاً من الملابس الداخلية النسائية ورزمة من الرسائل مربوطة بشريط أزرق. وهذا كل شيء. وحتى هذه الساعة، لم أعلم شيئاً عن هذه المُراسلة، بل وأجهل ما إذا كان المدير والرئيس قد أطلعا عليها. أعلم فقط أنها كشفت اسم المُرسل إليه: لوسي سيبتكوفا.

عندما تأمل كلاهما، تأملاً كافياً، ماوجداه، اكتشف الرئيس شيئاً آخر في العلف، جرة حليب مقشورة، جرة الخزف الأزرق التي كان راعي المزرعة يروي، كل مساءٍ، منذ خمسة عشر يوماً، في الحانة، عن فقدانه الغامض لها.

وبعد ذلك، تابع الأمر مجراه. كَمَنَ الرئيس للفتاة في الحرج الصغير، في حين عاد المدير إلى البلدة وأرسل دركياً منها. وعندما حل الظلام، عادت الفتاة إلى ملجئها الفواح بالرائحة. تركاها تدخل وتغلق الباب خلفها، وصبرا نصف دقيقة ثم دخلا بدورهما.

8

الرجلان اللذان أوقعا لوسي في الشرك داخل أهراء الأعلاف كانا شخصين طيبين. الرئيس، وهو عامل زراعي سابق، كان رجلاً شريفاً، أباً لستة أطفال. أما بالنسبة للدركي، فقد كان ريفياً ساذجاً ورجلاً طيباً بشاربين كبيرين. لم يكن لاهذا ولاذاك ليؤذيا ذبابة.

ومع ذلك. فقد أحسست بعذاب غريب عندما عَلِمتُ كيف قُبض على لوسي. ومازال قلبي، حتى اليوم، يختنق عندما أتصور الرئيس والمدير ينقبان في حقيبتها ويمسكان، بين أيديهما، بكل حميميتها المجسدة مادياً، بالأسرار العذبة لغسيلها المتسخ، وينظران حيث لاينبغي أن ينظرا.

والعذاب نفسه يتملكني للصورة الأخرى، صورة هذا الوكر الهش من العلف دون أية وسيلة للهرب، على اعتبار أن المَخْرج الوحيد قد سده ماردان طويلا القامة.

وفيما بعد، وعندما عرفت قصة لوسي بصورة أفضل، فهمتُ بدهشة، أن جوهر مصيرها نفسه كان قد انكشف، آنذاك، فوراً، أمامي من خلال هاتين الصورتين المعذبتين. هاتان الصورتان كانتا تمثلان موقف اغتصاب.

9

تلك الليلة، لوسي لم تنم في الأهراء، بل على سرير نُصِب في دكان مهجور كان مخفراً لهيئة الأمن. وفي الغد، اسْتجوبت في اللجنة الوطنية. عُلم أنها كانت تعمل، حتى ذلك الحين، في أوسترافا حيث تقيم. وقد هربتْ منها لأنها ما عادت تستطيع مزيداً من الصمود فيها. وعندما أرادوا تدقيقات، اصطدموا بصمتٍ عنيد.

لماذا الهرب حتى هنا، في بوهيميا الغربية؟ قالت إن أهلها يسكنون شيب. لماذا لم تعد إليهم؟ كانت قد نزلت من القطار قبل الوصول إلى هذه المدينة مذعنة لهلع شديد. فأبوها لم يعرف قط سوى ضربها.

صرح رئيس اللجنة الوطنية للوسي بأنهم سيعيدونها إلى أوسترافا التي رحلت عنها دون استئذان، كما كان يجب أن تفعل. فقالت لهم لوسي إنها ستغادر القطار عند أول محطة. صرخوا قليلاً، ولكنهم لم يلبثوا أن فهموا أن ذلك لن يجدي نفعاً. طلبوا إليها بالتالي عما إذا كان يجب إرسالها إلى شيب، فهزت رأسها بقوة. كانوا قاسين عليها، برهة صغيرة أخرى، ثم أذعن الرئيس لطيبته. «ماذا تريدين إذن؟». أرادت أن تعرف ما إذا كانت تستطيع أن تبقى وتجد عملاً هنا. هزوا أكتافهم وأجابوا بأنهم سيرون ذلك في مزرعة الدولة.

كانت ندرة العمال تسبب للمدير صعوبات دائمة. ولذلك قَبِلَ دون تردد اقتراح اللجنة الوطنية. وأعلن لي بعد ذلك أني سأتلقى، من أجل الدفيئة، العاملة التي كنت أطالب بها منذ زمن طويل. وفي اليوم نفسه، جاء رئيس اللجنة الوطنية ليقدم إليّ لوسي.

أتذكر جيداً ذلك اليوم. كانت نهاية تشرين الثاني تقترب، وبعد أسابيع من الشمس، جاء الخريف ليُظهر وجهه، وجه الريح والمطر. كانت السماء تمطر رذاذاً. وقفت لوسي إلى جانب الرئيس بمعطف

كستنائي وحقيبة في يدها، محنية الرأس، لامبالية العينين. كان يمسك بيده إناء الحليب الأزرق وأعلن رسمياً: «إذا كُنْتِ قد فعلت شيئاً سيئاً، فقد سامحناك ونحن نمنحك ثقتنا. كان بإمكاننا أن نعيدك إلى أوسترافا، ولكننا ندعك هنا. الطبقة العاملة تحتاج إلى أناس شرفاء في أي مكان. حاولي أن لاتخيبي أملها!».

وفي حين ذهب ليودع إناء الحليب العائد لراعينا في المكتب، قدت لوسي إلى الدفيئة وقدمتها لرفيقي عملها وأوضحت لها مهمتها.

10

كشفت لوسي، في ذاكرتي، كل ماكنت أعيشه آنذاك. ففي ظلها، غامت قامة رئيس اللجنة الوطنية التي كانت، مع ذلك، جلية. عندما كنت في الأمس أمامي، في هذا المقعد يالودفيك، لم أرد أن أسيء إليك. أما الآن وأنت معي من جديد، كما ألفتك أكثر الألفة، كصورة، كسحابة، فسوف أقول لك: إن هذا العامل الزراعي القديم الذي كان يريد بناء فردوس لرفاقه في البؤس، هذا الرجل الشريف الذي كان يتلفظ، بحماسة ساذجة بالكلمات الكبيرة، كلمات العفو والثقة والطبقة العاملة، هو أقرب بكثير إلى قلبي وفكري منك، على الرغم من أنه لم يُظهر قط لي حظوة شخصية.

كنت تدّعي في السابق بأن الاشتراكية قد نبتت على جذع العقلانية والريبية الأوروبيتين، خارج الدين أو ضده، وأنه ليس بالإمكان تصورها خلاف ذلك. ولكن أما زلت تريد أن تدّعي، جدياً، أنه مامن وسيلة لبناء مجتمع اشتراكي دون الإيمان بأولوية المادة؟ هل أنت متأكد حقاً من كون رجال يؤمنون بالله لايستطيعون تأميم المصانع؟

أنا واثق ثقة مطلقة من أن السلالة الروحية التي تعلن انتماءها إلى رسالة يسوع تقود إلى المساواة الاجتماعية والاشتراكية بصورة أكثر طبيعية. وعندما أتذكر أكثر شيوعيي الفترة الاشتراكية الأولى، حماسة، في بلادي، كهذا الرئيس الذي عَهِد إلي بلوسي مثلاً، فإن هؤلاء الناس يبدون لي أقرب بكثير إلى المتدينين الغيورين منهم إلى الفولتيريين الشكاكين. لم يكن للعهد الثوري بعد 1948 شيء كبير مشترك مع الريبية أو العقلانية. كان زمن العقيدة الجماعية. والإنسان الذي كان يسير مع ذلك العهد، موافقاً عليه، كان مسكوناً بإحساسات قوية قريبة من تلك التي يوفرها الدين: يتخلى عن ذاته وعن مصلحته، عن حياته الخاصة من أجل شيء أسمى، متجاوزِ

للشخصية. من المؤكد أن لأطروحات الماركسية أصلاً زمنياً، ولكن المدى الذي كان يُعترف لها به يشبه مدى الإنجيل ووصايا التوراة. كانت تخلق لنفسها دائرة أفكار لاتمس، وبالتالي مقدسة، كما في مصطلحاتنا.

هذا العهد الذي يقلع أو الذي مضى من قبل، كان فيه شيء من روح الديانات الكبرى. ومن المؤسف أنه لم يعرف كيف يقود معرفته الدينية للذات حتى نهايتها! كان له من الدين، حركاته وأحاسيسه، ولكنه بقي من الداخل أجوف ودون إله، ومع ذلك، كنت أؤمن دائماً بأن الإله سيرأف، سيجعل نفسه يُعرف، وبأنه سوف يقدس في النهاية، هذه العقيدة الزمنية الكبيرة. كنت أنتظر عبثاً.

هذا العهد خان، في النهاية، روحه الدينية ودفع نفقات التراث العقلاني الذي لم تكن تنتمي إليه إلا لأنها لم تكن تفهم نفسها. العقلانية الريبية تَحتّ، منذ قرون، في المسيحية. إنها تحتّها، ولكنها لن تدمرها. أما بالنسبة إلى النظرية الشيوعية، وهي من عمل العقلانية، فإنها ستمحوها خلال بضعة عقود. لقد قتلتها فعلاً. وأنت يالودفيك تعرف ذلك جيداً.

11

عندما ينجح البشر في الهرب إلى مملكة الحكايا، أنذاك يمكن أن يتفق لهم أن يمتلئوا نبلاً وحنواً وشعراً. أما في مملكة الحياة اليومية، فتسيطر عليهم للأسف التحفظات والريبة والشكوك. على هذا النحو تصرفوا مع لوسي. فمنذ أن خرجت من أمبراطورية حكايات الأطفال وأصبحت فتاة حقيقية تشارك العاملات الأخريات مشاغلهن ونومهن، صارت فجأة هدف فضول غير مجرد من الخبث الذي يحتفظ به البشر للملائكة التي رفضتها السموات، وللجنيات المطرودات من حكاية.

لم يخدم لوسي طبيعتها الصامتة أبداً. فقد تلقت مزرعة الدولة ملف خدمتها، من أوسترافا، بعد شهر. وكشفت لنا ملاحظات الملاكات عن كونها قد عملت، قبل كل شيء، كحلّاقة متدربة في شيب. وعلى أثر مخالفة للأخلاق الحسنة، قضت سنة في بيت إصلاح ثم ذهبت بعد ذلك إلى أوسترافا. وتأكدت فيها صفاتها كعاملة، دون مساءلة. وكان سلوكها، في البيت الذي تسكنه، مثالياً. وكانت قبل اختفائها قد اقترفت جنحة واحدة غريبة تماماً: فقد قُبض عليها وهي تسرق زهوراً من المقبرة.

كانت المعلومات مقتضبة وبعيدة عن جلاء سر لوسي، بل جعلته أكثر غموضاً من ذي قبل.

كنت قد وعدت المدير بالاهتمام بلوسي. كانت تجتذبني. فهي تمنح نفسها لعملها صامتة. كان في خفرها هدوء. لم أكن ألاحظ لديها أية علامة من علامات غرابة يمكن توقعها من صبية عاشت عدة أسابيع متشردة. راحت تصرح بأنها مرتاحة في المزرعة وبأنها لم تكن تنوي الرحيل عنها. كانت وهي العذبة، السريعة الانصياع في أية مشادة، قد حصلت على رعاية رفيقاتها. ولم يمنع ذلك كون صمتها قد احتفظ بما لاأدري من علامة مصير مؤلم وروح

معذبة. لم أكن أتمنى سوى سماعها تعترف أمامي، ولكني كنت أعلم أنها واجهت في حياتها أسئلة كثيرة كان ينبغي أن تذكرها بصورة استجواب. ولذلك لم أسألها عن شيء ورحت، أنا نفسي، أروي. كنت أتحدث إليها كل يوم. أشرح لها مشاريعي لخلق حقل نباتات طبية في المزرعة. رويت لها أن الفلاحين كانوا في الماضي يعالجون أنفسهم بغلي نباتات مختلفة أو نقعها. حدثتها عن البلّان الذي استعمل ضد الكوليرا والطاعون، عن كاسر الحجر[1] الذي يكسر الحصى في المثانة وقناة الصفراء. كانت لوسي تصغي. فهي تحب النباتات. ولكن، يالها من بساطة مقدسة! لم تكن تعرف عنها شيئاً، وهي عاجزة عن أن تسمي واحدة منها.

هجم الشتاء، ولم يكن لدى لوسي، باستثناء فساتينها الصيفية الجميلة، ماترتديه. ساعدتها على توزيع ماليتها وأخذتها لشراء معطف واق من المطر وكنزة، ثم أشياء أخرى أيضاً: أحذية، منامة، جوارب، معطف سميك...

سألتها يوماً عما إذا كانت تؤمن بالله. بدا لي جوابها جديراً بالملاحظة. لم تقل نعم ولم تقل لا. لم تكد أن تهز كتفيها وقالت: «لاأعلم». سألتها عما إذا كانت تعرف يسوع المسيح. قالت نعم. وفي الواقع، كانت تجهل كل شيء عنه. إن اسمه يرتبط، بالنسبة إليها، ارتباطاً مبهماً بعيد الميلاد، بضباب تصوّرين أو ثلاثة لم تكن تؤلف أي معنى. لم تكن لوسي قد عرفت حتى الآن لا الإيمان ولا الإلحاد. أحسست بدوار ربما يشبه دوار عاشق عندما يكتشف أن أي جسد ذكري لم يسبقه إلى حبيبته. اقترحت عليها قائلاً: «أتريدين أن أحدثك عنه؟». أبدت إشارة موافقة. كانت المراعي والهضاب مغطاة، من قبل، بالثلج. رويت. وكانت لوسي تصغي...

---

(1) كاسر الحجر: هو نوع من النبات من ذوات الفلقتين، كثيرة التويجات.

12

كان ذلك ثقيلاً على كتفيها الهشين. فهي بحاجة إلى من يساعدها، ولكن أحداً لم يعرف كيف يفعل. النجدة التي يقترحها عليك الدين يالوسي بسيطة: امنحي ذاتك، امنحي ذاتك مع عبئك الذي يجعلك تترنحين. هناك راحة كبيرة في هبة الذات. أعلم أنه لم يكن عليك أن تهبي ذاتك، لأنه ليس لديك من تهبينه هذه الذات، لأنك كنت تخافين من الناس. ولكن هناك الله. هبي له ذاتك وسوف تحسين بنفسك خفيفة.

هبة الذات تعني طرح الحياة السابقة، سحبها من النفس، الاعتراف. قولي يالوسي، لماذا هربت من أوسترافا؟ أبسبب تلك الزهور على قبر؟

أيضاً.

ولكن، لماذا أخذتها؟

لأنها حزينة. كانت تضعها في إناء في غرفتها. تقطف منها أيضاً من الطبيعة، إلا أن أوسترافا مدينة سوداء، لاطبيعة فيها. ليس فيها سوى بقايا معدنية وسياجات وأراض بور وحرج صغير، هنا وهناك، مليء بالقار. لم تكن لوسي تجد زهوراً جميلة إلا في المقبرة. كانت زهوراً مهيبية، زهوراً رسمية، زهور غلايول، وروداً أو زنابق. ثم هناك أقحوانات وكرات تويجاتها الهشة الثقيلة...

وكيف أمسكوا بك؟

غالباً ماكانت تذهب إلى المقبرة، فقد كان المكان يروق لها. ولم يكن ذلك من أجل الباقات التي تأتي بها منها بل من أجل السكينة، تلك السكينة تريحها. كان كل قبر، في حد ذاته، حديقة صغيرة. آنذاك، كانت تتوقف عند كل قبر، بشاهدته وكتاباته الكئيبة. ومن أجل ألّا يضايقها أحد، صارت تقلد طرق بعض الزوار، وخاصة

المسنين منهم، جاثية عند القبور. وفي ذات مرة، راق لها وجودها أمام قبر مازال حديثاً. كان النعش قد دفن فيه منذ أيام قليلة، والتراب مايزال ندياً مغطى بالأكاليل، ورأت في المقدمة باقة ورد في إناء. كانت لوسي جاثية على ركبتيها وفوقها صفصافة باكية، كقبة سماوية حميمة ومتمتمة. بدت ذائبة في سعادة لايُعبَر عنها. وفي اللحظة نفسها، اقترب سيد عجوز وزوجته. ربما كان هذا قبر ابنهما أو أخيهما، من يعلم! رأيا صبية مجهولة جاثية قرب القبر. دهشا. من تُراها تكون؟ بدا لهما هذا الظهور يكشف عن سر، سر عائلي. ربما هي قريبة لم يكونا قد رأياها قط أو أنها عشيقة للمرحوم... توقفا، لم يجرؤا على إزعاجها. راحا ينظران إليها من بعيد. هاهي تنهض وتسحب من الإناء باقة الورود الجميلة التي كانا، هما ذاتهما، قد وضعاها فيه مؤخراً، ودارت على عقبيها وابتعدت. اندفعا إذ ذاك خلفها. سألاها: من أنت؟ لم تكن تعرف ماذا تقول، وأخذت تتلعثم من ارتباكها. اكتشفا أنها تجهل كل شيء عن فقيدهم. ناديَا البستانية لنجدتهما وطلبا من الفتاة أوراقها. عنفاها بصرخات عالية وأعلنا أنه ليس هناك أبشع من سرقة الموتى. أكدت البستانية أن تلك لم تكن أول سرقة للزهور من مقبرتها. استدعوا شرطياً وأُنهكت لوسي من جديد بالأسئلة، واعترفت بكل شيء.

13

قال يسوع: «... ودع الموتى يدفنون موتاهم». زهور القبور تخص الأحياء. لم تكوني يالوسي تعرفين الله، ولكنك كنت تتوقين إليه. كنت تجدين في جمال الزهور الطبيعية الكشف عن المتجاوِز للطبيعة. لم تكوني في حاجة إلى هذه الزهور من أجل أحد. كانت لكِ وحدك، للفراغ في روحك. وأمسكوا بك وأذلوك. ولكن، هل هذا هو السبب الوحيد الذي هربت من أجله من المدينة السوداء؟

سكتت. ثم أومأت برأسها نفياً.

هل أذاك أحد؟

أومأت برأسها موافقة.

تحدثي يالوسي!

كانت الغرفة صغيرة جداً. وكان في السقف مصباح دون غطاء واقٍ من النور، عارٍ، فاحش، تتدلى بلورة مائلة من غلافه. ويلاصق الجدار سرير علقت فوقه صورة، وداخل الصورة كان رجلٌ جميل، بجلباب أزرق طويل، جاثياً. كانت تلك صورة «بستان الجثمانية»، ولكن لوسي لم تكن تعرف ذلك. قادها إذن إلى هناك، ودافعت عن نفسها وصرخت. كان يريد اغتصابها، ونزع عنها ثيابها، ولكنها أفلتت منه وهربت بعيداً.

من هو يالوسي؟

جندي.

هل كنت تحبينه؟

كلا، لم تكن تحبه.

ولكن، لماذا إذن ذهبت معه، إلى هذه الغرفة التي لم يكن فيها سوى مصباح عار وسرير؟

كان ذلك الفراغ في روحها هو الذي اجتذبها إليه. ولم تجد البائسة، لتملأ هذا الفراغ، سوى غرٍّ يؤدي خدمته العسكرية.

ومع ذلك لاأستطيع جيداً أن أفهم يالوسي لماذا هربت منه، مادمت قد تبعته، قبل ذلك، إلى هذه الغرفة التي لم يكن فيها إلّا سرير؟

كان شريراً وقاسياً كالآخرين.

عمن تتحدثين يالوسي؟ من هم كل الآخرين؟

سكتت.

من عَرِفْتِ قبل الجندي؟ تكلمي يالوسي، قولي!

14

كانوا ستة وهي وحدها، ستة بين السادسة عشرة والعشرين. وهي في السادسة عشرة. كانوا يشكلون عصابة يتحدثون عنها باحترام، كما لو أنها طائفة وثنية. في ذلك اليوم، كانوا قد تلفظوا بكلمة التأهيل. لقد جلبوا عدة زجاجات من الخمر الرديء. اشتركت في السكرة بخضوع أعمى صبّت فيها كل حبها غير المرتوي لأمها وأبيها. شربت عندما شربوا. وضحكت عندما ضحكوا. ثم أمروها بأن تخلع ثيابها. لم تفعل ذلك قط في حضورهم. ولكن، بما أن رئيس العصابة قد تعرى أمام ترددها فقد فهمت أن الأمر لم يكن موجهاً ضدها أبداً، فنفذته بانصياع، واثقة بهم، واثقة حتى بفظاظتهم نفسها. كانوا ملجأها، درعها، ولم تكن تستطيع أن تتصور فقدانها إياهم. كانوا أمها وأباها. شربوا وضحكوا وأعطوها أوامر أخرى. باعدت ما بين ساقيها. كانت خائفة، وهي تعلم ماذا يعني ذلك، ولكنها أطاعت. أطلقت صرخة وسال الدم منها. كان الغلمان يصرخون ويصبون خمراً فواراً رديئاً على ظهر رئيسهم وجسد لوسي الهش، على مابين فخذيها، وهم يتلون صيغ معمودية ومساررة مبهمة. وعند ذلك، تركها الرئيس وعاد إلى الوقوف، في حين تعاقبت عليها العصابة، واحداً بعد الآخر، بترتيب العمر، الأصغر في النهاية. وكان في السادسة عشرة مثلها، ولم تعد لوسي تستطيع تحمل الألم، وكانت تواقة إلى الراحة، إلى العزلة، وبما أنه الأصغر، فقد تجرأت على صده. ولكنه، من جانبه، وعلى وجه الدقة لأنه الأصغر، لم يكن يفهم أن يهان. إنه عضو كامل العضوية في العصابةً أراد أن يثبت ذلك، فصفع لوسي، ولم يرفع أحداً إصبعه الصغير للدفاع عنها لأنهم كانوا يعلمون جميعاً أن الصغير على حق وإنه كان يلح في طلب مايستحق. كانت الدموع قد نفرت من عيني لوسي، ولكنها لم تجرؤ على المقاومة، وفتحت ساقيها إذن للمرة السادسة.

أين حدث ذلك يالوسي؟

في بيت أحد أفراد العصابة. فقد كان أبواه يعملان في الفرقة الليلية. كان هناك مطبخ وغرفة، وفي الغرفة طاولة وأريكة وسرير. وفوق الباب لوحة كتب عليها: «فليمنحنا الله السعادة!». وفوق السرير هناك إطار فيه صورة سيدة جميلة في ثوب أزرق تضم طفلاً إلى صدرها.

العذراء مريم؟

لم تكن تعلم.

وبعد، ماذا جرى يالوسي بعد ذلك؟

بعد ذلك تكرر الأمر في المسكن نفسه، ثم في مساكن أخرى، وفي الخارج أيضاً، في الغابات. فقد أصبح ذلك عادة بالنسبة للعصابة.

أكان هذا يروق لك يالوسي؟

كلا! كانوا يعاملونها بطريقة متزايدة السوء، يتزايدون فظاظة، لكن لم تكن هناك وسيلة للخروج، لاللتقدم ولاللتراجع.

وكيف انتهى ذلك يالوسي؟

ذات مساء داهمهم البوليس في واحد من هذه المساكن الخالية واقتاد الجميع. كان فتيان العصابة قد اقترفوا بعض عمليات السطو. لم تكن لوسي مطلعة على ذلك، وكان معروفاً عنها أنها تعاشر العصابة وتمنحها كل ماتستطيع بنت أن تمنحه. كانت عار كل مدينة شيب. وفي بيتها، ضُربت ضرباً مبرحاً. وحصد الصبيان عقوبات متنوعة، وأرسلت هي إلى إصلاحية. وبقيت هناك سنة إلى أن بلغت السابعة عشرة. وبعد ذلك، لم تودّ، بأي ثمن، العودة إلى أسرتها. وعلى هذا النحو وصلت إلى المدينة السوداء.

15

فوجئتُ واضطربتُ عندما كشف لي لودفيك، في الهاتف، قبل أمس، أنه كان يعرفها. لم يكن، لحسن الحظ، يعرفها أكثر من معرفة مجرد رؤية. فربما كان له، في أوسترافا، شأن مع فتاة كانت تسكن في البيت نفسه. وفي الأمس أمام سؤال جديد من جانبه، قصصت عليه كل شيء. كنت، منذ زمن طويل، في حاجة لأن أحرر نفسي من هذا العبء، ولكن ما كان هناك من أحدٍ أبوح له دون خوف. إن لدى لودفيك شيئاً من التعاطف معي، وهو في الوقت نفسه، بعيد بعداً كافياً عن حياتي، وأبعد من ذلك عن حياة لوسي. فلم يكن لي ماأخشاه على سر لوسي إذن.

كلا! لم أبح باعترافات لوسي لأحد، باستثناء لودفيك أمس. ومع ذلك، فإن كل الناس، في المزرعة، قد عرفوا الحقيقة حول الإصلاحية وزهور المقبرة من استمارات إدارة الملاكات. كانوا لطفاء جداً معها، ولكنهم كانوا يذكرونها بماضيها باستمرار. بالنسبة للمدير، كانت «سارقة القبور الصغيرة». وعبثاً قال ذلك دون خبث، فمثل هذه الأقوال كانت تجعل خطايا لوسي القديمة حاضرة أبداً. كانت، دائماً وباستمرار، مذنبة، في حين لم تكن تحتاج حاجة ملحة إلاّ إلى غفران كلي. نعم يالودفيك، الغفران هو ماكان يلزمها، كان يلزمها هذا التطهير الغامض الذي لاتعرفه أنت ولاتفهمه.

لم يكن الناس، بالفعل، يعرفون العفو من تلقاء أنفسهم، بل إن ذلك لم يكن في مقدورهم. إنهم عاجزون عن محو الخطيئة التي اقتُرفت. فهذا يتجاوز قدرات الإنسان وحدها. فالعمل على أن لاتُحسب الخطيئة، علىأن تمحى وتشطب من الزمن، وبعبارة أخرى تحويل شيء إلى عدم، هو فعل لايمكن الوصول إليه، يتجاوز الطبيعة. الله وحده يستطيع أن يغسل الخطايا، يحولها إلى عدم، يغفرها لأنه يفلت من قوانين هذا العالم لأنه حر ويستطيع أن يخلق

معجزات. وليس للإنسان القدرة على الغفران للإنسان إلا بالاستناد إلى الغفران الإلهي.

إلاّ أنك يالودفيك لاتعرف كيف تعفو لأنك لاتؤمن بالله. أنت مهووس بهذا الاجتماع العام حيث ارتفعت أيد، بالإجماع، ضدك، موافقة على تدمير حياتك. لم تغفر لهم ذلك قط. ولم يقتصر عدم غفرانك على كل منهم. لقد كانوا حوالى مئة، أي عدداً يمكن أن يمثل نوعاً من نموذج مصغر للبشرية. ولم تغفر أبداً للجنس البشري. ومنذ ذلك الحين، سحبت منها ثقتك وأغدقت عليها كراهيتك. وحتى لو استطعت أن أفهمك، فإن ذلك لن يغير شيئاً من كون مثل هذه الكراهية المنذورة للبشر مرعبة وخاطئة. لقد أصبحت لعنتك. ذلك أن العيش في عالم لايُغفر فيه لأحد، يُرفض فيه الخلاص، هو كالعيش في الجحيم. أنت تعيش في الجحيم يالودفيك وأنا أرثي لك.

16

كل ماينتمي في هذه الأرض إلى الله، يمكن أن ينتمي إلى الشيطان، حتى حركات العشاق في الحب. لقد أصبحت، بالنسبة للوسي، حلقة البشاعة. كانت تمتزج لديها مع وجود مراهقي العصابة المتوحشة، ثم فيما بعد مع وجه الجندي الهائج. أوه! إني أراه بوضوح كما لو كنت عرفته! إنه يخلط الكليشات العشقية، المسكرة، العذبة، مع الوحشية الدنيئة لذكر محروم من الإناث وراء أسلاك الثكنة الحديدية! ولوسي تكتشف فجأة، أن الكلمات الحانية ليست سوى برقع خداع على جسم الفظاظة الحيواني. وينهار عالم الحب الكامل أمامها، وينزلق في إناء القرف.

كنت قد عرفت الدمّل، وهنا كان يجب أن أبدأ. إن جوّال الشاطئ الذي يمتشق فانوساً في طرف ذراعه بحماسة، قد يكون معتوهاً. ولكن هذا الرجل منقذ عندما تقسو الأمواج في الليل على قاربٍ فقد اتجاهه. الكوكب الذي نعيش عليه هو منطقة حدود بين السماء وجهنم. مامن عمل يكون جيداً أو سيئاً في حد ذاته. مكانه في النظام هو وحده الذي يجعله خيراً أو شراً. وكذلك، فإن العلاقات الجسدية يالوسي، ليست في حد ذاتها، فضيلة ولا رذيلة. إذا تناغمتِ مع النظام الذي أقامه الله، إذا أحببتِ حباً وفياً، فإن الحب الشهواني نفسه سيكون بركة، وستصبحين سعيدة. ذلك أن الله قرر: «فليترك الرجل أباه وأمه ويلتحق بامرأته، فيصيران جسداً واحداً».

يوماً بعد يوم، كنت أتحدث مع لوسي مكرراً لها، كل مرة، أنه قد غُفر لها، وليس عليها أن تتعذب، بل ينبغي عليها أن تحل رباط قميص المجانين عن روحها، ويجب أن تستند بتواضع إلى النظام الإلهي حيث سيجد الحب الجسدي نفسه مكانه.

وكانت الأسابيع تمضي...

ثم أشرقت شمس يوم ربيعي. كانت أشجار التفاح تزهر على

منحدرات الهضاب. وتويجاتها، تحت النسيم، تشبه أجراساً متأرجحة. كنت أغمض عيني لأصغي إلى صوتها المخملي. ثم فتحتهما ولمحت لوسي، بقميص أبيض، وفي يدها منكاش. كانت تنظر إلى أسفل نحو الوادي، وهي تبتسم.

كنت أراقب هذه الابتسامة وأركز على قراءتها بنهم. هل هذا ممكن؟ حتى الآن، كانت روح لوسي في حالة هرب متصل، هرب أمام الماضي وأمام المستقبل. كل شيء كان يخيفها. فالماضي والمستقبل، بالنسبة إليها، دوامتين. كانت تتعلق قلقة بقارب الحاضر المثقوب، الملجأ الخوُّون.

وهاهي اليوم تبتسم، دون سبب، هكذا بالضبط. وكانت هذه الابتسامة تعلن لي عن أنها تنظر إلى المستقبل بثقة. وكنت أحس بنفسي ملاحاً عاد إلى اليابسة بعد شهور. كنت سعيداً. استندت إلى جذع ثنائي الرأس وأعدت إغماض جفوني. كنت أصغي إلى النسيم وغناء أشجار التفاح البيضاء، وكنت أسمع زقزقات العصافير، وكانت هذه الزقزقات تتحول، أمام عيني المغمضتين، إلى ألف ضوء تحملها أياد غير مرئية، كما لو أن ذلك من أجل عيد. لم أكن أرى هذه الأيدي، ولكني كنت أسمع النبرات الحادة للأصوات، وكان يبدو لي أنها لأطفال، لموكب أطفال مرح... وفجأة وُضعت يد على وجهي، وسمعت صوتاً يقول: «أنت طيب ياسيد كوستكا...». لم أكن قد فتحت عيني، ولم أكن حركت اليد. كنت ماأزال أرى أصوات العصافير وقد تحولت إلى رقصة قناديل، أسمع طنين أشجار التفاح. وتابع الصوت يقول، وقد أصبح أضعف: «أحبك...»

ربما كان يجب أن أنتظر هذه اللحظة ثم أرحل سريعاً جداً باعتبار أني أنهيت مهمتي. ولكن الضعف شلني قبل أن افهم أي شيء. كنا وحدنا في هذا المنظر المفتوح، وسط أشجار التفاح المسكينة. قبلتُ لوسي وتمددتُ معها في سرير الطبيعة.

17

حدث مالم يكن يجب أن يحدث. عندما رأيت روح لوسي الساكنة، من خلال ابتسامتها، كنت قد بلغت هدفي ولم يكن علي سوى الرحيل. ولكني لم أفعل. وبعد ذلك، كان الأمر سيئاً. واصلنا العيش في المزرعة نفسها. كانت لوسي تتفتح، تشبه الربيع الذي أخذ يتحول حولنا ببطء، إلى الصيف. ولكني، بدلاً من أن أكون سعيداً، كنت مذعوراً من هذا الربيع الأنثوي الكبير إلى جانبي، الربيع الذي كنت قد أطلقته، أنا نفسي والذي يفتح لي الآن، كل تويجاته التي كنت أعلم أنها ليست لي، ما كان ينبغي أن تكون لي. فلدي، في براغ، ابني وزوجتي التواقة إلى زياراتي النادرة للمنزل.

كنت خائفاً من تحطيم بداية الحميمية هذه، وهو ماكان يمكن أن يعذب لوسي، ولكني لم أكن أجروً على تنميتها بحيث بات واضحاً أنه لم يكن لي أي حق في ذلك. كنت أشتهي لوسي وأخشى، في الوقت نفسه، حبها لأني لم أكن أرى ماذا سأفعل به. لم أحافظ على طبيعية محادثاتنا السابقة إلا بجهدٍ خارق للطبيعة. كانت شكوكي تقف بيننا. وكنت أحس أن مساعدتي الروحية للوسي قد انكشفت الآن، وأني في الواقع، أردتها جسدياً منذ الدقيقة التي رأيتها فيها، وقد تصرفت كمغوٍ متنكر في ثياب كاهن معزٍّ، وأن كل هذه العظات الجميلة حول يسوع والله لم تفعل سوى تغطية أكثر الشهوات الجسدية دناءة. كان يبدو لي أني بإعطاء رغبتي الجنسية الحرية، لطّخت نقاء غرضي الأول وفقدت اعتباري أمام الله.

ولكن تفكيري كان يدور حول نفسه منذ أن أبلغ هذه الفكرة: ياله من صلف كنت أنمّيه في نفسي، ياله من ادعاء مغرور أن أريد الظهور أهلاً للتقدير، أن أروق لله! مامعنى المزايا البشرية بالنسبة إليه؟ لاشيء، لاشيء، لاشيء. إنّ لوسي تحبني، وصحتها معلقة بحبي! هل يجب أن أعيد الإلقاء بها في اليأس لمجرد شاغل نقائي

الخاص؟ ألن أجلب عليّ، لهذا السبب بالذات، ازدراء الله؟ وإذا كانت عاطفتي خطيئة، فما هو الأهم، حياة لوسي أم براءتي؟ ستكون تلك على كل حال خطيئتي، وأنا وحدي سأحملها، هذه الخطيئة لن تضيِّع غيري!

وسط هذه التأملات والشكوك، جاءت ضربة غير متوقعة من الخارج. كانت المراجع المركزية قد اصطَنَعت اتهاماً سياسياً ضد مديري. وبما أنه راح يدافع عن نفسه بالمخالب والأنياب، فقد أخذوا عليه فضلاً عن ذلك، كونه قد أحاط نفسه بعناصر مشبوهة. كنت بين هؤلاء أنا المطرود من الجامعة بسبب آرائه المعادية للدولة والاكليريكي. لقد بذل المدير جهده سدىً في البرهان على أني لم أكن اكليريكياً وأني لم أطرد من الجامعة. وكلما تحدث لصالحي، زاد برهنة على تواطئنا وزاد حالته تفاقماً. كان ذلك قد أصبح، بالنسبة لي، مستحيلاً.

أهو ظلم يالودفيك؟ نعم، هذا هو حقاً معنى الكلمة التي تتلفظ بها غالباً عندما تستمع إلى هذه القضية أو لقضايا أخرى مشابهة. ولكن أنا لاأعرف ماهو الظلم. لو لم يكن هناك شيء فوق الأمور البشرية، ولو لم يكن للأفعال مدى آخر خلاف ماينسبه إليها فاعلوها، لكان مدلول الظلم مشروعاً، ولكنت، أنا نفسي، مؤهلاً لاستعماله لأني طُردت من مزرعة دولة كنت قد عملت فيها بحماسة. بل ربما كان منطقياً بذل محاولة ضد هذا الظلم والقتال باستماتة من أجل حقوقي الصغيرة كإنسان.

إلا أن الأحداث تحمل، عادة، معنى آخر غير ما هو موجود في أذهان صانعيها العميان. إنها ليست غالباً سوى تعليمات مقنّعة، واردة من أعلى، والناس الذين تركوها تتحقق ليسوا غالباً أكثر من رسل على غير علم منهم، لإرادة عليا لايرتابون حتى في وجودها.

كنت مقتنعاً بهذا، بكون ذلك هو ماأتى على الحدوث. ولذلك استقبلتُ الأحداث في المزرعة كراحة. تعرفت فيها على توجيه

واضح: ابتعد عن لوسي قبل أن يفوت الأوان. لقد تحققت رسالتك. وثمارها لاتخصك، ودربك يمر بمكان آخر.

تصرفت إذن كما في كلية العلوم قبل سنتين. ودعت لوسي الباكية واستبقت الكارثة الظاهرة. اقترحت، أنا نفسي، مغادرة مزرعة الدولة. صحيح أن المدير احتج، ولكني كنت أعلم أنه يفعل ذلك أدباً، وأنه قد ارتاح في سريرته.

إلا أن الطابع الطوعي لخروجي لم يؤثر، هذه المرة، في أحد. لم يكن هناك أصدقاء شيوعيون من مرحلة ماقبل شباط يمكنهم أن يعبدوا طريق خروجي بعلامات جيدة ونصائح طيبة. غادرت المزرعة كرجل كان موافقاً على كونه ليس جديراً بإنجاز أي عمل، مهما كان قليل الأهمية، في هذه الدولة. وهكذا أصبحت عامل بناء.

18

كان يوماً خريفياً من عام 1956 . لأول مرة، بعد خمس سنوات، التقيت لودفيك في مقطورة المطعم من قطار براغ ـ براتيسلافا السريع. كنت ذاهباً إلى ورشة بناء في مصنع شرق مورافيا: كان لودفيك قد أنهى، مؤخراً، عقده كعامل في مناجم أوسترافا، وأقدم على تقديم طلب في براغ، للسماح له بإنهاء دراسته. ومن هناك، كان عائداً إلى بيته في مورافيا. ولولا قليل لما التقينا. وعندما تعرفنا إلى بعضنا، فوجئنا بتوافق مصيرينا.

أتذكر جيداً جداً يالودفيك الانتباه الذي أصغيت به عندما رويت لك قصة رحيلي عن الكلية، ثم المؤامرات في مزرعة الدولة التي جعلت مني معمارياً. أشكرك على هذا الانتباه. كنت غاضباً، تحدثت عن جور، عن غباء، بل إنك غضبت مني: لمتني على عدم دفاعي عن نفسي، على استسلامي. كنت تقول إنه لاينبغي للمرء أن يرحل عن أي مكان برضاه الكامل. يجب على خصومنا أن يُرغموا على اللجوء إلى الأسوأ! ماذا يجدي منحهم راحة الضمير؟

أنت عامل منجم وأنا معماري. مصيرانا متشابهان ونحن بالغا الاختلاف عن بعضنا! أنا مسامح وأنت لاتقبل المصالحة، أنا مسالم وأنت مقاوم. كم نحن قريبان، خارجياً، وكم نحن بعيدان، أحدنا عن الآخر، في أعماق نفسينا!

كنت تعرف، حول هذا البعد الداخلي، أقل بكثير مما كنت أعرفه أنا. كنت وأنت تشرح لي تفصيلاً، فصلك من الحزب، مقتنعاً كشيء لايمكن أن يكون هناك ماهو أكثر منه طبيعية، بأني كنت متفقاً معك، مندهشاً مثلك لهذا التزمت من جانب الرفاق الذين عاقبوك، لأنك مزحت حول ماكان مقدساً لديهم. كنت تتساءل، بدهشة صادقة، أكان في ذلك مايغضب؟

سأقول لك شيئاً: كان يعيش في جنيف، عندما كان كالفن سيداً

فيها، صبي ذكي ومَزوح. وقعت دفاتره المليئة بنكاتٍ على يسوع المسيح والكتاب المقدس في أيدي السلطة. لاشك في أن هذا الصبي الذي يشبهك كثيراً قد تساءل: أهناك مايُغضب؟ فبعد كل شيء، لم يقترف شراً، إنه يمزح، هذا هو كل شيء. الكراهية؟ لم يعرفها أبداً. لم يكن يعرف، دون شك، إلا السخرية واللامبالاة، وقد أُعدم.

آه، لايذهب بك الظن إلى أنني من أنصار مثل هذه القسوة! أريد ببساطة أن أقول بأن أية حركة كبيرة تريد تحويل العالم لاتتسامح بالتهكم أو بالسخرية لأنهما صدأ يأكل كل شيء.

افحص، فقط، موقفك الخاص يالودفيك. لقد فصلوك من الحزب، طردوك من الكلية، جنَّدوك بين الجنود الخطرين سياسياً وأرسلوك لسنتين أو ثلاث إلى المناجم. وأنت؟ لقد استولت عليك المرارة مقتنعاً بجورٍ هائل. وهذا الإحساس بالجور مازال، حتى اليوم، يحدد كل سلوكك. أنا لاأفهمك! ماذا لديك للحديث عن الجور؟ لقد أرسلوك بين السود ـ أعداء الشيوعية، هذا مفهوم! ولكن، هل كان جوراً؟ ألم يكن بالأحرى فرصة كبيرة لك؟ كان في إمكانك أن تنشط في الصفوف المعادية! هل هناك مهمة أعلى وأهم من ذلك؟ ألم يكن يسوع يرسل بتلاميذه «كحملان وسط الذئاب»؟ قال يسوع: «ليس الأصحاء هم الذين يحتاجون إلى طبيب، بل المرضى»، «لم آت لأدعو الصالحين، بل الخطأة...». إلا أنك لاتريد، من جهتك، أن تذهب إلى وسط الخطأة والمرضى.

ستقول لي بأن تشبيهي غير مناسب، وأن يسوع كان يرسل بتلاميذه «إلى وسط الذئاب» ببركته، في حين حُرمت، أولاً، وأُعلنت ملعوناً ولم ترسل، إلا بعد ذلك فقط، إلى مابين الأعداء كعدو، إلى مابين الذئاب كذئب، إلى مابين الخطأة كخاطئ.

ولكن، هل تنكر خطيئتك حقاً؟ ألا تشعر بأي ذنب لك حيال جماعتك؟ من أين يأتيك هذا الغرور؟ الإنسان المخلص لعقيدته متواضع ويجب أن يقبل العقاب بتواضع، حتى ولو كان ظالماً.

المهانون يرقّعون، والنادمون يُغفر لهم، والذين أسيء إليهم أمامهم فرصة لإثبات إخلاصهم. إذا كنت تشعر بالمرارة حيال جماعتك لسبب وحيد هو أنهم حمّلوا كتفيك عبئاً أثقل مما ينبغي، فذلك لأن إيمانك كان ضعيفاً ولأنك لم تخرج منتصراً من المحنة التي فُرضت عليك.

في خصومتك مع الحزب أنا لست إلى جانبك يالودفيك، لأني أعلم أن الأشياء الكبيرة، على هذه الأرض، لايمكن أن تُخلق إلا مع جماعة أفراد مخلصين دون حدود، كرسوا حياتهم بتواضع لغرض أسمى. إن إيمانك هش. وكيف لايكون كذلك عندما لاتكون قدّ رجعت إلاّ إلى نفسك، إلى عقلك البائس!

لست ناكراً للجميل يالودفيك، وأعلم مافعلته من أجلي، كما من أجل آخرين حطمهم النظام الحالي، وبفضل علاقاتك التي تعود إلى ماقبل شباط مع شيوعيين كبار ومدعوماً كذلك بوضعك الحاضر، لم توفر المساعي، تدخلت وسارعت إلى المساعدة. أنت ترى فيّ صديقاً لك. ولكني أقولها لك للمرة الأخيرة: انظر في أعماق نفسك! إن الدافع العميق لطيبتك ليس الحب، بل الكراهية، كراهية من أساؤوا إليك، سابقاً، برفعهم أيديهم في القاعة الكبيرة! ولأنك تجهل الله، فإن روحك تجهل العفو. أنت ترغب في الثأر. أنت تماهي من أساؤوا إليك سابقاً مع من يسيئون اليوم إلى الآخرين، وأنت تنتقم. نعم، أنت تنتقم! أنت مليء بالكراهية حتى ولو ساعدت الناس! أشعر بذلك، أشعر به في كل كلمة من كلماتك. ولكن، ماذا تُنتج الكراهية غير الكراهية في الانتقام وسلسلة من الانتقامات؟ أنت تعيش في الجحيم يالودفيك، اكرر لك إنك تعيش في جحيم، وأنا أشفق عليك.

19

لو سمع لودفيك مناجاتي فلعلّه قال بأنني ناكر للجميل. أعرف أنه ساعدني كثيراً. عندما التقينا، عام ستة وخمسين، شقّ عليه مصيري وسرعان مابدأ يبحث عن المهنة التي تناسبني. فاجأتني سرعته وكفايته. تحدث إلى أحد رفاقه في مدينته. كان يريد لي أن أدرّس العلوم الطبيعية في الثانوية. وكان ذلك جريئاً حقاً. ففي زمن كانت فيه الدعاية المعادية للدين في أوجها، كان تعيين اكليريكي أستاذاً في مدرسة ثانوية أمراً مستحيلاً تقريباً. وكان هذا، فضلاً عن ذلك، رأي الصديق الذي وجد شيئاً آخر: مصلحة الجراثيم في المستشفى حيث أزرع، منذ ثماني سنوات، جراثيم وباكتيريا في أرانب وفئران.

وهكذا، فلولا لودفيك لما سكنت هنا، ولاسكنت هنا لوسي بدورها.

كانت قد تزوجت بعد بضع سنوات من تركي للمزرعة. لم تستطع البقاء فيها، لأن زوجها كان يسعى وراء عمل في المدينة. وعندما تساءلا أين يذهبان، انتهت إلى الحصول على الانتقال إلى المدينة التي كنت أقيم فيها.

لم أتلقّ، في حياتي، أجمل من هذه الهدية، أثمن من هذه المكافأة. عاد إليّ حملي، حمامتي، الطفل الذي رددت إليه الصحة وغذيته من روحي. إنها لاتطلب مني شيئاً، فلها زوجها. ولكنها تريد نفسها قريبة مني. إنها في حاجة إلى أن تسمعني من بعيد، أن تراني في قداس الأحد، أن تصادفني في الطريق. كنت سعيداً وشعرت، في تلك البرهة، بأني لم أعد شاباً وبأني كنت أكبر عمراً مما كنت أتصور، وأن لوسي ربما كانت عمل حياتي الوحيد.

أهذا قليل يالودفيك؟ كلا! هذا يكفي، وأنا سعيد، سعيد، سعيد...

20

آه، كم أستطيع أن أخدع نفسي! كم أستطيع أن أتصلب كمهووس، في تأكدي من كون دربي هو الصحيح! أن أتبجح بسلطة إيماني على غير مؤمن!

نعم، نجحت في قيادة لوسي إلى الإيمان بالله. توصلت إلى طمأنتها وشفائها. خلصتها من خوفها من أمور الجسد. وأخيراً، ابتعدت عن طريقها. نعم، ولكن ماالذي جلبته لها؟

بيتها لم يسِرْ على مايرام. زوجها فظ، يخدعها على مرأى من كل الناس، ويقال إنه يقسو في معاملتها. لم تعترف لي لوسي بذلك أبداً. كانت تعرف الأسى الذي سيسببه لي. كانت تحاول أن تريني صورة سعيدة لحياتها. إلا أنه لايمكن إخفاء شيء في مدينة صغيرة.

آه، كم يمكن أن أخدع نفسي! كنت قد فسرت الدسائس ضد مدير مزرعة الدولة كنداء، فُكت رموزه، من الله كي أرحل. ولكن كيف التعرف، من بين كل هذه الأصوات، على صوت الله؟ وماذا لو لم يكن الصوت الملتقط، إذ ذاك، سوى صوت جبني؟

ذلك أنه كانت لي، في براغ، امرأة وابن. لم يكونا شيئاً مهماً بالنسبة لي، ولكني لم أكن قادراً على القطيعة. كنت أخاف وضعاً غير قابل للحل. كان حب لوسي يخيفني. لم أكن أعرف ماذا أفعل به. كنت خائفاً من التعقيدات التي قد يأتي بها.

كنت أصنع لنفسي رأس الملاك الذي كان يحمل إليها الخلاص، ولم أكن، في الحقيقة، سوى مغوٍ آخر. تحولت عنها بعد أن أحببتها مرة واحدة ووحيدة. كنت أتظاهر بحمل الغفران إليها، في حين كان عليها وحدها أن تغفر لي. بكت حزناً لدى رحيلي، إلا أنها استقرت بعد بضع سنوات هنا، من أجلي. كانت تحدثني، تتوجه إلي كصديق،

سامحتني. وفضلاً عن ذلك، فكل شيء واضح. لم يكن هذا قد حدث لي، كثيراً، في حياتي، ولكن هذه الفتاة كانت تحبني. كنت أمسك بحياتها بين يدي. كانت سعادتها تتوقف عليّ. وكنت قد هربت. لم يكن أحد مذنباً، إلى هذا الحد، حيالها.

فجأة خطرت لي فكرة أني أتذرع بنداءات مزعومة كمجرد ذرائع لأتملص من التزاماتي الإنسانية. النساء يُخفنني. أخشى حرارتهن، أخشى وجودهن المستمر. منظور الحياة مع لوسي أخافني، كما تخيفني فكرة مشاركة معلمة المدينة المجاورة، بشكل دائم، في شقة بغرفتين.

ولماذا بالفعل رحلتُ، منذ خمس عشرة سنة، عن الجامعة طوعاً؟ لم أكن أحب زوجتي التي تكبرني بست سنوات. ما عدت أستطيع تحمل صوتها، ولاملامحها، ولاتكتكة الساعة المنزلية المنتظمة. لم أعد في حالة أستطيع معها الاستمرار في العيش معها وكان مستحيلاً عليَّ، أيضاً، أن أطعنها بطلاق لأنها كانت طيبة ولم تخطئ قط معي. عند ذلك سمعت فجأة الصوت المخلّص للنداء السامي، سمعت يسوع يحرضني على ترك شباكي.

آه يارب، هل الأمر كذلك حقاً؟ هل أنا مضحك إلى هذا الحد البشع؟ قل إن الأمر ليس كذلك! أعطني الاطمئنان إلى هذا! اجعل صوتك يا إلهي يُسمع بمزيد من القوة، بمزيد من القوة! في هذه الفوضى من الأصوات المشوشة، لم أعد أسمعك أبداً!

القسم السابع

لودفيك، هيلينا، جاروسلاف

1

قررت، وكنت قد عدت من بيت كوستكا إلى الفندق متأخراً، أن أرحل إلى براغ في ساعة مبكرة من الغد لأنه لم يبق لي ماأفعله هنا: فمهمتي الخادعة في مدينة مولدي قد انتهت. ولسوء الحظ، فإن الخليط الذي كان يزوبع في رأسي اشتدّ بحيث أني تخبطت على سريري (الذي يئن) قسماً كبيراً من الليل دون أن أستطيع إغماض عيني. وعندما خيل إلي أخيراً أني نمت، اختلجت عدة مرات وتأخر النوم الحقيقي حتى الفجر. وهكذا استيقظت متأخراً جداً، حوالى الساعة التاسعة، وكانت قطارات الصباح وسياراته قد غادرت بحيث يجب أن أنتظر حتى الساعة الثانية بعد الظهر، الرحلة التالية إلى براغ. لم يكن تبيّني ذلك بعيداً عن حملي على اليأس: فقد رأيت نفسي كغريق وأحسست بحنين مفاجئ وقوي إلى براغ، إلى دائرتي، إلى طاولة العمل في بيتي، إلى كتبي. إلا أنه لم يكن هناك ماأستطيع أن أفعله، وكان علي أن أصر بأسناني وأنزل إلى قاعة الطعام.

تسللت إليها بحذر، خائفاً من وجود محتمل لهيلينا في هذا المكان. ولكنها لم تكن فيه (فما من شك في أنها كانت تركض، الآن، والمسجلة معلقة بكتفها، في القرية المجاورة، تزعج المارة بميكروفونها وأسئلتها). وبالمقابل كانت القاعة مزدحمة بزبائن صاخبين جالسين إلى الطاولات، يدخنون أمام أكواب الجعة والقهوة السوداء والكونياك. وللأسف، فإن مدينتي لن تمنّ علي هذا الصباح أيضاً بفطور مضبوط!

خرجت إلى الرصيف: سماء زرقاء، غيوم ممزقة صغيرة، أول ثقل في الجو، غبار خفيف معلق، طريق يؤدي إلى الميدان الكبير ببرجه (نعم، هذا البرج الذي يشبه جندياً مرتزقاً تحت خوذته)، كل هذا الديكور لفني في نفسه، الحزن الشاق نفسه. كانت تُسمع من بعيد صرخة ثملة لأغنية مورافية فاترة (حيث كان الحنين والسهل

والطرادات الطويلة للمرتزقة المجندين بالقوة تبدو لي مسحورة). طفت لوسي في ذهني، هذه القصة التي انقضت منذ زمن طويل والتي تشبه الآن هذه الأغنية الفاترة وتؤنب قلبي الذي عَبَرته (كما لو كانت تعبر السهل) نساء كثيرات دون أن يتركن وراءهن شيئاً، كما لايترك الغبار المعلق أي أثر على هذه الساحة المسطحة، تتوضع بين البلاط، ثم تطير بعيداً مع هبة ريح.

كنت أمشي على هذه البلاطات المغبرة وأحس بثقل خفة الفراغ الذي كان يثقل على حياتي: كانت لوسي، إلهة الضباب، قد حرمتني منها في السابق، وحولت، أمس، انتقامي المرسوم بالضبط إلى وهمٍ محزن، إلى ما لا أدري من خطأ مضحك على اعتبار أن ماكشفه لي كوستكا، بالأمس، يشهد بأنني تذكرت طيلة تلك السنوات امرأة أخرى، باعتبار أني لم أكن قد عرفت قط من كانت لوسي.

كنت أحب دائماً التكرار أن لوسي عَنَت لي نوعاً من التجريد، خرافة، أسطورة، ولكني كنت حالياً ألمح وراء شِعر هذه الكلمات، حقيقة دون شِعر: ما كنت أعرف لوسي، ولا أعرف من هي حقاً، من كانت في حد ذاتها ولذاتها. لم أكن قد أدركت (في تركزي الصبياني على ذاتي) سوى جوانب وجودها الموجهة مباشرةً نحوي (نحو عزلتي، عبوديتي، نحو رغبتي في الحنان والمحبة). لم تكن بالنسبة لي سوى تابع للوضع الذي عشته. وكان يفوتني كل ما يتجاوز فيها هذا الموقف المشخص في حياتي، كل ماكانته في حد ذاتها. غير أنني إذا افترضت أنها لم تكن حقاً بالنسبة لي، سوى تابع لموقف، فمن المنطقي أنه منذ أن تحوّل هذا الموقف (منذ أن تلاه موقف جديد، منذ أن كبرتُ وتغيرتُ)، أن تختفي لوسي بالصورة التي كانتها في نظري لأنها لم تعد سوى الجانب الذي فاتتني معرفته فيها، ذاك الذي لم يكن يعنيني، الذي كان يتجاوزني فيها. ولذا كان من المنطقي ألّا أكون، بعد خمس عشرة سنة، قد تعرفت عليها أبداً. فمنذ زمن طويل كانت بالنسبة لي (وأنا لم أعتبرها قط خلاف كونها «بالنسبة لي») شخصاً آخر، مجهولة.

كانت برقية هزيمتي قد بحثت عني خلال خمس عشرة سنة ووصلتني. كوستكا (الذي لم أصغ إليه قط إلا بأذن واحدة) كان يعني المزيد بالنسبة إليها، يفعل المزيد من أجلها، يعرفها أكثر مني كما يعرف كيف يحبها بصورة أفضل مني (وليس أكثر مني بالتأكيد، لأن قوة حبي قد لامست الذروة): باحت له بكل شيء - ولم تبح لي أنا بشيء، لقد جعلها سعيدة - وجعلتها أنا شقية، عرف جسدها - أما أنا فلم أعرفه أبداً. ومع ذلك، كان يكفي للحصول على هذا الجسد الذي اشتهيته اشتهاء يائساً، شيء بسيط جداً: فهمها، التوجه إليها، أن لاأحبها من أجل هذا الجزء من شخصيتها الذي كان يتوجه إلي فقط، بل أيضاً من أجل كل مالم يكن يعنيني مباشرة، من أجل ماكانته في حد ذاتها، ومن أجل ذاتها. أنا لم أكن أعرف ذلك، وهكذا أسأتُ إلى كلينا. غمرتني موجة غضب ضد نفسي، غضب من عمري آنذاك، مِن العمر الشاعري الأبله الذي يكون المرء فيه في نظره الخاص، لغزاً أكبر من أن يستطيع معه أن يعنى بالألغاز التي تقع خارج ذاته، والتي لايكون فيها الآخرون (حتى ولو كانوا أعز الناس) سوى مرايا متحركة يَلقى فيها مدهوشاً، صورة شعوره الخاص، اضطرابه الخاص، قيمته الخاصة. نعم، لقد فكرت خلال هذه السنوات الخمس عشرة بلوسي بوصفها المرأة التي تحتفظ بصورتي في الماضي فقط.

وفجأة رأيت من جديد الغرفة العارية، ذات السرير الواحد، المضاءة بمصباح الطريق من خلال الزجاجِ الوسخ، ورأيت من جديد، رفض لوسي الوحشي. كل ذلك كان يذكّر بمزحة رديئة: كنت أظنها عذراء، وكانت تدافع عن نفسها لأنها، على وجه الدقة، لم تكن كذلك وتخشى، دون شك، أن أكتشف الحقيقة، إلا إذا كان دفاعها يقبل تفسيراً آخر (يناسب الصورة التي كان كوستكا يرى لوسي عليها): فتجاربها الجنسية الأولى قد دمغتها وجردت فعل الحب، في نظرها، من المعاني التي يراها معظم الناس فيه، لقد جرَّدت فعل الحب من كل حنان، من كل شعور بالحب. بالنسبة للوسي، كان

الجسد قبيحاً والحب غير جسدي. وقد قامت حرب صامتة، عنيدة، بين الروح والجسد.

هذا التفسير (كم هو ميلودرامي، ولكنه محتمل جداً) كان يذكّرني بالتنافر المؤسف (كنت قد عشت عدة متغيرات له) بين الروح والجسد، وذكرني (لأن المحزن كان يختلط هنا بالمضحك دون انقطاع) بمغامرةٍ قد أضحكتني كثيراً، في الماضي: خُطبت صديقة جيدة لي، وهي امرأة ذات أخلاق مرنة جداً (غالباً ما أفدت منها)، لرجل فيزيائي وصممت هذه المرة على أن تعيش الحب أخيراً. ولكنها، كي تشعر به كحب حقيقي (مختلف عن دستات العلاقات التي كانت قد عرفتها)، مَنَعت عن خطيبها العلاقات الحميمة حتى ليلة عرسهما. كانت تتنزه معه في المماشي الغروبية، تضغط على يده، تبادله قبلات تحت الفوانيس وتسمح، على هذا النحو، لروحها (المتحررة من وزن الجسد) بأن تحوم عالياً في الغيوم وتستسلم للدوارات. وبعد شهر من الزواج طلقته، وشكت بمرارة من أن زوجها قد خيب عاطفتها الكبيرة وتكشّف عن عشيق رديء وعنين تقريباً.

كانت الصرخة الثملة الطويلة، البعيدة، اللامتناهية للأغنية المورافية تمتزج مع بقايا مذاق هذه القصة المضحك، مع فراغ المدينة الأغبر ومع حزني الذي كان يزيد فيه جوعي أيضاً. وبعد كل شيء، كنت على مسافة خطوتين من بار الحليب. أمسكت بقبضته، ولكنه كان مغلقاً. هتف بي مواطن كان ماراً من هناك: «نعم! كل المحل في عيد اليوم ـ كوكبة الملوك؟ ـ حسناً! لهم جناح هناك».

أطلقت شتيمة، إلا أنه كان علي أن أستسلم. سرت في اتجاه الأغنية، نحو مهرجان الفولكلور هذا الذي كنت قد هربت منه كما لو أنه الطاعون. فقد كانت تقلصات معدتي تجرني.

2

تعب، تعب منذ الفجر، كما لو كنت قد عربدت طيلة الليل. ومع ذلك، كنت قد نمت الليل كله. إلا أن نومي لم يعد سوى نوم مكشوط الزبدة. كنت أضيّع نفسي من التثاؤب وأنا أبتلع فطوري. وعندها بدأ الناس يصلون: رفاق لفلاديمير، ثم كل أنواع الفتيان. قاد أحد فتيان التعاونية، إلى باحتنا، جواداً لفلاديمير. ووسط كل هؤلاء الناس ظهر كالازيك، المسؤول الثقافي في اللجنة الوطنية للمنطقة. منذ عامين وأنا في حرب معه. كان يرتدي الأسود، وله هيئة رسمية. وكانت معه امرأة أنيقة، براغية تعمل صحافية في الإذاعة. يبدو أن عليّ مصاحبتهما. السيدة تريد تسجيل مقابلات لبرنامج حول الكوكبة.

اذهبا إلى الشيطان؟ لاأرغب في لعب دور المهرج. كانت الصحافية متحمسة لتعرّفها عليّ وشاركها ذلك، أيضاً، كالازيك. يبدو أن من واجبي السياسي، أن أكون المهرج. بالإمكان حقاً أن أصمد لهما. كان يمكن أن أقول لهما إن ابني هو الملك، وأنني أريد أن أكون هناك أثناء تحضيره لذلك. ولكن فلاستا قد عاملتني كخائن. فتحضير ابنها من شأنها. وأنا لم يكن عليّ سوى المضي للتحدث للإذاعة.

أطعت على الرغم مني. كانت الصحافية قد أقامت في بناء اللجنة الوطنية. وهناك كانت مسجلتها مع شاب يهتم بها. كم هي قادرة على تشغيل لسانها، على المضي به إلى الاهتراء! لم تكن أثناء الكلام تتوقف عن الضحك، ثم وضعت الميكروفون تحت أنفها ووجهت السؤال الأول إلى كالازيك.

سعل سعلة خفيفة ثم بدأ. كانت ممارسة الفنون الشعبية جزءاً لايتجزأ من التربية الشيوعية. ولجنة المنطقة الوطنية واعية لذلك كل الوعي. ومن أجل ذلك، كان يقدم الدعم الكامل. ويتمنى لها النجاح

الكامل ويشارك فيها كل المشاركة. وجه الشكر إلى كل الذين شاركوا، هؤلاء المنظمين المتحمسين والشبيبة المدرسية المتحمسة التي...

تعب، تعب، الجمل السرمدية نفسها، الاستماع منذ خمس عشرة سنة إلى الجمل السرمدية نفسها، وسماعها من فم كالازيك الذي لايبالي أدنى مبالاة بالفن الشعبي. الفن الشعبي، بالنسبة إليه، وسيلة تسمح له بالتبجح بعمل جديد، بإنجاز توجيه، بالإلحاح على فضله. لم يحرك إصبعاً من أجل كوكبة الملوك مقتّراً علينا حتى الفلس الأخير. ومع ذلك، فإن الكوكبة ستسجل لصالحه. فهو الذي يتسيّد الثقافة على مستوى المنطقة، وهو صبي المخزن السابق الذي لايميز بين كمان وغيتار.

كانت الصحافية قد أعادت الميكروفون أمام شفتيها: هل كنت، هذه السنة، راضياً عن الكوكبة؟ كدت أضحك منها: كوكبة الملوك لم تكن قد بدأت بعد! ولكنها هي التي ضحكت: إن فولكلورياً في مثل تمرسي يجب بالتأكيد أن يعرف ماذا سيكون عليه الأمر. الصحيح هو أنهم هكذا، يعرفون كل شيء سلفاً. ومجرى الأشياء القادمة معروف لديهم من قبل. المستقبل حدث فعلاً ولن يفعل، بالنسبة إليهم، شيئاً سوى تكرار ذاته.

كنت راغباً في البوح لها بكل ما في قلبي، بأن الكوكبة لاتساوي كوكبة السنوات السابقة، بأن الفن الشعبي كان يتزايد فقداناً لأنصاره، والسلطات تهمله، وأن هذا الفن كان ميتاً تقريباً، ولذا لاينبغي خداع النفس، لأننا كنا نسمع باستمرار من الراديو موسيقى شعبية مزعومة. فكل فرق الغناء والرقص الشعبي هذه هي، بالأحرى، للأوبرا، للأوبريت، موسيقى لقضاء الوقت ولكنها ليست فناً شعبياً: أوركسترا آلات شعبية بقائد ونوتات ومنصات! أوركسترا سمفونية تقريباً! ياله من تهجين! ماتقدمه لكم المجموعات والفرق ياسيدتي الصحافية، هو بكل بساطة، الفكر

الموسيقي الرومنطيقي القديم مع استعارات من اللحن الشعبي! فن الشعب الحقيقي مات، ياسيدتي العزيزة، مات.

كنت أريد أن أُخرج هذا، دفعة واحدة، من فمي أمام الميكروفون، ولكنني قلت شيئاً آخر. فكوكبة الملوك كاملة البهاء، فيها قوة الفن الشعبي، مهرجان ألوان. كنت مشتركاً اشتراكاً كاملاً. شكرت كل الاسهامات، وشكرت حماسة المدربين وأطفال المدارس الذين...

كنت خجلاً لأني تحدثت كما كانوا يريدونني أن أفعل. هل أنا على هذا المقدار من الجبن؟ أم أني على هذا المقدار من الانضباط؟ أم من التعب؟

سررت لخلاصي من دوري ولأني استطعت أن أنسحب. كنت مستعجلاً للرجوع إلى بيتي. كان في الباحة جيش من الفتيان والمساعدين من كل نوع، يتحركون، وفي أيديهم عقد وأمواج من الأشرطة، حول الجواد. كنت أريد أن أشترك في إلباس فلاديمير. دخلت إلى البيت، ولكن باب غرفة الجلوس حيث يلبسونه كان مغلقاً بالمفتاح. قرعت وناديت. فلاستا هي التي ردت علي من الداخل. لاعمل لك هنا. الملك يرتدي ملابسه. قلت: ياالله! لماذا لاأستطيع أن أدخل؟ رد صوت فلاستا قائلاً: هذا ضد التقاليد. لم أكن أدرك كيف أن الحضور الأبوي لإلباس الملك يخالف التقاليد، ولكني لم أحاول إقناعها. كان يسرني أن أعلم أنهم كانوا أسرى عالمي، عالمي الفقير واليتيم.

عدت إذن إلى الباحة أثرثر مع الذين يزينون الجواد. كان حيوان جر ثقيلاً مستعاراً من التعاونية، صابراً ومريحاً تماماً.

ثم سمعت جلبة في الطريق، عبر بوابة العربات. بعد قليل، نادوا وقرعوا الباب. جاءت ساعتي. كنت متأثراً. فتحتُ الباب وخرجت. كانت كوكبة الملوك هناك، مصطفة أمام بيتنا بخيول مزوقة وتحمل أشرطة، يمتطيها شبان بألبسة تقليدية فاقعة، كما كانت منذ عشرين

سنة عندما أتوا لأخذي، وجاؤوا يرجون أبي إعطاءهم ابنه ملكاً.

وعلى رأس الموكب، جانب بابنا تماماً، كان الوصيفان على جواديهما، وقد تنكرا كامرأتين، وفي يد كل منهما سيف. إنهما ينتظران فلاديمير ليصحباه ويسهرا عليه حتى المساء. غادر خيّال الصف وأوقف مطيته وأنشد:

«انتبهوا، انتبهوا! انظروا!

أيها الأب اللطيف هل تسمح

بأن نأخذ ابنك، في الموكب، ملكاً!»

وعد بأنهم سيسهرون على ملكهم، بأنهم سوف يجعلونه يجتاز، دون ضرر، القوى المعادية، بأنهم لن يدعوه يقع بين أيدي الأعداء، وهم كانوا مستعدين دائماً.

أدرت رأسي: كان طيفٌ بزينة نسائية تقليدية، بكمين منفوخين وأشرطة ملونة تتدلى أمام وجهه يخرج بجواده عن الصف: كان الملك فلاديمير. نسيت فجأة تعبي وضيقي، وشعرت بأني مرتاح. الملك العجوز يُرسل إلى العالم ملكاً شاباً. كنت قد جئت إليه. وقريباً جداً من الجواد، ارتفعت على رؤوس أصابعي ممدود الشفتين نحو وجهه المقنع. همست له قائلاً: «سفراً سعيداً يافلاديمير». لم يرد، لم يتحرك. وقالت لي فلاستا مبتسمة: لايحق له أن يردَّ عليك. ينبغي عليه ألّا ينطق بكلمة طيلة اليوم.

3

كفاني أقل من ربع ساعة لأصل إلى القرية (كانت أيام مراهقتي مفصولة عن المدينة بحقول. أما اليوم فهي تشكل معها مجموعة واحدة). كانت الأغنية التي كنت أسمعها في المدينة أيضاً تدوي الآن بقوة عبر مكبرات الصوت المثبتة على الواجهات أو الأعمدة الكهربائية (يالي من مخدوع أبدي: منذ برهة تركت نفسي تَحزَنُ من الحنين والثَمَل غير الحقيقي لذلك الصوت البعيد، ولم يكن سوى صوتاً منسوخاً صادراً عن منشأة تقنيّة وزوجٍ من الأسطوانات المشطبة. لقد نصبوا، في مدخل القرية، قوس نصر تعترضه لافتة كتب عليها بأحرف تزيينية: «أهلاً وسهلاً بالجميع». وكانت التجمعات تتضخم هنا بأناس معظمهم في لباس المدينة، مع ثلاثة أو أربعة عجائز كانوا، مع ذلك، قد أخرجوا ألبستهم الإقليمية القديمة: أحذية ضخمة، سراويل من الكتان الأبيض، قمصان مطرزة، ثم اتسع الطريق إلى ميدان فلاحي طويل: كانت تمتد بين الطريق وصف البيوت المنخفضة مساحة معشبة مع بضع أشجار فتية. وبعض الأجنحة (لعيد اليوم) تباعٍ فيها الجعة وشراب الليمون والفستق والشوكولا والخبز المحلِّي والمقانق بالخردل وأقراص العسل. كان لبار الحليب البلدي كشكه أيضاً، حليب، أجبان، زبد، لبنٍ وقشطة حامضة. وعلى الرغم من أن أي جناح لم يكن يعرض كحولاً، فقد بدا لي الجميع تقريباً سكارى. كانوا يتدافعون ويتزاحمون على المخازن ويتسكعون. وبين حين وآخر كانت ذراع ترتفع بحركة غير موزونة، ثم يبدأ أحدهم في الغناء، ولكن ذلك لم يكن، في كل مرة، سوى بداية زائفة، سوى مقطعين أو ثلاثة من أغنية سرعان ماتبتلعها الضجة المحيطة التي كانت تسيطر عليها بدورها أسطوانة المكبر. وكانت كؤوس جعة كرتونية وأوراق ملوثة بالخردل ملقاة، من قبل.

كان جناح منتجات الحليب، بظل لاكحوليته، ينفّر منه الجميع. وبما أني حصلت، دونما انتظار تقريباً، على كوب من الحليب ورقاقة من الخبز، خطوت بضع خطوات بعيداً عن ضربات المرافق لأتذوق حليبي بحرعات صغيرة. وفي هذه اللحظة ارتفعت ضجة من الطرف الآخر للميدان: كانت كوكبة الملوك تدخل.

امتلأ الميدان بلبادات سوداء صغيرة، بعمرات مستديرة وريشة ديك وأكمام مثنية واسعة لقمصان بيضاء، أردية زرقاء قصيرة ذات شرّابات من الصوف الأحمر وأوراق حلزونية معلقة بعدد المطايا. وراحت تتناوب عبر طنين الأصوات البشرية وأغنية المكبر، أصوات جديدة: صهيل خيول ونداءات خيالة:

«انتبهوا، انتبهوا! انظروا جميعاً!

ياسكان الوادي والساحل،

ماحدث في أحد العنصرة هذا.

لدينا ملك معوز،

ولكن ذلك زاده فضلاً،

سُرق منه ألف كلب

من قصره حيث لايوجد شيء...».

ولدت للأذن والعينين صورة مبهمة، كان كل عنصر فيها يتنافر مع العناصر الأخرى: فولكلور المكبرات ضد فولكلور الجواد، ألوان الألبسة والجياد ضد البني والرمادي في ملابس المتفرجين السيئة التفصيل، تلقائية الخيالة المصطنعة ضد الانشغال المصطنع لذوي العصابات الحمراء على أذرعهم، الذين كانوا يركضون بين الخيول والجمهور ويبذلون جهدهم للإبقاء على الفوضى ضمن حدود المعقول، وهي مهمة ليست سهلة، ليس فقط بسبب عدم انضباط المتسكعين (الذين كانوا لحسن الحظ قليلي العدد)، بل خاصة لأن المرور لم يُمنع في الطريق. كان ذوو عصابات السواعد الحمراء متمركزين عند أول الموكب وآخره يشيرون إلى السيارات بالتباطؤ.

وهكذا راحت تندس بين الخيول سيارات سياحية وشاحنات ودراجات نارية صغيرة مفرقعة كانت تثير الخيول وتزعج الخيالة.

والحق هو أني بتعنتي في مقاطعة هذا العيد الفولكلوري (هذا وأي واحد آخر من هذه الأعياد)، كنت قد خشيت شيئاً آخر غير الذي كنت أراه: كنت أتوقع الذوق السقيم، مزج الفن الشعبي الحقيقي بالتوافه، بالخطب الافتتاحية لخطباء بُلهاء، نعم كنت أتوقع الأسوأ، الفخفخة والبهرجة الصارخة، ولكني لم أكن أتوقع ماكان منذ البداية يدمغ هذا الاحتفال، هذا الفقر المؤثر والمحزن. كان يبدو كأنه ملتصق بكل شيء، بهذه النفاية الهزيلة من الأجنحة النقالة، بهذا الجمهور المبعثر وغير المرتب واللاهي مع ذلك، بهذا الصراع بين مرور السيارات والعيد المتقادم، بهذه الخيول التي كانت تندفع من أجل لاشيء، بهذا المكبر المرعد الذي لم يكن سكونه الميكانيكي يكف عن الصراخ مغطياً (مع جلبة الدراجات النارية) جهد الفرسان الشباب الذين كانوا يصرخون بأبياتهم الشعرية وقد انتفخت أوداجهم.

كنت، وقد شربت حليبي، قد ألقيت بالكوب، وكانت كوكبة الملوك، بعد أن استعرضت بصورة كافية في الميدان، قد بدأت جولة تستمر عدة ساعات عبر القرية. كان كل ذلك معروفاً لدي منذ زمن طويل: ففي آخر سنة من الحرب، كنت قد لعبت أنا نفسي دور الوصيف (بلباس امرأة واسع وسيف في يدي)، مرافقاً جاروسلاف الذي كان الملك. لم أكن أرغب في أن أدع نفسي أنفعل بالذكريات، ومع ذلك (كما لو أن فقر المشهد قد جردني من سلاحي)، لم أكن أرغب أيضاً في أن أقسر نفسي على إدارة ظهري لهذه اللوحة. تابعت بنظري ببطء الفريق الراكب الذي كان يحتل الآن الطريق. في الوسط، كان يتقدم ثلاثي: الملك الذي يحيط به وصيفاه بثياب أنثوية وسيف في يد كل منهما. وبعيداً قليلاً عنهم فرسان مرافقة الملك يتراكضون حولهم: الوزراء المزعومون. وانقسم الباقون إلى صفينّ يسيران خبباً على طول جانبي الطريق. وهنا أيضاً كانت الأدوار

موزعة توزيعاً مضبوطاً: هناك حامل الراية (كانت سارية العلم مدسوسة في ساق الحذاء بحيث أن حاشية القماش الأحمر تخفق على مستوى جنب الحيوان)، وهناك البشيرون (الذين كانوا يتلون تلاوة إيقاعية، أمام كل منزل، نصاً عن الملك المعوز والفاضل الذي سُرق ألف كلب من قصره حيث لم يكن لديه شيء)، وفي النهاية هناك جامعو التبرعات (الذين كان كل دورهم يقوم على أن يلتمسوا قائلين: «من أجل الملك، أيتها الأم الصغيرة، من أجل الملك!»، مادّين سلة من الخيزران).

4

شكراً يالودفيك! أعرفك منذ ثمانية أيام فقط، وأحبك كما لم أحب شخصاً من قبل، أحبك وأؤمن بك، لاأفكر في شيء وأؤمن لأن الجسد، حتى حين يخدعني العقل والشعور والروح، أكثر صدقاً. وجسدي يعرف أنه لم يعش أبداً ماعاشه أمس، شبقاً، ولعاً، قسوة، متعة وعنفاً. لم يكن جسدي قد حلم قط بشيء مماثل. جسدانا ارتبطا أمس بِقَسَم، ولم يعد أمام رأسينا حالياً سوى الطاعة. منذ ثمانية أيام فقط أعرفك، وأنا أشكرك يالودفيك.

أشكرك أيضاً لأنك جئت في الدقيقة الأخيرة، لأنك أنقذتني. كان الجو جميلاً هذا الصباح، ومنذ وقت مبكر يسير كل شيء كما أتمناه. ذهبنا للتسجيل في بيت أهل الكوكبة التي جاءت لتأخذ الملك، وهناك اعترضني دون توقع. فوجئت لأني لم أكن أتوقع قدومه بهذا التبكير من براتيسلافا، ولم أكن أنتظر هذا القدر من القسوة كذلك. تصور يالودفيك بأنه بلغ من الفظاظة حد المجيء معها!

وأنا التي كنت أتخيل كحمقاء أن بيتي لم يتهدم نهائياً وأنه مازالت هناك وسيلة لانقاذه، أنا الحمقاء التي كادت تضحي بك لهذا الاتحاد الفاشل، أن أرفض لقاءك هنا، أنا الحمقاء التي لم تكن بعيدة عن ترك نفسي أخدع، مرة أخرى، بصوته المعسول عندما قال بأنه سيمر لأخذي لدى عودته من براتيسلافا، وبأن لديه أشياء كثيرة يقولها لي بكل صدق. وبدلاً من هذا هاهو يأتي متعلقاً بها، بهذه الطفلة، بهذه الفأرة التي تبلغ الثانية والعشرين من عمرها، أصغر مني بثلاث عشرة سنة. أية إهانة هي أن أخسر لالشيء إلا لأني ولدت في زمن أبكر، وهو مايدعو إلى النباح من العجز لولا أنه لم يكن مسموحاً لي بذلك في هذا الصدد. حملت نفسي على الابتسام والشد على يده بأدب. آه يالودفيك! شكراً لكونك منحتني القوة.

حين ابتعدث عنا قليلاً، قال لي: إننا سنستطيع الحوار نحن

الثلاثة بإخلاص، وإن ذلك سيكون أصدق. الصدق، الصدق، أعرف صدقه وهو الذي يلف ويدور، منذ سنتين، حول هذا الطلاق. كان يعرف أنه لن يستخلص شيئاً من انفرادنا في الحديث، وماكان يأمل به إذن، هو أني سأفقد توازني أمام هذه البنت، وأني سأتراجع أمام الدور المخجل، دور الزوجة المتعسفة، كما سأنهار وأبكي وأسلّم. أكرهه لضربته السافلة أثناء إجرائي ريبوتاجاً، عندما كنت أحتاج إلى الهدوء. كان ينبغي عليه على الأقل أن يحترم عملي، يحترمه قليلاً، ولكن هذا يدوم منذ سنوات وسنوات في صدود وهزائم ومهانات مستمرة. ولكني الآن ثرت. كنت أحس بك ورائي، أنت وحبك، أحس بأنك مازلت فوقي، فيّ، وهؤلاء الفرسان الجميلون يصرخون ويمرحون كما لو كانوا يصرخون بأن هناك أنت، بأن هناك الحياة، المستقبل. وأنا أحسست بداخلي بهذا الاعتزاز الذي كدت أفقده من قبل. هذا الاعتزاز غمرني، ونجحت في إبداء ضحكة جميلة وقلت له، دون شك، بأنه ليس من الضروري من أجل ذلك تجشيمك وجودي حتى براغ. لدي سيارة الاذاعة، وفيما يتعلق بالترتيب الذي يشغل بالك، فهذا يمكن أن يسوى سريعاً جداً ومن السهل عليّ أن أقدم لك الرجل الذي أريد أن أعيش معه، ولن تكون هناك أية مشقة في اتفاقنا جميعاً.

ربما ارتكبت حماقة، وإذا كان الأمر كذلك، فتباً! إن هذا يساوي بالتأكيد هذه الدقيقة من الكبرياء اللذيذة. وعلى الفور تضاعف لطفه خمس مرات، وكان راضياً بشكل مرئي، ولكنه خاف من أن يكون ذلك كلاماً في الهواء. جعلني أكرر ماقلت، وفي النهاية ذكرتُ له اسمك ولقبك، لودفيك جان، لودفيك جان. وقلت له، في الختام، صراحة: لاتخف، لديك وعدي فيما يتعلق بطلاقنا، انتهيت من وضع العصي في دواليبك، لاتقلق، لم أعد أريدك حتى لو أردتني. وعند ذلك قال بأننا سنبقى بالتأكيد صديقين جيدين. ابتسمت وأجبته بأني لم أكن أشك في ذلك.

5

عندما كنت ماأزال أعزف على الكلارينيت، في الزمن القديم الذي كنت فيه عضواً في الأوركسترا، كنا ننقب في رؤوسنا محاولين فهم معنى كوكبة الملوك. يقال إن الملك ماتياس الذي غُلب وفر من بوهيميا ليعود إلى هنغاريا قد اضطر إلى الاختباء هو وفرسانه، ليفلت من مطارديه التشيكيين، في هذه الناحية من مورافيا حيث لم يبقوا على قيد الحياة إلاّ بتسولهم خبزهم. وكان التقليد يريد أن تحتفظ كوكبة الملوك بهذه الواقعة التاريخية التي تعود إلى القرن الخامس عشر. ولكن عودة سريعة إلى الوثائق القديمة كانت قد كفت للكشف عن كون هذا العرف يعود إلى زمن أبعد بكثير من مغامرة العاهل المجري هذه. ماهو منشؤه إذن، وما الذي يريد قوله؟ هل يعود إلى عهد الوثنية كراسب من الاحتفالات التي كان المراهقون يدخلون خلالها إلى عالم الراشدين؟ ولماذا يرتدي الملك ووصيفاه الملابس النسائية؟ أهو تذكير بالحيلة التي نجح بواسطتها فريق من الرجال المسلحين (رجال ماتياس أو آخرين في زمن سابق) في تمرير رئيسهم المتنكر على هذا النحو، عبر إقليم معادٍ؟ أم أن ذلك من بقايا المعتقد الوثني القديم بالفضيلة الحاميّة للمتنكر بصورة امرأة ضد الجنيات الشريرات؟ ولماذا يُلزم الملك بالصمت من أول الطريق حتى آخره؟ ولماذا يقال كوكبة الملوك على الرغم من عدم وجود سوى ملك واحد؟ مامعنى كل ذلك؟ لاأحد يعلم. الفرضيات لاتنقص، ومامن واحدة منها مُصدّقة. كوكبة الملوك طقس غامض. لاأحد يعرف معناه ولارسالته. إلا أنه يمكن أن تكون كوكبة الملوك على هذه الدرجة من الجمال لأن محتوى رسالتها فُقِدَ منذ زمن طويل، وأنّ ذلك يزيد في بروز الحركات والألوان والكلمات لافتة الانتباه إليها، إلى مظهرها، إلى شكلها، تماماً كما ان هيروغليفيات مصر القديمة أجمل بالنسبة لمن لايعرفون قراءتها (ولايدركونها إلا كرسوم غريبة).

وهكذا سقط، أمام دهشتي، التحدي الأول الذي أحسست به حيال انطلاق الموكب المرتبك، وأُخذت فجأة بصورة هذا الفريق الخيال الذي كان يتقدم ببطء من منزل إلى آخر. وفوق ذلك سكتت المكبرات التي ماتزال منذ لحظة تنشر صوتاً حاداً لمغنية، ولم يعد يسمع (باستثناء زمجرة العربات التي تعودتُ، منذ زمن طويل، طرحها من انطباعاتي السمعية) سوى موسيقى النداءات الغريبة.

كنت أرغب في البقاء هناك، في أن أغمض عيني وأستمع فقط: كنت أشعر في قلب هذه القرية الموروافية أني أستمع إلى أبيات شعر، إلى أبيات بأكثر معاني هذه الكلمة بدائية، أبيات لم تنقلها إليّ قط إذاعة ولاتلفزيون ولامنصة درامية، أبيات تشبه نداءً إيقاعياً يقع على حدود الكلام والغناء، أبيات لاتأسر المستمع إلا بقوة وزنها وحده، كما كانت الأبيات التي تُليت في المدرجات القديمة قد أسَرَت، دون شك، المستمعين إليها. إنها موسيقى سامية ومتعددة الأصوات: كان كل من البشيرين يتلو بنبرة أحادية، ولكن بارتفاعات مختلفة بحيث أن الأصوات كانت تترابط بصورة لاإرادية في توافق. وفضلاً عن ذلك، لم تكن نداءات البشيرين متزامنة، بل كان كل منهم يطلق أبياته في برهة مختلفة عن سواه، أمام بيت آخر، بحيث أن الأصوات تستطيل من جهة وأخرى وتؤلف تناغماً له عدة أصوات. الأول كان ينتهي، والثاني في الوسط ويتداخل معه صوت ثالث بارتفاع آخر.

سارت الكوكبة لزمن طويل في الشارع الكبير (مذعورة، دون انقطاع، بسبب العربات التي كانت تمر)، ثم انقسمت لدى مفرق طرق: تابع الجناح الأيمن مساره المستقيم، وانعطف الأيسر إلى زقاق صغير واجتذبه فوراً بيت صغير ذو سياج منخفض وحديقة صغيرة مفروشة بورود متعددة الألوان. كان البشير ماضياً في ارتجالات مداعبة: البيت الصغير يستطيع أن يفخر بنبعه الجميل، ابن ربة المنزل غول مضحك. والواقع أنه كانت توجد عند المدخل مضخة، وطربت الأربعينية البدينة باللقب الذي أُعطي لابنها، فراحت تضحك

وهي تعطي ورقة مالية للفارس (جامع التبرعات) الذي كان يستجدي: «من أجل الملك أيتها الأم الصغيرة، من أجل الملك!». ولم تكد الورقة المالية تختفي في السلة المعلقة على سرج الحصان حتى صاح بشير آخر وهو قادم، بأن الأربعينية كانت صبية وجميلة، ولكنه يتذوق، بمزيد من طيب الخاطر، شرابها المعتق، وتظاهر، وقد قلب رأسه إلى وراء، بأنه يشرب من راحته المنطبقة على شفتيه. كانت دون شك قد توقعت كل شيء، لأنها عادت إلى الظهور فوراً مع زجاجة وكأس، وقدمت الشراب للفرسان.

وفي حين كانوا يشربون ويمزحون، كان الملك المحاط بوصيفيه في مكان أبعد بقليل، ينتصب متصلباً على السرج، ساكناً، وقوراً، تماماً كما قد يليق بالملوك أن يتلفعوا بوقارهم، ينتصب غائباً وحيداً وسط صخب جيوشه. كان جوادا الوصيفين يحاصران المطية الملكية من الجانبين، وهو ماجعل الفرسان الثلاثة يتلامسون تقريباً، حذاء ملتصق بحذاء (كان على صدر كل واحد من حيواناتهم قلب كبير من الخبز المحلى مغطى بمرايا صغيرة ومرشوش بالسكر الملون، وعلى جبينه ورود من ورق، وضُفِر عرفه بشرائط ملونة). كان الفرسان البكم الثلاثة يرتدون ملابس نسائية: تنورة واسعة، كمان منفوخان منشّيان، وعلى الرأس غطاء مزين تزييناً غنياً. الملك وحده يحمل بدلاً من هذا الغطاء تاجاً من الفضة البراقة تدلّت منه ثلاث شرائط طويلة وعريضة، واحدة حمراء في الوسط، واثنتان زرقاوان، كانت تغطي وجهه كلياً وتعطيه مظهراً غريباً ومؤثراً.

بقيت منتشياً أمام هذا الثلاثي الجامد. قبل عشرين سنة كنت مثلهم جالساً على حصان مزين، ولكني لم أكن قد رأيت شيئاً لأني كنت آنذاك أرى من داخل الكوكبة. الآن فقط أراه حقاً ولاأستطيع أن أحوّل نظري عنه: الملك على السرج (على مسافة بضعة أمتار مني) ويشبه تمثالاً مغلفاً بعلم، محروساً حراسة شديدة. قلت لنفسي فجأة، من يدري، ربما لم يكن ملكاً، بل ملكة. وربما جاءت الملكة لوسي من

أجل أن تتجلى بمظهرها الحقيقي، لأن مظهرها الحقيقي هو، على وجه الدقّة، مظهرها المحجوب بستار.

وفي هذه اللحظة، انتبهت إلى أن كوستكا الذي كان يجمع في داخله بين عناد التفكير والهذيان، كان أصيلاً بحيث أن كل ماارواه بدا لي ممكناً ولكنه غير مؤكد. لاشك في أنه يعرف لوسي ويعرف أكثر مما ينبغي حولها، ولكن الأساسي قد فاته: هذا الجندي الذي أراد امتلاك لوسي في غرفة مستعارة من عامل منجم كان محبوباً منها حقاً. كيف يمكن أن آخذ مأخذ الجد قصة عن لوسي تقطف الأزهار بسبب ميل غامض نحو التقى عندما أتذكر أنها كانت تقطفها من أجلي؟ وإذا لم تقل كلمة عن هذا لكوستكا، وكذلك عن أشهر حبنا الستة، فهذا يعني أنها احتفظت حتى أمامه بسر لايمكن الوصول إليه، ولم يكن يعرفه بالتالي إذن. وعند ذلك فليس من المؤكد أنها اختارت السكنى في هذه المدينة من أجله. يمكن أن تكون قد وصلت إلى هنا مصادفة، ولكنه كان من الممكن أيضاً أن يكون ذلك بسببي، على اعتبار أنها تعرف أن هذه هي مدينتي. كنت أشعر بأن اغتصاب لوسي الأصلي كان حقيقياً، إلا أن الشكوك كانت تساورني حول الظروف الدقيقة: فالقصة ملونة في بعض المواضع بالنظرة الدامية لشخص تثيره الخطيئة، وفي برهات أخرى بأزرق هو من الزرقة بحيث ما كان ممكناً أن يأتي ذلك إلا من رجل معتاد على تأمل السموات. كان الأمر واضحاً: ففي رواية كوستكا، تمتزج الحقيقة بالشعر، ولم يكن الأمر سوى أسطورة إضافية (ربما كانت أقرب إلى الحقيقة، وربما أجمل وأعمق) ربما كانت أجمل أو أعمق تغطي الأسطورة القديمة.

كنت أنظر إلى الملك المقنّع ورأيت لوسي وهي تجتاز (غير متعرّف عليها وغير قابلة لذلك)، بجلال (وسخرية) حياتي. ثم (بقسرٍ خارجي غريب)، مالت نظرتي جانباً ووقعت فوراً على نظرة رجل لابد أنه كان ينظر إليّ منذ بعض الوقت ويبتسم، قال «مرحباً!»

وللأسف تقدم نحوي، فقلت له: «مرحباً». مد لي يده فأخذتها. وعند ذلك أدار رأسه ونادى فتاة لم أكن قد لاحظتها: «ما الذي يؤخرك؟ اقتربي لأقدم لك!». الفتاة (الهيفاء، الرشيقة، ذات الشعور والعينين البنية) تقدمت نحوي قائلة: «بروزوفا». ومدت لي يدها وأجبت: «تشرفنا، اسمي جان». وهتف هو بمرح: «مضت حقاً سنوات لم أرك خلالها يا عزيزي!». كان زيمانيك.

6

تعب، تعب. لم أكن أتوصل إلى الخلاص منه. الكوكبة انطلقت الآن، وقد حصلت على ملكها، إلى الميدان، أما أنا فكنت أكتفي بجر نفسي وراءها. أتنفس تنفساً عميقاً لأتغلب على تعبي. توقفت عند بيوت الجيران الذين كانوا قد وضعوا أنوفهم خارجاً وراحوا يتثاءبون. أحسست فجأة بأنه جاء دوري أنا أيضاً في التزام مكاني، بأن أفكار السفرات والمغامرات قد انتهت، وأنني كنت محبوساً بلا رجعة بين الشارعين أو الثلاثة التي قضيت فيها حياتي.

عندما وصلت إلى الميدان، كانت الكوكبة تبتعد عنها ببطء على طول الشارع الكبير. أردت أن أطلع وراءها، ولكني رأيت فجأة لودفيك. يااللودفيك اللعين! ليذهب إلى الشيطان! حتى الآن كان هو الذي يتجنبني. حسناً! أنا اليوم الذي لن أراه! درت على عقبي ومضيت نحو مقعد تحت إحدى أشجار تفاح الميدان. سأصغي هكذا، وأنا في جلسة مريحة، إلى صدى نداءات الفرسان المخفف.

بقيت على المقعد أسمع وأرى. كانت كوكبة الملوك تبتعد شيئاً فشيئاً، متضيقةً بشكل يدعو إلى الرثاء على جانبي الطريق الذي كانت تعبره دون انقطاع سيارات ودراجات. وكان يتبعها بعض المتسكعين: أربعة منتوفين ومجزوز. تناقص عدد من يشاهدون كوكبة الملوك. وبالمقابل هناك لودفيك. ماذا جاء يفعل هنا حقاً؟ ليأخذك الشيطان يالودفيك! فات الأوان الآن، فات الآن أوان كل شيء. جئت كعلامة سيئة، علامة سوداء، وبالضبط عندما كان ابني فلاديمير هو الملك!

حولت عيني. لم يكن في ميدان القرية سوى حوالى دستة من المتخلفين حول الأجنحة عند مدخل الحانة. كانوا جميعهم تقريباً ثملين. السكارى هم أوفى المدافعين عن البرامج الفولكلورية، آخر

المدافعين عنها. فهي تعطيهم مرةً ومن وقت إلى آخر سبباً متميزاً لشرب كأس.

الجد بيشاسيك وهو عجوز صغير جلس إلى جانبي. يبدو أن الأمر لم يعد كما في القديم. وافقت. ما عاد كما كان. كم كانت هذه الكوكبات جميلة قبل عقود أو قرون! كانت بالتأكيد أقل برقشة مما هي عليه اليوم. تبدو الآن ملونة قليلاً، تهريج معرض. وهذه القلوب من الخبز المحلى على صدور الجياد! هذه الأطنان من الشرائط الورقية المشتراة من المخازن الكبرى! في السابق كانت الألبسة ملونة مثلها اليوم، ولكنها كانت أبسط. لم يكن للمطايا، على سبيل الزينة، سوى وشاح أحمر كبير يُربط في عنق الواحدة منها. ولم يكن للملك، هذا القناع من الأشرطة الملونة، كان له نقاب بسيط. وفضلاً عن ذلك، كان يعض على وردة بين أسنانه لمنعه من الكلام.

نعم أيها الجد، كان الأمر أفضل بكثير في الماضي. لم يكن أحد في حاجة إلى أن يركض وراء الشباب ليوافقوا، لطفاً منهم، على الاشتراك في الكوكبة. ليست هناك حاجة إلى كل هذه الاجتماعات التمهيدية بمشاداتها التي لاتنتهي لمعرفة من سيتولى التنظيم وإلى من سيعود الربح! كانت الكوكبة تنبجس من حياة الأرياف كنبع. تمضي خبباً من قرية إلى قرية مستجديةً من أجل ملكها المقنّع. وكان يتفق أحياناً أن تلتقي بكوكبة أخرى من بلدة أخرى، وعند ذلك كانت تقع المعركة. فكل كوكبة تدافع بشراسة عن ملكها. وغالباً ماكان الدم يسيل في بريق المدى والسيوف. وعندما تأسر كوكبة ملكاً غريباً، كانوا يسكرون حتى الموت في الحانة على حساب والد هذا الملك.

بإيماني أنت على حق أيها الجد! لم يكن الأمر قد أصبح هكذا حتى حين جُعلت ملكاً في فترة الاحتلال. وحتى بعد الحرب كان الأمر مايزال يستحق العناء. كنا نتصور، نحن الآخرين، أننا سنصنع

عالماً جديداً تماماً، وأن الناس سيعودون إلى العيش في التقاليد القديمة، وأن الكوكبة نفسها، ستنبع من أعماق حياتهم. كنا نريد تشجيع هذا الانبثاق. كنا نموت تعباً لتنظم أعياد شعبية. لكن لايمكن تنظيم النبع. فإما أن يندفع وإما أن لايكون نبعاً. أنت ترى جيداً أيها الجد أين نحن: أغنياتنا الصغيرة، كوكباتنا وكل شيء مجرد بقايا عصر: القطرات الأخيرة، قطرات صغيرة، الأخيرة تماماً.

أوف! لقد اختفت الكوكبة. تحولت دون شك إلى زقاق عرضي صغير. ولكننا مانزال نسمع نداءها. كان نداؤها رائعاً. أغمضتُ عيني وتخيلت لحظة بأنني كنت أعيش في زمن آخر، في قرن آخر قديم جداً. ثم فتحت عينيٍ وقلت لنفسي إنه لأمر جيد أن يكون فلاديمير هو الملك. إنه ملكٌ مملكة شبه ميتة ولكنها رائعة، مملكة سأبقى وفياً لها حتى نهايتها.

غادرت المقعد. حياني أحدهم. كان العجوز كوتيكي. لم أكن قد رأيته منذ زمن طويل. كان يمشي بمشقة، مستنداً إلى عكاز. لم أحبه قط، ولكن شيخوخته كانت تثير شفقتي. سألته: «أين تذهب هكذا؟». قال إن نزهة الأحد الصغيرة جيدة للصحة. «وهذه الكوكبة، هل راقت لك؟». أبدى إشارة تقزز: «حتى أنني لم أنظر إليها!» سألته: «لماذا؟». ومن جديد حركة يد جديدة أكثر نفوراً. وفي اللحظة نفسها حزرت لماذا: كان لودفيك بين المتفرجين. ولم يكن كوتيكي قد حرص أكثر مني على لقائه.

قلت له: «إني أفهمك! ابني في الكوكبة ومع ذلك لاتعني لي متابعتهم شيئاً ـ ابنك بيتهم؟ فلاديمير؟ ـ قلت: بالتأكيد، بل هو الملك!»، قال كوتيكي: «إذن الأمر غريب. رددت قائلاً: ما الغريب؟ قال كوتيكي الذي كانت عيناه تبرقان: بل وغريب جداً! وألحّيت قائلاً: وأخيراً ماذا هناك؟ وقال كوتيكي: هناك فلاديمير مع ابنتنا ميلوس!». لم أكن أعرف ميلوس. أوضح لي أنه حفيده، ابن ابنته.

احتجيت قائلاً: «ولكن هذا غير ممكن، لقد رأيته مع ذلك عندما كان يمضي من بيتنا على جواده ـ أكد كوتيكي قائلاً: وأنا أيضاً رأيته. كان ميلوس يقتاده من بيتنا على دراجته النارية ـ قلت: لارأس لهذا ولاذنب!». وسارعت مع ذلك إلى إضافة قولي: «وأين كانا ذاهبين؟ ـ قال كوتيكي مودعاً إياي: إذا لم تكن تعلم فلست أنا الذي سأقوله لك».

7

لم أكن أحسب حساباً للالتقاء بزيمانيك (فهيلينا قد أكدت لي أنه لن يأتي لأخذها إلا بعد الظهر) وكان أمراً بغيضاً جداً بالنسبة لي أن ألقاه. ولكني لم أكن أستطيع حيال ذلك شيئاً. إنه هناك، هو يشبه نفسه شبهاً مطلقاً: شعره الأصفر مايزال أصفر حتى ولو لم يعد يمشطه إلى الوراء، خصلات متموجة. كان قصيراً ومسحوباً على الجبين، كما تريد الموضة.مايزال ينفخ صدره وقذاله متصلب إلى الخلف. مايزال مرحاً وراضياً عن نفسه، لايهتز ومزوداً برضى الملائكة وفتاة ذكرني جمالها على الفور بالانعدام الشاق للكمال في الجسد الذي قضيت معه بعد ظهر أمس.

اجتهدت في الرد بأتفه صورة ممكنة على التفاهات التي كان يوجهها إلي آملاً في أن يكون حديثنا أقصر حديث ممكن: كرر أننا لم نر بعضنا منذ زمن طويل مظهراً دهشته للقائه إياي هنا بالضبط «في هذا الثقب الضائع». قلت له بأنني ولدت هنا، وهو ماأعتذر عنده مقراً، في هذه الحالة، بأن المدينة ليست بائسة. أخذت الآنسة بروزوفا في الضحك. لم أرد على هذه المزحة، بل لاحظت ببساطة أني لم أتعجب للقائه هنا، باعتبار أنه كان دائماً، بقدر ماأتذكر، هاوياً للفولكلور. ضحكت الآنسة بروزوفا من جديد، مصرحة بأنهما لم يأتيا من أجل كوكبة الملوك. سألتها عما إذا كانت الكوكبة لاتروق لها. قالت إن ذلك لم يكن يسليها، فسألتها لماذا؟ هزت كتفيها وقال لي زيمانيك: «الزمن تغير ياعزيزي لودفيك!».

في هذه الأثناء، كانت الكوكبة تتقدم منزلاً، وكان فارسان يناضلان مع جواديهما اللذين أخذا يهتاجان. راح أحدهما يصرخ في وجه الآخر متهماً إياه بسوء تحكمه في مطيته، واختلطت كلمتا «مخبول!» و«أحمق!» اختلاطاً مضحكاً إلى حد كاف مع طقوسية الاحتفال. تنهدت الآنسة بروزوفا: «سيكون أمراً رائعاً أن يحتدما!».

قهقه زيمانيك، ولكن الفارسين سرعان مانجحا في تهدئة جواديهما. وكان نداء: «انتبهوا، انتبهوا!» يدوي رسمياً من جديد عبر القرية.

كنت وأنا أتبع هذا الفريق الصوتي على طول حدائق صغيرة مزهرة، أحاول عبثاً ذريعة ما، طبيعية إلى حد كافٍ، كي أستأذن زيمانيك في الانصراف. كنت مرغماً على السير طائعاً إلى جانب رفيقته الجميلة والاستمرار في تبادل العبارات: وهكذا علمت أنهما كانا حتى ساعة مبكرة من هذا الصباح في براتيسلافا، وأن الجو كان جميلاً كما هو هنا، وقد جاءا في سيارة زيمانيك، وكان عليهما تبديل شمعات الإشعال في السيارة وهما ماكادا أن يخرجا من براتيسلافا، ثم أنها من طالباته. كنت أعلم، من هيلينا، أنه كان يلقي دروساً عن الماركسية ـ اللينينية في الجامعة، ومع ذلك سألته عما كان يدرّسه، فأجاب: «الفلسفة» (بدت لي هذه التسمية للمادة ذات دلالة. فهو من شأنه، قبل أربع أو خمس سنوات، أن يقول «الماركسية»، ولكن فقدان المكانة الذي كانت هذه المادة تعانيه بلغ، خاصة عند الشباب، درجة أخفى معها زيمانيك بحياء الماركسية في مصطلح أكثر عمومية، وهو الذي كان الإعجاب بها شاغله الرئيسي). تظاهرتُ بالدهشة قائلاً إن زيمانيك، وأنا أذكر ذلك جيداً، درس البيولوجيا. كانت ملاحظتي تخفي تلميحاً ساخراً إلى صفة الهواية الشائعة لدى أساتذة الماركسية الذين لم يرقّوا باعتبارهم مختصين بفضل معارفهم العلمية، بل بفضل صفاتهم كدعاة. تدخلتْ الآنسة بروزوفا إذ ذاك مصرحةً بأن في رؤوس أساتذة الماركسية كراسة سياسة بدلاً من الدماغ، ولكن باڤيل كان من جانبه مختلفاً تماماً. كانت هذه الكلمات بالنسبة لزيمانيك خبزاً مقدساً. راح يحتج بضعف مظهراً بذلك تواضعه ومستدرجاً الفتاة على هذا النحو إلى ثناءات أخرى. وهكذا علمتُ أن صديقها هو من بين أكثر الأساتذة شعبية لدى الطلاب، للأسباب نفسها التي كانت

تسيء إليه لدى الإدارة: إنه يقول دائماً مايفكر فيه، ولديه الجرأة وهو يتبنى قضية الشبيبة. استمر زيمانيك في الاحتجاج برخاوة، وفصّلت لي رفيقته الصراعات المتنوعة التي كان يتعرض لها في هذه السنوات الأخيرة: بل كان يُراد طرده من منصبه لأنه كان يريد، دون الانشغال بالبرامج الغبراء، أن يطلع الشباب على كل ماكان يتحرك في الفلسفة الحديثة. (كان متّهماً باستيراد «أيديولوجية العدو»، تهريباً). فقد أنقذ فتى يُراد طرده من الكلية إثر تصرف صبياني (مشادة مع شرطي) عرضه العميد (المعادي لزيمانيك) كجنحة سياسية. وبعد هذه القصة نظم الطلاب اقتراعاً سرياً حول أكثر الأساتذة شعبية، وهو الذي فاز فيه. لم يعد زيمانيك يحتج على هذا الطوفان من المدائح، وقلت للآنسة بروزوفا (بسخرية مضمرة ولكنها للأسف لاتكاد تكون مفهومة) كم كنت أفهمها نظراً لأني كنت أتذكر بأن أستاذها اليوم، كان في أيام دراستي أيضاً من بين الأفضل اعتباراً، وهو مازايدت عليه بلهفة: ليس في ذلك عجب لأنه لم يكن يوجد بالنسبة لموهبة الكلام من يعادل باقيل، كما لم يكن في المناقشة من هو قادر مثله على تثبيت الخصم على الأرض! سلم زيمانيك بذلك ضاحكاً، «إذا كنت أثبتهم على الأرض في مناقشة فهم يستطيعون تثبيتي بطرق أخرى أشد كفاية».

لقيت من جديد في تبجح الحديث زيمانيك الذي كنت قد عرفته، ولكن محتوى هذه الكلمات قد أخافني: كان يبدو أن زيمانيك قد تخلى تخلياً جذرياً عن موقفه السابق، ولو كنت أعيش حالياً في محيطه فسأكون، عن رضى أو غير رضى، إلى جانبه. كان ذلك مرعباً، ولم أكن مستعداً أبداً لهذا، رغم أن هذا التغيير في الموقف بالتأكيد لن يكون مدهشاً في شيء، والذين عانوه كانوا مع ذلك عديدين، ذلك أن المجتمع بكامله كان يعيشه بدرجات مختلفة. ولكني لم أكن أتوقع ذلك لدى زيمانيك على وجه الدقة. فقد ظل متحجراً في ذاكرتي داخل الصورة التي كنت قد رأيته فيها، وكنت أنكر عليه الآن

بشدة، الحق في أنّ يكون شخصاً آخر لم أكن قد عرفته.

هناك أناس يعلنون حبهم للإنسانية، وآخرون يعارضونهم عن حق، بأنه لايمكن للمرء أن يحب إلا بالمفرد، لايمكن أن يحب سوى أفراد. أنا موافق على ذلك وأضيف إليه أن ماينطبق على الحب ينطبق على الكراهية. الإنسان، هذا المخلوق الذي يتوق إلى التوازن، يعوّض عن وزن الشر الذي ألقيَ به على ظهره بوزن كراهيته. ولكن حاول أن تركز الكراهية على التجريد الخالص للمبادئ؛ على الظلم والتعصب والبربرية أو حاول أن تكره الإنسانية إذا مضيت إلى التفكير في أن مبدأ الإنسان نفسه جدير بالاحتقار! إن مثل هذه الكراهيات أكثر تجاوزاً للإنسانية بكثير، وهكذا ينتهي الإنسان، إذا أراد أن يخفف من غضبه (الذي يعرف أن قواه محدودة)، إلى عدم تركيزه إلّا على فرد.

ومن هنا ذعري. سوف يستطيع زيمانيك في كل برهة بعد الآن، أن يستند إلى تحوله (الذي أتى، فضلاً عن ذلك، على البرهنة لي عنه بخفة مشبوهة) ويطلب عفوي. وكان ذلك مايبدو لي مرعباً. مالذي سأقوله له؟ بماذا سأجيب عليه؟ كيف أفسر له أني لاأستطيع مصالحته؟ كيف أوضح له بأنني إذا ما فعلت ذلك، سأجري فوراً قطيعة مع توازني الداخلي؟ كيف أوضح له أن أحد طرفي ذراعي ميزاني الداخلي سيقذف به إذا ذاك في الجو؟ كيف أشرح له أن كراهيتي حياله توازن ثقل الشر الذي وقع على شبابي؟ كيف أوضح له أنه يجسد هذا الشر؟ كيف أبيّن له أني في حاجة إلى كراهيته؟

8

أجسام الخيول كانت تملأ كل الزقاق الصغير. رأيت الملك على مسافة بضعة أمتار مني. كان على جواده بعيداً عن الآخرين. وكان إلى جانبيه جوادان آخران، فتيان آخران. وصيفاه. كنت مشوشاً. كان يحني ظهره قليلاً، على طريقة فلاديمير. ينتصب بلا حراك، جامداً تقريباً. هل هو فلاديمير؟ ربما، ولكنه قد يكون أيضاً شخصاً آخر حقاً.

تقدمت إلى مكان أقرب، من المستحيل أن لاأتعرف عليه. وأخيراً، فأنا أعرف جلسته، أعرف أدنى عاداته، أعرف كل هذا عن ظهر قلب! أحبه، وللحب غريزته!

تسللت حتى مكان قريب منه. كنت أستطيع أن أناديه. لاشيء أبسط من ذلك. ولكن هذا سيكون دون جدوى. فلاينبغي للملك أن يتكلم.

تقدم الموكب منزلاً. آه، سوف أتعرف عليه الآن. خطوة الجواد سترغمه على حركةٍ تفضحه. رفع الحيوان ركبته، شد الملك قامته، ولكن هذه الحركة لم تخنه. بقيت الشرائط حول وجهه عاتمة إلى حد يدعو لليأس.

9

كان الموكب قد تقدم أيضاً بضعة بيوت، ومثله تقدمت حفنة الفضوليين (ونحن منهم) وتصدى حديثنا لموضوعات أخرى: كانت الآنسة بروزوفا قد انتقلت من زيمانيك إلى شخصها عارضة حبها للأوتو ـ ستوب، تحدثت عنه بقدر من الإلحاح (المصطنع قليلاً) فهمت معه فوراً أني كنت أستمع إلى «بيان جيلها». كان الخضوع لعقلية جيل، (لغرور القطيع هذا) يحملني دائماً على النفور. وعندما توسعت الآنسة بروزوفا في التفكير (الذي سمعت عنه أكثر من خمسين مرة) القائل بأن الجنس البشري ينقسم إلى الذين يأخذون في سياراتهم من يمارسون الأوتو ـ ستوب (أناس إنسانيون يركبون المغامرة) والذين لا يأخذونهم (أناس غير إنسانيين يخافون من الحياة)، سميتها مازحاً «دوغماتية الستوب»، فردت عليّ بجفاء بأنها لم تكن دوغماتية ولاتحريفية وضيقة التفكير، وهذه كلمات من عندنا، اخترعناها، تخصنا وغريبة عنهم.

قال زيمانيك: «نعم! إنهم مختلفون، مختلفون لحسن الحظ ومفرداتهم هي لحسن الحظ كذلك، لاتهمهم نجاحاتنا ولاأخطاؤنا. لن تصدق ذلك، ولكن هؤلاء الشباب لم يعودوا، في امتحان الدخول إلى الكلية، يعرفون ما هي محاكمات موسكو، وستالين ليس سوى اسم بالنسبة إليهم. بل إن معظمهم لايعرفون حتى لماذا حدثت منذ عشر سنوات المحاكمات السياسية في براغ.

قلت: هذا، بالضبط، مايبدو لي بشعاً.

ـ الواقع هو أن هذا لايثبت تعليمهم. ولكن في ذلك تحرراً لهم. لقد انغلقوا على عالمنا، رفضوه جملةً.

ـ كمن يحل محل آخر.

ـ لن أقول هذا. أنا معجب بهم لأنهم مختلفون عنا تماماً. فهم

يحبون أجسادهم، ونحن أهملناها. وهم يحبون السفر، ونحن تحجرنا. إنهم يحبون المغامرات، أما نحن فضيعنا وقتنا في الاجتماعات. إنهم يحبون الجاز، ونحن نسخنا عن الفولكلور دون نجاح. هم مشغولون بأنفسهم، ونحن أردنا إنقاذ العالم. كدنا برسوليتنا، ندمره، وربما سينقذونه هم بأنانيتهم».

10

كيف يمكن ذلك؟ الملك! صورة تنتصب فوق جواد، مغطاة بالألوان. كم مرة رأيته، تخيلته! أكثر الصور حميمية! والآن هاهي تتحول إلى واقع، كل حميميتها انتهت. لم تعد فجأة سوى يرقة ملطخة بالألوان لاأعلم ماذا تُخفي. ولكن، ماذا يمكن أن يكون هناك من حميم في هذا العالم، إن لم يكن مِلكي؟

ابني، أقرب الكائنات إليّ. أنا واقف أمامه وأجهل ماإذا كان هو أم لا. ماذا أعلم إذن، إذا لم أعلم حتى ذلك! من أي شيء أنا واثق في هذا العالم، إن لم تكن لدي حتى هذه الثقة؟

11

خلال استسلام زيمانيك لثناء الجيل الصاعد، كنت أتأمل الآنسة بروزوفا وأتبين بحزن أنها جميلة ولطيفة. كنت أحس بالغيظ لأنها ليست لي. كانت تمشي إلى جانب زيمانيك وتمرر، كل ثلاث ثوانٍ، ذراعها تحت ذراعه، تلتفت إليه، وكنت أنا أتبين (كما يحدث لي بصورة متزايدة من سنة إلى الأخرى) أني لم أحصل، منذ عهد لوسي، على فتاة يمكن أن أحبها وأحترمها. كانت الحياة تسخر مني بإرسالها لي تذكيراً بفشلي، على وجه الدقة في ملامح عشيقة هذا الرجل الذي اعتقدت بأنني غلبته بالأمس في معركة جنسية مضحكة.

وكلما كانت الآنسة بروزوفا تروق لي، كنت أسجل كيف أنها تنتمي كلياً إلى معاصريها الذين اختلطنا، أنا وأبناء جيلي، بالنسبة إليهم، في الحشد غير المتميز نفسه، مدموغين باللغة غير المفهومة نفسها، بالفكر زائد التسييس نفسه، بأنواع القلق نفسها، بالتجارب الغريبة نفسها لعصر أسود ومنقضٍ.

في هذه اللحظة بدأت أفهم: لم يكن الشبه بيني وبين زيمانيك يقتصر على كونه قد غيّر آراءه فاقترب مني. فهذا الشبه كان أعمق ويغلف مصيرينا بشكل كامل: جعلتنا نظرة بروزوفا ومعاصريها متشابهين حتى حيث كنا نتواجه بشراسة. شعرت فجأة أني لو أُرغمت على أن أروي أمامها قصة فصلي من الحزب، فسوف يبدو لها الحدث بعيداً ومفرطاً في صفته الأدبية (نعم إنه موضوع طُرق عدة مرات في روايات رديئة)، وكنا سنصبح كلينا في هذه القصة مكروهين من جانبها، أفكاري وأفكاره، موقفي وموقفه (وكلاهما مخبولان وممسوخان بصورة متشابهة). وفوق خصومتنا التي كانت تبدو لي اليوم فائقة الحضور والحيوية، كنت أرى انغلاق مياه الزمن المعزية التي تمحو، كما يعرف كل إنسان، الفروق بين عصور كاملة، وكم يكون محوها أسهل بين فردين مسكينين. ولكنني دافعت

عن نفسي بضراوة ضد كل عرض مصالحة كان يقدمه الزمن. فأنا بعد كل شيء لاأعيش في الأبدية، بل أنا راسخ في أعوامي السبعة والثلاثين ولاأريد قطع السلسلة (كزيمانيك الذي كان قد تطابق بهذه السرعة مع الأصغر سناً)، كلا، أريد أن ابقى في مصيري، وفي عمري حتى ولو كانت سنواتي السبع والثلاثون لاتمثل سوى مقطع زمني ضئيل وعابر يُنسى فعلاً، وقد نُسي.

ولو جاء زيمانيك ليميل في اتجاهي بألفةٍ، وبدأ في الحديث عن الماضي وفي طلب الصلح، فسوف أرفض، نعم سوف أرفض هذا الصلح حتى ولو توسطت فيه الآنسة بروزوفا وكل معاصريها والزمن نفسه.

12

تعب. فجأة، راودني الإغراء بأن أتخلى عن كل شيء، بأن أمضي وأخلّف ورائي همومي. لم أعد أريد أن أبقى في هذا العالم المكون من الأشياء المادية التي لاأفهمها والتي تخدعني. يوجد أيضاً عالم آخر، العالم الذي أكون فيه في بيتي، الذي أجد نفسي فيه. يوجد هناك طريق وفارّ من الجندية، وعازف كمان متشرد وأمي.

انتهيت مع ذلك إلى الانتقاض. يجب حقاً أن أمضي إلى النهاية في خصامي مع عالم الأشياء المادية. يجب حقاً أن أنظر في أعماق كل الأخطاء والضلالات.

أكان يجب أن أسأل أحدهم؟ أأسأل غلمان الكوكبة؟ وماذا لو سخر الجميع مني؟ أعدت التفكير هذا الصباح. إلباس الملك! وفجأة عرفت أين يجب أن أذهب.

13

لدينا ملك معوز، ولكن ذلك يزيده فضلاً: هكذا كان يهتف الفرسان على مسافة ثلاث أو أربع بيوت منا، وكنا مازلنا نتبعهم، نتبع أرداف الخيول المزينة بالشرائط، الأرداف الزرقاء أو الوردية أو الخضراء أو الخبازية، عندما قال لي زيمانيك فجأة وقد صوب إصبعه نحوهم: «انظر، هذه هيلينا!». نظرت في الاتجاه الذي أشار إليه، ولكني لم أكن أرى بعد سوى أجساد الخيول الملونة. دلني زيمانيك مرة أخرى: «هناك!». لمحتها فعلاً نصف مختفية وراء حصان، وأحسست بأن وجهي قد احمرّ: فالطريقة التي دلني بها زيمانيك عليها (لم يقل «زوجتي»، بل «هيلينا») تثبت أنه كان يعلم أني أعرفها.

كانت هيلينا الواقفة على حافة الرصيف تمتشق ميكروفوناً. وهناك سلك يربطه بالمسجلة التي تتدلى من كتف فتى صغير يرتدي سترة جلدية وبنطلون جينز، ويضع خوذة استماع على رأسه. توقفنا غير بعيد عنهما. قال زيمانيك (فجأة وبشكل طبيعي) هيلينا امرأة مدهشة، والأمر لايقتصر على أنها كانت جميلة القد دائماً، ولكنها أيضاً متمكنة جداً ولم يكن يدهشه أبداً أن أتفق معها جيداً.

كنت أحس باحمرار خدي: لم تكن هناك عدوانية في هذه الملاحظة، وعلى العكس من ذلك، فإن زيمانيك قد تلفظ بها بلهجة ودية جداً. وكانت الآنسة بروزوفا تنظر إليّ بابتسامة بليغة كما لو كانت تتشبث بإفهامي أنها مطّلعة وأنيّ كنت أحظى بتعاطفها، بل، وهو أفضل، بتواطئها.

كان زيمانيك المسترخي يتابع الحديث عن زوجته باذلاً جهده كي يبين لي (بمداورات وتلميحات) أنه يعرف كل شيء، ولكنه لايجد مايقوله فيه، نظراً لليبراليته حيال حياة هيلينا الخاصة. وكي يعطي

أقواله خفة لامبالية، أشار إلى حامل المسجلة الفتى وقال إن هذا الغلام (الذي كانت سماعتاه، كما لاحظ، تجعلانه يشبه حشرة كبيرة) مولع بصورة خطرة بهيلينا منذ سنتين، وأن عليّ الانتباه. وأخذت الآنسة بروزوفا تضحك وسألث كم كان عمره منذ سنتين. حدد زيمانيك هذا العمر بسبعة عشر عاماً، وهو مايكفي للوقوع في الحب. ثم أضاف مازحاً بأن هيلينا لم تكن تهتم بالقطط الصغيرة، وهي امرأة فاضلة ولكن غلاماً كهذا يزداد هياجاً كلما ضعفت فرصته في النجاح، وأن له بالتأكيد قبضة سريعة. وأضافت الآنسة بروزوفا (بلهجة ثرثرة لاتعني شيئاً) إني ربما استطعت الصمود أمامه.

قال زيمانيك مازحاً: «لست واثقاً من ذلك كثيراً».

رددت عليه باللهجة نفسها قائلاً: «لاتنسَ بأنني قد عملت في المناجم. وقد نمّى هذا العمل عضلاتي». قلت هذا دون أن أنتبه إلى كون هذا التذكير نشازاً في هذه المحادثة التافهة.

سألت الآنسة بروزوفا قائلة: هل عملت في المناجم؟

تابع زيمانيك يقول، متشبثاً بموضوعه بعناد: فتيان العشرين هؤلاء خطرون عندما يكونون جماعة، ويجب حقاً أن يحذرهم المرء. إنهم يتدبرون جيداً أمر الشخص الذي لايعجبهم.

ألحت الآنسة بروزوفا قائلة: لمدة طويلة؟

قلت: لخمس سنوات!

ـ ومتى كان ذلك؟

ـ كنت ماأزال أعمل فيها قبل تسع سنوات.

قالت لتسهم بمزحتها الصغيرة في جو المزاج الطيب العام: «هذا إذن من التاريخ القديم... عضلاتك ضمرت منذ ذلك الحين».

ولكني كنت من جانبي في هذه اللحظة أفكر حقاً في عضلاتي: كنت أقول لنفسي إنها لم تضمر أبداً، وأنا ماأزال أملك لياقة ممتازة وأستطيع أن أهزمه، أن أهزم الأشقر الذي كنت أثرثر معه، بكل الوسائل الممكنة ـ ولكني لم أكن أملك (وهذا هو الأكثر أهمية وبعثاً على الحزن في كل ذلك) سوى هذه العضلات كي أسوي دَيني القديم.

تخيلت مرة أخرى أن زيمانيك كان يلتفت نحوي باسماً ويطلب مني نسيان كل ماكان قد جرى بيننا. وشعرت أني وقعت في فخ: لم يكن طلبه الصفح مدعوماً بتغييره آراءه فقط، بالزمن وحسب، بالآنسة بروزوفا ومعاصريها، بل أيضاً بهيلينا (نعم، كلهم وراءه وضدي)، لأن زيمانيك اشترى صفحي الخاص بصَفحِه عن زناها.

عندما رأيت (في خيالي) وجهه كمبتز واثق من حلفائه الأقوياء، اشتعلت لدي رغبة في ضربه، هي من القوة بحيث رأيت نفسي حقاً آخذاً في صرعه. كان الفرسان يزعقون من حولنا، والآنسة بروزوفا تروي مالاأدري، والشمس ذهبية بصورة رائعة، وكان أمام عيني الزائغتين، الدم الذي يسيل من وجهه.

نعم، كان ذلك في خيالي. ولكن ماذا سأفعل حقاً عندما سيلتمس عفوي؟

فهمت برعب أني لن أفعل شيئاً.

وصلنا إلى جانب هيلينا وتقنيها الذي نزع سماعتيه. قالت هيلينا وقد فاجأتها رؤيتي مع زيمانيك: «هل تعرفتما فعلاً على بعضكما؟.

قال: نعرف بعضنا منذ زمن طويل!

ـ كيف؟» كانت مدهوشة.

أوضح زيمانيك قائلاً: «منذ سنواتنا كطلاب: كنا معاً في الكلية!». أحسست، إذ ذاك، بأني أتيت على اجتياز واحدة من أواخر

العبّارات التي كان يجرني عبرها إلى موضع العمل الشائن (الشبيه بالمشنقة) والذي سيطلب مني فيه العفو.

قالت هيلينا: ياإلهي! كم هناك من مصادفات...

قال التقني خوفاً من أن ننسى أنه موجود هو الآخر: من هذه الأشياء التي تحدث.

راجعت نفسها قبل أن تقول لي: «هذا صحيح! أنا لم أقدمكما إلى بعضكما، هذا جيندرا».

مددت يدي إلى جيندرا وتوجه زيمانيك إلى هيلينا قائلاً: «فكرنا، الآنسة بروزوفا وأنا، أن نأخذك معنا، ولكنني أفهم الآن أن هذا لن يناسبك، أنت تفضلين العودة مع لودفيك...».

توجه إلي فتى الجينز، بلهجة لم تكن ودية حقاً: «هل ستذهب معنا؟».

سألني زيمانيك: «هل أتيت بسيارة؟

أجبت: ليس لدي سيارة.

قال: ستذهب إذن معهما!

أنذرني فتى الجينز قائلاً: ولكنني أنا أسير بسرعة مئة وثلاثين كيلومتراً في الساعة...

أنبته هيلينا قائلة: جيندرا!

قال زيمانيك: تستطيع مرافقتنا، ولكنني أعتقد أنك تفضل الصديقة الجديدة على الصديق القديم». لقد دعاني بصورة عابرة «صديقاً»، وكنت واثقاً من أن المصالحة المهينة لم تعد تبعد سوى خطوتين. وفوق ذلك سكت زيمانيك لحظة، كما لو أنه يتردد، كما لو كان يريد، بصورة ملحة، أن يأخذني جانباً، ويحدثني على انفراد (كنت قد أحنيت رأسي كما لو أنني أقدم عنقي للفأس)، ولكنني كنت

واهماً. ألقى نظرة على ساعته وقال لي: «الواقع أنه لم يبق لدينا الكثير من الوقت إذا أردنا أن نكون في براغ قبل الخامسة. هيا! يجب أن نودع بعضنا! شاو هيلينا!». ضغط على يد هيلينا ثم قال لي وللتقني وداعاً وصافحنا. وصافحت الآنسة بروزوفا كذلك الجميع، ومضيا وكل منهما يتأبط ذراع الآخر.

لقد مضيا. لم أكن أستطيع أن أرفع نظري عنهما: كان زيمانيك يمشي متصلباً، ورأسه الأشقر مرفوع باعتزاز (بانتصار)، والفتاة السمراء إلى جانبه. كانت جميلة حتى من ظهرها، لها مشية خفيفة، وهي تروق لي. تروق لي بصورة موجعة تقريباً، لأن جمالها الذي كان يبتعد راح يبدي لي لامبالاة جليدية، اللامبالاة نفسها التي كان يبديها لي كل ماضيّ الذي كنت أريد أن أنتقم له ولكنه اعترضني هنا دون أن ينظر إلي، كما لو أنه لايعرفني.

كنت أختنق مهانة وخجلاً. لم أعد أريد سوى أن أختفي، أن أبقى وحيداً، أمحو هذه المغامرة، هذه المزحة السقيمة، أمحو هيلينا وزيمانيك، أمحو قبل أمس وأمس واليوم، أمحو كل هذا، أمحو آخر أثر له.

سألت التقني قائلاً: «هل أُزعجك إذا كانت عندي كلمتان أريد أن اقولهما على انفراد للرفيقة الصحافية؟»

أخذتُ هيلينا إلى مسافة قريبة. أرادت أن توضح لي، مغمغمة بشيء ماحول زيمانيك وصديقته، وكانت تعتذر بارتباك، لأنها أُرغمت على أن تقول له كل شيء. ولكن الآن لا أهمية لأي شيء. كانت تتملكني رغبة واحدة: أن أرى نفسي بعيداً عن هنا وعن هذه القصة، أن أشطب كل هذا. لم أكن أعترف لنفسي بالحق في خداع هيلينا أكثر من ذلك. إنها بريئة حيالي، وكنت قد تصرفت بنذالة إذ حولتها إلى مجرد شيء، إلى حجر أردت أن أرمي به (ولكني لم أعرف كيف) شخصاً آخر. كنت أختنق بالفشل المضحك لانتقامي،

وكنت مصمماً على الانتهاء منه الآن، بعد فوات الأوان بالتأكيد، ومع ذلك قبل أن يتجاوز الأمر فوات الأوان. ولكني لم أكن أستطيع أن أوضح لها شيئاً: ليس ذلك فقط لأن من شأن الحقيقة أن تجرحها، بل لأنها أيضاً لن تفهمها. لم يبق أمامي إذن سوى أن أكرر لها عدة مرات: لقد كنا معاً للمرة الأخيرة، وانني لن أراها ثانية، فأنا لم أكن أحبها وعليها أن تفهم ذلك.

كان هذا أسوأ مما كنت أتوقع: أصبحت هيلينا كامدة اللون، أخذت ترتجف. كانت ترفض تصديقي، ترفض تركي. عرفت برهة من العذاب قبل أن أستطيع التخلص والاختفاء.

14

كثير من الجياد والأشرطة، وأنا هناك في الوسط، بقيت طويلاً، ثم اقترب مني جيندرا وأمسك بيدي، ضغط عليها وسألني عما بي. تركت هذه اليد في يده وقلت له ليس بي شيء، لاشيء ياجيندرا، ليس بي من شيء، ماذا تريد أن يكون بي، وكان يصدر عني صوت ليس صوتي، صوت حاد، وتابعتُ بعجلة مضحكة، متحدثة عما بقي لدينا لنسجله على الأشرطة، لدينا نداءات البشيرين، لدينا مقابلتان، ولدي أيضاً تعليق يجب تسجيله، وتابعت على هذا النحو أكر سبحة أشياء كنت عاجزة تماماً عن التفكير فيها، وبقي هو واقفاً إلى جانبي، صامتاً ويشد على أصابعي.

لم يكن حتى ذلك الحين قد مسني قط. كان خجولاً جداً، وكان الجميع مع ذلك يعلمون أنه مجنون بي، وهاهو الآن يضغط على يدي في حين كنت أتلعثم في الحديث عن برنامج العمل، ولكني لم أكن أفكر إلّا في لودفيك، ثم أيضاً كنت أسأل نفسي كيف أبدو أمام جيندرا. يجب أن أكون، وأنا في هذا الترنح، قد بدوت قبيحة. ولكن لا، آمل ألّا يكون الأمر كذلك، أنا لم أنتحب، ثارت أعصابي فقط، لا أكثر من هذا...

استمع إلي ياجيندرا، دعني قليلاً، سأمضي لكتابة نصي. ثم سنأخذه فوراً إلى المسجلة. ظل ممسكاً بيدي بضع دقائق أخرى. سألني بحنان: ماذا بك ياهيلينا، ماالذي يجري؟ ولكني أفلتُّ منه ومضيت إلى اللجنة الوطنية حيث وُضع بناء تحت تصرفنا. وصلت إليه. كنت وحدي أخيراً في فراغ هذه الغرفة، منهارة على كرسي وجبيني على الطاولة، وبقيت على هذا النحو برهة. صداع عنيف ينتابني. فتحت حقيبتي لآخذ منها قرصاً، ولكن لماذا فتحتها؟ كنت أعلم جيداً أني لم أكن قد أتيت بأقراص. ثم تذكرت أن مع جيندرا دائماً صيدلية حقيقية. كان معطفه الواقي من المطر معلقاً على

مشجب. فتشت جيوبه وعثرت بالفعل على أنبوب لآلام الرأس، لأوجاع الأسنان، لعرق النسا، للآلام العصبية الوجهية. أما لعذابات الروح فلا يوجد دواء، ولكن هذا سيريح رأسي على الأقل.

ذهبت إلى صنبور الماء في ركن من الغرفة المجاورة. صببت الماء في كأس خردل وابتلعت قرصين. القرصان كافيان، ربما سيحدثان تأثيراً، أما ألم النفس فلا علاج له مالم أبتلع كل أقراص أنبوب «الألجينا» هذا لأنه سُميّ في حال الجرعة الكثيفة، وأنبوب جيندرا شبه مليء، وقد يكفي.

هذه الفكرة خطرت لي عبوراً، مجرد فكرة لثانية واحدة، ولكنها كانت تعود وتجبرني على التساؤل لماذا أعيش وماجدوى الاستمرار. ولكن ذلك لم يكن في الواقع حقيقياً. فما كنت أفكر في شيء من هذا، في هذه اللحظة، بل كنت أتخيل فقط أني لم أكن حية وكان ذلك فجأة من العذوبة، من الغرابة في عذوبته بحيث رغبت في الضحك، وربما بدأت حقاً في الضحك.

وضعت قرصين آخرين على لساني. لم أكن أبداً قد قررت تسميم نفسي. كنت أكتفي بالضغط على الأنبوب في راحتي قائلة في نفسي ها أنذا أمسك بالموت في يدي. وطرت فرحاً أمام هذا القدر من السهولة كما لو كنت أقترب، خطوة صغيرة فأخرى، من هوة دون قرار، لا لألقي بنفسي فيها، بل لأنظر فيها فقط. ذهبت لأملأ الكأس ماءً، وابتلعت الأقراص وعدت إلى غرفتنا. كانت النافذة مفتوحة، والهتافات تُسمع من بعيد مع جلبة السيارات والشاحنات والدراجات القذرة التي تسحق كل ماهو جميل، كل ماآمنت به وكل ماعشت من أجله. هذه الجلبة كانت غير محتملة، بل إن هذا الضعف العاجز في الأصوات التي كانت تنادي غير محتمل أيضاً. أغلقت النافذة، ومن جديد بدأتُ أشعر بهذا الألم الطويل والعنيد في روحي.

لم يؤذني باڤيل، طيلة حياتي، بقدر ماآذيتني أنت يالودفيك في دقيقة واحدة. إني أصفح عن باڤيل، أفهمه كما هو، لهيبه يحترق

بسرعة ويجب عليه أن يبحث له عن غذاء جديد، عن مشاهدين وجمهور جدد. غالباً ما جرحني. ولكني الآن من خلال ألمي، أنظر دون غضب بصورة أم إلى هذا المتبجح، هذا المتظرف وأبتسم للجهد الذي أبداه طيلة كل هذه السنين للهرب من بين ذراعي. آه! اذهب ياباڤيل إني أفهمك. أما أنت يالودفيك فإني لاأفهمك. أتيت مقنّعاً، أتيت لبعثي حية، لتدمرني بعد ذلك، أنت وأنت وحدك. إني ألعنك، وفي الوقت نفسه أتوسل إليك أن تعود، أن تعود وأن تشفق.

ياإلهي، ربما كان ذلك سوء تفاهم مخيفاً فقط. يمكن أن يكون باڤيل قد قال لك شيئاً عندما كنتما وحدكما. هل أعلم أنا؟ لقد سألتك حول هذه النقطة، ناشدتك أن توضح لي لماذا لم تعد تحبني. لم أكن أريد تركك. أمسكت بك أربع مرات، ولكنك ما كنت تريد أن تسمع شيئاً. كنت تكرر فقط بأن الأمر قد انتهى، انتهى نهائياً ودون رجعة. حسناً! أوافق على أنه انتهى. قبلتُ في النهاية، وكان لي صوت سوبرانو، كما لو كنت شخصاً آخر، فتاة صغيرة قبل البلوغ. قلت لك إذ ذاك بهذا الصوت الحاد: أتمنى لك إذن سفرة سعيدة. هذا غريب! فأنا لاأعرف لماذا تمنيت لك سفرة سعيدة، ولكن هذا كان يعود باستمرار إلى مابين شفتي: أتمنى لك سفرة سعيدة، أتمنى لك إذن سفرة سعيدة...

لاشك في أنك لاتعلم كيف أحبك. أنت بالتأكيد لاتعرف كيف أحبك. يجب أن تكون قد تصورت أني لست سوى واحدة من أولئك النساء الصغيرات اللواتي ينشدن مغامرة، ولاتتصور أنك مصيري، حياتي، كل شيء... ربما ستجدني هنا، راقدة تحت غطاء أبيض، وسوف تفهم عندها أنك قتلت ماكان أثمن شيء في حياتك... أو أنك سوف تصل ياإلهي وأنا مازال حية، وسوف تستطيع إنقاذي، وستجثو على ركبتيك وتفيض دموعك، وأنا سوف أداعب يديك وشعرك وأصفح عنك، أصفح عن كل شيء...

15 .

لم يكن هناك حقاً من مخرج آخر. كان ينبغي علي كنس هذه القصة البائسة ـ هذه المزحة الرديئة التي لم تكن تكتفي بنفسها، بل كانت تتضاعف بصورة متوحشة إلى مزحات رديئة أخرى وأخرى. كنت أريد أن ألغي كل هذا اليوم الذي وقع سهواً لسبب واحد هو أني كنت قد استيقظت متأخراً وفوّتُّ قطاري. ولكنني كنت أريد أيضاً أن ألغي كل ماكان قد أدى إلى هذا اليوم، كل صيدي الشبقي الأبله الذي لم يكن هو أيضاً يقوم إلا على خطأ.

أسرعت كما لو كنت قد سمعت خلفي خطوات هيلينا تطاردني وقلت لنفسي: حتى لو أمكنني شطب هذه الأيام غير المجدية من حياتي، فما الذي سيفيدني ذلك مادام كل تاريخ حياتي قد جرى تصوره في الخطأ، بمزحة البطاقة البريدية؟ أحسست، بفزع، بأن الأشياء التي صنَعَها الخطأ لاتقل واقعيةً عن تلك التي صنعها العقل والضرورة.

لَكَم أحب أن أطرد كل القصة من حياتي! ولكن بأي حق أستطيع طردها إذا لم تكن الأخطاء التي ولدت منها أخطائي؟ والواقع من هو الذي أخطأ عندما أُخذت مزحتي في البطاقة البريدية مأخذ الجد؟ من الذي أخطأ حين سُجن والد اليكسيج (الذي أعيد اعتباره اليوم، دون أن يمنع ذلك كونه ميتاً)؟ مثل هذه الأخطاء كانت من الشيوع والعمومية بحيث لم تكن تشكل استثناءات أو أخطاء في نظام الأشياء، بل كانت تؤلف، على العكس من ذلك، هذا النظام. فمن الذي أخطأ إذن؟ التاريخ نفسه؟ الإلهي، العقلاني؟ ولكن لماذا يجب أن تُعزى إليه أخطاء؟ إن هذا لايبدو على هذا النحو إلا لعقلي كإنسان، ولكن إذا كان للتاريخ حقاً عقله الخاص، فلماذا ينبغي على هذا العقل أن يهتم بفهم البشر وأن يكون جدياً كمعلمة؟ وإذا كان التاريخ يمزح؟ في هذه اللحظة فهمت أنه كان مستحيلاً عليّ أن ألغي مزحتي

الخاصة عندما أكون، أنا وكل حياتي، متضمنين في مزحة أوسع بكثير (تتجاوزني) ولارجعة عنها أيضاً.

كانت لوحة كبيرة مسنودة إلى أحد الجدران في الميدان (الذي عاد صامتاً لأن كوكبة الملوك كانت تدور حول الطرف الآخر من القرية) تعلن بحروف حمراء أن أوركسترا السنبالوم ستقدم، في الساعة الرابعة من ذلك اليوم، حفلة موسيقية في حديقة المقهى ـ المطعم، وبما أنه بقي أمامي حوالى ساعتين قبل انطلاق السيارة وحان وقت الجلوس إلى المائدة، فقد دخلت إلى المطعم.

16

كانت هائلة تلك الرغبة في اقترابي أيضاً قليلاً جداً من الهوة. كنت أريد أن أنحني على الحاجز وأرى، كما لو كانت هذه الرؤية يجب أن تعزيني وتهدئني، كما لو أننا سوف نستطيع أن نوجد معاً في قعر هذه الهوة، باعتبار أن ذلك لم يكن ممكناً في مكان آخر، دون سوء تفاهم، في معزل عن الدناءات البشرية، عن الشيخوخة، عن المتاعب، وإلى الأبد... عدت إلى الغرفة المجاورة. لم يكن بعد في جسمي، سوى أربعة أقراص، أي لاشيء. كنت ماأزال أبعد مما ينبغي عن الهوة، بل بعيدة عن الحاجز. أفرغت بقية الأقراص في تجويف يدي. وفي اللحظة نفسها سمعت باب الردهة يفتح. انتفضتُ وألقيت ببقية الأقراص في فمي مسرعة في ابتلاعها دفعة واحدة. كانت أكثر مما ينبغي، وعبثاً شربت جرعات كاملة من الماء، فقد كان حلقومي المتمدد يحرقني.

كان هذا جيندرا. سألني عن عملي. أصبحت فجأة مختلفة تماماً. لم تعد هناك بلبلة. كنت قد فقدت ذلك الصوت الغريب، صوت السوبرانو، وكنت واعية ومصممة. قلت: أهلاً جيندرا، أحسنت بالمجيء، لدي ماأطلبه منك. احمرّ، قال إنه يفعل من أجلي في كل الظروف أي شيء وهو مسرور لأنه وجدني في عافية. نعم أحس بنفسي مرتاحة الآن، ولكن انتظر دقيقة، أريد أن أكتب شيئاً. جلست وأخذت ورقة وقلمي. معبودي لودفيك، أحببتكَ من كل روحي وكل جسدي، ولم يعد لكل روحي وكل جسدي من مبرر للحياة. أقول لك وداعاً. أحبك. ـ هيلينا. لم أُعِد قراءة ماكتبت. كان جيندرا جالساً تجاهي. نظر إليّ، ولم يكن يعرف ماذا كنت أكتب. طويت الورقة وأردت أن أضعها في مغلف ولكني لم أستطع أن أجد واحداً. أليس لديك مغلف ياجيندرا؟

بهدوء اقترب جيندرا من خزانة قرب الطاولة وفتحها وأخذ

ينقب فيها. كان من شأني، في الظروف الطبيعية، أن أبدي له أنه لايجوز التفتيش في حوائج الآخرين. إلّا أن هذا المغلف كان الآن يلزمني بسرعة، بسرعة. أتى لي بواحد عليه شعار اللجنة الوطنية للبلدة. وضعت فيه الرسالة وألصقته وكتبت عليه: لودفيك جان، أنت تتذكر ياجيندرا ذلك الرجل الذي كان معنا منذ قليل، وكان معنا زوجي وتلك الفتاة، نعم الطويل الأسمر. لاأستطيع أن أتحرك من هنا الآن وأنا أحتاج إلى أن تجده وتسلمه هذا.

استعاد يدي. ماذا كان يمكن للصغير المسكين أن يتصور! كيف له أن يفسر سبب هياجي؟ إنه بعيد ألف ميل عن الارتياب بما كان الأمر يدور حوله. كل ماكان يخمنه هو أنه لدي متاعب. كان يمسك بيدي، وأحسست بنفسي فجأة جديرة بالرثاء إلى حد مخيف. انحنى نحوي وضمني إليه وطبع قبلة على فمي. أردت الدفاع عن نفسي، ولكنه راح يضمني بقوة. واجتازتني فكرة كونه آخر رجل أقبّله، وأنها القبّلة الأخيرة في حياتي. قبّلته بدوري وقد شعرت فجأة بالضياع. ضممته إلي وباعدت بين شفتي وأحسست بلسانه فوق لساني وأصابعه على جسدي. شعرت بما يشبه الدوار بأني كنت الآن حرة كلياً، وأن ما من أهمية لأي شيء. فبما أنهم هجروني جميعاً، وعالمي قد انهار، فقد كنت حقاً حرة تماماً وأستطيع أن أفعل مايروق لي، حرة كهذه التقنية التي كنا قد طردناها. لم يكن شيء يفرقني عنها. لن أستطيع أن أعيد لصق عالمي القديم الذي تحول إلى فتات. هل أبقى وفية؟ لماذا؟ ولمن؟ لقد أصبحت بعد الآن حرة تماماً، كالتقنية لدينا بالضبط. إذا كنت سأبقى على قيد الحياة فإني، كتلك العاهرة الصغيرة التي كانت تبدل سريرها كل ليلة، سأغير كل ليلة سريري. كنت أتذوق لسان جيندرا في فمي. كنت حرة، وأعلم أني أستطيع ممارسة الجنس معه. كنت أشتهي ذلك أينما كان، على الطاولة، على الأرض، فوراً ودون انتظار. أشتهي ممارسة الحب مرة أخيرة، قبل النهاية، ولكن جيندرا كان قد استقام وقال، وهو يبتسم اعتزازاً، إنه ذاهب وسيعود قريباً.

17

بين الطاولات الخمس أو الست في القاعة الصغيرة الغارقة في الدخان والجلبة، كان نادل يركض حاملاً، بذراعه الممدودة، صينية كبيرة محملة بأهرام من الصحون التي تعرفت فيها فوراً على شرائح عجل ڤيينا المزوقة بسلطة البطاطا (طبق يوم الأحد الوحيد كما يبدو) ثم انسل شاقاً طريقه دون مراعاة إلى رواق. تبعته واكتشفت أن هذا الرواق كان ينتهي إلى باب مفتوح على الحديقة التي كان الناس يأكلون فيها أيضاً. كان هناك، في آخر الحديقة، تماماً طاولة حرة تحت شجرة زيزفون، فجلست إليها.

كانت نداءات مؤثرة، هتافات تصل من فوق أسطحة القرية، من مسافة بعيدة إلى حد كانت تبدو معه هنا، في الحديقة المحاصرة بجدران البيوت المجاورة، لاواقعية تقريباً. وهذه اللاواقعية الظاهرة جعلتني أفكر في أن كل ماكان يحيط بي لم يكن الحاضر، بل الماضي، ماضٍ عمره خمس عشرة أو عشرون سنة وفي أن الهتافات كانت الماضي، ولوسي كانت الماضي، وزيمانيك كان الماضي، وأن هيلينا كانت الحجر الذي أردت رمي هذا الماضي به، وأن هذه الأيام الثلاثة لم تكن سوى مسرح ظلال.

ماذا؟ هذه الأيام الثلاثة فقط؟ كانت حياتي كلها مزدحمة دائماً بالظلال، والحاضر كان يحتل فيها مكاناً غير لائق إلى درجة كافية احتمالاً. تصورتُ رصيفاً متحركاً (إنه الزمن) ورجلاً (أنا) يركض فوقه في الاتجاه المعاكس. ولكن الرصيف يتحرك أسرع مني، وهو مايجعله يحملني ببطء إلى عكس الهدف الذي اتجه إليه. هذا الهدف (هدف غريب واقع في الخلف) هو ماضي المحاكمات السياسية، ماضي القاعات التي ترتفع فيها الأيدي، ماضي الجنود السود ولوسي، الماضي الذي بقيت مسحوراً فيه، الذي أسعى إلى تفكيك

رموزه، إيضاحه، حله والذي يمنعني من العيش كما ينبغي لرجل أن يعيش ووجهه إلى الأمام.

والصلة التي أود أن أرتبط بها بالماضي الذي يسحرني هي الانتقام. ولكن الانتقام، كما اقتنعت في هذه الأيام، مساوٍ في عقمه لركضي على الرصيف المتحرك. نعم كانت البرهة التي وقف فيها زيمانيك في قاعة الكلية الكبيرة، يتغنى بـ «ريبورتاج مكتوب تحت المشنقة» وهذه البرهة فقط هي التي كان علي أن أتقدم نحوه فيها وأصفعه! وهذا الانتقام المؤجل يتحول إلى خديعة، إلى ديانة شخصية، إلى أسطورة تزيد كل يوم انفكاكاً عن ممثليها الذين يبقون في أسطورة الانتقام كما هم على الرغم من أنهم (الرصيف لايتوقف عن التقدم) لم يعودوا ماكانوه: جان آخر أمام زيمانيك آخر، والصفعة التي يدين لي بها لايمكن أن تُبعث حية، ولا أن يُعاد تكوينها. فقد ضاعت إلى الأبد.

كنت أقطع، في طبقي، شريحتي المقلية من العجل وأصغي إلى الهتافات التي كانت ترفرف على سقوف القرية، كئيبة ولايمكن سماعها تقريباً. وعاد إلى ذهني الملك المقنّع مع كوكبته وانفعلت لعدم قابلية الحركات الإنسانية للفهم.

منذ قرون مثل اليوم، يمتطي فتيان في قرى مورافيا خيولهم ليمضوا برسالة غريبة يتهجون بأمانة كلمات لايفهمونها، مكتوبة بلغة مجهولة. لقد أراد رجال قدماء جداً بالتأكيد أن يقولوا شيئاً هاماً جداً، وهم يولدون اليوم من جديد في سلالتهم مشابهين لخطباء صم بكم يعظون الجمهور بحركات رائعة وغير مفهومة. لن تُحل رموز رسالتهم قط، وليس ذلك فقط لعدم وجود مفتاح، بل أيضاً لأن الناس لايملكون الصبر للإصغاء إليها في وقت يرى هذه الكمية من الرسائل القديمة أو الحديثة التي لايمكن إدراك محتوياتها التي يكمل كل منها الآخر. لم يعد التاريخ فعلاً اليوم سوى الخيط الرفيع للمتذكرَ فوق محيط المنسي، ولكن الزمن يتقدم، وسوف يأتي عصر الألفيات المتقدمة التي لن تستطيع ذاكرة الأفراد غير القابلة للتوسع

استيعابها. وكذلك سوف تسقط أيضاً قرون وألفيات قطعاً كاملة، قرون لوحات وموسيقى، قرون اكتشافات، معارك، كتب، وسيكون ذلك سيئاً لأن الإنسان سيفقد مدلول ذاته وسيتقلص تاريخه، غير القابل للفهم، غير القابل للاستيعاب، إلى بضع إشارات تخطيطية مجردة من المعنى. ستمضي ألوف كوكبات الملوك الصماء البكماء للقاء هؤلاء الناس البعيدين مع رسائلهم الشكاءة وغير المفهومة، ولن يجد أحد الوقت للاستماع إليها.

كنت جالساً في زاوية من حديقة المطعم هذه، أمام صحني الفارغ، دون أن أنتبه إلى كوني قد أكلت شريحة العجل، وكنت أحس بأني جزء (منذ الآن فعلاً) من هذا النسيان المحتوم والعظيم. كان النادل قد ظهر وأمسك بالصحن ونفض بطرف منشفته الفتات عن غطاء طاولتي وانتقل بسرعة إلى طاولة أخرى. استولى عليّ أسف على هذا اليوم، لابسبب عقمه فقط، بل لتفكيري بكون هذا العقم نفسه سوف ينسى، حتى مع هذه الذبابة التي كانت تدندن في صدغي مع غبار الذهب الذي كانت شجرة الزيزفون المزهرة تُلقي به على طاولتي، بل مع هذه الخدمة الضحلة التي تكشف، إلى حد بعيد، عن حالة مجتمع أعيش فيه، وسوف يُنسى كذلك، حتى مع كل أخطائه وضلالاته التي كانت تتسلط علي، تستهلكني، والتي كنت أنهك نفسي في تصحيحها، في مُجازاتها، في تقويمها عبثاً، على اعتبار أن ماجرى قد جرى بصورة لاتقبل الإصلاح.

نعم كنت فجأة، أرى الأمور بوضوح: معظم الناس يهبون أنفسهم لسراب معتقد مزدوج: إنهم يؤمنون بخلود الذاكرة (ذاكرة الناس والأشياء والأفعال والأمم) وبإمكانية الإصلاح (إصلاح الأفعال والأخطاء والخطايا والأضرار). كل من هذين المعتقدين في ضلال الآخر. الحقيقة عكس ذلك تماماً: كل شيء سيُنسى ولن يُصلح شيء. دور الإصلاح (بالانتقام وبالصفح) سيطويه النسيان. لن يُصلِح أحدٌ الأضرار المقترفة، ولكن كل الأضرار سوف تُنسى.

ومرة أخرى ألقيت نظرة متنبهة على هذا العالم المنسي سلفاً،

على شجرة الزيزفون، على الناس الجالسين إلى الطاولات، على النادل (المنهك بعد خدمة الظهر)، على هذا النزل (المتجهم مرئياً من الخارج) الذي كان لطيفاً تاماً، هنا في الحديقة، بفضل خيمة العريشة. كنت أنظر إلى باب الرواق الذي اختفى عبره الخادم (متعب القلب من هذه الزاوية الخالية والمردودة إلى الصمت) والذي انبثق منه فتى بسترة جلدية وبنطلون جينز. دخل إلى الحديقة ونظر حوله. وعندما رآني، مشى نحوي. اقتضى مني التعرف عليه بضع ثوانٍ: إنه تقني هيلينا.

أحس دائماً بالقلق عندما تلوّح امرأة، عاشقة وغير معشوقة، بتهديد ارتداداتها. عندما مدّ الفتى لي يده بمغلفه («من طرف السيدة زيمانيك»)، كانت أول حركة لي إذن هي تأخير قراءة الرسالة بطريقة أو بأخرى. دعوته إلى الجلوس، فجلس (مسنداً مرفقه إلى الطاولة، متغضن الجبين ويتأمل بسرور أوراق شجرة الزيزفون التي أحرقتها الشمس). ووضعت المغلف أمامي وسألته: «هل تأخذ شيئاً؟».

هز كتفيه. اقترحت عليه الفودكا فرفض مشيراً إلى أنه يقود سيارة وأن القانون يمنع أي استهلاك للكحول من جانب السائقين. وأضاف بأنه، على كل حال، سينظر إلي بسرور وأنا أشرب. لم تكن لدي أدنى رغبة في الكحول، ولكن أي شيء كان يناسبني وأنا أرى أمامي هذا المغلف الذي لاأحرص أبداً على فتحه. رجوت الخادم الذي كان ماراً قريباً مني كي يأتيني بكأس فودكا.

قلت: «ماذا تريد هيلينا مني؟ هل تعلم؟

كان الجواب: كيف لي أن أعلم؟ اقرأ رسالتها!

قلت: أهذا مُلحّ؟

قال: ماذا تظن؟ هل تعتقد أنهم علموني الرسالة عن ظهر قلب تحسباً لهجوم أتعرض له في الطريق؟».

أخذت المغلف (الرسمي مع شعار اللجنة الوطنية) بأطراف

أصابعي، ثم وضعته فوق الغطاء أمامي، ولما كنت لاأعرف ما أقول، قلت له: «خسارة ألّا تشرب!

قال: هذا بعد كل شيء من أجلك أيضاً، من أجل سلامتك...»، فهمت التلميح الذي لم يكن مجانياً: فقد كان الفتى يفيد من كونه جالساً معي إلى الطاولة ليستوضح عن شروط سفرة العودة وعن حظوظه في القيام بها وحيداً مع هيلينا. كان لطيفاً تماماً. وعلى وجهه (الصغير، الباهت، المبقع بالنمش وأنفه القصير المشمور) كان يُقرأ كل مايجري داخله. كان وجهاً شفافاً لأنه كان طفلياً بصورة لاتقبل التصحيح (أقول «لاتقبل التصحيح» بسبب ملامحه الدقيقة بصورة غير سوية، التي لن تصبح مع العمر أكثر رجولية وتجعل منه وجه مسن، وجه طفل مسن). إن مثل هذا المظهر لايمكن أبداً أن يسرّ فتى في العشرين بحيث لايبقى له إلا أن يقنّعه بكل الوسائل الممكنة (كما كان يقنّعه سابقاً ـ آه! مسرح الظلال الأبدي! ـ الصبي القائد): بطريقة اللباس (سترة جلدية مربعة عند الكتفين، مناسبة، ذات تفصيلة جيدة) وبالتصرف (درجة لابأس بها من رباطة الجأش، قليل من الابتذال، اصطناع لامبالاة منطلقة). هذا التمويه المدروس كان يتقصف في كل لحظة: كان الفتى يحمرّ، لايحسن ضبط صوته الذي كان يعلو لدى أدنى اضطراب (لحظت ذلك منذ أول اتصال) ولم يكن مسيطراً على عينيه ولا على حركاته (لقد حاول دون شك أن يبدي لي لامبالاته بمعرفة ما إذا كنت سأسافر معهما إلى براغ، ولكن نظرته أزهرت بشكل مرئي أكثر مما ينبغي عندما طمأنته إلى أني باقٍ هنا).

عندما أتى الخادم الناسي إلينا بكأسي فودكا بدلاً من كأس واحد، أبدى التقني إشارة وقال إنه لم يكن لذلك أهمية وإنه سيشاركني: «لن أدعك على كل حال تشرب وحيداً!». ورفع كأسه وقال: «نخب صحتك إذن!».

أجبت: «نخب صحتك» وقرعنا كأسينا: بدأنا الحديث وعلمت أنه كان يتوقع الرحيل بعد ساعتين نظراً لكون هيلينا تنوي تجهيز

كل شيء هنا، كل ماهو من قبل على الأشرطة وتسجيل تعليقها الشخصي عند الاقتضاء، حتى يمكن إذاعة كل شيء منذ الغد. سألته عما إذا كان عمله مع هيلينا يسير على مايرام. أجاب، وقد اكتسى وجهه باللون القرمزي من جديد، بأنها كانت تتدبر أمرها جيداً. إلا أن هيلينا أقسى مما ينبغي بقليل مع أفراد فريقها لأنها مستعدة دائماً لتجاوز وقت العمل، ولأنها لم تكن تهتم بمعرفة ما إذا كان يمكن للآخرين أن يكونوا مستعجلين للعودة إلى بيوتهم. سألته عما إذا كان هو مستعجلاً للعودة إلى بيته، فأجاب بالنفي وقال إن العمل يسليه. ثم سأل متصنعاً اللامبالاة ومستفيداً من أسئلتي حول هيلينا قائلاً: «بالمناسبة، كيف تعرفت على هيلينا؟» أجبته عن سؤاله. وحاول أن يعرف المزيد: «هيلينا جميلة، أليس كذلك؟».

كان يُظهر، خاصة عندما يدور الأمر حول هيلينا، سروراً كنت مازلت أنسبه إلى انشغاله بالإخفاء لأنه يجب أن يكون الجميع مطّلعين على عبادته اليائسة لهيلينا، وكان عليه من جانبه أن يكافح من أجل أن لايحمل تاج غير المحبوب، هذا التاج ذا السمعة الشائنة. وعلى الرغم من أني لم أكن أحمل صفاء الفتى على محمل الكثير من الجد، فإنه كان يخفف مع ذلك قليلاً من وزن الرسالة التي كانت أمامي بحيث انتهيت إلى أخذها. ومزقت المغلف: «جسدي وروحي... لم يعد لهما مبرر للحياة... أقول لك وداعاً...».

توجهت إلى الخادم الذي كان عند الطرف الآخر للحديقة وصحت: «الحساب!». هز لي برأسه موافقاً، ولكنه سرعان ما اختفى في الرواق مخلصاً لمساره.

قلت للفتى: «تعال، ليس لدينا وقت نضيعه»، كنت قد نهضت ورحت أجتاز الحديقة، وكان يتبعني، اجتزنا الرواق وبلغنا باب الخروج بحيث على الخادم، أراد ذلك أم لم يرده، أن يركض وراءنا.

أمليت عليه: «شريحة لحم، حساء، كأسا فودكا!

قال الفتى القلق بخجل: ماذا جرى؟»

بعد دفع الحساب، رجوته أن يقودني بسرعة إلى هيلينا. ومشينا بخطى سريعة.

سألني قائلاً: «ولكن ماذا جرى؟

سألته بدوري: هل المكان بعيد؟».

أشار إلى أمام، وأخذت أركض. كانت اللجنة الوطنية تحتل طابقاً أرضياً بسيطاً مبيضاً بالكلس، بباب ونافذتين. دخلنا، ووجدنا نفسنا في بناء إداري كئيب: كان تحت النافذة مكتبان متلاصقان. وهناك المسجلة ودفتر ملاحظات وحقيبة نسائية (نعم، حقيبة هيلينا) موضوعة فوق بعضها. وأمام المكتبين هناك كرسيان، ويوجد مشجب معدني في إحدى الزوايا. وكان عليه معطفان: واحد لامرأة والآخر لرجل.

قال الفتى: «هذا هو المكان.

ـ أهنا أعطتك الرسالة؟

ـ نعم!»

إلا أن الغرفة كانت الآن خالية بصورة تبعث على اليأس. ناديت: «هيلينا!»، وفزعتُ من نبرة صوتي المترددة والقلقة. لم يكن هناك جواب. وناديت من جديد: «هيلينا!». وسألني الفتى:

ـ «هل...؟

قلت: يبدو ذلك حقاً.

ـ هل تحدثت عن ذلك في الرسالة؟

قلت: بالضبط. ألم يعطوكما غرفاً أخرى غير هذه؟

قال: لا!

ـ وفي الفندق؟

ـ سلمنا غرفتينا هذا الصباح.

قلت: إذن فهي بالتأكيد هنا». وسمعت صوت الفتى المشروخ الذي كان يختنق: «هيلينا!».

دفعت باباً يوصل إلى الغرفة المجاورة. كان مكتباً أيضاً: طاولة، سلة مهملات، ثلاثة كراسٍ، خزانة ومشجب (شبيه بمشجب الغرفة الأخرى: جذعه من معدن ومنتصب على ثلاث قوائم ويتفرع في الأعلى إلى ثلاثة فروع. لم يكن أي لباس معلقاً عليه. كان يبدو يتيماً في ظله الإنساني بصورة مبهمة. وكان عريه المعدني وذراعاه المرفوعان بشكل مضحك تملؤني قلقاً). لم يكن هناك، باستثناء النافذة، سوى جدران. ليس هناك أي باب. فقد كان المكتبان يؤلفان بداهة الغرفتين الوحيدتين في هذا البيت الصغير.

كنا قد عدنا إلى الغرفة الأولى. اختطفت الدفتر وأخذت أقلبه. كانت عليه ملاحظات تصعب قراءتها من أجل وصف لكوكبة الملوك (إذا كان علي أن أحكم بموجب بضع كلمات استطعت أن أقرأها). لم تكن، هناك، كلمة وداع أخرى. فتحت الحقيبة: كان فيها منديل، محفظة نقود، إصبع أحمر شفاه، علبة بودرة، سيجارتان، قداحة. لم يكن هناك أثر لأنبوب أقراص ولالحنجور سم تمّ شربه. كنت أفكر بصورة محمومة فيما أمكن لهيلينا أن تختاره، وكان السم هو أكثر مايفرض نفسه من بين كل الافتراضات إلا أنه ينبغي أن تبقى هناك زجاجة صغيرة، أنبوب. مضيت إلى المشجب لأفتش في جيوب معطف هيلينا.

قال الفتى، فجأة، بنفاد صبر: «أليست في السقيفة؟» مقدراً دون شك أن أبحاثي في الغرفة لم تكن، على الرغم من أنها لم تدم سوى بضع ثوان، لتقودنا أبداً إلى شيء. ركضنا في الرواق حيث يوجد بابان: كان يظهر، من أحدهما الذي نصفه من زجاج، أنه لايطل إلا على باحة. فتحنا الثاني الأقرب فظهر لنا سلم قاتم بدرجات حجرية مغطاة بالغبار والقار. صعدنا. لم تكن الكوة الوحيدة في السقف (بزجاجها القذر) تعطي سوى ضوء كامد، باهت. كانت فوضى ترتسم في كل الأنحاء (صناديق، أدوات بستنة، مر، معزقة، ممشاط،

فضلاً عن كومات هائلة من الملفات وكرسي عتيق مخلع). كنا نتعثر.

كنت أريد أن أنادي: «هيلينا!»، ولكن الخوف منعني. كنت خائفاً من الصمت الذي قد يلي. ولم يكن الفتى بدوره ينادي. قلبنا كل الأشياء وجسسنا بصمت الزوايا المظلمة. كنت أحس كم كنا مهتاجين كلينا. وكان أكبر رعب هو صمتنا الذي يعادل الاعتراف بأننا لم نعد نتوقع جواباً من فم هيلينا، بأننا لم نعد نبحث إلا عن جسدها المشنوق أو الراقد.

عندما لم نعثر على شيء نزلنا ثانية إلى المكتب. ومرة أخرى جُلت بنظري على الأثاث، على الطاولات والكراسي والمشجب الذي كان المعطفان معلقين عليه، ثم على الغرفة المجاورة: طاولة، كراسٍ، المشجب الآخر بذراعيه العاريين المرفوعين بيأس. نادى الفتى (بلاجدوى): هيلينا! وفتحت، أنا (بلا جدوى) الخزانة التي ظهرت رفوفها مزدحمة بالورقيات ولوازم المكتب، ورق لاصق ومساطر.

قلت: «ياالله! لابد من وجود شيء آخر، مراحيض! قبو!». وعدنا إلى الرواق من جديد. فتح الفتى باب الباحة. كانت هذه الأخيرة صغيرة، وكان قفص أرانب يقبع هناك في ركن، وتمتد وراء الباحة حديقة اكتسحتها بكاملها أعشاب مجنونة، وهي مزروعة بأشجار مثمرة (في ركن بعيد في فكري، تسنى لي الوقت لأتبين جمال المكان: قطع السماء الزرقاء المعلقة بين الأوراق، الجذوع الثنائية الرأس والخشنة، وبينها ضوء بعض نبتات دوار الشمس). ولمحت، في طرف الحديقة، في ظل شاعري لشجرة تفاح، كوخاً لقضاء الحاجات. هرعت عليه.

كان المزلاج الدوار على مسمار ضخم مغروساً في القائمة الضيقة للباب (من أجل أن يمكن إغلاقه من الخارج بتحويله إلى الوضعية الأفقية) مرفوعاً نحو الأعلى. أدخلت أصابعي في شق الباب والإطار، وكفت دفعة خفيفة لأتبين بأن الباب كان موصداً من

الداخل، وهو مالايمكن أن يعني سوى شيء: أن هيلينا هناك. ناديت بصوت منخفض: «هيلينا، هيلينا!». لم يكن هناك جواب. لم يكن هناك من صوت سوى صوت حفيف أغصان شجرة التفاح الملاصقة لجدار المراحيض التي كانت نفحة هواء قد حركتها.

كنت أعلم أن هذا الصمت في الداخل ينذر بالأسوأ، ولكنني كنت أعلم أيضاً أنه لم يبق سوى خلع الباب، وأن عليّ أنا أن أفعل ذلك. دسست أصابعي من جديد في الشق بين الباب والإطار وسحبت بكل قوتي. وبسهولة انفتح الباب (الذي لم يكن مثبتاً بسقاطة، بل بمجرد طرف حبل كما هي العادة في الريف) على مصراعيه. وأمامي كانت هيلينا جالسة على المقعد الخشبي في العفن. بدت شاحبة اللون، ولكنها حية. كانت تنظر إلي مذعورة مُرخيةً تنورتها التي بقيت، على الرغم من جهودها، عند منتصف فخذيها. كانت تمسك بحاشيتها بيديها الاثنتين وتلصق ساقيها ببعضهما. هتفت بقلق: «ياإلهي! اذهب من هنا!

صحت فيها: ماذا يجري؟ ماالذي ابتلعته؟

ـ اذهب! دعني!»

ظهر الفتى وراء ظهري وصاحت هيلينا: «اذهب ياجيندرا، اذهب، تحرك!». وقفت على قدميها نصف وقفة مادة يدها نحو الباب، ولكني وقفت بينها وبين المصراع بحيث كان عليها أن تعود إلى الجلوس مترنحة.

وفي الثانية نفسها. نهضت من جديد وارتمت عليّ بقوة يائسة (يائسة حقاً لأنه لم يكن قد بقي لها سوى القليل جداً منها بعد انهاكها الكبير). تشبثت بطيتي سترتي ودفعتني إلى الخارج. كنا كلانا عند عتبة المراحيض. كانت تزأر: «أيها الوحش القذر! أيها الوحش القذر!». (هذا إذا أمكن تسمية هذا الجهد المجنون لقسر صوت ضعيف زئيراً). وهزتني، ثم تركتني فجأة وراحت هاربة في اتجاه الباحة الصغيرة. كانت تريد الإفلات مني، ولكن قواها خانتها: فقد

غادرت المراحيض بارتباك منعها من ترتيب لباسها بحيث أن سروالها (سروال اللاستكس نفسه الذي رأيته بالأمس والذي كان يستخدم، في الوقت نفسه، كحامل لرباطتي الجرابين) بقي مفتولاً عند ركبتيها معيقاً سيرها (كانت تنورتها قد انسدلت، حقاً، ولكن جرابيها كانا متكومين، مثل الاكوروديون، عند ربلتي ساقيها، وكان يرى طرفاهما العلويان بلونهما الأقتم ورباطتيهما). خطت بضع خطوات صغيرة أو قفزت بالأحرى بضع قفزات قصيرة جداً (كانت تحتذي حذائين بكعبين عاليين)، وماكادت تجتاز بضعة أمتار حتى وقعت (وقعت على العشب المشمس، تحت أغصان شجرة، عند أسفل نبتة دوار شمس صارخة). أخذتُ يدها لأساعدها على النهوض. تخلصت بدفعة، ولما انحنيت من جديد فوقها، أخذت تتخبط في الهواء حولها بغضب بحيث أصابتني عدة مرات. أُرغمت على الإمساك بها بكل قوتي، ورفعتها واحتويتها بين ذراعي اللذين كانا كقميص حجز المجانين. كانت تصفر دون توقف، في حين راحت تمطر ظهري ضربات بيدها الحرة، «أيها الوحش القذر! أيها الوحش القذر!». وعندما قلت لها (بأعذب ماأمكنني): «اهدئي ياهيلينا!» بصقت في وجهي.

قلت لها دون أن أخفف من شدها إلي: «لن أتركك حتى تقولي ماالذي ابتلعته».

كانت تكرر: «اذهب من هنا! اذهب من هنا!» بغضب، ولكنها صمتت فجأة وكفت عن كل مقاومة، وقالت لي بصوت تغير تغيراً عميقاً (ضعيف ومتعب): «اتركني» فخففت من ضمها إلي ونظرت إليها. كنت أرى برعب وجهها المتشنج بجهد بشع، بفكين منقبضين وعينين زائغتين. وكان جسدها يتقلص ويميل إلى الأمام.

قلت: «ماذا بك؟»، ودون أن تتفوه بكلمة، استدارت واتجهت نحو المراحيض. لن أنسى أبداً مشيتها: بطء خطواتها الصغيرة جداً وغير المنتظمة وساقيها المعوقين. كان عليها أن تجتاز أربعة أمتار احتمالاً، ومع ذلك كانت مرغمة على أن تتوقف عدة مرات، وكانت كل

محطة تكشف (من تلويات كل جسدها) عن المعركة القاسية التي تخوضها ضد أحشائها التي كانت في حالة جنون. وأخيراً وصلت إلى المراحيض وأمسكت بطرف الباب (الذي ظل منفرجاً) وأغلقته عليها.

بقيت حيث كنت قد أنهضتها، ولكني تقهقرت الآن وقد ارتفع بقوة من المراحيض تنفس، حشرجة عذاب. ولم أنتبه حتى تلك اللحظة إلى وجود الفتى جامداً إلى جانبي. أمرته قائلاً: «ابق هنا! يجب أن أجد طبيباً».

دخلت إلى المكتب. ومنذ عتبة الباب، كنت قد رأيت هاتفاً على إحدى الطاولات. ولكن الدليل لم يكن موجوداً في أي مكان. أمسكت بقبضة الدرج الأوسط، وكان مقفلاً هو والأدراج الجانبية. الطاولة المقابلة مقفلة أيضاً. انتقلت إلى الغرفة الأخرى. لم يكن في المكتب هنا سوى درج واحد مفتوح دون شك، ولكن لم يكن فيه سوى بضع صور وقطاعة ورق. لم أكن أعلم ماذا أفعل. وشعرت (وقد عرفت أن هيلينا حية وفي حالة غير خطرة) بتعب مفاجئ. بقيت لحظة دون حراك، وكنت أحدق، مخبولاً، بالمشجب (مشجب معدني ضئيل كان يرفع ذراعيه كجندي يستسلم). ثم فتحت الخزانة (وأنا لاأعلم ماذا أفعل). تعرفت، فوق كومة من الملفات على غلاف دليل الهاتف الأزرق والأخضر. حملته نحو الجهاز، ووجدت رقم المستشفى. كنت أسمع، بعد أن ركبت الرقم، صوت ندائي في السماعة عندما دخل الفتى مندفعاً كالريح.

هتف قائلاً: «لاتهتف لأحد! لاضرورة لذلك».

لم أفهم.

انتزع السماعة من يدي وأعادها إلى مكانها: «أقول لك أن لاضرورة لذلك...».

أردت أن يوضح لي ماذا يجري.

قال وهو يقترب من المشجب: «ليس تسمماً!». وفتش في أحد

جيوب معطفه وأخرج منه أنبوباً. فتحه وقلبه. كان فارغاً.

استعلمت منه: «أهذا ما أخذته؟».

هز برأسه صامتاً.

ـ «كيف تعرف ذلك؟.

ـ هي أخبرتني.

ـ أهذا الأنبوب لك؟»

هز رأسه موافقاً. أخذته من يده. كان يحمل كلمة «الجينا».

انفجرت قائلاً: «إذن فأنت ترى أن المهدئات إذا أخذت بمثل هذه الكمية غير مؤذية؟

قال: لم تكن مهدئات.

هتفت قائلاً: ماذا كان داخله إذن؟

قال: أقراص ملينة.»

صرخت قائلاً بأنه لم يكن من حقه أن يهزأ بي، كان يجب أن أعلم حول ماذا كان يدور الأمر، وأن وقاحاته لم تكن تسليني. أمرته بأن يجيبني فوراً.

لدى سماعه صراخي، صرخ بدوره، قائلاً: «وأخيراً، لقد قلت لك إنها أقراص ملينة! أينبغي أن يعرف الجميع أن أمعائي كسولة؟». وهكذا فإن ماظننته مزحة بلهاء كان الحقيقة.

كنت أنظر إليه بوجهه الصغير المُحمرّ وأنفه المشمور (الصغير والكبير، مع ذلك، إلى حد يكفي لإيواء كمية من لطخات النمش)، وراح كل شيء يتضح لي: كانت العلامة المميزة للأنبوب هنا لإخفاء الجانب المضحك من مشاكله المعوية، مثلما بنطلون الجينز وسترة المقاتل الجلدية يخفيان الجانب المضحك في شخصيته الطفلية. كان خجلاً من نفسه ويسحب وراءه مراهقته العنيدة كعاهة. على الفور أحببته. كان خفره (نبل المراهقة هذا) قد أنقذ هيلينا وأنقذ ليالي

نومي خلال السنوات القادمة. كنت أنظر بامتنان بليد إلى أذنيه المنطلقتين من رأسه. نعم لقد أنقذ حياة هيلينا، ولكنه دفع ثمن ذلك إذلالاً هائلاً. كنت أعرف ذلك، وأعلم أيضاً أنه كان إذلالاً غير ضروري، دون أي معنى ودون ظل إنصاف: حلقة جديدة في سلسلة مالايمكن إصلاحه. أحسست بنفسي مذنباً ودفعتني حاجة ملحة (على الرغم من كونها غير محددة) إلى أن أركض إليها لإنقاذها من إهانتي لأنحني أمامها، لأحمّل نفسي كل خطأ هذه القصة المتوحشة توحشاً عابثاً وكل مسؤوليتها.

هتف بي الفتى بغتة: «ألم تر مافيه الكفاية؟». لم أجب، ومررت إلى جانبه لأمضي إلى الرواق. سرت نحو باب الباحة.

«ماذا تريد أن تفعل هناك؟». كان قد أمسك من خلف بكتفي، وكان يحاول أن يشدني إليه. اصطدمت نظراتنا خلال ثانية. أبعدت يده عن كتفي ضاغطاً على قبضته. دار حولي وسد عليّ الطريق. تقدمت نحوه وحاولت إبعاده. عند ذلك أطلق، ملوحاً بذراعه، قبضته إلى صدري.

كانت الضربة ضعيفة جداً، ولكنه قفز إلى الوراء لينتصب من جديد أمامي في وضعية ملاكمة سانجة. كان الخوف يمتزج في وجهه بجرأة غير واعية.

صرخ بي قائلاً: «ليس لديك ماتفعله قربها!» بقيت دون حراك: لن أستطيع دون شك إصلاح مالايمكن إصلاحه. رأى أني لم أردّ. زمجر قائلاً: «إنها تجدك عفناً! إنك تحملها على إفراغ أمعائها! لقد قالت لي ذلك! نعم، أنت تحملها على إفراغ أمعائها!».

لدى توتر الأعصاب يجد المرء نفسه طيعاً للدموع، ولكنه يكون طيعاً للضحك أيضاً. فالمعنى المجازي لكلماته الأخيرة كان قد جعل زاوية فمي ترتعش. أغضبه ذلك هذه المرة فأصابني في شفتي، وتجنبت بمشقة ضربة أخرى. ثم تراجع أيضاً كما لو كنا في حلبة

ملاكمة، وقد وضع قبضتيه أمام وجهه الذي لم تعد تُرى منه سوى أذنين كبيرتين مفرطتي التورد.

قلت له: «هيا! انتهى الأمر! أنا ذاهب».

صرخ بي أيضاً من الخلف، قائلاً: «جبان! جبان! كنت أعلم أنك متورط في هذا! لاتقلق، سأجدك! أيها الغبي القذر، الغبي القذر!».

خرجت إلى الطريق. كان خالياً كما تخلو الطرقات بعد العيد. لم تكن هناك سوى الريح التي كانت ترفع الغبار وتطرده أمامها فوق الأرض المسطحة الفارغة فراغ رأسي، رأسي الأجوف والمنهك الذي لم تظهر منذ وقت طويل فيه أية فكرة.

فيما بعد فقط انتبهت فجأة إلى أني كنت ما أزال أمسك بالأنبوب الفارغ الذي كتب عليه «الجينا». فحصته. كان مغطى بالوسخ: ينبغي أن يكون قد استُخدم، منذ وقت طويل، في تنكر ملينات الفتى.

وبعد برهة طويلة أخرى، ذكرني الأنبوب أيضاً بأنابيب أخرى، بأنبوبي مسكنات اليكسيج. وفهمت أن الفتى لم يُنقذ أبداً حياة هيلينا: فبعد كل شيء، حتى ولو كان الأنبوب يحتوي على الجينا، فإنه ليس بإمكانة أن يسبب لها سوى اضطراب في المعدة. وفضلاً عن ذلك، لم نكن أنا والفتى بعيدين. كان يأس هيلينا قد سوّى حساباتها مع الحياة على مسافة كافية من عتبة الموت.

18

كانت في المطبخ، فوق الفرن، مديرة ظهرها، كما لو أنّ شيئاً لم يحدث. وقد ردت عليّ دون أن تلتفت: «فلاديمير؟ لقد رأيته أخيراً بعينيك! فماذا بك لتسألني؟».

قلت لها: «أنت تكذبين. فلاديمير رحل هذا الصباح على دراجة حفيد كوتيكي. جئت لأقول لك إني أعلم ذلك. أعلم لماذا وافقك وجود تلك المرأة العاملة في الإذاعة. أعلم لماذا لم يكن ينبغي أن أكون هنا أثناء إلباس الملك ثيابه. أعلم لماذا كان يلتزم قاعدة الصمت حتى قبل أن يذهب ليأخذ مكانه في الكوكبة. لقد رتبت كل شيء جيداً جداً».

كان تأكدي قد أفقدها توازنها. ولكنها سرعان ماتمالكت نفسها وأرادت أن تتخلص بالهجوم. كان هجوماً طريفاً، طريفاً ولو لم يكن ذلك إلا لأن الخصمين لم يكونا متواجهين. أدارت ظهرها وانحنت فوق حساء المعجنات الذي كان يغلي. بدا صوتها هادئاً، كسولاً تقريباً، كما لو أن عدم فهمي وحده هو الذي يرغمها على أن تصوغ، بصوت مرتفع، بديهية قديمة ومألوفة. إذا أردت الاستماع إليها فليكن ذلك. منذ البداية كان فلاديمير قد نفر من لعب دور الملك، ولم يكن ذلك ليدهش فلاستا. ففي الماضي كان الفتيان في غير حاجة إلى أحد لصنع الكوكبة. أما الآن فإن ستاً وثلاثين منظمة، وصولاً إلى لجنة المنطقة الوطنية، تنشغل بذلك. لم يعد الناس اليوم يستطيعون أن يفعلوا وحدهم شيئاً عندما يرغبون في ذلك. يجب أن يدار كل شيء من أعلى. من قبل كان الفتيان هم الذين يعينون الملك. هذه المرة أوصي بفلاديمير من أعلى لإرضاء أبيه، وأرغم الجميع على الطاعة. فلاديمير من جانبه خَجِل لكونه ابن الوساطة. أبناء الوساطة لايحبهم أحد.

«تريدين أن تقولي أن فلاديمير يخجل بي؟ - كررت فلاستا

قائلة: لايريد أن يكون ابن الوساطة ومن أجل ذلك هو على هذه الصلة الوثيقة مع أسرة كوتيكي؟ مع هؤلاء الحمقى؟ مع هؤلاء البورجوازيين المحدودين؟ قالت فلاستا: نعم! من أجل هذا! لاحق لميلوس بالدراسة بسبب جده، لالشيء إلا لأن العجوز كان يملك مشروعاً، في حين أن الأبواب كلها مفتوحة لابننا فلاديمير، لسبب وحيد هو أنك أنت أبوه. هذا مربك للفتى. هل تفهم ذلك على الأقل؟»

لأول مرة في حياتي شعرت بالغضب منها. لقد خدعاني. كانا كلاهما قد راقباني ببرود، يوماً بعد يوم، أنتظر الكوكبة، لاحظا فراغ صبري وتحمسي. راقباني بهدوء، خدعاني بهدوء. «أكنتما في حاجة إلى خداعي بهذه الصورة؟».

كانت فلاستا تملح الحساء وتقول إن الأمر لم يكن سهلاً معي. كنت أعيش في عالمي، حالماً. إنهما لايكرهان مُثلي العليا، ولكن فلاديمير مختلف. أغنياتي الصغيرة كاللغة العبرية بالنسبة إليه، إنها لاتسليه، يجدها مضجرة. يجب أن أفهم. فلاديمير رجل حديث. أخذ ذلك عن أبيها. كان لديه هو حس التقدم. كان في الكومونة أول من اشترى جراراً منذ ماقبل الحرب، ثم صودر منهم بعد ذلك كل شيء. وعلى كل حال فإن حقولهم لم تعد تعطي بالقدر نفسه منذ أن تملكتها التعاونية.

«لاتهمني حقولكم! أريد أن أعرف أين ذهب فلاديمير؟ لقد ذهب إلى سباق الدراجات النارية في برنو. اعترفي!».

بقي ظهرها لي، وكانت تملح الحساء وتنصرف إلى ذلك بكليتها. فلاديمير كجده. له ذقنه وعيناه. وكوكبة الفرسان شيء كالعبري بالنسبة إليه. بما أني كنت أريد أن أعلم، فنعم، فلاديمير ذهب إلى السباق. ولِمَ لا؟ الدراجات النارية تهمه أكثر من المهور المزينة بالشرائط. لِمَ لا؟ فلاديمير رجل حديث.

دراجات، غيتارات، دراجات، غيتارات، العالم الأبله والغريب. سألتها قائلاً: «أرجوك، ماهو الرجل الحديث؟»

ظلت تدير ظهرها لي وتملح الحساء، وردت بأنه لولا قليل لما استطاعت ترتيب بيتها ترتيباً حديثاً. كم كررت من مواعظ بسبب عمود المصباح الحديث. وهذه الثريا الحديثة لم تكن تعجبني بدورها! إن ذلك كما لو لم يكن الجميع يعلمون كم هو جميل هذا المصباح الحديث! إن الناس يشترون منه في كل مكان.

قلت لها: «توقفي». ولكن إيقافها كان مستحيلاً. كانت منطلقة، وقد أدارت ظهرها، ظهرها الصغير، الشرير، النحيل. ربما كان هذا هو حقاً ما أغاظني أشد الغيظ، هذا الظهر، هذا الظهر الذي ليس له عينان، الظهر الواثق من نفسه بصورة حمقاء، هذا الظهر الذي لايتفق المرء معه. قررت إسكاتها، أن أديرها لتكون تجاهي. إلا أني كنت مشمئزاً منها. لم أكن أريد لمسها. سأصل إلى ذلك بطريقة أخرى. فتحت البوفيه وأمسكت بصحن. تركته يقع. بقيت صامتة، ولكنها لم تستدر. أمسكت بصحن آخر، وبصحون أخرى أيضاً، بقي ظهرها تجاهي وقد تكومت على نفسها. نعم كانت خائفة، ولكنها كانت قوية وترفض الاستسلام. كفت عن تحريك الحساء وضغطت، دون أن تتحرك، على طرف ملعقتها الخشبية كما لو أن ذلك سينقذها. كنت أكرهها، وكانت تكرهني. لم تكن تتحرك، ولم أرفع عيني عنها في حين كنت مستمراً في رمي قِطَعٍ أخرى، وأخرى من أدوات المطبخ من على الرف إلى الأرض. كنت أكرهها وأكره معها مطبخها، مطبخها المعياري الحديث، بأثاثه الحديث، بصحونه الحديثة، بكؤوسه الحديثة.

لم أحس بنفسي ثائر الأعصاب. كنت أنظر بوضوح ذهن، بحزن وتعب، إلى الأرض المغطاة ببقايا قدور وصحون متناثرة. ألقيت ببيتي على الأرض، بيتي الحبيب، ملاذي، بيتي الحبيب الموضوع تحت الرعاية الحنون لخادمتي الفقيرة، بيتي الذي كنت قد عمّرته بحكايات وأغانٍ وعفاريت طيبة. هذه هي الكراسي الثلاثة التي كنا نجلس عليها لتناول وجباتنا ظهراً، آه! هذه الغداءات الأسرية الوادعة التي كانت قد شهدت أباً مُرضعاً، سريع التصديق، موضع

مداهنة وخداع. أمسكت بالكراسي واحداً بعد الآخر وحطمت قوائمها، ثم وضعتها إلى جانب القدور والكؤوس المحطمة، وقلبت الطاولة فوقها. ظلت فلاستا ساكنة أمام موقدها دون أن تدير ظهرها.

خرجتُ من المطبخ لأذهب إلى غرفتي. كان فيها المصباح الوردي المعلق في الهواء وعمود المصباح والأريكة الحديثة البشعة. وكان على الهارمونيوم كماني في غمده الأسود. أخذته. لدينا، في الساعة الرابعة حفلتنا في حديقة المطعم. ولكني مازلت عند الساعة الواحدة، فأين أذهب؟

سمعت بكاء من جهة المطبخ. كانت فلاستا تبكي. نحيبها يمزق قلبي، وكنت في أعماقي أتوجع شفقة. ألم تستطع أن تبكي قبل عشر دقائق؟ كان يمكن أن أنصاع لوهمي القديم وأستعيد خادمتي الفقيرة. ولكن الأوان قد فات الآن فعلاً.

خرجت من المنزل. كان نداء الكوكبة يتردد فوق السقوف. لدينا ملك معوز ولكن ذلك زاده فضلاً. أين أذهب؟ كانت الطرق مشغولة بالكوكبة، والبيت بفلاستا، والحانات بالسكارى. ومكاني أنا أين هو؟ أنا الملك العجوز، المهجور والمنفي، ملك فاضل ومتسول، ملك دون خليفة، الملك الأخير.

مازالت هناك فرصة. فوراء القرية توجد الحقول، وعلى مسافة عشر دقائق توجد مياه المورافا. رقدت على الحافة وغمد الكمان تحت رأسي. بقيت زمناً طويلاً هكذا، ساعة وربما ساعتين، وتراودني فكرة كوني بلغت النهاية بهذا القدر من الفجائية والبعد عن التوقع. كان الأمر هكذا. لم أكن أرى استمراراً. لقد عشت دائماً في عالمين معاً. كنت أؤمن بتناغمهما، ولكن ذلك كان خدعة. أنا الآن منفي من أحد هذين العالمين من العالم الواقعي. لم يبق لي سوى الآخر، الخيالي. ولكن هذا، أي العالم الخيالي لم يكن يكفيني للعيش، حتى ولو كنت منتظراً فيه، وحتى ولو كان الفارّ من الجندية

يدعوني، حتى ولو كان مايزال يحتفظ لي بجواد ونقاب أحمر. أوه! هذه المرة، كنت أفهم هذا! كنت أعلم الآن لماذا كان قد منعني من أن أنزع نقابي بنفسي مفضلاً أن يروي لي كل شيء هو نفسه! الآن فقط اتضح لي لماذا يجب أن يكون الملك مقنّعاً! ليس ذلك من أجل ألّايراه الناس، بل من أجل ألّا يرى هو نفسه شيئاً!

كانت عودتي إلى الوقوف للسير أمراً لايمكن التفكير فيه بالنسبة إلي، لايمكن التفكير في أن أخطو خطوة واحدة. سوف يقلقون في الساعة الرابعة. ولكنني لم أكن أملك القوة على النهوض والذهاب إلى هناك. لاأحس بالراحة إلا هنا، هنا قرب النهر. هنا يجري الماء ببطء منذ ألوف السنين. ببطء يجري وأنا، ببطء ولزمن طويل، سوف أبقى ممدداً هنا.

بعد قليل كلمني أحدهم. كان لودفيك. لم أكن أنتظر ضربة جديدة. ولكنني ما عدت خائفاً. مامن شيء كان يستطيع أن يفاجئني.

جلس على العشب إلى جانبي وسألني عما إذا كنت سأذهب إلى حفلة بعد الظهر الموسيقية. سألته قائلاً: «هل يتفق أنك تريد أن تذهب إليها؟ ـ قال: نعم ـ ولهذا السبب جئت أنت من براغ؟ ـ قال: لا! ليس من أجل هذا ولكن الأمور تنتهي على خلاف مايُتوقع لها ـ قلت: نعم، خلاف ذلك تماماً ـ أتمشى منذ ساعة عبر الحقول. لم أكن أتصور أبداً أني سأجدك ـ ولا أنا. ـ قال بعد هذا: لي رجاء أتقدم به إليك». قال ذلك دون أن ينظر في عيني، كفلاستا تماماً. ولكن ذلك لم يكن يزعجني منه، بل كان بالأحرى لطيفاً. كنت أحدس فيه الخفر. وهذا الخفر كان يريحني ويشفيني. لقد قال: «لي رجاء أتقدم به إليك. هل تريد أن تدعني أعزف معكم الآن؟».

19

مازال هناك بضع ساعات قبل إقلاع السيارة. غادرت إذن القرية، مدفوعاً بقلقي، محاولاً طرد ذكريات اليوم من رأسي، وأنا بين الحقول. لم يكن ذلك سهلاً: كانت شفتي التي شقتها قبضة الفتى الصغيرة تحرقني، وكان طيف لوسي يذكرني أني، حيثما حاولت تسوية حساباتي مع الظلم، كنت أنا نفسي، في النهاية، من كشفتُ عنه كمسبب للأذى. طردت كل هذه الأفكار باعتبار أني كنت أعرف الآن جيداً، كل ماكانت تكرره دون انقطاع. سعيت إلى أن أحتفظ برأسي خالياً وألّا أُدخل فيه سوى النداءات البعيدة (التي ماتكاد أن تُسمع) للفرسان، وكانت موسيقى تحملني إلى خارج نفسي وتعزيني على هذا النحو.

كنت قد درت حول القرية بدائرة واسعة، عبر الدروب، ووصلت إلى ضفة الموراڤا التي سرت في محاذاتها. وكان، على الضفة الأخرى، بضع إوزات وغابة في الأفق، ولاشيء سوى الحقول خارج ذلك. ثم لاحظت، على مسافة ما أمامي، رجلاً راقداً على العشب عند الحافة. عندما اقتربت منه عرفته: كان ممدداً على ظهره، وجهه يواجه السماء وتحت رأسه غمد الكمان (ومن حولنا، كانت الحقول لامتناهية ومسطحة، الحقول نفسها الموجودة عبر القرون، ولكنها مخدوشة هنا بأعمدة فولاذية تحمل الأسلاك الثقيلة لخط توتر عالٍ). كان من السهل أن أتجنبه: كان يحدق في السماء ولايراني. ولكنه ليس هو الذي كنت أريد الهرب منه هذه المرة. اقتربت منه وتوجهت إليه بالكلام. رفع عينيه نحوي (كانتا تبدوان لي حيتين وخائفتين). ولاحظت (كنت أراه، من جديد، عن قرب للمرة الأولى منذ سنوات عديدة) انه لم يكن باقياً من الشعر الكثيف الذي كان في الماضي، يضيف بضعة سنتمترات إلى قامته الطويلة سوى باقة تباعدت أجزاؤها كثيراً مع ثلاث أو أربع خصلات طويلة وحزينة كانت

تحاول عبثاً أن تغطي جمجمته. ذكرتني هذه الشعيرات الهاربة بسنوات انفصالنا، وتأسفت فجأة على هذا الزمن، هذا الزمن الطويل الذي لم أره خلاله، الذي كنت أتجنبه فيه (كانت نداءات الفرسان التي لاتكاد أنْ تُسمع تصل من بعيد) وأحسست حياله فجأة باندفاعة حب مذنب. استند إلى مرفقه، متمدداً عند قدمي. كان طويلاً وأخرق، وكانت علبة آلته سوداء وصغيرة كتابوت رضيع. تذكرت أن فرقته (التي كانت أيضاً فرقتي في السابق) ستقدم حفلة في نهاية بعد الظهر، وطلبت منه أن يمكّنني من العزف معهم.

صغت هذا الطلب حتى قبل أن أزنه حقاً (كما لو أن الكلمات قد جاءت أسرع من الفكرة)، صغته إذن بخفة، ولكن من كل قلبي. فقد كنت، في الواقع، ممتلئاً حباً لهذا العالم الذي هربت منه في السابق، هذا العالم البعيد والقديم الذي يدور فيه الفرسان وملكهم حول القرية، والذي يرتدي الناس فيه القمصان المنشاة ويشدون بأغنيات، هذا العالم الذي يختلط، في نظري، بصورة المدينة التي وُلدت فيها، بصورة أمي (أمي المصادرة) وشبابي. كان هذا الحب قد كبر فيّ بصمت طيلة النهار، ليتفتح الآن قريباً من حد الدموع. كنت أحبه، أحب هذا العالم القديم، راجياً أن يمنحني ملاذاً.

ولكن كيف وبأي حق؟ ألم أكن، حتى قبل أمس، قد تجنبت جاروسلاف لأنه فقط كان يجسد، بالنسبة لي، موسيقى الفولكلور المثيرة للأعصاب؟ وهذا الصباح نفسه، ألم أقترب من العيد الفولكلوري بتوعك؟ من أين أتى هذا الامّحاء الفجائي للحواجز التي كانت قد منعتني، خلال خمس عشرة سنة، من التذكر السعيد لشبابي الذي أمضيته في أوركسترا السنبالوم، من العودات المنتظمة والمثيرة للانفعال إلى مدينتي؟ أكان ذلك لأني كنت قد سمعت، قبل بضع ساعات، زيمانيك يسخر من كوكبة الملوك؟ هل يمكن أن يكون هو الذي أوحى لي بالاشمئزاز من الأغنية الشعبية وأنه، هو أيضاً، الذي ردها الآن إليّ نقية؟ هل أكون مجرد عقب إبرة بوصلة يكون هو رأسها؟ هل أنا مرتبط به بدناءة؟ كلا! لم يكن تمكني من أن أحب

فجأة هذا العالم من جديد بفضل سخرية زيمانيك. كنت أستطيع أن أحبه لأني لقيته، هذا الصباح (بشكل غير متوقع)، في فقره، في فقره وفي وحدته خاصة. كان مهجوراً من الفخفخة والإعلان، ومهجوراً من الدعاية السياسية، من الطوباويات الاجتماعية، ومن جيوش الموظفين، مهجوراً من موالاة أبناء جيلي المصطنعة، ومهجوراً (أيضاً) من زيمانيك. هذه الوحدة كانت تطهره. كانت، وهي المليئة باللوم حيالي، تطهره كشخص لم يبق لديه وقت طويل، تنيره بجمال أخير لايقاوم. هذه الوحدة كانت ترده إلي.

كان يجب أن تقام الحفلة الموسيقية في حديقة المطعم الذي تناولت فيه، قبل قليل، غدائي وقرأت رسالة هيلينا. عندما وصلنا، جاروسلاف وأنا، وجدنا بضعة أشخاص مسنين قد أخذوا أمكنتهم فعلاً (ينتظرون، بصبر، بعد الظهيرة الموسيقي) وعدداً مماثلاً، تقريباً من السكارى الذين يتهادون من طاولة إلى أخرى. وفي العمق، كانت بعض الكراسي قد رُتبت حول شجرة زيزفون، واستندت آلة كونترباس ماتزال في كفنها الرمادي إلى الجذع. وعلى مسافة خطوتين، كان السنبالوم مفتوحاً، ورجل بقميص أبيض منشّى يمرر مطرقتيه الخفيفتين على الأوتار مصدراً أصواتاً مخففة. وكان بقية أعضاء الفرقة واقفين على مسافة قريبة، وقدّمهم جاروسلاف إليّ: عازف الكمان الثاني طبيب في المستشفى المحلي، عازف الكونترباس وهو مفتش الشؤون الثقافية للجنة الوطنية للمنطقة، عازف الكلارينيت (الذي سيتفضل بإعارتي آلته وأتناوب معه) معلم، وعازف السنبالوم مخطِط في المصنع. كانت فرقة مجددة بكاملها، باستثناء الأخير الذي كنت أتذكره. وبعد أن قدّمني جاروسلاف رسمياً، بدوري، بوصفي من رواد الفرقة، واحداً من مؤسسيها، أي عازف كلارينيت فخرياً، أخذنا أماكننا على الكراسي حول شجرة الزيزفون، وبدأنا نعزف.

لم أكن قد أمسكت الكلارينيت، بين يدي، منذ زمن طويل، ولكني سرعان ماتغلبت على وجلي، لأني كنت أعرف اللحن الذي بدأنا به،

بحيث أن الموسيقيين هتفوا، وقد أراحوا آلاتهم، بالثناء رافضين أن يصدقوا أني لم أكن قد عزفت منذ مدة طويلة. جاء، إذ ذاك، الخادم (نفسه الذي كنت قد سددت له، في حالة ذعر، حساب وجبة الظهر) ونصب تحت الأغصان طاولة وضع فوقها ست كؤوس خمر وزجاجة كبيرة مقششة. بدأنا نشرب على مهل. وبعد خمسة أو ستة ألحان، أشرت إلى المعلم. كرر، وهو يستعيد مني آلته، أني كنت أتدبر أمري بشكل رائع. ذهبت، مسروراً من هذا المديح، لأجلس مسنداً ظهري إلى جذع شجرة الزيزفون. كان الشعور برفاقية حارّة يملؤني، وشكرته لأنه جاء لمساعدتي في نهاية هذا اليوم الشاق. وهاهي لوسي تعود، من جديد، إلى الانبثاق أمام عيني، وظننت أخيراً أني أفهم لماذا ظهرت لي في صالون الحلاقة، ثم في الغد لدى كوستكا، في الرواية التي كانت أسطورة وحقيقة معاً: ربما أرادت أن تقول لي إن مصيرها (مصير فتاة صغيرة مدنسة) كان قريباً من مصيري، إننا فوتنا نحن الاثنين بعضنا دون شك، لأننا لم نستطع أن نفهم بعضنا، ولكن قصّتي حياتنا كانتا أخويتين ومتلاقيتين لأن كلتيهما كانتا قصّتيْ تدمير. فكما دُمر، في لوسي، الحب الجسدي وحَرم وجودها من قيمة أساسية، كذلك نُهبت من حياتي قيم كانت تريد الاستناد إليها وهي في الأصل بريئة، نعم بريئة: الحب الجسدي، على الرغم من تدميره في حياة لوسي، بريء، كما كانت بريئة أغاني بلادي وأوركسترا السنبالوم ومدينتي التي كنت أكرهها، وكذلك فإن فوسيك الذي كانت صورته قد أثارت اشمئزازي هو أيضاً بريء حيالي، وكذلك كلمة «رفيق» التي كانت قد ترددت فيّ كتهديدٍ، وكلمة مستقبل وكلمات كثيرة أخرى. كان الخطأ في مكان آخر، وهو من الكبر بحيث أن ظلّه كان يغطي بعيداً حولنا، كامل عالم الأشياء (والكلمات) البريئة ويدمرها حقاً. لقد كنا، لوسي وأنا، نعيش في عالم مدمر. ولأننا لم نعرف كيف نشفق عليه انصرفنا عنه، مُفاقمين على هذا النحو، بؤسه وبؤسنا. لوسي، أيتها المحبوبة بهذه القوة، أيتها المحبوبة بهذا القدر من الخطأ، أهذا ماجئت

لتقوليه لي بعد سنين؟ أجئت لتدافعي عن العطف حيال عالم مدمر؟

انتهت الأغنية، وأعاد المعلم إليّ الكلارينيت مصرحاً بأنه لن يلمسها هذا اليوم أبداً، وبأني أعزف بصورة أفضل منه وأستحق أن أحتفظ بها لأنه لايعلم متى سأعود إلى هنا. قلت، وقد التقطت إشارة جاروسلاف سريعاً، أني لم أكن أطلب ماهو أفضل من العودة في أبكر وقت ممكن. سألني جاروسلاف عما إذا كنت جاداً في هذا القول. فأومأت إيجاباً، وبدأنا اللحن التالي. لقد مضت برهة كبيرة على ترك جاروسلاف لمقعده. كان يسند كمانه، ورأسه مردود إلى الخلف، خلافاً لكل المبادئ، إلى موضع منخفض جداً من صدره. وكان، وهو يعزف، يروح ويجيء باستمرار. كنا، عازف الكمان الثاني وأنا، ننهض أيضاً في كل برهة، خاصة في كل مرة كنا نريد فيها أن نعطي الارتجال أكبر اندفاعة ممكنة. في هذه اللحظات التي تقتضي الخيال والدقة وتواطؤاً عميقاً، كان جاروسلاف يغدو روحنا جميعاً، وكنت أُعجب بالموسيقي المذهل المختبئ في هذا العملاق الذي كان أيضاً (وقبل كل الآخرين) بين قيم حياتي المُدمَرة. لقد سُرق مني، وكنت أنا (ياللخسارة والعار) الذي تركت نفسي أُسلب منه على الرغم من أنه ربما كان أخلص الرفاق، أكثرهم سلامة نية وبراءة.

وفي هذه الأثناء كان الجمهور قد تحول شيئاً فشيئاً. فقد أضيفت إلى الزبائن الذين لم يكونوا كثيفين جداً والذين ، منذ البداية، يستمعون إلينا بانتباه حار تماماً، مجموعة من الصبيان والبنات الذين طلبوا، إذ جلسوا إلى الطاولات الشاغرة، (بصرخات عالية) أكواب جعة أو خمراً. وكانوا (بقدر ما ترتفع موجات الكحول) يجتهدون في إبداء حاجتهم الوحشية إلى أن يكونوا مرئيين، مسموعين ومعترفاً بهم. لم يلبث الجو، إذ ذاك، أن تغير. أصبح أكثر صخباً وهياجاً (كان صبيان يتهادون بين الطاولات، يدعو كل منهم الآخر أو يصرخون على رفيقاتهم) إلى حد أنني فاجأت نفسي انظر أكثر مما ينبغي بكثير، ذاهلاً عن عزفنا، نحو الحديقة وأراقب، بعداء

صريح، وجوه الأغرار. أمام هذه الرؤوس ذات الشعور الطويلة التي كانت تبصق يميناً ويساراً وبمباهاة، نوافير لعاب وكلمات. كنت أحس بعودة لكراهيتي القديمة لعمر ماقبل النضج، وكان لدي انطباع بأني لاأرى سوى ممثلين أُلصقت عليهم أقنعة يُفترض فيها أن تمثل ذكورية حمقاء، فظاظة مدعية. ولم أكن أُعدّ الوجود الممكن، تحت القناع، لوجه آخر (أكثر إنسانية) ظرفاً مخففاً على اعتبار أن المخيف هو فعلاً كون الوجوه المقنّعة مكرسة، بشكل مجنون، لبربرية الأقنعة وابتذالها.

يجب الاعتقاد بأن جاروسلاف كان يشاطرني عواطفي لأنه خفض فجأة كمانه مفضياً إلينا بكونه لايستمتع أبداً بالعزف أمام مثل هذا الجمهور. أقترح أن نرحل. أن نمضي عبر الحقول، عن طريق الدرب الصغير كما كنا نفعل سابقاً. كان الجو جميلاً والغسق على وشك الحلول بين لحظة وأخرى، وسيكون المساء حاراً، وستكون هناك نجوم، وليس علينا سوى التوقف عند نسرينة، وسوف نعزف لأنفسنا وحدنا، لمتعتنا الخاصة، كما كنا نفعل في الماضي. وقد بدأ يمل من كوننا قد اعتدنا (عادة حمقاء) ألّا نعزف إلا في الحفلات المنظمة.

في البدء وافق الجميع بحماسة تقريباً، لأنهم هم أنفسهم كانوا يحسون بأن شغفهم بالموسيقى كان يقتضي جواً أكثر حميمية، ولكن عازف الكونترباس (مفتش الشؤون الثقافية) اعترض بعد ذلك، لأنه علينا بموجب الاتفاق كما قال، أن نعزف حتى الساعة التاسعة. وقد كان الرفاق في المنطقة، وكذلك مدير المقهى، يعتمدون على ذلك. لقد خطط للأمر هكذا، ويجب علينا بالتالي أن ننجز المهمة كما التزمنا بها وإلا اضطرب مجرى الاحتفالات، ويمكننا أن نعزف في الطبيعة مرة أخرى.

في هذه اللحظة أُضيئت المصابيح المعلقة على حبال طويلة ممدودة من شجرة إلى أخرى. وبما أن الظلام لم يكن قد حل بعد، والشمس ما كادت تهبط، فبدلاً من أن تنشر نوراً قوياً، كانت تبدو،

في الفراغ المائل إلى اللون الرمادي، كدموع كبيرة جامدة، دموع بيضاء لا يمكن مسحها ولا تستطيع أن تسيل. كان نوع من الذبول غير القابل للتفسير قد انقضّ على هذا النحو، ولم يكن أحد يستطيع أن يقاومه. قال جاروسلاف، أيضاً (شبه متوسل هذه المرة) إنه لم يعد يستطيع ويريد أن يمضي إلى الحقول، قريباً من النسرينة، لمتعته، ثم بدرت منه حركة إحباط، وأسند الكمان إلى صدره وتابع.

أخذنا الآن نعزف بخشوع أكثر مما في البداية، دون أن ننشغل بعد بالجمهور. وكلما زاد مناخ الحديقة انطلاقاً وفظاظة، وزاد في الإحاطة بلامبالاته الصاخبة، جاعلاً منا جزيرة صغيرة مهملة، زدنا غوصاً في أنفسنا وعزفنا إذن من أجل أنفسنا ناسين الآخرين، إذ كانت الموسيقى سوراً حامياً كنا فيه وسط السكارى الصاخبين، كأننا في قمرة من زجاج معلقة في أعماق المياه الباردة.

«لو كانت الجبال من ورق ـ لو تغير الماء إلى حبر ـ والنجوم إلى كتبة ـ لو أراد كل الناس أن يكتبوا ـ فلن يتوصل أحد ـ إلى أسفل طرف وصية حبي»، هكذا كان جاروسلاف يغني دون أن يبعد الكمان عن صدره، وكنت سعيداً بهذه الأغنيات (في قمرة هذه الأغنيات الزجاجية) التي لايكون فيها الحزن خفيفاً، والضحكة تكشيرة، والحب مضحكاً، والكراهية حيية، حيث يحب الناس روحاً وجسداً (نعم يالوسي روحاً وجسداً)، حيث ترقّصهم السعادة ويجعلهم اليأس يلقون بأنفسهم في الدانوب، حيث يبقى إذن الحب حباً والألم ألماً وحيث لم تدمّر القيم بعد. وكان يبدو لي أن في داخل هذه الأغنيات مَخرَجي، علامتي الأصلية، بيتي الذي كنت قد خنته ولكن ذلك زاد في كونه بيتي (على اعتبار أن أوجع الشكاوى ترتفع من البيت الذي خانه المرء). ولكنني كنت أفهم، في الوقت نفسه، أن بيتي هذا لم يكن من هذا العالم (ولكن، أي بيت هذا إن لم يكن من هذا العالم؟)، وكل ماكنا نغنيه لم يكن سوى ذكرى، سوى نصب الاحتفاظ الخيالي بما لم يعد موجوداً، وكنت أحس بأن أرض بيتي هذا تميد تحت قدمي وأني أنزلق، والكلارينيت بين شفتي، في عمق السنين

والقرون، في عمق دون قرار (حيث الحب حب والألم ألم)، وكنت أقول لنفسي بدهشة، إن بيتي الوحيد كان بالضبط هذا النزول، هذا السقوط الباحث والنهم، واستسلمت له ولنشوة دواري.

ثم نظرت إلى جاروسلاف لأتبين، من وجهه، ماإذا كنت وحيداً في نشوتي. ولاحظت (كان مصباح معلق على أغصان شجرة الزيزفون ينير وجهه) أنه كان شاحباً شحوباً غريباً. لم يكن يغني وهو يعزف، كان فمه مشدوداً، وأصبحت عيناه الخائفتان أكثر خوفاً أيضاً. كان ينشُز، ويده التي تمسك بذراع الكمان تميل إلى الانزلاق. ثم كف عن العزف، وانهار على كرسيه. اقتربت منه وأحد ركبتيّ على الأرض. سألته: «ماذا بك؟». كان يمسك بشدة بأعلى ذراعه الأيسر والعرق يسيل من جبينه. قال: «أشعر بألم مخيف». لم يكن الآخرون قد لاحظوا توعك جاروسلاف، وكانوا مغمورين في غيبوبتهم الموسيقية دون كمان أول ودون كلارينيت. كان عازف السنبالوم يصنع، مستفيداً من غياب هاتين الآلتين، العجب على آلته مدعوماً بالكمان الثاني والكونترباس فقط. اقتربت من عازف الكمان الثاني (الذي قدّمه إلي جاروسلاف بوصفه طبيباً) وسحبته نحو صديقي. لم يعد يُسمع سوى السنبالوم والكونترباس، في حين كان عازف الكمان الثاني يمسك بقبضة جاروسلاف اليسرى. واحتفظ بها طويلاً وطويلاً جداً في يده، ثم فتح أجفانه وفحص عينيه، ثم لمس جبينه الدبق. سألته: «القلب؟». أجاب جاروسلاف: «الذراع والقلب». كان لونه أخضر. أسند عازف الكونترباس، وقد انتبه، آلته على شجرة الزيزفون ولحق بنا بحيث لم يعد يسمع سوى السنبالوم وحده، لأن العازف عليه لم يكن يشعر بشيء ويعزف، بسعادة، منفرداً. قال عازف الكمان الثاني: «سأهتف إلى المستشفى». أمسكت به: «ماذا به إذن ـ نبضه كخيط. إنه يتعرق جليداً. من المؤكد أنها جلطة ـ قلت: تباً!» عزاني قائلاً، قبل أن يمضي مسرعاً إلى المطعم: «لاتخف! سينجو». كان الناس الذين يصطدم بهم أكثر سكراً من أن يلاحظوا حتى أن فرقتنا قد صمتت.

كانوا مشغولين بأنفسهم فقط، بجعتهم، بتفاهات وشتائم كانت قد أطلِقَت، في الطرف المقابل من الحديقة، مشاجرة.

وأخيراً سكت السنبالوم أيضاً، وأحطنا بجاروسلاف الذي نظر إلي وقال لي إن السبب هو بقاؤنا هنا، ما كان يريد البقاء، بل يريد أن نذهب إلى الحقول، خاصة لأني جئت، لأني عدت، كان يمكن حقاً أن نعزف في الهواء الطلق. قلت له: «لاتتكلم إلى هذا الحد، الهدوء هو الذي ينبغي لك»، وفكرت فعلاً أنه سينجو، دون شك، من هذه الجلطة، كما توقع عازف الكمان الثاني، ولكنها ستكون فيما بعد حياة متغيرة من أدناها إلى أقصاها، حياة دون إخلاص شغوف، دون عزف مستميت مع الأوركسترا، الشوط الثاني، شوط ثانٍ بعد الهزيمة. واجتاحتني فكرة مفادها أن مصيراً ما غالباً ما يُنجز قبل الموت حقاً، أن لحظة النهاية لاتتطابق مع لحظة الموت، وأن مصير جاروسلاف قد وصل إلى نهايته. داعبت، وقد غمرني أسف مخيف، رأسه القليل الشعر، شعيراته الطويلة الناعمة التي كانت تحاول بحزن أن تغطي صلعته، وتبينت بخوفٍ أن هذه السفرة إلى مدينتي التي كنت أريد أن أصيب فيها زيمانيك المكروه كانت تقودني، في النهاية، إلى أن أحمل بين ذراعي رفيقي المصروع، (نعم، كنت أرى نفسي، في هذه اللحظة، أمسك به بذراعيّ، أمسك به وأحمله، كبيراً وثقيلاً كما لو كنت قد حملت خطئي الخاص المبهم، كنت أرى نفسي أحمله من خلال حشد، كنت أرى نفسي أبكي).

بقينا حوله مايقرب من عشر دقائق، ثم عاد عازف الكمان الثاني إلى الظهور مشيراً إلينا. ساعدنا جاروسلاف على الوقوف، وغصنا معه، ونحن نسنده تحت إبطيه، في صخب الأغرار السكارى على الرصيف الذي كانت سيارة إسعاف تنتظر إلى جانبه وقد أشعلت كل أنوارها.

اكتملت في 5 كانون الأول 1965

توضيح من المؤلف

ذات يوم من عام 1961 ، ذهبت لرؤية أصدقاء في منطقة المناجم حيث سبق لي أن عشت. رووا لي قصة عاملة شابة اعتقلت وسُجنت لأنها كانت تسرق، من أجل عشيقها، زهوراً من المقابر. لم تبرحني صورتها، وراح يرتسم، أمام عيني، مصير امرأة شابة كان الحب والجسد، بالنسبة إليها، عالمين منفصلين. كان الجنس موجوداً، في نظرها، في الجهة المعاكسة للحب. وكانت تنضم صورة أخرى كطباق لصورة سارقة الزهور: فعل حب طويل لم يكن، في الواقع، سوى فعل كراهية رائع. وهكذا ولدت فكرة روايتي الأولى التي أنجزتها في كانون الأول 1965 وسميتها «المزحة».

محررو دار النشر البراغية التي كان يديرها اتحاد الكتاب أحبوها فوراً، لكن كان على المخطوط أن يُعرض على مكتب الرقابة. لاأعلم كم من مرة استُدعيتُ إليه، خلال سنة. وكانت تُطلب مني تعديلات عميقة واقتطاعات هائلة. كنت أرفض، كل مرة، أن أغير أي شيء. والأمر الطريف هو أن مطالب الرسميين راحت تتناقص من حديث إلى آخر. والقصة التي لاتكاد تصدق اليوم، هي أن العقلية الليبرالية، في الستينات، كانت تُفكِك، بقوة عدواها، النظامَ وتُشعر السلطة بالذنب بحيث أن المراقبين أنفسهم لم يكونوا يراقبون كما كان ينبغي. وأمام دهشة الجميع أُرسل المخطوط ذات يوم إلى المطبعة كما هو.

وما إن نشرت الرواية (كان ذلك في ربيع 1967) حتى استُقبِلت بحظوة شبه إجماعية، ومنحها اتحاد الكتاب التشيكيين جائزته لعام 1968 . ورأيت، وأنا المؤلف غير المعروف آنذاك، في فترة قصيرة، ثلاث طبعات تنفد بسرعة وعدد النسخ الإجمالي يبلغ 120 ألف نسخة. بعد سنة، قَلَب الغزو الروسي كل شيء. غُمرت «المزحة» بالشتائم خلال حملة صحفية طويلة، ومُنعت (مثل كتبي الأخرى) وسُحبت من المكتبات العامة.

في عام 1966 ، حين كان مصير المخطوط الذي أوقفته الرقابة مايزال غير مؤكد إلى حد بعيد، أخذ أنتونان ليم، أحد أكثر المثقفين التشكيين كوزموبوليتية، نسخة منه مطبوعة على الآلة الكاتبة وحملها، سراً، إلى أراغون في فرنسا. ويجب أن أذكّر هنا بشيء غير معروف كثيراً: فغالباً ما ساعد أراغون فناني الجانب الآخر من الستار الحديدي، بنشره مقالات تمتدح عرضاً مهدداً بالمنع، أو حول كاتب مضطهد. كانت مجلته الأسبوعيه «الآداب الفرنسية» (الصحيفة الثقافية الغربية الوحيدة التي كان يمكن شراؤها في البلدان الشيوعية) درعاً لهم. أتذكر، مثلاً، المقدمة التي كتبها أراغون للترجمة الفرنسية لرواية «ليلة مع هاملت» لفلاديمير هولان، الشاعر الذي لم يخرج أبداً، بعد الانقلاب الشيوعي عام 1948 ، من شقته البراغية التي انسحب إليها كما إلى دير. توجه ليم إذن إلى أراغون الذي أوصى به، لأنه لم يعرف كيف يقاوم إلحاحه، كلود غاليمار بكل سلطته، واعداً، دون أن يعرف روايتي (لم تكن قد تُرجمت بعد)، بمقدمة بدأ في كتابتها ـ تلك كانت المصادفة ـ في آب 1968، أيام غزو تشيكوسلوفاكيا. وهكذا وُلِد نص جميل جداً يحمل تشاؤماً متبصراً («وأرفض أن أصدق أنه ستحدث هناك بيافرا للفكر. ومع ذلك، فإني لاأرى أي ضياء في نهاية درب العنف هذا»)، نصّ هو تسوية حساب مع الشيوعية فريد في أعماله. إن هذا النص الذي احتفظت به، خلال ست عشرة سنة، كمقدمة لرواية «المزحة» لايقول شيئاً كبيراً عن كتابي، ولكنه كان مع مقال يونسكو الذي لايُنسى

والذي نشر في «الفيغارو» واحداً من الأقوال الهامة النادرة التي قيلت، في فرنسا، في موضوع تراجيديا براغ ويستحق ألّا يُنسى.

في شهر تشرين الأول 1968 ، دعاني كلود غاليمار إلى باريس من أجل صدور روايتي. عند ذلك، رأيت أراغون للمرة الأولى، في شقته في شارع فارين. كان هناك عالِم روسي عجوز وزوجته. ومثل كثير من أبناء البلدان الشيوعية، كانا يريان في أراغون ليبرالياً يمكن لنفوذه لدى سلطات بلدانهم أن يحمي المثقفين غير التقليديين. ألحا قائلين: «لاينبغي يالويس أن تقاطع روسيا. يجب أن تميز بين الشعب الروسي وحكومته! يجب أن تأتي أيضاً إلى روسيا!». أجاب أراغون رسمياً، منتشياً بالغضب الذي أوحى به إليه غزو تشيكوسلوفاكيا، مرفوع الرأس، يتمشى في طول الغرفة وعرضها: «حتى لو أردت أنا أن أذهب إليها، فإن ساقيّ سترفضان!». كنت معجباً به. وبعد بضع سنوات، قادته ساقاه بطاعة إلى موسكو حيث ترك نفسه يُقلَّد وساماً من بريجنيف، وبعد بضع سنوات أخرى قادته إلى منبر مؤتمر الحزب الذي كان يصفق لغزو آخر، غزو أفغانستان... وعلى كل حال، لم يكن لرواية «المزحة» أن ترى، دونه، النور في فرنسا، وكان يمكن لمصيري أن يتخذ طريقاً مختلفة تماماً (وأقل توفيقاً بكثير بالتأكيد). ففي البرهة التي كان فيها اسمي مشطوباً من الآداب التشيكية (وبشكل دائم بالتأكيد لأني لم أكن، «أرى أي ضياء في آخر درب العنف هذا»)، كان ظهور «المزحة» في منشورات غاليمار قد أطلق روايتي في العالم أجمع، بحيث أني حصلت (فجأة) بدلاً من القراء التشيكيين الذين خسرتهم (فجأة أيضاً) على قراء جدد.

في ذات يوم، من عام 1979 ، أجرى معي آلان فينكيلكروت مقابلة طويلة لجريدة «كورييري ديلاسيرا». قال لي: «إن أسلوبك المزهر والباروكي، في «المزحة»، أصبح مجرداً وصافياً في كتبك التالية. لماذا هذا التغيير؟» ماذا؟ أسلوب مزهر وباروكي؟ وهكذا

قرأت، للمرة الأولى، الترجمة الفرنسية لرواية «المزحة» (لم أكن قد اعتدت، حتى ذلك الحين، أن أقرأ ترجماتي وأضبطها. أما اليوم فإني للأسف أكرس لهذه الفعالية السيزيفية من الوقت أكثر مما أكرس للكتابة نفسها تقريباً). ذُهلت. فمنذ الربع الثاني خاصة لم يترجم المترجم (كلا، انه ليس فرانسوا كيريل الذي اهتم بكتبي التالية) الرواية، بل أعاد كتابتها.

1 ـ أدخل فيها (نعم!) حوالى مئة مجاز تجميلي (السماء كانت زرقاء عندي، أما عنده، فإن سماء من القضاب التشريني كانت ترفع رايتها الباذخة ـ كانت الأشجار ملونة عندي. أما عنده، فإن الأشجار كانت تفيض بتعدد من الألوان ـ بدأت تضرب الهواء حولها بغضب عندي أما عنده، فقد انطلقت يداها كطاحونة هواء محمومة ـ استولى عليّ الحزن عندي، أما عنده، فقد علقت في أنشوطة حزن عظيم ـ لوسي تصفح عندي، أما عنده، فهي تتصدق بصفحها ـ كانت هيلينا تقفز فرحاً عندي، أما عنده، فقد كانت تقفز في رقصة شيطانية الخ).

2 ـ لودفيك راوي في ثلثي الرواية، يعبر عن نفسه لدي بلغة رصينة ودقيقة. أما في الترجمة، فقد أصبح متحذلقاً متكلفاً يخلط بين العامية والحذلقات والكلمات المهجورة ليجعل خطابه، بأي ثمن، مسلياً (النساء عاريات عندي، أما في الترجمة، فهن يرتدين لباس حواء ـ ضربها بزجاجة على رأسها عندي، أما في الترجمة، فقد سدد إليها ضربة بالزجاجة على «ركوة القهوة» ـ قَلَبَ الطبيب جسد اليكسيج الميت عندي، أما في الترجمة، فقد قلبه كفطيرة ـ هارمونيوم يصدر سلسلة من الأصوات عندي، أما في الترجمة، فهو يصدر سلسلة من القرقرات ـ هيلينا تتحدث بصوت منخفض عندي، أما في الترجمة، فهي تهدل ـ قالت للودفيك، عندي: «لست متحذلقاً»، أما في الترجمة، فقد قالت له: «أنواع السلطات ليست اختصاصك الخ...). وبهذا الخطاب، تشوه طابع الشخصيات: فهيلينا أصبحت

غبية بصورة كاريكاتورية، ولم تكن لوسي سوى فتاة صغيرة ضائعة.

3 ـ كل التأملات عندي مضبوطة ضبطاً مدققاً، أما في الترجمة، فلم تكد تكون قابلة للفهم بسبب صيغ ملتوية («اللحظات الحاسمة في تطور الحب» أصبحت «عُقد الحب التي يجب تسلقها» ـ «قصتنا نحن الاثنين» أصبحت «النسيج الحدثي الذي حكناه معاً» الخ... الخ...)، وكذلك لأن المترجم اتبع، بصورة مبالغ فيها، قاعدة «الأسلوب الجميل» العتيدة التي تمنع تكرار الكلمة نفسها. لقد كرهت دائماً هذه القاعدة. التفكير الذي يريد أن يكون مضبوطاً لايستطيع أن يلعب بمترادفات. وفضلاً عن ذلك، فإن التكرار يعطي نصي إيقاعاً، لحناً زالا في الترجمة كلياً (كلود لوروا وحده انتبه في النقد الذي كتبه لمجلة «لونوفيل، أوبسرفاتور» إلى هذا الغياب المدهش للموسيقى في «المزحة»).

نعم، مازلت حتى اليوم شقياً بذلك، بالتفكير في أن «المزحة» كانت تعرض، خلال اثنتي عشرة سنة، في طبعات عديدة، عبر هذا اللباس المنحول...!

أعدت العمل، مع كلود كورتو[1]، طيلة شهرين، في الترجمة. وقد صدرت الترجمة الجديدة (المراجعة كاملة من جانب كلود كورتو والمؤلف) عام 1980 . وأعدت، بعد أربع سنوات، قراءة هذه الترجمة المراجعة. وجدت أن كل ماغيرناه وصححناه كان ممتازاً. ولكني اكتشفت للأسف كم فاتني من الاصطناعات والصيغ المنمقة وأنواع عدم الضبط والإبهام والمبالغات! وفي الواقع، لم تكن معرفتي للفرنسية، في ذلك العهد، على درجة كافية من الدقة، ولم يكن قد أمكن لكلود كورتو (الذي لايعرف التشيكية) أن يقوّم النص إلا في المواضع التي دللته عليها. فقد أتيت إذن على قضاء بضعة أشهر،

(1) كلود كورتو، مؤلف الرواية الرائعة «صباح الخير يا سيد كورتو» (إيليبور 1984) هو أحد هؤلاء الكتاب السريين الذي أكن لهم أعظم تقدير.

من جديد، في العمل على «المزحة». وقدمت لي السيدة كلودين ميال المكلفة، لدى منشورات غاليمار، بشؤون كتبي مساعدة لاتقدر بثمن ما كان يمكن، دون شك، بدونها، لهذه الصيغة النهائية أخيراً للترجمة (ترجمها عن التشيكية مارسيل ايمونان، راجعها كاملة كلود كورتو والمؤلف ـ الصيغة النهائية) أن ترى النور.

انتهت قصة «المزحة» بين براغ وباريس. في عام 1967 ، في الجو الليبرالي فعلاً لما قبل ربيع براغ، لم يُحدث كتابي أية ضجة سياسية. ولفهم الصورة التي أُدركت عليها هذه الرواية في بوهيميا، أستشهد، من الذاكرة، ببعض عناوين المقالات التي كُرست آنذاك لـ«المزحة» في المجلات التشيكية: «السخرية والحنين»، «الصيغة المضادة للسارترية للقصة الوجودية»، «رواية الوجود الإنساني»، «الفينومينولوجيا والرواية»، «هندسة المزحة». الاستقبال الذي لَقِيَتْهُ، في السنة التالية، في باريس، سرني وأحزنني معاً. لقد غُمرت روايتي بالثناء، ولكنها قُرئت بصورة سياسية وحيدة الجانب. ويقع الخطأ في ذلك على عاتق الظروف التاريخية لتلك البرهة (الرواية صدرت بعد شهرين من الغزو) ومقدمة أراغون (التي لم تتحدث إلا عن السياسة) والرجاء الذي قُدم لضمها إلى الترجمة (وهو مالم يكن بوسعه إلا أن يكسف الجانب الفني للرواية)، وكذلك على عاتق التحول التدريجي للنقد الأدبي الغربي إلى تعليق سياسي متعجل، خاضع لديكتاتورية الأخبار. إلا أن مجتري الأخبار نسوا، منذ وقت طويل، اليوم، ربيع براغ كما نسوا الغزو الروسي. والمفارقة هي أنه سوف تستطيع «المزحة»، بفضل هذا النسيان، أن تعود فتصبح، أخيراً، ماأرادت أن تكون دائماً: رواية ولاشيء غير رواية.

أيار 1980



الفهرس

القسم الأول: لودفيك 5

القسم الثاني: هيلينا 19

القسم الثالث: لودفيك 33

القسم الرابع: جاروسلاف 143

القسم الخامس: لودفيك 189

القسم السادس: كوستكا 241

القسم السابع: لودفيك، هيلينا، جاروسلاف 283

توضيح من المؤلف 361

من إصدارات الدار

* وليمة لأعشاب البحر	حيدر حيدر
* مرايا النار	حيدر حيدر
* غسق الآلهة	حيدر حيدر
* شموس الغجر	حيدر حيدر
* المخطوط القرمزي	أنطونيو غالا
* النبع الكبير	لطف الله حيدر
* سلالم الشرق	أمين معلوف
* القرن الأول بعد بياتريس	أمين معلوف
* البطء	ميلان كونديرا
* الخطة اللانهائية	إيزابيل ألليندي
* الحب الأول الحب الأخير	الطاهر بن جلون
* بيربرا يدّعي	أنطونيو تابوكي
* أحلام النساء الحريم	فاطمة المرنيسي
* الوله التركي	أنطونيو غالا
* بوّابة الجنّة	حسن سامي يوسف
* الهويّة	ميلان كونديرا
* الرجل المحطّم	الطاهر بن جلون
* ليلة الغلطة	الطاهر بن جلون